وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

على خُطا المتنبّي في أسْفارِه وأشعارِه

رحلة في التاريخ والجغرافيا والشعر

دراسات في الأدب العربي ٢٧

قاسم وهب



على خُطَا المتنبِّي

في أَسْفَارِهِ وأشعَارِهِ

رحلة في التاريخ والجغرافية والشعر



قاسم وهب

علـى خُطا المتنبِّـي

في أسفارِه وأشعَارِه

رحلة في التاريخ والجغرافية والشعر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

على خطا المتنبي في أسفاره وأشعاره: رحلة في التاريخ والجغرافية والشعر / قاسم وهب .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٣م .- ٣٧٦ ص ؛ ٢٤ سم.

(دراسات في الأدب العربي؛ ٢٧)

١ - ٩٢٨: أبو الطيب المتنبي و ٢ - ٨١١,٥٣٠٠٩ وهـ ب ع
٣ - العنوان ٤ - وهب ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات في الأدب العربي

«٢٧»

أَخــو هِمَــمٍ رَحَّالــةٌ لا تــزالُ بــي
نَوىً تقطعُ البيداءَ أو أَقطعَ العُمْـرا
وَمَـنْ كـان عزمـي بـين جَنْبيـه حَثَّـهُ
وصيَّر طـولَ الأرضِ في عينـه شِبْرا



m

يَصْعُبُ الفصلُ بينَ رِحْلَةِ المتنبِّي وسِيْرته؛ فرحلتُهُ سيرةٌ، وسيرتُه رحلةٌ. فهو جوّابُ آفاق، سَلَخَ مُعظَمَ سنواتِ عُمره متنقِّلاً من بلدٍ إلى آخرَ لا يَقَرُّ له قرارٌ، فَاتَّخذَ من ظُهورِ المطايا مُقاماً، ومن رِحالها أَرْضاً إذ يقول:

أَلِفْــتُ تَرحُّلــي وجَعَلْــتُ أرضــي　　قُتُــودي والغُرَيْــريَّ الجُــلالا[(١)]

فمــا حاولــتُ فــي أَرضٍ مُقَامــاً　　ولا أَزْمعــتُ عــن أرضٍ زَوالا[(٢)]

علــى قَلَــقٍ كــأنَّ الــريْحَ تحتــي　　أُوجِّهُهــا جنوبــاً أو شَــمالا

يقول الثعالبي في يتيمة الدهر:

«وكان كثيراً ما يَتَجشَّمُ أسفاراً بعيدةً أَبعدَ من آماله، ويَمْشي في مناكب الأرض، ويطوي المناهلَ والمراحلَ، ولا زادَ إلاَّ من ضربِ الحراب على صفحة المحراب[(٣)]، ولا مطيَّةَ إلاَّ الخُفَّ والنعل كما قال:

لا نــاقتي تَقبَــلُ الرديــفَ ولا　　بالسوطِ يــومَ الرِّهــانِ أُجهِـدُها[(٤)]

---

(١) القُتود: جمع قتد، وهو خشب الرّحل. والغُريريّ: المنسوب إلى غُرير فحل من الإبل كان في الجاهلية تُنسب إليه كِرامُ الإبل. والجُلال: العظيم.

(٢) أزمع الأمرَ، وأزمع عليه: مضى فيه، وثبت عليه عزمُهُ. يقول: ما طلبتُ الإقامة في أرضٍ لأني أبداً على سفر، ولا عزمتُ الرحيلَ عنها لأن الرحيلَ إنما يكون بعد الإقامة، ولا إقامة لي حتى أرحل.

(٣) المحراب هنا يراد به العنق.

(٤) المراد بالناقة هنا: نعله. والرديف: الذي يرتدف خلف الراكب. وأجهد الدابّة: حملها على السير فوق طاقتها.

شِـــراكُها كورُهـــا ومِـــشفَرُها زِمامُهـــا والشُّـــسُوعُ مِقْودُهـــا[1]

كما قال في الاعتدادِ بقدرته على الرحلة:

ومَهْمَـــهٍ جُبْتُـــه علـــى قَـــدَمي تَعْجِـــزُ عنـــه العَـــرامِسُ الـــذُّلُلُ[2]

بـــصارمي مُرْتـــدٍ بِمَخْبُرتـــي مُجْتـــزِئٌ بـــالظَّلامِ مُـــشْتَمِلُ[3]

تلك كانت حالُهُ مُنذ خروجه من العراق إلى بلاد الشام، وتطوافه في أرجائها إلى أن لَقيَ سيفَ الدولةِ؛ فَبَسَمَ له الحظُّ في كَنَفِهِ، وأَكرمه غايةَ الإكرام، وأَغدق عليه أَيَّما إغداق، فكان يُعطيه كلَّ عامٍ ثلاثةَ آلافِ دينار بالإضافة إلى ما كان يَمنحُهُ من عطايا وهباتٍ نفيسة.

ولكنَّ حُسَّادَهُ وشانِئيه من الشُّعراء وسواهم نَقِموا عليه؛ فبيَّتُوا له المكائدَ، وناصبوه العداءَ حتى فَرَّقوا بينه وبين سيف الدولة؛ فقصد مصر لعله يتمكَّنُ من تحقيق ما تصبو إليه نفسُه في كنف كافور الذي دعاه إليه مرَّتين وهو في دمشق. فلما بلغ الفُسْطاطَ أَنزله داراً فخمةً، ووكَّلَ به الخدمَ، وأَغْدقَ عليه المالَ ظنًّا منه أَنَّ ذلك يكفيه، ولكن أَبا الطيِّب لم يكن طامعاً بالمال فحسْبُ، وإنما كانت تتوقُ نفسُهُ إلى الولاية، وهو ما أَخاف كافوراً؛ فماطله حيناً، ولم يُجِبْهُ إلى طلبه. ثم منعه من الرحيل خوفاً من لسانه، وهو ما حمله على مغادرة الفُسطاط إلى الكوفةِ خِفْيةً دون وَداع!

---

(١) الشراك: سير النعل، وهو ما يُقَدُّ من الجلد مستطيلاً. والكور رحل الناقة. والمشفر من الناقة: بمنزلة الشفة من الإنسان. وزمامُ النعل: ما تُشَدّ إليه شسوعُها وهي السيور التي تكون بين الأصابع.

(٢) المهمه: الفلاة. جبته: قطعته. العرامس: النوق الصلاب الشديدة واحدتها: عرمس. الذلل: المذلَّله بالعمل.

(٣) الصارم: السيف. مرتدٍ: متقلّد. مجتزئ: مكتفٍ بمخبرتي: بمعرفتي.

ومن الكوفة توجَّه إلى بغداد، فلم يَطِبْ له فيها المُقام؛ فقصد أَرَّجان بدعوةٍ من ابن العميد وزير ركن الدولة، ثم استزاره عضدُ الدولة بشيراز، حيث لقي في كنفهما من الحفاوة والتكريم ما لم يحلمُ به شاعرٌ في زمانه. ولكن ذلك لم يُنْسِه غدرَ الزمان الذي اضطرَّه إلى مدح هؤلاء الملوك الذين يُملِّكهم «شيئاً يبقى ببقاء النَّيِّرين، ويُعْطُونه عَرَضاً فانياً» وهو على يقين بأنَّه الأجدرُ بالسيادةِ والمجد. لأنه في نظر نفسه خيرُ مَنْ تسعى به قَدَمُ....!

ولعله من نافل القول أن نُشيرَ إلى أن أبا الطيب آثر أَنْ يدوِّنَ رحلةَ عمره شِعْراً ضَمَّنه ما كان يَعْتَمِلُ في نفسه من هُمومٍ ومشاغلَ، وما عاينه من أحداثٍ ومشاهدَ، ولكنه لم يَسْتوفِ ما يُمكنُ أن تَلْحظَهُ عينُ الرحَّالةِ من أَحوال البلدان، وخَصائصها، وما يتَّصف به ناسُها من أَخلاقٍ، ومآثرَ، وعاداتٍ، ومعتقداتٍ، إلى غير ذلك من الانطباعات التي تستأْثرُ عادةً باهتمامِ الرحالين، وتدعوهم إلى إِعمالِ النظرِ في درسِ الأَماكن، وما تتميَّزُ به من خصائص؛ لذلك خطر لي - من قَبيل الفضولِ، أو من باب اللَّهو - أن أَترسَّم المسالكَ والطُّرقَ التي حَسِبتُ أن المتنبي سلكها في تَطْوافه، وأَنْ استعيدَ بعينَيْ زمانه، صُوَرَ الأمكنة التي أَلَـمَّ بها، أو أقام فيها معتمداً في تحديدها ووصفها على ما ورد في كتب المسالك والممالك، وفي كتب البلدان العائدة إلى زمن المتنبي، ثم شفعتُ ذلك بنماذج من قصائدهِ المتَّصلةِ بتلك الأماكن وبالأشخاص الموجَّهةِ إليهم(١)، في محاولة للجمع بَيْن الجغرافية والشعر، ولستُ على يقين من صواب ما أقدمتُ عليه، ولكنّ ما يُسوِّغ عملي هذا هو استحضار الأمكنة،

---

(١) اعتمدت في شرح النماذج الشعرية على شرح البرقوقي لتوفّره على معظم الشروح التي سبقته.

والدواعي التي أَلْهمت المتنبي قصائدَهُ، وآياتِه الخالدات. وإتماماً للفائدة لا بد من الإشارة إلى ما يلي[1]:

١- وُلِد أحمد بن الحسين الملقّب بالمتنبِّي في مدينة الكوفة سنة ٣٠٣هـ لأبٍ يُدعى الحسين الجُعْفيّ، والجعفي بطن من سعد العشيرة من مَذْحِجِ اليمانية التي استقرّ بعضُها في العراق إثر الفتح الإسلامي. أَمَّا أُمُّه فَهَمْدَانيَّة، وهَمْدان من القبائل اليمانيّة التي توطَّن فريقٌ منها في العراق بعد الفتوحات، وكان أبوه يعمل سَقَّاءً في الكوفة.

ماتت أُمُّهُ في وقتٍ مبكرٍ، فَرَبَّتْهُ جدّتُه لأُمه، وغمرته بعطفها وحنانها الذي لم يَنْسَهُ بمرور الأيام. وكانت هذه الجدَّة «من صُلحاء النساء الكوفيات».

تميَّز أبو الطيّب منذ نعومة أظفاره بذكاءٍ وقَّاد، وميلٍ إلى الدرس والتحصيل، وظهرتْ مواهبُهُ الشعرية في سِنٍّ مبكرة.

تلقّى تعليمه الأوليّ في كُتَّاب فيه أولادُ أَشرافِ الكوفةِ، فكان تلميذاً فقيراً بين رفاق أغنياء.

تأثَّر بالعقيدة الشيعيَّة التي أخذها عن أبيه، ولا يُستبعدُ تأَثُّرُهُ بالتعاليم القرمطية.

٢- غادر الكوفةَ بصحبة أبيه إلى بادية السماوة، وذلك سنة ٣١٣هـ على وجه التقريب، وله من العمر عشر سنين، فأقام فيها نحو سنتين ضيفاً على بني الصَّابي، وهم بَطْنٌ من جُشَم بنِ هَمْدانَ أَجدادِ المتنبّي لِأُمِّه، حيث أُتيح له في هذه الفترة تلقّي العربية من منابعها الأكثر أصالةً".

٣- عاد إلى الكوفة سنة ٣١٥هـ «بدويًّا قُحًّا»، فأقام فيها نحوَ سنةٍ.

٤- ارتحل إلى بغداد سنة ٣١٦هـ فأقام فيها نحوَ سنتين.

---

(١) في بعض التواريخ المدرجة خلاف أثبت المرجحَ منها.

٥- غادر بغدادَ سنة ٣١٨هـ متوجهاً إلى الجزيرة وشمالي الشام، فتنقَّل في بواديها وحواضرها حتى سنة ٣٤٦هـ. ومدح خلال هذه المدّة عدداً من أَعيانها وأُمرائها إلى أن انتهى إلى سيف الدولة بحلب حيث عاش في كنفه نحو تسع سنين، شارك خلالَها في معظم حروبه وغزواته.

٦- ارتحل من حلب إلى الفُسطاط سنة ٣٤٦هـ فأقام فيها أربع سنين وبضعة أشهر في كنف كافور الإخشيدي.

٧- غادر الفُسْطاطَ عائداً إلى الكوفة سنة ٣٥٠هـ، فوصل إليها في ربيع الأول سنة ٣٥١هـ، واستغرقتْ رحلةُ العودةِ نحوَ ثلاثةِ أَشْهُرٍ، ولم تَدُمْ إقامتُهُ فيها أَكْثَرَ من سنة.

٨- ارتحل إلى بغداد سنة ٣٥٢هـ، ثم عاد إلى الكوفة في أول شعبان من السنة نفسها.

٩- غادر الكوفةَ لآخر مرة متوجِّهاً إلى أَرَّجان من بلاد فارس في شهر محرّم سنة ٣٥٤هـ (كانون الثاني ٩٦٥م) بدعوةٍ من ابن العميد وزير ركن الدولة، فوافاها في شهر صفر من السنة نفسها، ولبث نحوَ شهرين في ضِيافة الوزير.

١٠- غادر أَرَّجان متوجِّهاً إلى شيراز في شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٤هـ تلبية لدعوةٍ من عَضُدِ الدولة البويهي؛ فبلغها في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٤هـ .

١١- غادر شيراز في شهر شعبان من السنة نفسها عائداً إلى العراق.

١٢- في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٥٤هـ قُتل هو ومن معه على يدِ عصابةٍ يقودُها فاتكُ ابن أبي جهل الأَسديّ، بالقرب من دير قُنَّى على الضّفّة الشرقية من نهر دجلة، وذهبت دماؤهم هدراً.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أتتبَّع خُطا المتنبّي في أسفاره وأشعاره، منذ خروجه من الكوفة إلى بادية السماوة سنة ٣١٣هـ حتى مصرعه وهو عائد من شيراز إلى بلده سنة ٣٥٤هـ. فإن حالفني شيءٌ من التوفيق، فهو بُغيتي، وإلاَّ فَحَسْبي قولُ الشاعر:

اليومَ أُجْهِدُ نفسي مـا وَسِـعْتُ لكـم

وهل تُكَلَّفُ نفسٌ فـوقَ مـا تَـسَعُ[1]

قاسم وهب



---

(١) البيت للأخطل من قصيدة يمدح بها بشر بن مروان.

كان الصبيُّ المدعو أحمد بن الحسين الجُعْفِيّ الملقَّب بالمتنبّي لاحقاً، قد بلغ العاشرة من العمر عندما غادر الكوفة سنة ٣١٣هـ بصحبة أبيه متوجهاً إلى بادية السماوة. وكانت الكوفةُ آنئذٍ من أهمّ مدن العراق.

الكوفة: وقيل سُميت الكوفةُ كوفةً لاستدارتها أَخْذاً من قول العرب: رأيتُ كُوفاناً وكَوْفاناً للرُميلة المستديرة. وقيل سُمّيت الكوفةُ كوفةً لاجتماع الناس بها، من قولهم: تكوَّف الرملُ. وذهبت جماعةٌ إلى أنها سُميّت كوفةً بموضعها من الأرض؛ وذلك أن كلَّ رملةٍ يُخالطها حَصْباءُ تُسمَّى كوفةً.

مُصّرت الكوفةُ في خلافة عمر بن الخطاب في السنة التي مُصّرت فيها البصرة، وهي سنة ١٧هـ وقال قوم: إنها مُصّرت بعد البصرة بعامين سنة ١٩هـ. فجُعِلت خِططُ أهل اليمن في الجانب الشرقي، وخطط نـزار في الجانب الغربي. وكانت منازلُهم في بداية أمرها تُبنى أخصاصاً من قصب؛ إذا غَزَوْا قلعوها وتصدَّقوا بها، فإذا عادوا بَنَوْها. فكانوا يغزون ونساؤهم معهم. وفي أيام المُغيرةِ بن شُعْبة[1] بَنَتِ القبائلُ بيوتَها باللَّبن من غير ارتفاع، ولم يكن لهم غُرَفٌ. فلمَّا كان في أيام إِمارة زياد[2] بنَوْا أبوابَ الآجرّ.

---

(١) المغيرة بن شعبة: (ت. ٥٠ هـ-٦٧٠م) صحابي ثقفي، من دهاة العرب وولاتهم، ولاّه عمر البصرة والكوفة. عزله عثمان، ثم ولاه معاوية الكوفة، ومات فيها.

(٢) هو زياد بن أبيه (ت ٥٣هـ-٦٧٣م) أمير من القادة الفاتحين، يكتنف الغموض نسبه، ناصر عليّاً، استدعاه معاوية بعد وفاة علي، وألحقه بنسبه، وولاّه الكوفة والبصرة. اشتهر بالخطابة، والكرم، وحسن الإدارة.

وفي النصف الأول من القرن الثالث الهجري كان فيها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومُضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لليمن، وبها قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ويُقال إنه بموضعٍ يلي زاوية جامعها، وأُخفيَ من أجل بني أُمية خوفاً عليه! وفي هذا الموضع دُكَّانُ عَلاَّف. ويزعم أكثر وَلَده أن قبره بالمكان الذي ظهر فيه على فرسخين من الكوفة، وقد شهَّر أبو الهيجاء عبدُ الله بنُ حمدان[١] هذا المكان، وجعل عليه حصاراً منيعاً، وابتنى على القبر قُبَّةً عظيمةً مرتفعةَ الأركان من كل جانب، ولها أبواب، وسَتَرها بفاخر الستور، وفَرشَهَا بثمين الحصر السامان، وسادات آل أبي طالب من خارج هذه القبة.

ولا يخفى أن الكوفة كانت في بدايات العصر العباسي مركزاً ثقافياً مهماً، وموطناً للعديد من أعلام اللغة والأدب، ولجمهرة من الشعراء المبرِّزين كأعشى هَمْدان[٢]، والكُميت بن زيد[٣]، ومطيع بن إياس[٤]، ومسلم بن الوليد[٥]، ودعبل الخزاعي[٦]، كما كانت معقلاً من معاقل الشيعة بالعراق.

---

(١) عبد الله بن حمدان: (ت٣١٧هــ- م٩٢٩م) أمير حمداني من قادة العباسيين، والد سيف الدولة، قتل في فتنة خلع المقتدر.

(٢) أعشى هَمْدَان: شاعر أموي من الفحول. (ت سنة ٨٣هـــ-٧٠٢م).

(٣) هو الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦هـــ-٧٤٣م) شاعر كوفي مدح بني هاشم وعرف بشاعر الهاشميين. وله ديوان الهاشميات.

(٤) مطيع بن إياس: شاعر محدث، مدح الوليد بن يزيد، والمنصور، امتاز شعره بالرقة والظرف والمجون توفي نحو سنة ٦٣ هــ-٧٨٣ م.

(٥) مسلم بن الوليد: شاعر عباسي، ولد في الكوفة، لقب بصريع الغواني، مدح هارون الرشيد، والبرامكة، أكثر من البديع في شعره، ولي البريد في جرجان توفي نحو سنة ٢٠٨ هــ -٨٣٢م.

(٦) دعبل الخزاعي: شاعر كوفي الأصل، سكن بغداد، تخرج على مسلم بن الوليد، اتصل بالرشيد، هجا بني العباس، كان يتشيع للعلويين، توفي نحو سنة ٢٤٦هـــ- ٨٦٠م.

الخروج إلى بادية السماوة:

هذه حال الكوفة عندما غادرها أبو الطيب المتنبي إلى بادية السماوة، حيث تُقيم فيها قبيلةُ بني كلب إحدى قبائل جنوبي الجزيرة العربية، وباديةُ السماوة أرض مستوية قفر تمتد بين الكوفة والشام، والسماوة ماءة بالبادية، لعلها سُمِّيت بها. قال جرير:

صحبتُ عمان الخيلِ رهواً كأنهـا قطاً هاج من فوق السـماوةِ ناهـلُ

استضاف المتنبي وأسرته بنو الصابي وهم بَطْنٌ من جُشَم بن هَمْدان أجداد المتنبي لأمه. ولم يكن هؤلاء القوم بمنأًى عن التأثُّر بتعاليم القرمطيَّة، التي يُرجّح أن الصبيّ لم ينجُ من التأَثُّر بها أيضاً؛ فظهرت جليَّةً في تلك الصرخات الشعرية التي تدعو إلى التمرّد والعنف، ذلك على الرغم من حرصه الشديد على عدم البوح بتأثره بتلك التعاليم.

العودة إلى الكوفة:

عاد الصبي إلى الكوفة بعد سنتين من الإقامة في البادية بدوياً قُحًّا، وكان قد أتمّ الثانية عشرة في سنة ٣١٥هـ. فسعى إلى إعادة الصلة بأترابه وأصحابه، كما حرص على إقامة علاقات جديدة. فاتصل بأبي الفضل الكوفي أحد المتفلسفة المتأثّرين بالفكر اليوناني، وامتدحه بإحدى قصائده التي يقول فيها:

كُفّي أَراني ويكِ لومَكِ أَلْوَما همٌّ أقام على فؤادٍ أَنْجَما(١)

وخيالُ جسمٍ لم يُخلِّ له الهوى لحماً فيُنْحِلُهُ السَّقامُ ولا دما(٢)

وخفوقُ قلبٍ لو رأيتِ لَهيبَهُ يا جنَّتي لظننتِ فيه جهنَّما

---

(١) كفي: دعي، واتركي . أراني: أعلمني، ويك: ويلك. أنجم: أقلع وذهب. والمعنى: يقول للعاذلة: اتركي عذلي، فقد أراني الهم المقيم على فؤادي الراحل مع الحبيب أن لومك إياي أحق بأن يلام مني.

(٢) أي لم يترك الهوى بجسمي محلاً من لحم ودم فيعمل فيه السقام.

إلى أن يقول:

غُصنٌ علــى نَقَــوَيْ فــلاةٍ نابــتٌ   شمسُ النهار تُقِلُّ لــيلاً مظلمــاً[1]

لم تُجمَــعِ الأضــدادُ فــي مُتَــشابهٍ   إلاّ لتجعلَنـــي لغُرمـــي مَغْنَمـــا[2]

كصفاتِ أَوْحَدِنا أبي الفــضل التــي   بهرت فــأَنْطَق واصــفيه وأَفحمــا

يُعطيـــك مبتـــدِراً فـــإن أَعجلْتَـــهُ   أعطاك معتذراً كمن قد أجرمــا[3]

ويرى التعظُّمَ أن يُــرى متواضــعاً   ويرى التواضعَ أن يُرى مُتَعظِّمــا[4]

يا أيُّها الملــكُ المــصفّى جــوهراً   من ذاتِ ذي الملكوت أسمى مَنْ سما

نـــورٌ تظـــاهر فيـــك لاهوتيُّـــهُ   فتكاد تعلمُ عِلْمَ مــا لــن يُعلَمــا[5]

ويهــمُّ فيــك إذا نطقــتَ فــصاحةً   من كــل عــضوٍ منــك أن يتكلَّمــا

أنـــا مبـــصرٌ وأظـــنّ أنـــي نـــائمٌ   مَنْ كان يحلُــم بالإلــه فأحلُمــا[6]

إن هذه المدحةَ في نظر بعض نُقَّاد شعره لا تعدو كونَها تملُّقَ شاعرٍ مدّاح يسعى إلى التقرُّبِ من ممدوحه أكثر مما يشاطره آراءه الفلسفية. ولكن ذلك لا يُخفي موهبته الشعرية الآخذة في البروز.

---

(١) نقوي: تثنية نقا وهو الكثيب من الرمل. تقلّ: تحمل.

(٢) يريد بالأضداد: ما ذكره في البيت السابق من دقة قامتها، وثقل ردفيها وبياض وجهها، وسواد شعرها.

(٣) يقول: إنه يبتدرك بالعطاء، فإن سبقته بالسؤال أعطاك واعتذر إليك عن تأخر عطائه، عن سؤالك كأنه أتى بجرم، أي ذنب.

(٤) أي يرى العظمة في التواضع، ويرى الضَّعةَ في التعاظم.

(٥) أي قد ظهر فيك نور إلهي تكاد تعلم به الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله سبحانه وتعالى.

(٦) يقول: أنا مستيقظ، ولكن لعظم ما أرى منك وغرابته أظن أني في الحلم، ثم عدل عن ذلك وقال: مَنْ يحلم بالإله حتى أحلم بك؟!

وفي تلك المرحلة أقبل الصبيُّ على دراسة الشعر الجاهلي والأُموي والعباسي، واصطفى من العصر الأخير كلاًّ من أبي تمام والبحتري لدوافع عزاها بعضُهم لسببين اثنين: أَوَّلُهما: أَدبيّ، وثانيها: قَبَليّ؛ إذ تجمعه بالشاعرين المذكورين رابطةُ الانتماء إلى عرب الجنوب. إذ كان يسودُ الاعتقاد بأَن العبقريةَ الشعرية العربية تكاد تكون وقفاً على اليمنيّين دون سواهم. هذا مع العلم بأن تلك المحاولات الشعرية الأولى تبدو ضئيلة القيمة من الناحية الفنية لافتقارها إلى الخبرة والنضج.

أدرك الصبيُّ أن واقع الحال في الكوفة، وما آلت إليه الأمور من عدم الاستقرار إثر الهجوم الثاني الذي شنَّهُ القرامطة على المدينة عام ٣١٥ هـ بقيادة أبي طاهر الجنابي[١] يدعو إلى التفكير الجدّي بالرحيل عن مسقط رأسه، فعزم على الذهاب إلى بغداد بصحبة أبيه، فتوجَّها إليها في أواخر عام ٣١٦ هـ في حين بقيت جَدَّتُه في الكوفة يؤرِّقها الانتظارُ والشوقُ إلى رؤية حفيدها.

التوجُّه إلى بغداد:

وصل أبو الطيب إلى بغداد في أواخر عام ٣١٦هـ ماراً بشاهي قرب القادسية، ثم بسوق أسد المنسوبة إلى أسد بن عبد الله القسري[٢]. فقصر ابن هبيرة المنسوب إلى يزيد بن عمر بن هُبيرة الذي ولي العراق من قبل مروان بن محمد، ثم جسر كوثى، فبغداد. حيث بقي فيها إلى نهاية عام ٣١٨هـ. وكانت الأوضاع العامة في عاصمة الخلافة تميل إلى الهدوء النسبي عقب مالحق بها من الذعر إثر ثورة القرامطة. ولكن أمور الخلافة لم تكن على ما يُرام؛ فالخليفة المقتدر لم يكن يُمسك بزمام الأمور؛ إذْ «أفضت الخلافةُ إليه وهو صغيرٌ، غِرّ

(١) أبو طاهر: (تـ ٣٢٢هـ ٩٤٤م). أشهر ملوك القرامطة في البحرين، هزم المقتدر، ودخل مكة، وأخذ الحجر الأسود سنة ٣١٧هـ -٩٣٠م.

(٢) أسد بن عبدالله القسري (ت سنة ١٢٠هـ-٧٣٨م) أمير عربي حكم خراسان في ولاية أخيه خالد للعراقين.

تَرِف، لم يُعانِ الأمورَ، ولا وقف على أَحوال المُلْك؛ فكان الأمراءُ، والوزراءُ والكُتَّاب يُدبِّرون الأمورَ، ليس له في ذلك حلٌّ لا عقد، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة. وغلب على الأمر النساءُ والخدم وغيرهم! فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعُدَد بسوء التدبير الواقع في المملكة؛ فأَدَّاه ذلك إلى سَفْك دمه، واضطربت الأمورُ من بعده، وزال كثيرٌ من رسوم الخلافة[1]».

أما بغداد فهي أُمُّ الدنيا، وسيّدةُ البلاد، وجنَّةُ الأرض، ومدينة السلام، وقُبَّة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الطرائف واللطائف، وبها أَرباب الغايات في كل فن، وآحادُ الدهر في كلّ نوع. وكان ابنُ العميد[2] إذا طرأ عليه أحدٌ من منتحلي العلوم والآداب، وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد؛ فإنْ فطن بخواصِّها، وتنبَّه على محاسنها، وأَثنى عليها جعل ذلك مُقدِّمةَ فضله، وعنوانَ عقله. ثم سأله عن الجاحظ، فإن وجد أثراً لمطالعة كتبه، والاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غُرَّة شادخة[3] في أهل العلم والآداب، وإن وجده ذامًّا لبغداد، غُفلاً عمّا يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التي يختصّ بها الجاحظ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن.

وأول من مصَّرها المنصور، وسمّاها مدينةَ السلام، وانتقل إليها من الهاشمية التي اختطَّها السَّفاحُ قُرْبَ الكوفة. وكان قد شرع في عمارتها سنة ١٤٥هـ ونـزلها سنة ١٤٩هـ بعد أن اختار لها موضعاً مناسباً تأتيه المادّة

---

(١) (التنبيه والإشراف ص ٩٧٧).

(٢) ابن العميد: أبو الفضل محمد (ت سنة ٣٦٠هـ) من أئمة الكتَّاب، شاعر وأديب، ولي الوزارة لركن الدولة البويهي - له رسائل وأشعار متفرقة.

(٣) شدخت الغرة: غشت الوجه من الناصية إلى الأنف. والمراد: أنه ذو مرتبة سامية في العلم والأدب.

من الفرات ودجلة، وجماعة الأنهار، ولا يَحمل الجندَ والرعيةَ إلاَّ مثله. فخطّ البناء، وقَدَّر المدينة، ووضع أَوَّلَ لَبِنَةٍ بيده. ووجَّه في حَشْر الصُنَّاع والفَعَلَة من الشام والموصل والجبل، والكوفة، وواسط، فأُحضِرُوا. وأمر باختيار قومٍ من أهل الفضل والعدالة والفقه، والمعرفة بالهندسة؛ فجمعهم وتقدّم إليهم أن يُشرفوا على البناء. ومما قيل في مدحها قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[(١)] عندما قُلِّد اليمن وأراد الخروج:

أَيرحَلُ آلِفٌ ويُقيم إلفُ ... وتحيا لوعةٌ ويموتُ قصفُ

على بغدادَ دارِ اللَّهو مِنِّي ... سلامٌ ما سجا للعين طرفُ

وما فارقتُها لِقلىً ولكنْ ... تناولني من الحِدْثان صَرْفُ

ألا رَوْحٌ أَلا فَرجٌ قريبٌ ... ألا جارٌ على الحدثانِ كهفُ

لعل زماننا سيعودُ يوماً ... فيرجِعَ آلفٌ ويُسَرَّ إلْفُ

فبلغ الوزير هذا الشعر فأعفاه. وقال محمد بن خلف النيرماني:

فدىً لكِ يا بغدادُ كلُّ مدينةٍ ... من الأرض حتى خُطَّتي ودياريا

فقد طُفت في شرقِ البلاد وغربها ... وسيَّرتُ خيلي بينها وركابيا

فلم أرَ فيها مثلَ بغدادَ منزلاً ... ولم أرَ فيها مثلَ دِجْلَةَ واديا

ولا مثلَ أهليها أرَقَّ شمائلاً ... وأَعْذبَ ألْفاظاً وأحلى معانيا

وقائلةٍ لو كان وُدُّكَ صافياً ... لبغدادَ لم ترحل فقلتُ جوابيا

يُقيمُ الرجالُ الموسرون بأرضهم ... وترمي النوى بالمُقترِينَ المراميا[(٢)]

---

(١) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (ت ٣٠٠هـ/٩١٣م) أمير من الأدباء الشعراء، من أهل بغداد، ولي شرطتها. وكان رفيع المنزلة عند المعتضد العباسي. له تصانيف. منها: الإشارة في أخبار الشعراء، والسياسة الملكية.

(٢) أقتر الرجل: قلَّ ماله فهو مُقتر. (عن معجم البلدان بتصرف).

ومما لفت نظر الفتى في عاصمة الخلافة مظاهرُ الترف والبذخ، وما يوفِّره المالُ لأصحابه من الجاه والمكانة المرموقة في عيون الناس. ومن طريفِ قولِهِ: «وردتُ في صباي من الكوفة إلى بغداد، فأخذتُ خمسة دراهم في جانب منديلي، وخرجتُ أمشي في أسواق بغداد، فمررتُ بصاحب دكان يبيع الفاكهةَ، فرأيتُ عنده خمسةً من البطيخ باكورةً؛ فاستحسنتُها، ونويتُ أشتريها بالدراهم التي معي، فتقدّمتُ إليه، وقلت: بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ؟ فقال بغير اكتراث: اذهب فليس هذا من أكلك! فتماسكتُ معه وقلت: أيها الرجل دع ما يُغيظ واقصد الثمن. فقال: ثمنها عشرة دراهم! فَلِشَّدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة؛ فوقفتُ حائراً ودفعتُ لهُ خمسة دراهم فلم يقبل! وإذا بشيخٍ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره، فوثبَ إليه صاحبُ البطيخ من دكانه، ودعا له، وقال له: يا مولاي هذا بطيخ باكور بإجازتك أحمله إلى منـــزلك؟ فقال الشيخ: ويحك بكم هذا؟ قال بخمسة دراهم، فقال بل بدرهمين، فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره، ودعا له، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل! فقلتُ له: يا هذا ما رأيتُ أَعجبَ من جهلك! استَمْتَ[1] عليّ في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنتُ قد أعطيتك في ثمنه خمسةَ دراهم، فبعته بدرهمين محمولاً! فقال: اسكت! هذا يملك مئة ألف دينار! فعلمت أن الناس لا يُكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مئة ألف دينار، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مئة ألف دينار[2]».

ولعل هذه الواقعة كانت سبباً في بخل المتنبي، وشدّة ضبطه للمال مع ما عُرف عنه من علوّ الهمة، وطلب الملك، ومدحه الكرمَ وأهله. وهو القائل:

ومن يُنفقِ الساعاتِ في جَمْعِ مالِـــه مخافةَ فقــرٍ فالَّــذي فَعَــلَ الفقــرُ

---

(١) غاليت في الثمن.

(٢) الصبح المنبي ص ٩٦.

وخلال إقامة أبي الطيب في عاصمة الخلافة التقى عدداً من علماء المدينة ولا سيما العالم اللغوي ابن دريد[١]، كما حاول التقرب من بعض الأشخاص المرموقين بمدائحه، ومنهم محمد بن عبيد الله أحد العلويين الكوفيين، وهو من أثرياء بغداد في زمانه فمدحه بقصيدته التي يقول فيها:

أهــــلاً بـــدارٍ ســـباكَ أَغيـــدُها … أبعـدُ مـا بـان عنـك خُرّدُهـا[٢]

ظَلْـتَ بهـا تنطـوي علـى كبـدٍ … نـضيجةٍ فـوق خِلْبهـا يَـدُها[٣]

إلى أن يقول:

مرتمياتٌ بنا إلـى ابـن عُبيــــ … ـدِ الله غيطانُهـــا وفدفـــدها[٤]

إلـى فتـىً يُـصدِرُ الرمـاحَ وقـد … أنهلهـا فـي القلـوبِ مُوردُهـا[٥]

لــــه أَيـــادٍ إلـــيَّ ســـابقةٌ … أُعَـــدُّ منهـــا ولا أُعـــدِّدُها[٦]

يُعطـــي فـــلا مَطْلَـــةٌ يُكـــدّرها … بهـــا ولا مِنَّـــةٌ يُنَكِّـــدها[٧]

خيـــرُ قـــريشٍ أبـــاً وأمجـــدُها … أكثرهـــا نـــائلاً وأجودُهـــا[٨]

---

(١) ابن دريد أبو بكر (٢٢٣-٣٢٠هـ - ٨٣٧-٩٣٣م) لغوي، وشاعر بغدادي، اشتهر بقصيدته المقصورة، وله الجمهرة في اللغة وهو أشهر المعاجم القديمة بعد كتاب العين للخليل بن أحمد الذي بدأه بحرف العين ولم يكمله.

(٢) سباه: أسره بحبه، والأغيد: الناعم المتثني ليناً. والخُرَّد: جمع خريدة وهي البكر التي لم تمس، أو الحيية.

(٣) ظلت: ظللت. خلب الكبد: غشاؤها.

(٤) الغيطان: ج غائط وهو المطمئن من الأرض. والفدفد: الأرض الغليظة المرتفعة أي إن هذه المفاوز غيطانها وفدفدها ترمينا إلى الممدوح بقطعنا إياها بالسير، فكأنها تلقينا إليه.

(٥) يصدر الرماح: ينـزعها بعد الطعن. والفتى هو ابن عبيد الله.

(٦) الأيادي: النعم. وقوله: أعد منها: يعني أنه ربيب إحسانه، ونفسه من جملة نعمه.

(٧) أي لا يمطل قبل العطاء، ولا يمنّ بعده. وينكدها: ينغصها.

(٨) النائل: العطاء.

أطعنُهـــا بالقنــــاةِ أضْـــربُها بالــسيف جَحْجاحُهـــا مُــسوَّدُها[1]

أفرسُـــها فارســـاً وأطولُهـــا باعـــاً ومغوارهـــا وســـيّدها

تـــاجُ لـــؤيّ بـــن غالـــبٍ وبـــه سَـــمَالهُ فَرعُهـــا ومَحْتِـــدُها[2]

لم يستطع أبو الطيب في هذه القصيدة إخفاءَ ميله لآل البيت، وتقربه إليهم.

التوجُّه من بغداد إلى الجزيرة وشمال الشام:

لم يُقم أبو الطيب في بغداد طويلاً بل تركها نحو سنة ٣١٨هـ-٩٣٠م وكان يومئذٍ في الخامسة عشرة - ميمّماً شَطْرَ الشام. وعلى الرغم من أن ظروف هذا الإقليم لم تكن آنذاك تُتيح لحكامها المؤقَّتين القدرةَ على حماية الأدب والأدباء؛ فإن أبا الطيب عزم على التوجه إليه آملاً أن يجد في حواضره وبواديه من يقدّر موهبته ويرعاها، خلافاً لبغداد التي يكثر فيها منافسوه ممّن هم أرسخ قدماً منه في صناعة الشعر.

الخروج من بغداد:

خرج الفتى من بغداد بصحبة أبيه متجهاً إلى الجزيرة وشمال الشام؛ فكان عليه أن يسلك الطريق المؤديةَ من دار السلام إلى الرقة. فمرّ بالبَرَدان وهي قرية من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها من نواحي دُجيل، وهي التي قال فيها جحظةُ البرمكي[3]:

ادفع بـــرودَ الهـــمِّ عنـــك بقهـــوةٍ مخزونـــةٍ فـــي حانـــةِ التُجَّـــارِ

جازت مدى الأَعمار فهـــي كأنهـــا عند المـــذاق تزيـــد فـــي الأعمـــار

---

(١) الجحجاح: السيد الشريف. والمسوَّد: الذي سوَّده قومه.

(٢) لؤي: أبو قريش، أي هو لهم بمنـــزله التاج. والمحتد، الأصل.

(٣) جحظة: هو أحمد بن جعفر بن موسى البرمكي، من بقايا البرامكة، وحفيد يحيى بن خالد. أديب. نديم. مغن. من أهل بغداد. لقبه عبد الله ابن المعتز بهذا اللقب، كان مليح الشعر، حاضر النادرة. ولد ومات في بغداد (٢٢٤-٣٢٤هـ-٨٣٩-٩٣٦م)

في رقَّـةِ البَـردان بـين مـزارعٍ   محفوفـةٍ ببنفسجٍ وبهـارِ

بلـدٌ يُـشبَّهُ صـيفُه بخريفـه   رَطْبُ الأصـائل بـاردُ الأسـحارِ

ومن البردان توجّه إلى عُكْبَرا، وهي بُليدة من نواحي دُجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، وفيها يقول البحتري:

ولما نـزلنا عُكْبَـراء ولـم يكـن   نبيذٌ ولا كانت حـلالاً لنـا الخمـرُ

دعونا لهـا بِـشْراً ورُبَّ عظيمـةٍ   دعونا لها بِـشْراً فأصـرخنا بـشْرُ

ومن عُكبَرا يصعد الطريق إلى القادسية مروراً ببلدة تُدعى باحَمْشَا، والقادسية هذه غير القادسية التي جرت فيها المعركة بين المسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب سنة ١٦هـ، وإنما هي قريةٌ كبيرة من نواحي دُجيل بين حَرْبَى وسامُرَّا يُعمل بها الزجاج، وفيها يقول جحظة:

إلى شاطئ القاطول بالجانب الـذي   به القصرُ بين القادسـيّةِ والنخـلِ

ومن القادسية يصعد الطريق إلى سامُرَّا تلك المدينة التي بناها المعتصم بعد أن ضاق أهالي بغداد بمماليكه الأتراك الذين مدُّوا أيديهم إلى حُرم الناس، وسعوا فيها بالفساد، ولم تزل هذه المدينة في صلاح وزيادة عمارة منذ أيام المعتصم والواثق إلى آخر أيام المنتصر ابن المتوكل. فلما ولي المستعين، وقويت شوكةُ الأتراك. واستبدُّوا بالملك والتولية والعزل، وانفسدت دولة بني العباس، لم تـزل سُرَّ من رأى في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبيّة التي كانت بين أمراء الأتراك، إلى أن تركها المعتضد، وانتقل إلى بغداد؛ فخربت المدينة. فالمارّ بها بعد ذلك يرى دوراً كأن اليد رُفعت عنها للوقت، ولم تعدم إلاّ الأبواب والسقوف. ولم يبق منها سوى مقدار قرية يسيرة في وسطها مع أن بناءها ممتدّ أكثر من ثمانية فراسخ.

وكان ابن المعتز[١] اجتاز بسامُرَّا، وقد استدبر أمرها، فجعلت تُنقَضُ وتُحْمَلُ أنقاضُها إلى بغداد، ويُعمَّر بها فقال متأسفاً عليها:

قد أقفرت سُرَّ مـن رأى ومالـــــــشيءٍ دوامُ

فـالنقضُ يُحمـلُ منهـا كأنهـــا آجـــامُ

ماتــت كمـا مـات فيـلٌ تُــسلُّ منـــه العظـــامُ

وكتب إلى صديقٍ له يمدح سُرّ من رأى، ويصف خرابها، ويذمُّ بغداد وأهلها، ويفضّل سامُرَّا:

كتبتُ إليك من بلدةٍ قد أنهض الدهرُ سُكّانَها، وأَقعد جدرانَها، فشاهدُ اليأس فيها ينطق، وحبل الرجاء فيها يقصر. فكأن عمرانَها يُطوى، وكأن خرابَها يُنْشَر. وقد وكّلت إلى الهجر نواحيها، واستحثّ باقيها إلى فانيها. وقد تمزّقت بأهلها الديار؛ فما يجب فيها حَقُّ جوار. فالظاعن منها ممحوّ الأثر، والمقيم فيها على طرف سفر. فحالها تصف للعيون الشكوى، وتشير إلى ذم الدنيا بعدما كانت بالمرأى القريب جنّة الأرض، وقرار الملك. وما زال الدهر مليئاً بالنوائب، طارقاً بالعجائب، يؤمن يومه، ويغدر غدره. على أنها وإن جُفيت معشوقةُ السكنى، وحبيبةُ المثوى، كوكبُها يقظان، وجَوُّها عُريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطّر، وترابها مسكٌ أذفر... لا كبغدادكم الوسخةِ السماء، الوَمِدةِ الهواء[٢]. جوُّها نار، وأرضها خَبار[٣]، وماؤها حميم[٤]،

---

(١) هو عبد الله بن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ- ٨٦١-٩٠٩م) أبو العباس، الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة، ولد في بغداد، وأولع بالأدب، صنف كتباً كثيرة. مات مقتولاً (خنقه مؤنس الخادم).

(٢) الومد: الحار.

(٣) الخبار من الأرض: ما لان واسترخى، وساخت فيه قوائم الدواب. ومنه المثل: من تجنب الخبار أمن العثار.

(٤) الحميم: الحار..

وترابها سرجين[١]، وحيطانُها نَــزُوز[٢]، وتشرينها تَمُّوز. فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من عَرِق. ضيّقة الديار، قاسية الجوار، ساطعة الدخان، قليلة الضيفان، أهلها ذئاب وكلامهم سباب..... إلى أن يقول:

غدت سُرَّ مَنْ را في العَفاء فيالهــا قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنــزلِ[٣]

وأصــبح أهلوهــا شــبيهاً بحالهــا لما نسجتهمِ مــن جنــوبٍ وشــمألِ

إذا ما امرؤ منهم شكا سوءَ حالِــه يقولــون لا تَهلِــك أســىً وتجمّــلِ

وبسامُرَّا قبر الإمام علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر، وابنه الحسين بن علي العسكريين[٤]، وبها غاب المنتظر في زعم الشيعة الإمامية، وبها قبور الخلفاء: الواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمعتــز، والمهتدي والمعتمد ابن المتوكل[٥].

ويلي سامُرَّا كَرْخُ فيروز، أو كرخ سامُرَّا. وهو أقدم من سامُرّا فلما بُنيت سامُرّا اتَّصل بها، وهو باقٍ عامر، وخربت سامُرَّا. وبه قصر أشناس التركي مولى المعتصم.

ثم يصعد الطريق ماراً بــ جبلتا، والسودقانية، وبارِمّا، والسِنّ، فالحَدِيثة، وهي التي تُعرف بحديثة الموصل. وهي بُليدة على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى. ويُقال: إنها كانت قصبة كورة الموصل، وإنما

---

(١) السرجين: الزبل

(٢) نــزوز: كثير النــزّ، وهو ما يتحلب منه الماء.

(٣) العفاء: الزوال والهلاك.

(٤) علي بن محمد (الجواد) (٢١٤ ٢٥٤هـ - ٨٢٩-٨٦٨م) الإمام العاشر عند الشيعة، ولد في المدينة وتوفي بسامراء. أما ولده فهو الحسن بن علي وليس الحسين (٢٣١-٢٦٠هـ-٨٤٥-٨٧٣م) الإمام الحادي عشر للشيعة، ولد في المدينة، وتوفي بسامراء.

(٥) عن معجم البلدان بتصرف.

أحدثها مروانُ بنُ محمد[1]، وسُمّيت الحديثة حين تحوّل إليها من تحوّل من أهل الأنبار أيام الحجاج بن يوسف[2]، وهي غير حديثة الفرات القريبة من الأنبار.

ثم يلي الحديثة مدينة **المَوْصل**، إحدى قواعد بلاد الإسلام. وهي مدينة قليلة النظير كِبَراً وعِظَماً وكثرة خلق، وسعة رقعة. فيها محطّ رحال الركبان، ومنها يُقصد إلى جميع البلدان. فهي باب العراق، ومفتاح خُراسان، ومنها يُقصد إلى أذربيجان. وقالوا: بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيسابور لأنها بابُ الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والمَوصِل لأن القاصد إلى الجهتين قلَّما لا يمرّ بها. وقالوا: سُمّيت المَوْصِل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق. وقيل: وصلت بين دجلة والفرات. وهي مدينة قديمة على طرف دجلة يقابلها من الجانب الشرقي نينوى. ويقال: إن أول من عظَّمها وألحقها بالأمصار العظام، وشق طرقاتها، وبنى عليها سوراً مروانُ بن محمد آخر ملوك بني أمية.

فالموصل مدينة صحيحة الهواء، عذبة الماء، وليس لها عيب إلاّ قلّة بساتينها، وعدم جريان الماء في رساتيقها، وشدّة حرها في الصيف، وعظم بردها في الشتاء. أما بناؤها فحسن وثيق، يُبنى بالنَّورة والرخام، ودورهم كلُّها آزاجٌ وسراديب مبنية، ولا يكادون يستعملون الخشب في سقوفهم البتة.

ثم يلي المَوْصِل في الطريق إلى الرقة مدينة بَلَد، وهي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً. يمر المسافر عبرها بعدد من القرى والبلدان مثل: باعيناثا، وبرقعيد، وأذرمة، وتل فراشة، إلى أن يصل إلى نَصِيبين.

---

(١) مروان بن محمد (٧٢-١٣٢هـ - ٦٩٢-٧٥٠م) آخر خلفاء بني أمية في الشام هزمه العباسيون في معركة الزاب، قتل في مصر.

(٢) الحجاج بن يوسف (ت ٩٥هـ -٧١٤م) قائد وخطيب عربي، ولاّه عبد الملك بن مروان إمرة جيشه فقضى على عبد الله بن الزبير، ثم تولّى مكة والمدينة والطائف والعراق: أسهم في توطيد ملك بني أمية.

ونَصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام. وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان. ولكنها مدينة وَبئة لكثرة بساتينها ومياهها. ولا بد لقاصد الرقة من نصيبين من المرور بدارا وهي بلدة في لُحْف جبل بين نصيبين وماردين ذات بساتين ومياه جارية. ومن أعمالها يُجلب المَحْلَب الذي تتطيَّب به الأَعراب. ويلي دارا كفرتوثا وهي قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ. تليها رأسُ عين وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حَرَّان ونَصِيْبين. وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور. وأشهر هذه العيون أربع: عين الآس، وعين الصَّرار، وعين الرياحيَّة، وعين الهاشميّة. ثم يلي رأس العين: الجارود، وحصن مسلمة، وباجروان، فالرقة. **والرقة** مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حَرَّان ثلاثة أيام. وتعدُّ من بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، وفيها يقول ربيعة الرقّي:

حبذا الرقةُ داراً وبَلَد ... بلدٌ ساكنُهُ مِمَّن تودّ

ما رأينا بلدةً تعدِلُها ... لا ولا أخبرنا عنها أحدْ

إنها بريّةٌ بحريّةٌ ... سورها بحرٌ وسورٌ في الجَدَدْ[1]

لم تُضَمَّن بلدةٌ ما ضُمِّنت ... من جمالٍ في قريشٍ وأسدْ

في منبج:

ثم يلي الرقة في الطريق إلى منبج قرية دَوْسَر وهي من قرى الفرات قرب صفِين، ثم داقين، فجسْر منبج. ثم منبج. ومنبج بلدة قديمة. قيل: إن أول من بناها كسرى لما غلب على الشام وسماها مَنْ بَهْ أي أنا أَجُود، فعُرِّبت فقيل لها: منبج. والرشيد أول من أَفرد العواصم وجعل مدينتها مَنْبِج، وأسكنها عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله ابن

---

(١) الجَدَد: الأرض المستوية.

عباس[١]. وهي مدينة كبيرة واسعة، ذات خيرات كثيرة، وأرزاق واسعة، في فضاء من الأرض، عليها سور مُحْكَم مبنيّ بالحجارة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ. شربُهم من قُنيٍ تَسيحُ على وجه الأرض، وفي دورهم آبار أكثر شربهم منها، لأنها عذبة صحيحة. ومنها البحتري الشاعر، وله بها أملاك. وفي هذه البلدة اتصل الشاعر الفتى بعدد من الرؤساء والأعيان من بدو وحضر. ولم يُخفِ ميله إلى اليمنيين منهم. وممَّن التقاهم لأول مرة في منبج الأمير سعيد بن العباس سيد بني كلاب الضاربين على الضفة اليسرى من الفرات تُجاه منبج، وكان آنئذٍ والياً عليها، وقد غالى في مدح هذا الأمير غُلوّاً كبيراً فهو يقول:

أحيا، وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلا … والبينُ جارَ على ضعفي وما عدلا[٢]
والوجدُ يقوى كما تقوى النوى أبداً … والصبرُ يَنْحَلُ في جسمي كما نَحَلا[٣]
لولا مفارقةُ الأحباب ما وجدت … لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

إلى أن يقول:

عَلَّ الأميرَ يرى ذُلِّي فيشْفَعَ لي … إلى التي تركتني في الهوى مَثَلا
أيقنتُ أن سعيداً طالبٌ بدمي … لما بَصُرتُ به بالرمح مُعْتَقِلا[٤]
قَيْلٌ بمنبجَ مثواهُ ونائلُه … في الأفق يسأل عمَّن غيره سألا[٥]

---

(١) عبد الملك بن صالح (ت ١٩٦هـ-٨١١م) أمير عباسي ابن عم السفاح والمنصور، كان من أفصح الناس وأخطبهم، ولاه الهادي إمرة الموصل وعزله الرشيد، ثم ولاّه المدينة فمصر، فدمشق، ثم سجنه. أطلقه الأمين، وتوفي بالرقة.

(٢) يقول: أقل وأهون ما قاسيت قاتل، وأنا مع ذلك أحيا.

(٣) أي إن الصبر يضعف ويقل كما يضعف جسمي.

(٤) أي إن الممدوح يطلب بدمي إذا سفكته الحبيبة، فيأخذ ثأري منها.

(٥) القيل: الملك بلغة حمير. إن عطاء هذا الملك يطوف في الآفاق يسأل عمن يسأل غيره من الناس.

يلوح بَدْرُ الدجى في صحن غُرّتـــه ... ويحمل الموتَ في الهيجاء إن حملا[1]

هو الأميرُ الذي بـــادت تمـيمُ بــه ... قِدْماً وساق إليهـا حَينُها الأَجَـلاَ

فقد تركتَ الأُلـــى لاقيــتَهم جَـزَراً ... وقد قتلت الأُلى لم تلقهـم وَجَـلا[2]

كما مدح أبا شجاع محمد من بني أوس بن معن بن الرَّضا، وهم رهط من طيّئ مقيمون في منطقة منبج حيث يقول:

أَرَقٌ علـــى أرقٍ ومثلـــيَ يـــأْرَقُ ... وجــوىً يزيــدُ وعَبْــرةٌ تترقــرقُ

جُهدُ الصبابةِ أن تكــون كمـــا أُرى ... عـــينٌ مـــسهَّدةٌ وقلـــبٌ يخفـــقُ

مـــا لاح بـــرقٌ أو تـــرنَّم طـــائرٌ ... إلاَّ انثنيـــتُ ولـــي فـــؤادٌ شـــيِّقُ

جرَّبتُ من نار الهوى مـا تنطفـي ... نارُ الغـضى وتَكِـلُّ عمـا تُحـرِقُ

وَعَذَلْتُ أَهْلَ العـشق حتـى ذقتُـهُ ... فعجبت كيف يموت مـن لا يعـشقُ

إلى أن يقول:

ولقد بكَيتُ علـى الـشبابِ ولِمَّتـي ... مُسْوَدَّةٌ ولمِـاءِ وجهــيَ رَوْنَــق[3]

حــذَراً عليــهِ قبـل يـوم فراقــه ... حتى لَكِدتُ بمـاءِ جَفْنــيَ أَشْـرقُ

أما بنو أوسِ بنِ معنِ بــنِ الرّضـا ... فأعزُّ من تُحـدَى إليـه الأَينُـقُ[4]

كَبَّرتُ حــولَ ديــارهم لمـــاَّ بـدت ... منها الشموسُ وليس فيها المشرقُ

وعجبتُ من أرضٍ سـحابُ أَكفِّهـم ... من فوقها وصخورُها لا تُـورِق[5]

---

(١) أي إن وجهه لحسنه يضيء كالبدر في ظلام الليل.

(٢) الجزر: اللحم الذي يلقى للسباع. والوجل: الخوف.

(٣) اللمة من الشعر: ما جاوز شحمة الأذن. والرونق: الحسن والنضارة.

(٤) الأينق: النياق.

(٥) أي لم لا تورق صخور أرضهم إذا سقوها بندى أيديهم؟

وتفوح من طيب الثناء روائحٌ ... لهمُ بكلّ مكانةٍ تُستَنْشَقُ

لم يَخلُقِ الرحمنُ مثلَ محمدٍ ... أَبداً وظنّي أنه لا يُخلق

ثم مدح شجاع بن محمد بن أبي شجاع الآنف الذكر سيّد بني عبد العزيز بن الرضا من ثُعَل، الذي كان والياً على منبج، مدحه بقصيدتين يقول في الأولى:

عزيزُ أسىً مَنْ داؤه الحَدَقُ النُّجلُ ... عَياءٌ به مات المحبُّون من قبلُ[(١)]

فمن شاء فلينظر إليّ فمنظري ... نذيرٌ إلى مَنْ ظنّ أنَّ الهوى سهلُ

وما هي إلاّ لحظةٌ بعد لحظةٍ ... إذا نَزلَت في قلبه رَحَل العقلُ

جرى حُبُّها مجرى دمي في مفاصلي ... فأصبح لي عن كل شُغْلٍ بها شُغْلُ

ومن جَسَدي لم يتركِ السُّقمُ شَعرةً ... فما فوقها إلاّ وفيها له فِعْلُ

إلى أن يقول:

أُحبُّ التي في البدر منها مَشَابِهٌ ... وأشكو إلى مَنْ لا يُصابُ له شَكْلُ[(٢)]

إلى واحد الدنيا إلى ابن محمدٍ ... شجاع الذي لله ثم له الفضلُ

إلى سيّدٍ لو بشّر اللهُ أمةً ... بغير نبيٍّ بَشَّرتْنا به الرسلُ

إلى القابض الأرواحِ والضغيم الذي ... تُحدِّثُ عن وَقْفاته الخيلُ والرَّجْلُ

إلى رَبّ مالٍ كُلَّما شَتَّ شملُه ... تجمَّع في تشيته للعُلا شَملُ[(٣)]

هُمامٌ إذا ما فارق الغمدَ سيفُهُ ... وعايَنْتَهُ لم تدرِ أَيُّهما النصلُ[(٤)]

---

(١) العزيز: الشيء الذي يقل وجوده. والأسى: العلاج، والنجل: الواسعة. والعياء: الداء الذي لا علاج له.

(٢) المشابه: ج شبه. ويُصاب: يوجد. والشكل: النظير.

(٣) شتّ: تفرّق. والشمل: الاجتماع. يقول: كلما تفرّق جمع ماله اجتمع شملُ معاليه.

(٤) الهمام: الملك الرفيع الهمة. والغمد: جفن السيف. يقول: إنه يمضي في الأمور مضاء السيف، فإذا جُرد من غمده لم تدر أيهما السيف.

إنّ محتوى هذه القصيدة لا يخرج عن إطراء كرم الممدوح وإقدامه، وشدّة وطأته على أعدائه. أما القصيدة الثانية فقد وجهها إلى شجاع المذكور آنفاً إثر خوضه معركة مع الروم يقول فيها:

اليــــومَ عَهْـــدُكُمُ فـــأين الموعـــدُ **هيهاتَ لــيس ليــوم عهــدِكُمُ غَــدُ**

الموتُ أَقْــربُ مِخْلَبــاً مــن بيــنكم **والعــيشُ أبعــدُ مــنكمُ لا تَبْعُــدُوا**

إنَّ التي ســفكت دمــي بجفونهــا **لم تَــدْرِ أَنَّ دمــي الــذي تتقلَّــدُ**(١)

إلى أن يقول:

مَنْ في الأَنامِ من الكــرام ولا تَقُــل **مَنْ فيكِ شَأْمُ سوى شجاعٍ يُقْــصَدُ**

أعطى فقلــتُ لجــوده مــا يُقتنــى **وسَــطَا فقلــتُ لــسيفه مــا يولَــدُ**

وتحيَّــرتْ فيــه الــصفاتُ لأَنهــا **أَلْفَــت طَرائقَــهُ عليهــا تَبْعُــدُ**(٢)

فــي كــل مُعْتَــركٍ كُلــىً مَفْريَّــةٌ **يَذْمُمْنَ منه مــا الأَسِــنَّةُ تَحْمَــدُ**(٣)

أَسَــدٌ دمُ الأَســدِ الهِزَبْــر خِــضابُه **مَوْتٌ فَرِيصُ الموت منه تُرعَــدُ**(٤)

مــا منــبجٌ مُــذْ غبــتَ إلاّ مقلــةٌ **سَهِدت ووجُهك نومُهــا والإثمِــدُ**(٥)

---

(١) أي إن التي قتلتني بلحظها لم تدرِ أن دمي في عنقها، وأنها باءت بإثم قتلي.

(٢) أي إن أوصاف المادحين له حارت كيف تُحصي فضائله، لأنها وجدت طرائق الممدوح ومسالكه التي تحمده لا تدركها الأوصاف.

(٣) المعترك: ساحة القتال. المفرية: المشقوقه. يقول: إنه يقطع كلى أعدائه، فالكلى تذم منه ما تحمده الأسنة، وهو الإصابة في الطعن وجودة الشق.

(٤) الهزبر: الشديد. والفريص: ج فريصة وهي لحمة عند الكتف تضطرب عند الخوف. يقول: هو شجاع يتلطخ بدم الأسد حتى يصير كالخضاب له، وهو موت لأعدائه حتى ليخافه الموت وترتعد منه فرائصه.

(٥) الإثمد: نوع من الكحل: يقول: إن منبج مذ غبت عنها كالعين الساهرة. ووجهك لها بمنـــزلة النوم والكحل، وهما اللذان تصلح بهما العين.

ويتَّصل بقصائد هذه الفترة قصيدة عينية مدح بها عليّ بن أحمد الطائي، وهو من مشاهير منبج وأعيانها يقول فيها:

حُشاشةُ نفسٍ ودّعت يومَ ودّعوا … فلم أَدرِ أيَّ الظاعنين أُشيِّعُ[١]

أَشاروا بتسليمٍ فَجُدْنا بأنفُسٍ … تسيلُ من الآماق والسِّمُّ أَدْمُعُ[٢]

حَشَايَ على جمرٍ ذكيٍّ من الهوى … وعيناي في روضٍ من الحسن ترتعُ[٣]

ولو حُمّلت صمُّ الجبالِ الذي بنا … غَداةَ افترقنا أَوشكت تتصدَّعُ

إلى أَنْ يقول:

ولا ثوبَ مجدٍ غيرَ ثوبِ ابن أحمدٍ … على أحدٍ إلاّ بلؤمٍ مرقَّعُ[٤]

وإن الذي حابى جديلةَ طيّئ … به اللهُ يُعطي من يشاءُ ويمنعُ[٥]

بذي كرمٍ ما مرَّ يومٌ وشمسُهُ … على رأْسِ أوفى ذمَّةٍ منه تَطْلُع

فتى ألفُ جُزءٍ رأيُه في زمانه … أَقلُّ جُزَيءٍ بعضُهُ الرأيُ أجمعُ

غَمامٌ علينا ممطرٌ ليس يُقشَعُ … ولا البرقُ فيه خُلَّباً حين يَلْمعُ

ثم يمتدح بلاغته وبراعته في الكتابة فيقول:

خَبَتْ نارُ حربٍ لم تَهِجْها بَنَانُه … وأَسمرُ عُريانٌ من القشرِ أصلعُ[٦]

---

(١) الحشاشة: بقية الروح في المريض. والظاعنين: المرتحلين. يقول لي بقيّة نفس ودعتني يوم ودعني الأحباب، فبقيت حائراً لا أدري أي المرتحلين أودّع.

(٢) الآماق: ج مؤق وهو طرف العين مما يلي الأنف. والسِّم: لغة في الاسم.

(٣) الحشا: ما في داخل الجوف، والمراد به: القلب. يقول: قلبي على جمر شديد التوقُّد من الهوى لأجل توديعهم وفراقهم، وعيناي ترتعان من وجه الحبيب في روض من الحسن.

(٤) أي لم يسلم المجد خالصاً لأحد إلاّ للمدوح.

(٥) جديلة: رهط الممدوح. حابى: حبا، أي أعطى. أي إن الله هو الذي خصّهم بهذا الرجل.

(٦) خبت النار: سكن لهبها، والأصلع: القلم للينه وملاسته. يقول: إن كل حرب تشب بغير قلمه وأنامله لا بد أن تنطفئ ولا تطول مدتها.

نحيفُ الشَّوَى يعدو على أُمِّ رأسه ... ويحفى فيقوى عدوُه حين يُقطَعُ[1]

يمجّ ظلاماً في نهارٍ لسانُه ... ويُفْهِمُ عمَّن قال ما ليس يَسْمَعُ[2]

فصيحٌ متى ينطِقْ تجدْ كلَّ لفظةٍ ... أصولَ البراعات التي تتفرّعُ

بكفّ جوادٍ لو حكتها سحابةٌ ... لما فاتها في الشرقِ والغربِ مَوْضِعُ

ألا أَيُّها القَيْلُ المقيمُ بمنبجٍ ... وهمَّتُهُ فوق السِّماكَيْن تُوضَعُ[3]

أليس عجيباً أَنَّ وصفَكَ مُعجِزٌ ... وأن ظنوني في معاليكَ تظلَعُ[4]

ألا كلُّ سَمْحٍ غَيْرَكَ اليومَ باطلٌ ... وكلُّ مديحٍ في سواك مُضيَّعُ

ثم توجَّه من منبج إلى طرابلس، ويسميها الجغرافيون: أطرابلس، وهي مدينة مشهورة على ساحل الشام بين اللاذقية وعكا. وعليها سور صخري منيع، ولها رساتيق، وأَكوار وضياع جليلة، وبها شجر الزيتون والكروم، وقصب السكر وأنواع الفواكه، ومن ضروب الغلاَّت الشيءُ الكثير. والبحر مُحْدِقٌ بها من ثلاثة أَوْجهٍ، وهي مَعْقِلٌ من معاقل الشام، وتُقصَد بضروب الغلاَّت والأمتعة والتجارات، تُضاف إليها عدّةُ قلاعٍ وحصون داخلة في أعمالها، وحوالي مدينتها أشجار الزيتون (عن الروض المعطار بتصرف ص٣٩٠) وفي هذه المدينة لقي الشاعر الفتى عُبيدَ الله بنَ خلكان، وهو واحدٌ من أعيانها المولعين بالأدب، فتوجه إليه بقصيدته السينية التي يقول فيها:

---

(١) الشوى: الأطراف. ونحيف: دقيق، ويعدو، يجري، وأم الرأس: أعلاه وهو هنا يصف القلم الذي إذا حفي قوي عدوه، أي يمضي في الكتابة، ويحسن به الخط.

(٢) يمج: يقذف. ويريد بالظلام: المداد، وبالنهار: القرطاس. واللسان: طرفه المحدد. والمراد أنه يعبر عما يريده الكاتب دون أن يسمع منه لفظاً.

(٣) القيل: الملك. السماكان: نجمان. والإيضاع: السير السريع.

(٤) ظلعت الناقة: عرجت من يدها أو رجلها. يقول: أليس عجباً أنني مع بلاغتي أعجز عن وصف معاليك. والإحاطة بمناقبك لوفرتها.

أظبيةَ الوحْشِ لولا ظبيــةُ الأَنَــسِ | **لما غَدَوْتُ بِجَدٍّ في الهوى تَعِــسِ**[1]
ولا سَقَيتُ الثرى والمــزنُ مُخْلِفــةٌ | **دمعاً ينشِّفُهُ من لوعــةٍ نَفَــسي**[2]

إلى أَنْ يقول:

إنْ تَرْمِني نَكَباتُ الدهرِ عــن كَثَــبٍ | **تَرْمِ امرأً غيــرَ رِعْديــدٍ ولا نَكِــس**
يَفْــدي بنيــكَ عُبيــدَ الله حاسِــدُهم | **بجبهة العَيْر يُفدى حــافرُ الفَــرسِ**
أبــا الغطارفــةِ الحــامينَ جــارَهُمُ | **وتاركي الليثِ كلباً غيرَ مفتــرسِ**[3]
من كلّ أبــيضَ وضّــاحٍ عِمامَتُــهُ | **كأنما اشتملت نوراً علــى قَــبسِ**[4]
لو كان فيضُ يديــه مــاءَ غاديــةٍ | **عَزَّ القطا في الفيافي موضعُ اليَبَسِ**[5]

ثم امتدحه بقصيدةٍ أخرى إثر هدية قدّمها إليه عُبيد الله فيها سمكٌ من سكر ولوز في عسل يقول فيها:

قــد شــغَلَ النــاسَ كثــرةُ الأمــلِ | **وأَنْــت بالمكرُمــاتِ فــي شُــغُلِ**
تمثَّلــوا حاتمــاً ولــو عَقَلــوا | **لكنتَ فــي الجــودِ غايــةَ المثــلِ**

---

(١) الأَنَس: جماعة الناس. والجَد: الحظ.

(٢) الثرى: التراب. والمزن: السحاب الأبيض. مخلفة: غير ماطرة. أي إن حرارة نفسه تجفف دموعه إذا جرت على الأرض.

(٣) الغطارفة: ج غطريف وهو السيد. أي يا أبا السادة الذي يحفظون جارهم، ويتركون الأسد كلباً لا يقوى على الافتراس.

(٤) الأبيض: الكريم النقي العرض. الوضاح: المشرق، الواضح الجبهة. والقبس: الشعلة من النار. أي أنه تحت عمامته كأنه شعلة نار لنور وجهه وإشراق لونه.

(٥) فيض يديه: الفائض من يديه. الغادية: السحابة تغدو بالمطر. يقول: لو كان عطاؤه ماء سحابة لَعمَّ الدنيا كلها حتى لا تجد القطا في الفلوات موضعاً جافاً تلتقط منه الحب، أو تنام فيه.

أهـــلاً وســـهلاً بمـــا بَعثْـــتَ بـــه إيهـــاً أبـــا قاســـمٍ وبالرُّسُـــلِ
هديَّـــــةٌ مـــــا رأيـــــتُ مُهـــديَها إلاّ رأيـــتُ العبـــادَ فـــي رَجُـــل
أقـــلُّ مـــا فـــي أَقلِّهـــا سَـــمَكٌ يلعـــبُ فـــي بركـــةٍ مـــن العـــسلِ
كيـــف أُكـــافي علـــى أَجَـــلِّ يـــدٍ مـــن لا يـــرى أنهـــا يَـــدٌ قِبَلـــي[(١)]

وكتب على الجامة التي فيها الهدية أبياتاً بالزعفران:

أَقْـــصِرْ فلـــستَ بزائـــدي ودًّا بلـــغ المـــدى وتجـــاوز الحـــدّا
أرســـلتَها مملـــوءةً كرَمَـــاً فرددْتُهـــا مملـــوءةً حَمْـــدَا
جاءتـــك تَطْفَـــحُ وهـــي فارغـــةٌ مَثْنَـــى بـــه وتظنُّهـــا فَـــرْدا
تـــأبى خلائقُـــك التـــي شَـــرُفت أَنْ لا تحـــنَّ وتـــذكرَ العهـــدا
لـــو كنـــتَ عـــصراً مُنبتـــاً زَهَـــراً كنـــتَ الربيـــعَ وكانـــتِ الـــورْدا

من طرابلس إلى اللاّذقية:

ومن طرابلس توجه الشاعر الفتى إلى اللاذقية وهو يُمنّي النفسَ بأن يلوذَ بالتنوخيين ولاة تلك المدينة الذين تربطهم بالشاعر رابطةُ النسب، فمرَّ بِطَرطُوس المشرفة على البحر قرب المرقب. ثم بِجَبْلَةَ على ساحل بحر الشام، وهي قلعة مشهورة من أعمال حلب وصولاً إلى اللاذقية.

واللاذقية مدينةٌ قديمةٌ على ساحل البحر غربي جبلة بينهما ستَّةُ فراسخ وهي بَلْدةٌ حَسَنَةٌ في وَطاء من الأرض، لها مرفأ جيد محكم، وقلعتان مُتَّصلتان على تلّ مشرف على الربض، والبحر غربيها وهي على ضفته.

(١) أي بماذا أكافئ الذي أسدى إليّ نعمة عظيمة، وهو يستصغرها حتى يرى أنها لا تعدّ نعمة له عندي.

وأول قصائد الشاعر في اللاذقية مرثية قالها في رثاء محمد بن إسحاق التنوخي، وهو من رؤساء المدينة جمع في شخصه السماحة، والفصاحة، والتُّقى والبأس. وفي هذه القصيدة يقول:

إنـــي لأعلـــمُ واللبيـــبُ خبيـــرُ أَنَّ الحيـــاةَ وإن حَرَصْـــتَ غُـــرورُ

ورأيـــتُ كـــلاًّ مـــا يُعلِّـــلُ نفـــسَهُ بتَعِلَّـــةٍ وإلـــى الفَنـــاء يَـــصيرُ

أَمجـــاورَ الـــديماسِ رَهْـــنَ قـــرارةٍ فيهـــا الـــضياءُ بوجهـــه والنـــورُ

ما كنتُ أَحْسَبُ قبل دفنكَ في الثرى أن الكواكـــبَ فـــي التـــرابِ تغـــورُ

ما كنتُ آملُ قبـــلَ نَعْـــشِك أَن أَرى رَضْوى على أَيْدي الرجـــالِ تـــسيرُ

إلى أَنْ يقول:

فيه الفَصاحةُ والـــسماحةُ والتُّقـــى والبأسُ أَجْمعُ والحِجـــى والخِيـــرُ[(١)]

كَفَـــل الثنـــاءُ لـــه بِـــردّ حياتـــه لمـــا انطـــوى فكأنَّـــهُ منـــشورُ[(٢)]

ثم استـــزاده بنوعم الميت فقال ارتجالاً:

غاضـــت أَنامِلُـــهُ وَهُـــنَّ بُحـــورُ وخَبَـــتْ مكايـــدُه وهُـــنَّ سَـــعيرُ

يُبكى عليـــه ومـــا اســـتقرّ قـــرارُهُ في اللَّحدِ حتـــى صـــافَحَتْه الحُـــورُ

صبراً بني إســـحاقَ عنـــه تكرُّمـــاً إن العظيمَ علـــى العظـــيم صَـــبُورُ

فَلِكـــلِّ مَفْجـــوعٍ ســـواكم مُـــشبِهٌ ولكـــل مفقـــودٍ ســـواه نظيـــرُ

أيامَ قائمُ ســـيفه فـــي كفِّـــه الـــ ـــيُمنى وباع الموتِ عنـــه قَـــصيرُ

ولطالمـــا انهملـــت بمـــاءٍ أحمـــرٍ فـــي شـــفرتيه جَمـــاجمٌ ونحـــورُ

فأُعيـــذُ إِخْوتَـــه بـــربّ محمـــدٍ أن يَحْزَنـــوا ومحمـــدٌ مَـــسْرورُ

---

(١) فيه: أي في الكفن. الحجى: العقل، والخير بكسر الخاء: الكرم.

(٢) يقول: إن ثناء الناس عليه، وذكرهم إياه بعده كفيل بردّ حياته، لأن من بقي ذكره كأنه لم يمت.

ثم سأله بنو عم الميت أن ينفيَ الشماتَةَ عنهم فقال ارتجالاً:

أَآلِ إبـــراهيمَ بعـــدَ محمـــدٍ إلاَّ حنــــينٌ دائـــمٌ وزفيـــرُ

ما شك خابرُ أَمـرهم مـن بعـده أن العـــزاءَ علـــيهم محظـــورُ

تُدمي خدودَهُمُ الـدموعُ وتنقـضي ســاعاتُ لـــيلهم وهـــنَّ دُهُـــورُ

أبنـــاءُ عـــمٍّ كـــلُّ ذنـــبٍ لامـــرىءٍ إلاّ الـــسّعايةَ بيـــنهم مَغْفُـــورُ

طار الوشاةُ على صَـفَاء ودادهـم وكذا الذبابُ علـى الطعـام يطيـرُ

ولقد مَنَحْتُ أبـا الحـسين مـودّةً جـــودي بهـــا لعـــدوّه تبـــذيرُ

مَلِكٌ تـصوَّر كيـف شـاء كأنمـا يجري بفصل قـضائه المقـدورُ[١]

ثم توجَّه بعد ذلك إلى مدحِ الحسين بن إسحاق أخي المرثي الذي كان والياً على اللاذقية، فخصَّه بثلاث مدائح يقول في أولاها:

هو البينُ حتى ما تـأنَّى الحزائـقُ ويا قلبُ حتى أنت ممّـن أُفـارقُ[٢]

وقَفْنـا وممَّـا زاد بثّـاً وقوفُنـا فريقَيْ هوىً مِنَّا مَـشوقٌ وشـائقُ

وقد صارت الأجفانُ قَرْحَى من البكا وصارت بَهاراً في الخدودِ الشقائقُ[٣]

على ذا مضى الناسُ اجتماعٌ وفرقةٌ وميتٌ ومولـودٌ وقـالٍ ووامـقُ[٤]

تغيّـر حـالي والليـالي بحالهـا وشِبتُ وما شاب الزمانُ الغُرانقُ[٥]

---

(١) المقدور: القدر. وفصل قضائه: حكمه الفاصل بين الحق والباطل يقول: كأن القدر يجري بمراده واختياره.

(٢) الحزائقُ: الجماعات. ج حزيقة. يقول هوالبين الذي يفرق كل شيء فالجماعات لا تلبث أن تتفرق إذا جرى فيها حكم البين.

(٣) قرحى: جرحى. ج قريح. والبهار: زهر أصفر، والشقائق: ج شقيقة. زهر أحمر: أي صارت الجفون قرحى من كثرة البكاء وحمرة الخدود صفرة لأجل البين.

(٤) قال: مبغض. وامق: محب

(٥) الغرانق: الناعم الجميل.

سلِ البيْدَ أين الجنُّ منــا بِجَوزهــا   وعن ذي المهارِي أين منها النقــانق[1]
وليــلٍ دَجــوجيٍّ كأنّــا جَلَــتْ لنــا   مُحيَّاكَ فيــه فاهتــدينا الــسمالِقُ[2]
فما زال لولا نــورُ وجهــك جُنحُــهُ   ولاجابها الركبانُ لــولا الأَيــانِقُ[3]
شَدَوا بابن إسحاقَ الحسينِ فصافحتْ   ذَفَاريَهــا كيرانُهــا والنمــارقُ[4]
بمن تقشعرّ الأرضُ خوفاً إذا مــشى   عليها وترتجُّ الجبــالُ الــشواهقُ[5]
فتىً كالسحابِ الجُون يُخشى ويُرتجــى   يُرجّى الحيا منها وتُخشى الصواعق[6]
غَذَا الهنــدوانيات بالهــام والطُّلــى   فهنّ مَــداريها وهــنَّ المخــانقُ[7]
تَشقَّقُ مــنهنّ الجيــوبُ إذا غــزا   وتُخضَبَ منهنَّ اللّحى والمفــارقُ[8]

أما القصيدة الثانية فيردّ فيها الشاعر على خصوم الممدوح الذين هجوه ونحلوا الهجاءَ أبا الطيّب؛ فعاتبه الحسين فأجاب.

أَتُنكِــرُ يــا ابــنَ إســحاقٍ إخــائي   وتَحسَبُ ماءَ غيري مــن إنــائي[9]
أَأَنْطِقُ فيــكَ هُجــراً بعــد علمــي   بأَنَّكَ خيرُ مَــنْ تحــت الــسماءِ[10]

---

(١) جوز كل شيء: وسطه. والمهاري: جمع مهرية وهي الإبل المنسوبة إلى قبيلة من اليمن يقال لها مهرة. النقانق: جمع نِقْنِق وهو ذكر النعام.

(٢) دجوجي: مُظلم. جلت: كشفت. السمالق: جمع سملق وهي الأرض البعيدة الطويلة.

(٣) جنح الليل: إقباله بظلامه. وجابها: قطعها. الأيانق: النوق.

(٤) شدوا بابن اسحاق: غنوا بمدحه. الذفاري: جمع ذِفْرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذنين. والكيران: ج كور، وهو الرحل. والنمارق: ج نمرقة وهي الوسادة تحت الراكب. أي طربت الإبل مع حداتها لمدحه.

(٥) أي تهابه الأرض إذا مشى عليها، وتتحرك الجبال خوفاً منه.

(٦) الجون بضم الجيم جمع جَون بفتحها، وهو الأسود والأبيض (ضد) الحيا: المطر.

(٧) الهندوانيات: السيوف الهندية. الهام: الرؤوس. الطلى: الأعناق. المداري: جمع مدرى وهو ما يُفرق به الشعر. والمخانق: القلائد.

(٨) إذا غزا شققت الثاكلات جيوبهن من جراء ما تفعله سيوفه من القتل.

(٩) أي أتظن أن ما هُجيتَ به صادر مني؟

(١٠) الهُجر: القبيح من الكلام.

وأَكرهُ من ذُبابِ السيف طعماً   وأمضى في الأمور من القضاء[1]
وما أَرْبَتْ على العشرين سِنّي   فكيف مَلِلتُ من طولِ البقاءِ
وما استغرقتُ وصفَكَ في مديحي   فأنقُص منه شيئاً بالهجاءِ[2]
وَهبْني قلتُ هذا الصبحُ ليلٌ   أَيعمى العَالَمونَ عن الضياءِ
وإنَّ من العجائب أَنْ تراني   فتعدِلَ بي أَقلَّ من الهبَاءِ[3]
وتُنكِرَ موتَهم وأنا سهيلٌ   طَلَعتُ بموتِ أولادِ الزناءِ[4]

أما القصيدة الثالثة فتغلب عليها «جزالةُ اللفظ ورصانتُه، وصحةُ المعنى واستقامتُه، واعتدال الأسلوب وحسن انسجامه إلاَّ أبياتاً يضطرب فيها الشاعر هنا وهناك في اللفظ وحده، أو في المعنى وحده، أو في اللَّفظ والمعنى جميعاً» (مع المتنبي ص ٨٤). فهو يقول:

مَلامي النَّوى في ظُلْمها غايةُ الظُّلْمِ   لعلَّ بها مثلَ الذي بي من السُّقْمِ[5]
فلو لم تَغَرْ لم تَزْوِ عَنّي لقاءَكم   ولو لم تُرِدْكم لم تكن فيكمُ خصمي[6]
أَمُنعمةٌ بالعودةِ الظبيةُ التي   بغير وليٍّ كان نائلَها الوَسْمي[7]
ترشَّفتُ فاها سُحرةً فكأنني   ترشّفتُ حَرَّ الوجدِ من باردِ الظَّلْمِ[8]
فتاةٌ تساوَى عِقْدُها وكلامُها   ومَبْسِمُها الدُّريُّ في الحُسْنِ والنظمِ

---

(١) ذباب السيف: حدّه.
(٢) استغرقت: استوفيت.
(٣) أي من العجب أن تراني وتعرفني، ثم تسوي بيني وبين خسيس أدق من الهباء.
(٤) سهيل: نجم معروف تزعم العرب أنه إذا طلع وقع الوباء في الأرض، وكثر الموت.
(٥) أي إن لومي الفراق ظلم له، فلعله يعشق المحبوبة كعشقي إياها فلذلك يختارها لنفسه.
(٦) زواه: نحاه وأبعده. أي لو كانت النوى لا تغار عليكم لما منعت عني لقاءكم.
(٧) الوسمي: أول مطر في السنة. الولي: المطر الثاني. النائل: العطاء. يقول إنها بدأت بوصل ثم لم تعد إليه، فليتها أنعمت علي برجوعها إلى الوصل مرة أخرى.
(٨) الترشّف: المص. والسحرة: السحر. والظلم: ماء الأسنان وبريقها. والعاشق إذا مص ريق معشوقته زادت نار حبه تلهباً.

إلى أن يقول:

بَرَتْني السُّرى بريَ المُدى فردَدْنني ... أخفُّ على المركوب من نَفَسَي جِرْمي[1]

وأبصرَ من زرقاءِ جَوٍّ لأنني ... إذا نظرت عيناي ساواهما عِلْمي[2]

كأني دحوتُ الأرضَ من خبرتي بها ... كأني بنى الإسكندرُ السَّدَّ من عزمي[3]

لأَلقى ابنَ اسحاقَ الذي دقَّ فهمُهُ ... فأبدع حتى جلّ عن دِقَّة الفهمِ

وأسمعَ من ألفاظه اللغةَ التي ... يلَذُّ بها سمعي ولو ضُمّنتَ شَتْمي

يمينُ بني قحطانَ رأسُ قضاعةٍ ... وعرْنينُها بدرُ النجوم بني فَهْمِ

فِدىً مَنْ على الغبراء أوَّلُهم أنا ... لهذا الأبيّ الماجد الجائدِ القَرْمِ[4]

لقد حال بين الجن والأمنِ سيفُه ... فما الظنُّ بعد الجنّ بالعُربِ والعُجْمِ[5]

إن مجمَل ما نظمه الشاعر منذ رحيله عن الكوفة يُشير إلى اتّباعه الطريقة الجديدة في النظم التي اختفت منها حكاية تجوال الشاعر في البوادي، ووصف الراحلة. فهو ينتقل من النسيب إلى المديح بمهارة فائقة ما عدا بعض الاستثناءات القليلة.

أما ما أشاعه خصومُ المتنبي عن سرقاته الشعرية، فهو ادّعاء باطل فالأفكار ليست ملكاً لأحد، لأنها متداولة بين الناس، وليس عيباً إكساؤها ألفاظاً جديدة تعبّر عمّا يَعْتَمِلُ في نفس الشاعر من أحاسيس ومشاعر.

---

(١) برتني: هزلتني، والسرى: جمع سرية. المدى: جمع مدية: السكين. جرمي: جسدي.

(٢) زرقاء جو: زرقاء اليمامة المعروفة بحدة البصر. أي إذا رأيت الشيء ببصري علمته بقلبي.

(٣) الدحو: البسط. والاسكندر: ذو القرنين: الذي بنى السد بين يأجوج وبين سائر البلاد.

(٤) الغبراء: الأرض. الجائد: الكريم. والقرم: السيد.

(٥) أي أخاف سيفه الجن فما ظنك بالإنس.

لقد اكتشف الشاعر الفتى في هذه المرحلة أنَّ قصائَدهُ لم تلقَ الاستجابةَ المتوخَّاة لدى ممدوحيه على النحو الذي يريد؛ وهو ما ولَّد في نفسه شعوراً بالخيبة واليأس، وهو ما عمَّق اقتناعَه بأَن الطريق إلى المجد لا يتأتَّى إلاّ بالقوة والعنف. وكان يُغيظه ويثير في نفسه أَشدَّ الحنق استيلاءُ الجنود المرتزقه من الأعاجم على زمام الأمور في معظم ولايات الدولة، في الوقت الذي كان فيه الخلفاءُ والأمراءُ العرب لا حول لهم ولا طول، ومع هذا فهو يَجِدُ نفسه مضطراً إلى تملُّقهم والتــزلُّف إليهم، وهو العبقري الجدير بالمكانة اللائقة دون غيره.

إن اعتداد الشاعر بنفسه، وإحساسه بالتفوق والعظمة من الأَسباب التي أثارت في نفوس الكثير من عارفيه الإعجابَ والاهتمامَ مثلما أَثارت في نفوس بعضهم الضغينةَ والحسد.

فتردِّي الأوضاع السياسية في مملكة الإسلام بعد مقتل الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هــ أَسْهم في تفاقم الاضطراب في معظم أقطار المملكة ولا سيما الشام؛ وهو ما أثار مطامع الولاة والحكام؛ فتنافسوا في اقتسام ما وصلت إليه أيديهم من أجزائها، كما أغرى الحالمين بالحكم والسيطرة بالسعي لتحقيق أحلامهم. وهو ما كان يساور الشاعرَ الشابّ أبا الطيب المتنبي الذي تَنْــزِع به نفسُه الطامحة إلى السيادة والملك. ففي نحو عام ٣٢١هــ عاد الشاعر من طبريَّة إلى اللاذقية بعد أن أقام في الأولى لبعض الوقت حيث أُسيء استقبالُه فيها فتوجَّه بمدائحه إلى أحد التنوخيين وهو عليٌّ بن إبراهيم ابنُ عمّ الأمير حسين الذي سبق أن خصّه الشاعر ببعض قصائده. فمدح علياً بثلاث قصائد أولاها القصيدة الميمية التي يعبّر فيها عن استيائه الشديد مما آلت إليه أمور العرب في تلك الأيام حيث سمحوا لعبيد ساقطي الهمم بتوليّ شؤونهم. يقول:

أَحــــقُّ عــــافٍ بــــدمعكَ الهِمَــــمُ ... أَحــــدثُ عهــــداً بهــــا القِــــدَمُ[1]

وإنَّمــــا النــــاسُ بــــالملوكِ فمــــا ... تُفلِــــحُ عُــــرْبٌ ملوكُهــــا عَجَــــمُ

---

(١) أحق: أولى وأجدر. العافي: الدارس، الذاهب. أي أحقّ عافٍ بالبكاء هو همم الكرام التي درست وذهبت. فدورسُها قديم.

لا أدبٌ عنـــــدهم ولا حَـــسَبُ ولا عهـــودٌ لهـــم ولا ذِمـــمُ[(١)]
بكـــلّ أرضٍ وَطِئتُهـــا أُمَـــمٌ تُرعـــى بعبـــدٍ كأنهـــا غَـــنَمُ
يَسْتخـــشِنُ الخـــزَّ حـــين يَلْمُـــسُه وكـــان يُبـــرى بظفـــره القلَـــمُ[(٢)]
إنـــي وإن لُمـــتُ حاســـدِيَّ فمـــا أُنكـــرُ أنّـــي عقوبـــةٌ لَهُـــمُ
وكيـــف لا يُحـــسَدُ امـــرؤٌ عَلَـــمٌ لـــه علـــى كُـــلِّ هامـــةٍ قَـــدَمُ
يهابُـــه أَبْـــسأُ الرجـــالِ بـــه وتتَّقـــي حـــدَّ ســـيفهِ الـــبُهَمُ[(٣)]
كفـــانيَ الـــذمَّ أنّنـــي رجـــلٌ أكـــرمُ مـــالٍ ملكتُـــه الكَـــرمُ
يجنـــي الغنـــى للّئـــام لـــو عَقَلـــوا ما ليس يجنـــي علـــيهمُ العَـــدَمُ[(٤)]
هُـــمُ لأمـــوالهم ولـــسنَ لهـــم والعـــارُ يبقـــى والجـــرُح يلتـــئمُ
من طلـــبَ المجـــدَ فلـــيكن كعلـــيٍّ يهـــبُ الألـــفَ وهـــو يبتـــسمُ
ويطعـــنُ الخيـــلَ كـــلَّ نافـــذةٍ لـــيس لهـــا مـــن وَحَائهـــا أَلَـــمُ[(٥)]
ويعـــرف الأمـــرَ قبـــل مَوْقِعِـــهِ فمـــا لـــه بعـــد فعلِـــه نَـــدَمُ
يُرعيكَ سمعاً فيه استماعٌ إلى الـــ ـــداعي وفيه عـــن الخَنـــا صَـــمَمُ

ثم يخلص من مدح قوم عليٍّ المفطورين على الشجاعة والجود منذ الولادة والمتَّصفين بنقاء الأعراض والشيم إلى وصف بحيرة طبرية الرائعة التي لم يغادرها إلاّ رغبةً بلقاء ممدوحه علي بن إبراهيم إذ يقول:

---

(١) الحسب: ما يعده الإنسان من مفاخر الآباء. والذمم: ج ذمة وهي الأمان والعهد.

(٢) الخزّ: ثياب تعمل من الحرير الصرف. أي يرى من كبريائه الخزّ خشناً، وكان قبلاً رثاً حافياً طويل الأظفار.

(٣) أبسأ الرجال: آنسهم به، وآلفهم له. والبهم: ج بُهمة: البطل.

(٤) إن غنى اللئيم - لو علم - يجني عليه ما لا يجنيه الفقر.

(٥) النافذة: الطعنة الشديدة. الوحاء: السرعة.

لولاكَ لم أَتـركِ البحيـرةَ والغـو ... رُ دفـــيءٌ وماؤهـــا شَــــبِمُ[(١)]

والمــوجُ مثــلُ الفحـولِ مُزْبِـدةً ... تَهـدِرُ فيهـا ومـا بهـا قَطَـمُ[(٢)]

والطيـرُ فـوقَ الحبَـابِ تحـسَبُها ... فُرسـانَ بُلْـقٍ تخونُهـا اللُّجُـمُ[(٣)]

كأنهـــا والريـــاحُ تـــضرِبُها ... جيـشَا وَغـىً هـازمٌ ومُنْهـزمُ

كأنهـــا فـــي نهارهـــا قمـــرٌ ... حـفَّ بـه مـن جنانهـا ظُلَـمُ

ناعمـــةُ الجـسم لا عظـامَ لهـا ... لهـا بنـاتٌ ومـا لهـا رَحِـمُ[(٤)]

تَغنَّـــت الطيـــرُ فـــي جوانبهـــا ... وجـادتِ الـروضَ حولهـا الـديَمُ

فهـــــي كماويَّــــةٍ مُطَوَّقـــــةٍ ... جُـرِّد عنهـا غــشاؤُها الأَدَمُ[(٥)]

ثم وجَّه الشاعرُ قصيدةً أُخرى إلى الأمير التنوخي عقب قمعه بشدة ثورة بني القَصيص إذ يقول:

أُحـــادٌ أم ســـداسٌ فـــي أُحـــادِ ... لُييلتُنـــا المنوطـــةُ بالتَّنـــادِ[(٦)]

كـأنَّ بنـاتِ نعـشٍ فـي دجاهـا ... خرائـدُ سـافراتٌ فـي حـدادِ[(٧)]

أفكّـــر فـــي معـــاقرة المنايـــا ... وقَوْد الخيـلِ مُـشْرِفَةَ الهـوادي[(٨)]

زعـــيمٌ للقنـــا الخطـــيّ عزمـــي ... بسفك دم الحواضِـر والبـوادي[(٩)]

---

(١) شبم: بارد.

(٢) قطم: هياج الفحل.

(٣) الحباب: طرائق الماء عند اختلاف الأمواج.

(٤) أي إن البحيرة ماء والسمك بناتها فهي أمهن وما لها رحم.

(٥) الماويّة: المرآة. الأدم: الجلد.

(٦) يقول: هذه الليلة واحدة، أم ليالي الدهر كلها جمعت فيها حتى طالت وامتدت إلى يوم القيامة؟! والتنادي: يوم القيامة سمي كذلك لأن النداء يكثر في ذلك اليوم.

(٧) الخرائد: العذارى.

(٨) معاقرة المنايا: ملازمتها، أي ملازمة الحروب. ومشرفة الهوادي: طوال الأعناق.

(٩) زعيم: كفيل. أي عزمي كفيل بسفك دم الناس جميعاً حاضرهم والباد.

إلــى كــم ذا التخلُّــفُ والتــواني … وكم هــذا التمــادي فــي التمــادي

وشُغْلُ النفسِ عن طلــبِ المعــالي … ببيعِ الــشعر فــي ســوقِ الكــسادِ

ومــا ماضــي الــشبابِ بمــستَرَدٍّ … ولا يـــــومٌ يمـــــرُّ بمـــــستَعَادِ

متى لَحظَتْ بياضَ الــشيب عينــي … فقد وَجَدَتْــهُ منهــا فــي الــسوادِ

ثم أنهى قصيدته هذه بأبياتِ مدحٍ متكلَّفه وصفها بعض نقاده «بالبرد والغثاثة والثقل والوخامة، حيث أبعد الاستعارة، وعَوّص اللفظَ، وعقّد الكلامَ، وأساء الترتيب وبالغ في التكلف، حتى خرج إلى السخف في بعض وإلى الإحالة في بعض[١]» ولكن لا يخفى ما في شعره من قوةٍ وحزم، وما فيه من تحرُّق إلى الخروج من هذه الحالة المُزْرية التي شُغِل بها عن طلب المجد وبيع الشعر في سوق الكساد، وهو ما يستحثُّه على ملازمة الحروب، ومعاقرة المنايا لتحقيق الغاية التي يصبو إليها. وربما كانت القصيدة الثالثة التي مدح بها هذا الأمير أقل شأناً من سابقتها، فهو يبدؤها بمطلعٍ غزلي، ثم ينتهي إلى المدح فيقول:

مُلِــثَّ القَطْــرِ أَعطِــشْها ربوعــا … وإلاَّ فاســـقِها الـــسُّمَّ النقيعــا[٢]

أســـائلُها عـــن المتـــديّريها … فلا تــدري ولا تُــذري دموعــا[٣]

لحاهــــا الله إلاَّ ماضــــيَيْها … زمانَ اللهوِ والخَــودَ الــشَّمُوعا[٤]

منعَّمــــةٌ ممنَّعــــةٌ رَداحٌ … يكلّف لفظُهــا الطيــرَ الوقوعــا[٥]

---

(١) عن الوساطة بين المتنبي وخصومه حاشية بلاشير ص ١٠٣.

(٢) الملث: الدائم المقيم. القطر: المطر. النقيع: القاتل. أي: يدعو الشاعر على الربوع بعدم السقيا، أو بأن تسقى السمّ القاتل.

(٣) أي يسألها عن أصحابها: فلا تجيب.

(٤) الخود: الجارية الناعمة. والشموع: اللعُوب.

(٥) رداح: ضخمة العجيزة. أي إذا سمعت الطير لفظها وقعت لحسنه.

تُرفِّــــع ثوبَهـــا الأردافُ عنهـــا فيبقى مـــن وشـــاحَيْها شَـــسُوعا[١]

إذا ماســت رأيــتَ لهــا ارتجاجــاً لــه لــولا ســواعِدُها نَـــزُوعا[٢]

أُحبُّـــكِ أو يقولـــوا جَـــرَّ نمـــلٌ ثَبِيـــراً وابـــنُ إبـــراهيمَ ريعـــا[٣]

بعيـــدُ الـــصيتِ مُنْبـــثُّ الـــسرايا يُـــشيِّبُ ذكـــرُهُ الطفـــلَ الرضـــيعا

يغضُّ الطرفَ مـــن مكـــرٍ ودَهْـــيٍ كـــأنّ بـــه ولـــيس بـــه خُـــشُوعا

إذا ضـــرب الأميـــرُ رقـــابَ قـــومٍ فمـــا لكرامـــةٍ مَـــدَّ النطوعـــا[٤]

فلـــــيس بواهـــــبٍ إلا كثيـــــراً ولـــــيس بقاتـــــلٍ إلاّ قريعـــــا[٥]

علـــيٌّ قاتـــلُ البطـــلِ المفـــدّى ومُبدلُـــه مـــن الـــزرد النجيعـــا[٦]

ودخل على عليّ بن إبراهيم فعرض عليه كأساً فيه شرابٌ أسود فقال ارتجالاً:

إذا مـــا الكـــأسُ أرعـــشتِ اليـــدينِ صَحَوتُ فلـــمْ تَحُـــل بينـــي وبينـــي

هجرتُ الخمرَ كالـــذهب المـــصفّى فخمـــري مـــاءُ مُـــزنٍ كـــاللُّجينِ

أغارُ من الزجاجـــةِ وهـــي تجـــري على شفةِ الأميـــر أبـــي الحـــسين

كـــأن بياضَـــها والـــراحُ فيهـــا بيـــاضٌ مُحـــدِقٌ بـــسواد عـــينِ

أَتينـــــاه نطالبـــــه برفـــــدٍ يُطالـــبُ نفـــسَهُ منـــه بـــدَينِ

---

(١) الوشاحان: قلادتان تتوشح بهما المرأة، ترسل إحداهما على جنبها الأيمن والأخرى على الأيسر. والشسوع: البعيد.

(٢) ماست: مشت متبخترة. يقول: إذا ماست رأيت لروادفها اضطراباً وحركة يكادان ينـزعان ثوبها عنها لولا أن سواعدها تمسك عليها ثوبها لدخولها في الكمين.

(٣) ثبير: جبل بالحجاز، ريع: أخيف. يقول: لا أزال أحبك لأن الجبل لا يجره النمل، والممدوح لا يرتاع، ولا يروعه شيء.

(٤) النطوع: جمع نطع: الجلد الذي يبسط تحت من يراد قتله.

(٥) القريع: الفحل الكريم، والمراد به: السيد الشريف.

(٦) النجيع: الدم.

ودخل عليه مرةً أخرى وهو يشرب، فقال ارتجالاً:

مَرَتْكَ ابنَ إبراهيمَ صافيةُ الخَمْرِ ... وهُنِّئْتَها من شاربٍ مُسكِرِ السُّكْرِ(١)

رأيتُ الحُمَيَّا في الزجاج بكفِّه ... فشبَّهتُها بالشمس في البدر في البحرِ(٢)

إذا ما ذكرنا جوده كان حاضراً ... نأى ودنا يسعى على قَدَم الخِضْرِ(٣)

من اللاذقية إلى حلب:

ثم توجَّه الشاعر الفتى من **اللاذقية إلى حلب** إحدى قواعد الشام فألفاها مدينة مُسوَّرةً بحجر أبيض، وفي سورها ستة أبواب، وفي جانب السور قلعة، في أعلاها مسجد وكنيستان، وفي إحداهما كان المذبح الذي قَرَّب عليه إبراهيم عليه السلام. وفي أسفل القلعة مغارة يُخبِّئ فيها غنمه. وكان إذا حلَبها أضافَ الناسَ بلبنها، فكانوا يقولون: حلَبَ أم لا؟

وقلعة حلب يُضربُ بها المثل في الحُسْن والحصانة، لأن مدينة حلب في وَطاءٍ من الأرض، وفي وسط ذلك الوَطاءِ جبلٌ عالٍ مدوَّر، صحيحُ التدوير مهندم بتراب صحّ به تدويرُهُ، والقلعةُ مبنية على رأسه، ولها خندق عظيم وصل بحفره إلى الماء، وفي وسط هذه القلعة مصانع تصل إلى الماء المعين. وشرب أهل البلد من صهاريج فيه مملوءة بماء المطر. وعلى بابه نهر يُعرف بقُويق، يَمُدُّ في الشتاء، وينضب في الصيف. وفي وسط البلد دارُ عَلْوةَ صاحبةِ البحتري. وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ إلاَّ ما يأتيه من بلاد الروم. والمدينة عامرة غاصَّة بأهلها، كثيرة الخيرات، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات. ولكن إقامة المتنبي هذه المرة في حلب لم تدم طويلاً؛ فتركها متوجِّهاً إلى أنطاكية حيثُ كان ينتظره واحد من حماة الأدب هو المغيث بن بِشْر العجلي.

---

(١) مرتك: مَرأَتك: أي ساغَتْكَ وهنأتك. سكر السكر: يريد أن السكر يستعذب شمائله ويستحسنها فيسكر السكرَ حسنها.

(٢) الحميا: من أسماء الخمر.

(٣) أي لا نذكر جوده إلاّ كان حاضراً كالخضر، أي إن جوده يدركنا حيث كنا.

أنطاكية:

وأنطاكية قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أَعْيان البلاد، وقواعدها، موصوفة بالنـــزاهة والحسن، وطيب الهواء، وعذوبة الماء وكثرة الفواكه، وسعة الخير. والمسافة بين حلب وأنطاكية عامرة لا خراب فيها، ولكنها أرضٌ تزرعُ الحنطةَ والشعير تحت شجر الزيتون. قراها متصلة، ورياضُها مزهرة، ومياهها منفجرة، يقطعها المسافر في بالٍ رخيٍّ، وأمن وسكون.

وأنطاكية بلدٌ عظيم، ذو سور وفصيل[١]، ولسوره ثلاث مئة وستون بُرْجاً، وشكلُ البلد كنصف دائرة، قُطرها يتصَّل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى قُلَّته فتتمّ دائرة. وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة. وهذا الجبل يستر عنها الشمس؛ فلا تطلع عليها إلاَّ في الساعة الثانية. وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب. وفي وسطها بِيْعَةُ القُسْيان. وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينةٍ أخرى لَذاذةً وطيبةً لأنّ وقودَها الآس، ومياهَها تسعى سَيْحاً بلا كلفة.

فتحها أبو عبيدة بنُ الجرّاح بعد أَنْ حاصرها من جميع نواحيها، ثم صالحه أَهلُها على الجزية أو الجلاء؛ فجلا بعضهم، وأقام بعضٌ منهم فأمَّنهم، ووضع على كلّ حالم ديناراً وجَريباً[٢]، ثم نقضوا العهد، فوجَّه إليهم أبو عبيدة عياضَ بنَ غَنْم[٣]، وحبيب بن مَسْلَمة[٤]، ففتحاها على الصلح الأول. ويقال: بل نقضوا بعد رجوع أبي عبيدة إلى فلسطين، فوجه عَمْرو بن العاص من إيلياء ففتحها، ورجع ومكث يسيراً حتى طلب أهلُ إيلياء[٥] الأمانَ والصلح، ثم انتقل إليها قوم من أهل حمص وبعلبكّ مرابطة. ولم تـــزل أنطاكية في أيدي

---

(١) الفصيل: حائط قصير أقل من السور.

(٢) الجريب: مكيال قديم يعادل نحو أربعة وستين كيلو غراماً.

(٣) عياض بن غنم (ت ٢٠ هـــ-٦٤١م) صحابي من القادة الفاتحين. غزا بلاد الروم.

(٤) حبيب بن مسلمة: (ت ٤٢ هـــ-٦٦٢م) قائد عربي من كبار الفاتحين، ولي أذربيجان لعثمان، وأرمينيا لمعاوية.

(٥) إيلياء: القدس.

المسلمين، وثغراً من ثغورهم إلى أَنْ ملكها الروم في سنة ٣٥٣هـ بعد أن ملكوا من الثغور: المَصِّيْصَة، وطَرَسُوس، وأَذَنَة (عن ياقوت).

وفي أنطاكية التقى الشاعر الفتى ممدوحَهُ المغيثَ بنَ بِشْرٍ العجليّ فمدحه بالقصيدة التالية:

دمعٌ جَرَى فقضى في الربعِ ما وَجَبَا ... لأَهلِهِ وشَفى أنَّى ولا كَرَبَا[١]
عُجْنا فأذهبَ ما أبقى الفراقُ لنا ... من العقولِ وما ردَّ الذي ذهبا
سقيتُهُ عَبَراتٍ ظنّها مطراً ... سوائلاً من جفونٍ ظنَّها سُحُبا
هام الفؤادُ بأَعرابيةٍ سكنت ... بيتاً من القلب لم تَمدُدْ له طُنُبَا
مظلومةُ القَدّ في تشبيهه غُصُناً ... مظلومةُ الريق في تشبيهه ضَرَبا[٢]
بيضاءُ تُطمِع فيما تحت حُلَّتها ... وعزّ ذلك مطلوباً إذا طُلبا
مَرَّت بِنا بَيْنَ تِرْبيها فقلتُ لها ... من أين جانَسَ هذا الشادنُ العَرَبَا
فاستضحكت ثم قالت كالمُغيث يُرى ... ليثَ الشرى وهو من عجْلٍ إذا انتسبا[٣]
جاءت بأشجعَ من يُسْمى وأَسمحَ مَنْ ... أعطى وأبلغَ مَنْ أَملى ومَنْ كتبا
لو حَلَّ خاطرُهُ في مُقْعَدٍ لَمشى ... أو جاهلٍ لصحا أَو أخرسٍ خطبا
إذا بدا حجبت عينيك هيبتُهُ ... وليس يحجبه سِتْرٌ إذا احتجبا
بياضُ وجهٍ يُريك الشمسَ حالكةً ... ودُرُّ لفظٍ يُريك الدرَّ مَخْشَلَبا[٤]
وسيفُ عزمٍ تَردُّ السيفَ هِبَّتُهُ ... رَطْبَ الغِرار من التأْمور مُخْتَضِبا[٥]

---

(١) أنى: كيف. كرب: من أفعال المقاربة، أي كاد. يقول: إنه بكى في أطلال الأحبة بدمع قضى ما وجب لهم، ثم رجع عن ذلك ليقول إن بكاءه لم يشفِ الوجد ولا قارب أن يقضي.

(٢) الضرب: العسل الأبيض.

(٣) أي لا تعجب من ذلك فإني كالمغيث تراه من الأسود وهو مع ذلك من عجل وكذلك أنا تراني من الظباء وأنا عربية.

(٤) مَخْشَلَب: كلمة نبطية تعني الخرز الأبيض الذي يشبه الدُر، والعرب تسميه: الخَضَض.

(٥) هِبَّتُهُ: مضاؤه، والغرار: الحدّ، والتأمور: دم القلب. أي إن مضاء عزمه يصيّر السيف رَطب الحدّ من دم الأعداء.

إلى أن يقول:

**ولا يـــردُّ بفيـــهِ كَـــفَّ ســـائله		عن نَفْسه ويردُّ الجحفـلَ اللَّجِبـا[(١)]**
**وكلَّمـــا لقـــيَ الـــدينارُ صـــاحِبَهُ		في مُلْكه افترقا من قبلِ يَصْطحبا[(٢)]**
**مالٌ كـأنَّ غـرابَ البـين يرقُبُـه		فكلَّمـا قيـل هـذا مُجْتـدٍ نَعَبـا[(٣)]**
**مكـارمٌ لـكَ فُـتَّ العـالمين بهـا		من يـستطيع لأمـرٍ فائـتٍ طلبـا**
**لمَـــاَّ أقمـــتَ بأنطاكيَّـــة اختلفـــت		إليَّ بـالخَبرِ الرُّكْبـانُ فـي حلبـا**
**فسرتُ نحوك لا أُلوي علـى أحـدٍ		أحُـــثُّ راحلتـــيَّ الفقـــرَ والأدبـــا**
**أذاقني زمني بلـوى شَـرِقْتُ بهـا		لو ذاقها لبكى ما عـاش وانتحبـا**
**وإن عَمَرتُ جعلتُ الحـربَ والـدةً		والسَّمْهريَّ أخاً والمـشرفيَّ أبـا[(٤)]**
**بكلِّ أشعثَ يلقى المـوتَ مبتـسماً		حتى كـأنَّ لـه فـي قتلـه أَرَبـا**
**قُحٍّ يكـادُ صـهيلُ الخيـل يقذفُـه		عن سَرْجه مَرَحاً بالغزو أو طَرَبـا**
**فالموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ بي		والبَرُّ أوسعُ والـدنيا لمـن غلبـا**

إن هذه القصيدة تمثّل غضبةً عنيفة تُنبئ بما تنطوي عليه نفس الشاعر الفتى من جنوحٍ إلى الثورة التي يُضمرها، ويُعِدُّ العُدَّة للقيام بها. ثم مدحه بقصيدةٍ ثانية لا تَقِلُّ غضباً واحتجاجاً على أهل زمانه لا سيما ذوي السلطان منهم يقول:

**فـــؤادٌ مـــا تُـــسلّيه المُـــدامُ		وعمرٌ مثـلُ مـا تَهَـبُ اللئّـامُ[(٥)]**
**ودهـــرٌ ناسُـــه نـــاسٌ صـــغارٌ		وإن كانـت لهـم جُثَـثٌ ضـخامُ**
**ومـا أنـا مـنهُمُ بـالعيش فـيهم		ولكـن معـدِنُ الـذهبِ الرَّغـامُ[(٦)]**

---

(١) الجحفل: الجيش العظيم، واللجب: المختلط الأصوات.

(٢) أي إذا التقى الديناران لديه تفرقا قبل اصطحابها.

(٣) المجتدي: السائل، ونعيبُ الغراب: صياحه. يقول: هذا المال كأن غراب البين يرقبه فكلما جاء مجتدٍ صاح فيه؛ فتفرق شمله.

(٤) عمرت: عشت. السمهري: الرمح، والمشرفي: السيف.

(٥) المدام: الخمر. وعمر مثل ما تهب اللئامُ: أي قصير. ومدته قليلة كهبة اللئام يسيرة.

(٦) الرغام: التراب.

أَرانـــبُ غيـــرَ أنهـــمُ ملـــوكٌ	مفتَّحـــــةٌ عيـــونُهُمُ نيـــامُ
بأجـــسامٍ يَحَـــرُّ القتـــلُ فيهـــا	ومـــا أقرانُهـــا إلاّ الطعـــامُ[1]
وخيـــلٍ مـــا يَخِـــرُّ لهـــا طعـــينٌ	كـــأنَّ قنـــا فوارســـها ثُمـــامُ[2]
خليلُكَ أَنْـــت لا مـــن قُلْـــتَ خِلّـــي	وإن كثُـــر التجمُّـــلُ والكـــلامُ
ولـــو حيَـــز الحفـــاظُ بغيـــر عقـــلٍ	تجنَّب عُنْـقَ صَـيْقِلِه الحُـسامُ[3]
وشِـــبهُ الـــشيء منجـــذبٌ إليـــه	وأَشْـــبهُنا بـــدنيانا الطَّغَـــامُ[4]

ثم يقول:

ومـــن خَبَـــر الغـــواني فـــالغواني	ضـــياءٌ فـــي بواطِنِـــه ظـــلامُ[5]
إذا كان الـــشبابُ الـــسُّكْرَ والـــشَّيْـــ	ـــبُ همًّا فالحيـــاةُ هـــي الحِمـــامُ[6]
ومـــا كـــلٌّ بمعـــذورٍ ببُخْـــلٍ	ولا كـــلٌّ علـــى بُخْـــلٍ يُـــلامُ
ولـــم أرَ مثـــلَ جيرانـــي ومِثلـــي	لمثلـــي عنـــدَ مِـــثْلِهِمُ مُقَـــامُ[7]
بأرضٍ ما اشـــتهيتَ رأيـــتَ فيهـــا	فلـــيس يفوتُهـــا إلاَّ الكـــرامُ

(١) بأجسام: مع أجسام. يحرّ: يشتدّ. والأقران: جمع قرن وهو الكفء أي إنهم لا يحفلون إلاّ بالطعام، ومن ثم يموتون بالتخمة.

(٢) خرّ: سقط. والقنا: الرماح، والثمام: نبت ضعيف. أي إن طعنهم لا يؤثر في المطعون لضعفهم، فكأنهم يطعنون بالثمام.

(٣) حيز: مجهول حاز أي ملك. والحفاظ: المحافظة على الحقوق. والصيقل: الذي يعمل السيوف. والحسام: السيف القاطع. والمراد: لو كان في الإمكان أن يحافظ على الوفاء ورعي الذمام ما لا عقل له لكان السيف إذا ضرب به عنق الصيقل الذي صقله لا يقطعه. يعني أنه لا عقول لهم، ولذلك ليس لهم حفاظ.

(٤) الطغام: رذال الناس وغوغاؤهم.

(٥) الغواني: الحسان أي إن الغواني ضياء في الظاهر ظلام في الباطن.

(٦) أي إذا كان الإنسان في شبيبته غائصاً في سكر من اللهو والصبا، وعند مشيبه غائصاً في بحر من الهم حتى لا يعي في عمره شيئاً فحياته أشبه بالممات.

(٧) يشكو جيرانه، ويلوم نفسه على الإقامة بينهم.

ثم ينتقل إلى المدح فيقول:

سقى اللهُ ابنَ مُنجبةٍ سقاني   بِدَرٍّ ما لراضعه فطامُ
ومن إحدى فوائده العطايا   ومن إحدى عطاياه الدوامُ
تلَذُّ له المروءةُ وهي تؤذي   ومن يعشق يَلَذُّ له الغَرامُ(١)
تعلَّقها هوى قيسٍ لليلى   وواصَلَها فليس به سَقَامُ(٢)
يَروعُ رَكانةً ويذوبُ ظَرْفاً   فما ندري أَشيخٌ أَمْ غلامُ(٣)
وقبضُ نَوالِه شرفٌ وعزٌّ   وقبضُ نَوال بعضِ القوم ذامُ(٤)

ويُعزى إلى هذه الفترة قصيدتُه الدالية التي يُنادي فيها بوجوب التمرُّد على الواقع الميؤوس من إصلاحه. يقول:

كم قتيلٍ كما قُتِلتُ شهيدِ   ببياضِ الطُّلى وورِدِ الخدودِ(٥)
وعيونِ المها ولا كعيونٍ   فتكت بالمتيَّم المَعْمودِ
دَرَّ درُّ الصِّبا أَأَيامَ تجريـ   ـرِ ذيولي بدارِ أَثْلَةَ عُودي(٦)

إلى أن يقول:

ما مُقامي بأرضِ نَحلْةَ إلاَّ   كمُقام المسيح بين اليهودِ(٧)
أنا في أُمةٍ تداركها اللّـ   ـهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

---

(١) يقول: المروءة تؤذي صاحبها بما فيها من التكاليف، وهي مع هذا تلذ له كالعشق لذيذ مع ما فيه من النصب والعذاب.
(٢) تعلقها: أي تعلّق المروءة، أي هويها. فلم يورثه حبها سقماً كما أورث عشق قيس لليلى.
(٣) يروع: يُفزع ويخيف. الركانة: الرزانة والوقار. والظرف: خفة الروح. يقول: إن الممدوح جمع بين وقار الشيوخ وظرف الفتيان.
(٤) النوال: العطاء، والذام: العيب والمذمة.
(٥) الطلا: الأعناق. جعل المتنبي من قتله الحب شهيداً.
(٦) درّدرُّه: كثر خيره. دار أَثْلَة: موضع بظهر الكوفة. يتمنّى الشاعر أن تعود هذه الأيام له.
(٧) نحله قرية بينها وبين بعلبك ثلاثة أميال (ياقوت) وفي هذا البيت ما يشير إلى أن المتنبي قالها وهو يتنقّل في أرجاء الشام عازماً على الثورة.

أين فضلي إذا قنعتُ من الدهـــ ـــرِ بعـيشٍ معجَّـل التنكيـدِ
ضاق صدري وطال في طلب الـرزْ قِ قيـامي وقـلّ عنـه قُعـودي
أبـداً أقطـع الـبلادَ ونجمـي في نحوسٍ وهمَّتـي فـي سـعودِ
عِشْ عزيزاً أومُـتْ وأنـتَ كـريمٌ بين طَعْـنِ القنـا وخَفْـقِ البنـود
لا كمـا قـد حييـتَ غيـرَ حميـد وإذا مُـتَّ مُـتَّ غيـرَ فقيـدِ
فاطلب العزَّ فـي لَظًـى ودعِ الـذلَّ ولـو كـان فـي جنـانِ الخلـودِ
لا بقومي شَرُفتُ بل شَـرُفوا بـي وبنفـسي فَخَـرْتُ لا بجـدودي
أنـا تِـرْبُ النـدى وربُّ القـوافي وسِـمامُ العـدا وغـيظُ الحسودِ

وفي تلك الفترة نظم الشاعر قصيدةً في مدح عليّ الحمداني الذي عُرف فيما بعد بسيف الدولة حينما أوقع بعمرو بن حابس وبني ضبَّة الضاربين في منطقة رأس عين سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، وكان سيف الدولة حينئذٍ فتىً، ولكن المتنبي لم يُنْشده تلك القصيدة لأَسباب مجهولة فهو يقول فيها:

ذِكَـرُ الـصِّبا ومراتـعِ الآرامِ جلبت حِمامي قبل وَقْت حمـامي(١)
دِمَنٌ تكاثرتِ الهمـومُ علـيّ فـي عَرَصـاتها كتكـاثُرِ اللُّـوَّامِ(٢)
فكـأنَّ كـلَّ سـحابةٍ وكَفَـت بهـا تبكي بعينَيْ عُـروةَ بـنِ حِـزامِ(٣)
ولَطالمـا أفنيـتُ ريـقَ كَعابهـا فيهـا وأفنَـت بالعتـاب كلامـي(٤)
قد كنـتَ تهـزأُ بـالفراق مَجانـةً وتجـرُّ ذَيْلَـي شِـرَّةٍ وعُـرامِ(٥)

---

(١) ذكر: جمع ذكرى. مراتع: جمع مرتع. المرعى. والحمام: الموت.

(٢) الدمن: جمع دمنة: ما تلبد من أثار الديار بعد رحيل القوم. العرصات: ساحات الدور.

(٣) وكفت: قطرت. عروة بن حزام هو صاحب عفراء، وهو أحد عشاق العرب المشهورين.

(٤) الكعاب: الجارية التي نهد ثدياها. يقول: طالما رشفت ريق كعاب تلك الدمن، وأطالت عتابي حتى أفحمتني عن الكلام.

(٥) المجانة: الخلاعة. والشرّة: الحدّة والنشاط، والعرام: الشراسة.

إلى أن يقول:

أنتَ الغريبـــةُ فـــي زمـــانٍ أهلُــهُ   وُلِــدَتْ مكــارمُهم لغيــرِ تَمــامِ[1]
أكثرتَ من بذل النوال ولــم تــزل   عَلَمــاً علــى الإفــضال والإنعــامِ
صَغَّرتَ كلَّ كبيــرةٍ وكبُــرتَ عَــنْ   لكأنّــه وعَــدَدْتَ سِــنَّ غُــلامِ[2]
ورفلتَ فـــي حُلَــلِ الثنــاءِ وإنمــا   عَــدَمُ الثنــاءِ نهايــةُ الإعــدامِ[3]
عيبٌ عليك تُرى بسيفٍ في الــوغى   ما يصنُع الصَّمصامُ بالصَّمْـصامِ[4]
إن كان مِثْلُك كــان أو هــو كــائنٌ   فبرئـــتُ حينئـــذٍ مـــن الإســـلامِ[5]

ولكن الشاعر لم يبلغ من ممدوحه شيئاً لذلك امتلأت نفسه حقداً وضغينةً، فممدوحه حَدَثٌ في مثل سنه، ولكنه يقود الجند ويُغير على البادية والحاضرة في حين يجد نفسه في حالٍ من الخمول والضَّعة، يمدح من يزدري وهو الأجدر بالرفعة وعلوّ الشأن، فتندّ عنه صرخات تُنبئ بما يعتمل في نفسه من هياج سوف تظهر آثاره فيما بعد. يقول:

مُحبّـــي قيـــامي مالـــذلكمُ النـــصلِ   بريئاً من الجرحى سليماً من القتلِ[6]
أرى من فِرِنْدي قطعةً فـــي فرنـــده   وجَوْدةُ ضرب الهام في جَــوْدةِ الــصقلِ[7]

---

(١) الغريبة: اسم لما يستغرب، فالممدوح غريبة هذا الزمان لأن أهله كلهم ناقصو المكارم، وأنت تام الكرم بينهم.

(٢) إن كل فعلة كبيرة صغرت بجانب أفعالك العظام، وأنت مع ذلك شاب لم تبلغ مبلغ الرجال.

(٣) الإعدام: الفقر.

(٤) الصمصام: السيف. والمراد: أنت سيف في حدّتك ومضائك؛ فلا حاجة بك إلى السيف.

(٥) أي لم يكن أحد مثلك ولا يكون.

(٦) محبي قيامي: منادى. أي أيها المحبون قيامي إلى الحرب لم لا تعينونني بالسيف إن أحببتم قيامي.

(٧) الفرند: ما يستدل به على جودة الحديد. والهام: الرؤوس. والمراد أن قوة الشاعر ونشاطه قطعة من فرند هذا السيف.

وخُضْرةَ ثوبِ العيش في الخضرةِ التي أَرتْكَ احمرارَ الموتِ في مــدرجِ النمــلِ[١]

أَمِط عنــكَ تــشبيهي بمــا وكأنــه فما أحدٌ فــوقي ولا أحــدٌ مِثْلــي[٢]

وذَرْنــي وإيــاهُ وطِرْفــي وذابلــي نكن واحداً يلقى الورى وانظرنْ فِعْلــي[٣]

ففي هذه الأبيات القليلة ما يشير إلى أن قائلها يُزمِعُ أمراً ما، ينوي القيامَ به.

عود إلى اللاذقية:

وفي ذلك الحين أُثير ما أُثير حول الشاعر الشاب من ادّعائه النبّوةَ، قال أبو عبد الله مُعاذُ بن إسماعيل اللاذقي: قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقيةَ في سنة نيف وعشرين وثلاث مئة وهو كما عَذَّر[٤]، وله وَفْرةٌ[٥] إلى شحمتي أُذنيه؛ فأكرمتُه وعظّمتُه لما رأيته من فصاحته وحُسنِ سَمْته. فلما تمكّن الأُنسُ بيني وبينه، وخلوتُ معه في المنــزل اغتناماً لمشاهدته، واقتباساً من أدبه، قُلْتُ: والله إنك لشابٌّ خطير تصلح لمنادمة ملكٍ كبير! فقال: ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبيٌّ مُرْسَل! فظننتُ أنه يهزل، ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قَطّ منذ عرفته؛ فقلتُ له: ما تقول؟ فقال: أنا نبيٌّ مرسلٌ. فقلتُ له: مرسل إلى مَنْ؟ فقال: إلى هذه الأمة الضالّة المُضِلَّة. قلت: تفعل ماذا؟ قال: أملأُ الدنيا عدلاً كما مُلِئت جوراً. قلت: بماذا؟ قال: بإدرار الأرزاق، والثواب العاجل لمن أطاع وأتى، وضرب

---

(١) يقول إن طيب العيش وهناءه في السيف، أي في استعماله والضرب به.

(٢) الإماطة: الرفع والتنحية، والمراد: لا تشبهني بأحد لأنه ليس فوقي أحد، ولا مثلي أحد.

(٣) إياه: تعني السيف. والطرف: الفرس الكريم. والذابل: الرمح، أي دعني وهذا السيف وفرسي ورمحي، وانظر ما أفعله بعد ذلك من قتل الأعداء.

(٤) كذا وردت واحسبها ما عذَّر، أي أن لم ينبت عذاره أي جانب لحيته.

(٥) الوفرة: ما اجتمع من شعر الرأس.

الرقاب لمن عصى وأبى. فقلت له: إن هذا أمر عظيم أخاف [منه عليك] وعذلتُه على ذلك؛ فقال بديهةً:

أبـــا عبـــدِ الإلــــهِ مُعـــاذُ إنـــي ... خَفِيٌّ عنــك فــي الهيجــا مُقــامي

ذكــرتَ جــسيمَ مــا طلبــي وأنَّــا ... نُخــاطرُ فيــه بــالمُهجِ الجــسامِ

أَمثلـــي تأخـــذُ النكَبـــاتُ منـــه ... ويجـــزعُ مـــن ملاقـــاةِ الحِمـــامِ

ولو بـــرز الزمـــانُ إلـــيَّ شخـــصاً ... لخـــضَّب شـــعرَ مَفْرِقِـــه حُـــسامي

ومـــا بلغـــتْ مـــشيَّتَها الليـــالي ... ولا ســـارت وفـــي يـــدها زمـــامي

إذا امـــتلأت عيـــونُ الخيـــلِ منّـــي ... فويـــلٌ فـــي التـــيقُّظِ والمنـــامِ

فقلت: ذكرتَ أنك مرسلٌ إلى هذه الأمة! أَفَيُوحَى إليك؟ قال: نعم. قلت: فاتْلُ عليَّ شيئاً مما أُوحيَ إليك؛ فأتاني بكلامٍ ما مرّ بسمعي أحسنُ منه. فقلت: وكم أُوحِيَ إليك من هذا؟ فقال: مئة عِبْرة وأربع عشرة عِبْرة. قلت: وكم العِبْرة؟ فأتى بمقدار أكبر الآي من كتاب الله تعالى؟ قلتُ: في كم مُدَّة أُوحِيَ إليك؟ قال: جملة واحدة. قلتُ: أَسمع في هذه العِبرات أَنَّ لك طاعةً في السماء، فما هي؟ قال: أَحبِس المدرارَ لقطع أرزاق العصاة والفُجَّار. قلت: أَتحبس في السماء مَطَرها؟ قال: إيْ والذي فَطَرها! أما هي معجزة؟ قلت: بلى والله! قال: فإن حَبَسْتُ المطرَ عن مكان تنظر إليه ولا تشكّ فيه هل تؤمن بي وتصدّقني على ما أُوتيتُ من ربّي؟ قلت: إي والله. قال: سأفعل ولا تسألني عن شيء بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة، ولا تُظهر شيئاً من هذا الأمر حتى يظهر، وانتظر ما وُعْدتَه من غير أن تسأله. ثم قال لي بعد أيام: أَتحبُّ أَن تنظر المعجزة التي جرى ذكرُها؟ قلت: إيّ والله. فقال لي: إذا أرسلتُ إليك هذا العبدَ فاركب معه، ولا تتأخَّر، ولا تُخْرِج معك أحداً. قلتُ: نعم فلما كان بعد أيام تغيّمت السماء في يومٍ من أيام الشتاء، وإذا عبدُه قد أقبل، فقال: يقول لك مولاي: اركب للموعد؛ فبادرتُ إلى الركوب معه، وقلت: أين ركب مولاك؟ قال: إلى

الصحراء. واشتدّ وقعُ المطر؛ فقال: بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي، فإنه ينتظرنا بأعلى تلّ لا يُصيبُهُ فيه المطر! قلت: وكيف عمل؟ قال: أقبل إلى السماء أَوَّل ما بدا السحابُ الأسود، وهو يتكلَّم بما لا أفهم، ثم أَخذ السوطَ، فأدار به في موضعٍ ستنظر إليه. وإذا هو على تلٍّ بعيد عن البلد نصف فرسخ، فأتيتُهُ فإذا هو على التلّ ولم يُصبْهُ من ذلك المطر شيء، وقد خُضْتُ في الماء إلى رُكْبة الفرس، والمطر في أَشدّ ما يكون، ونظرتُ إلى نحو مئتي ذراع في مثلها من ذلك التلّ ما فيه قطرةُ مطر! فسلَّمتُ عليه؛ فردّ عليّ السلام. فقلت: ابسط يديك أشهد أنك رسول الله! فبسط يديه فبايعته بيعةَ الإقرار بنبوّته، ثم قال:

أَيَّ محـــــلٍّ أرتقـــــي　　　أيَّ عظـــــيمٍ أتَّقـــــي

وكلُّ مــا قــد خلــق اللـــ　　　ــهُ ومــا لــم يُخلَــقِ

مُحتقَـــرٌ فـــي هِمّتـــي　　　كـــشعرةٍ فـــي مَفْرِقـــي

وأخذتُ بَيْعَتَهُ لأهلي، ثم صحّ بعد ذلك أن البيعةَ عَمّت كلَّ مدينةٍ في الشام، وذلك بأصغر حيلة تعلَّمها من بعض العرب، وهي صَدْحةُ[١] المطر يصرفه بها عن أي مكانٍ أحبّ بعد أن يُحوِّيَ بعصاً، وينفث في الصدحة التي لهم.

قال أبو عبد الله: وقد رأيتُ كثيراً منهم بالسَّكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا، ولا يتعاظمونه! حتى إِن أحدهم يصدح عن غنمه وإبله وعن القريَة؛ فلا يُصيبها شيءٌ من المطر. وهو ضربٌ من السحر. وسألتُ المتنبي بعد ذلك؛ هل دَخَلْتَ السكونَ؟ قال: نعم. أما سمعتَ قولي من قصيدتي التي أوّلها:

مُلِثَّ القطرِ أَعطِشْها ربوعــا　　　وإلاّ فاســقها الــسُّمَّ النقيعــا

أَمُنْسِيَّ السَّكونَ وحــضرموتاً　　　ووالــدتي وكِنْــدةَ والــسَّبِيعا

---

(١) الصدحة: رقية أو خرزة يتّخذها السحرة والمشعوذون لعمل السحر.

فقلت: من ثم استفاد ما جوَّزه على طغام أهل الشام"

ومن كلامه الذي كان يزعم أنه قرآن أُنــزل عليه: «والنجم السيَّار، والفلكِ الدوّار، واللَّيْلِ والنهار، إن الكافر لفي أخطار. امضِ على سَنَنِك، واقفُ أثرَ من كان قبلَكَ من المرسلين، فإن الله قامعٌ بكَ زَيْغَ مَنْ أَلحد في الدين، وضلَّ عن السبيل».

وممَّا كان يُمخْرِق به على أهل البادية أنه كان مَشَّاءً قوياً على السير، يسير سيراً لا غايةَ بعده، وكان عارفاً بالفَلَوات ومواقع المياه، ومحالّ العرب بها. وكان يسير من حِلّة إلى حِلّة بالبادية وبينهما مسيرة أربعة أيام، فيأتي ماءً فيغسل وجهه ويديه ورجليه، ثم يأتي أهلَ هذه الحِلّة فيخبرهم عمَّا حدث في تلك الحلّة التي فارقها، ويُوهم أَن الأرضَ تُطوى له! وسُئل في تلك الأيام عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أَخبر بنبوَّتي حيث قال: أنا لا نَبيٌّ بعدي؛ وأنا اسمي في السماء: لا[1].

إن رواية أبي عبد الله الآنفة الذكر تنقض نفسها، إذْ أخذ الرجل البيعةَ لنفسه ولأهله، ثم كشف زيف ما فعله المتنبي في نهاية الحكاية، لذلك أنكر فريقٌ من المحققين ما رُوي عن المتنبي من ادِّعاء النبوَّة، وإحداث المعجزات، وعدُّوه ضرباً من السخف الذي لا يقبله عقل. فتمرُّد المتنبي يغلب عليه طابع السياسة لا الدين. وكان كُلَّما سُئل فيما بعد عن سبب تلقيبه بالمتنبي - أي النبي الكاذب - أجاب: أنا لستُ أرضى أن أدعى بهذا، وإنما يدعوني به من يُريد الغَضَّ مني، ولستُ أقدر على الامتناع «كما قيل: إن أبا الطيب سُئل عن حقيقة هذا اللقب فقال: هو من النبْوَة أي المرتفع من الأرض. وقال - في رواية أخرى - معلّلاً لقبه: أنا أول من تنبّأ بالشعر»[2].

---

(١) عن الصبح المنبي - ص ٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر «أبو الطيب المتنبي» - بلاشير - ص ١١٩- ١٢٠.

تمرده وخروجه إلى بادية السماوة:

ويغلب الظن على أن الشاعر الفتى كان مفتوناً بجرأة كبار زعماء القرامطة، ولو لم يكن منتسباً إليهم، وذلك لتحقيق ما كان يصبو إليه من التمرّد على حكام وسلاطين زمانه، فاتّخذ من مدينة اللاذقية منطلقاً لدعوته حيث وجد فيها من يناصره لأَنَّ تلك المدينة كانت تعاني الهيَجان والاضطراب الديني والسياسي وهو ما يوفر له جَوّاً مناسباً لحشد الأتباع والمناصرين. ولكن حاكم اللاذقية حينئذٍ لم يكن ليسمح بحدوث أي تمرُّد ديني أو سياسي وهو ما حفز المتنبي على الخروج إلى بادية السماوة التي عرفها في طفولته، وتلقَّى فيها دروسه الأولى، فنــزل في بني كلب الذين تجمعه بهم صلة النسب فلقيت دعوتُه ترحيباً كبيراً. لذلك كانت قصائدُهُ في تلك الفترة أَشْبَهَ بخُطبٍ ناريَّةٍ تُلهِب الحماسةَ في نفوس الأَتباع والمريدين، مثلما تُعبّر عن حقد الشاعر على أولئك الحكام المتربِّعين على الكراسي. يقول في إحدى قصائده:

ضيفٌ أَلمّ برأسـي غيـرَ محتـشمِ ... والسيفُ أحسنُ فعلاً منه بـاللِّمم[١]
ابعَدْ بَعِدتَ بياضـاً لا بيـاضَ لـه ... لَأَنت أَسودُ في عيني مـن الظُّلَـمِ
بِحـبّ قـاتلتي والـشَّيبِ تَغْـذِيتي ... هوايَ طفلاً وشيـبي بالغَ الحلُـمِ[٢]
فمـا أمـرُّ برسـمٍ لا أُسـائله ... ولا بـذاتِ خمِـارٍ لا تُريـقُ دمـي

إلى أن يقول:

ليس التعلّـلُ بالآمـالِ مـن أَرَبـي ... ولا القناعةُ بـالإقلال مـن شِـيَمي
ولا أظـنّ بنـاتِ الـدهر تتركنـي ... حتى تسدَّ عليها طُرْقَهـا هِممـي[٣]
لُمِ الليالي التي أَخنَتْ علـى جِـدَتي ... برّقة الحالِ واعـذرني ولا تَلُـمِ[٤]

(١) أراد بالضيف: الشيب. واللّمم: جمع لِمَّة: الشعر الذي جاوز شحمة الأذن وألم بالمنكبين.
(٢) أي هويت وأنا طفل، وشبت حين احتلمت لشدة ما قاسيتُ من الهوى فصارا غذائي.
(٣) بنات الدهر: مصائبه.
(٤) الجدة: الغنى. ورقة الحال: كناية عن الفقر. أي لُمِ الدهر الذي أفقرني.

لقد تـــصبَّرتُ حتـــى لاتَ مُـــصطبَرٍ فالآنَ أُقحِــمُ حتـــى لاتَ مُقْــتَحَمِ[١]
أرى أُناساً ومحصولي علـــى غَــنَمٍ وذِكْرَ جودٍ ومحصولي على الكَلِمِ[٢]
ورَبَّ مـــالٍ فقيـــراً مـــن مُرُوَّتِـــهِ لم يُثْرِ منها كما أثرى من العَــدَمِ[٣]

ثم يبوح بما يعتمل في نفسه من السخط فيقول:

سيصحب النصلُ منّي مثلَ مـــضربه وينجلي خبري عن صِمَّةِ الصِّمَمِ[٤]
لأَتـــركنَّ وجـــوهَ الخيـــلِ ســـاهمةً والحربُ أَقْوَمُ من ساقٍ على قدمِ[٥]
والطعنُ يُحْرِقهـــا والزجـــرُ يُقلقهـــا حتى كأن بها ضرباً مـــن اللَّمَـــمِ[٦]
قد كلّمتها العـــوالي فهـــي كالحـــةٌ كَأَنَّما الصابُ مذرورٌ على اللُّجُـــمِ[٧]
بكـــلّ منـــصلتٍ مـــا زال مُنتظـــري حتى أَدلتُ له من دولـــةِ الخـــدمِ[٨]
شيخٍ يرى الصلواتِ الخمسَ نافلـــةً ويستحلُّ دمَ الحُجـــاّج فـــي الحَـــرَمِ
وكلما نُطِحت تحـــت العجـــاجِ بـــه أُسْدُ الكتائب رامتـــه ولـــم يَـــرِمِ[٩]

---

(١) لات: بمعنى ليس. أي تكلَّفتُ الصبر حتى لم يبق اصطبار والآن أقحم نفسي أي أوردها المهالك.

(٢) أي أرى قوماً على صورة الناس غير أنهم عند التخصيل كالغنم لا عقل لهم، وأسمع بذكر الجود ولا أرى أثراً له سوى الكلام.

(٣) يقول: أرى صاحب مالٍ ليس له مروءة، فلم يستكثر منها كما استكثر من المال حتى أثرى بعد الفقر.

(٤) النصل: نصل السيف؟ والصِّمَّة: الشجاع، يقول سيصحب السيف مني رجلاً مثل حده في المضاء.

(٥) ساهمة: متغيرة لما يلحقها من شدائد الحرب. أقوم من سائق على قدم: كناية عن الشدة.

(٦) اللمم: الجنون. والكلام عائد على الخيل وما تواجهه في الحرب.

(٧) كلمتها: جرّحتها. العوالي: الرماح. الصاب شجر له عصارة بيضاء، إذا أصابت العين أتلفتها.

(٨) المنصلت: الماضي في الأمور. أدلت له كذا: أعنته عليه.

(٩) رامته: زالت عنه، ولم يزل هو عنها.

رِدي حياضَ الردى يا نفسُ واتّركي		حياضَ خوفِ الردى للشّاءِ والنَّعَمَ
إن لم أَذَرْكِ على الأرماحِ سائلةً		فلا دُعيتُ ابنَ أُمّ المجدِ والكرمِ
أيملِكُ المُلْكَ والأَسيافُ ظامئةٌ		والطيرُ جائعةٌ لحمٌ على وَضَمِ
ميعادُ كلّ رقيقِ الشفرتين غداً		ومن عصى من ملوكِ العربِ والعَجَمِ
فإن أجابوا فما قصدي بها لهمُ		وإن تولّوا فما أرضى لها بهِمِ [(١)]

إن أول من استجاب لدعوة المتنبي إلى الثورة رهطُ بني عديّ، فالتفّ حولهُ عددٌ من الفتيان، ثم أخذوا يشنُّون الغارات على الحواضر يسلبون وينهبون، فمنهم من يصمد، ومنهم من يلوذ بالفرار فيقول:

قفا تَرَيا وَدْقي فهاتا المخايلُ		ولا تَخْشَيا خُلْفاً لما أنا قائلُ [(٢)]
رماني خِساسُ الناسِ مِنْ صائب استِهِ		وآخرُ قُطْنٌ من يديه الجنادلُ [(٣)]
ومن جاهلٍ لي وهو يجهلُ جهلَهُ		ويجهلُ علمي أنه بيَ جاهلُ
ويجهلُ أني مالكَ الأرضِ مُعسِرٌ		وإني على ظهر السّماكين راجلُ
تُحقِّر عندي هِمَّتي كلَّ مطلبٍ		ويقصُر في عيني المدى المتطاولُ
وما زلتُ طوداً لا تزول مناكبي		إلى أنْ بدت للضيم فيَّ زلازلُ
ومن يبغِ ما أبغي من المجدِ والعلى		تساوَ المحايي عنده والمقاتِلُ
ألا ليستِ الحاجاتُ إلا نفوسَكُم		وليس لنا إلاّ السيوفَ وسائلُ

---

(١) يقول: إن أطاعوني وأجابوني إلى ما أدعوهم إليه فلست أقصدهم بسيوفي، وإنما أقصد بها غير المطيع فأقتله بها، وإن أدبروا عني ومضوا في عصيانهم فلا أقتصر على قتلهم وحدهم، وإنما أقتلهم وكل من رأى رأيهم.

(٢) الودق: المطر. هاتا: بمعنى هذه، المخايل: السحابة الماطرة والخلف: من الإخلاف بالوعد.

(٣) عابني أخساء الناس وأراذلهم من بين من يصيب استه ما يرميني به. وآخر لا يؤثر فيّ ما يرميني به كأنه يرميني بقطعة قطن.

ولكن دعوةَ المتنبي إلى التمرّد والثورة لم تلقَ ارتياحاً لدى بعض رؤساء القبائل، فطعنوا في نسبه، وفي الغاية التي يسعى إلى تحقيقها فأجابهم بالقول:

أنـــا عـــينُ المـــسوَّدِ الجحجـــاحِ هَيَّجتنـــــي كلابُكـــم بالنُّبـــاحِ

أيكـــونُ الهجـــانُ غيـــرَ هِجـــانٍ أم يكون الـصرَّاحُ غيـرَ صُـراحِ

جهلـــوني وإن عَمَـــرتُ قلـــيلاً نـــسبتني لهـــم رؤوسُ الرمـــاحِ

سَلَمْيَة مقرًّا ومنطلقاً:

ولعلَ موقف هؤلاء الرؤساء دفع الشاعر المتمرد إلى نقل نشاطه من البادية إلى الحواضر القريبة منها، فاتخذ من سَلَمْيَة مقّراً لشنّ الغارات على حمص وسواها. وسَلَمْيَةُ بُليدة من ناحية البريّة من أعمال حمص، وأهل الشام يقولون: سَلَميَّة، كان صالح بن علي بن عبد الله بن العباس اتخذها منـــزلاً، وبنى هو وولده فيها الأَبنية، ونـــزلوها، وبها المحاريب السبعة، يقال: تحتها قبور التابعين. وفي تلك الفترة كانت مركزاً من مراكز الدعوة القرمطية، وفيها وُلِدَ عبيدُ الله مؤسس سلالة الفاطميين، ومنها انطلق في دعوته سنة ٢٨٩هـــ (٩٠٤م)، وقد خلت من أهلها بعد أن اكتسحها القرامطة سنة ٢٩٠هـــ، وحين دخلها المتنبي لم يكن فيها إلاّ بعض الأسر من العلويين والأعراب. وما إن خرج الثائر من سَلَمْيَة حتى وجد نفسه في مواجهة جند محمد الإخشيد بإمرة لؤلؤ الغوري الذي طارد جماعة المتنبي حتى منطقة قِنَّسرين بين حمص وحلب، فلاذوا بالفرار، ولكن الشاعر المتمرّد وقع في قبضة ابن علي الهاشمي في قرية كوتكين القريبة من سلمية؛ فاقتيد إلى حمص وأُلقي به في السجن، وذلك في سنة ٣٢٢هـــ.

سجنه في حمص:

وحِمص آنئذٍ من أوسع مدن الشام، وهي مدينة حسنة في مستوٍ من الأرض وهي عامرة بالناس، وأسواقها قائمة، وخصبهم تام، ومعايشهم رقيقة،

وفي نسائهم جمال وحسن بشرة، والنهر المقلوب (العاصي) يجري على بابها بمقدار رمية سهم، ولهم عليه قرى متصلة، وبساتين. ومنها تجلب الفواكه إلى المدينة، وثراها طيّب للزراعات، وهواؤها أعدل هواء يكون بمدن الشام، وهي مطلسمة لا تدخلها حية ولا عقْرب، ومتى أُدخلت على باب المدينة هلكت في الحال. وجميع أزقَّتها مفروشة بالحجر الصلْد، وبها مسجد جامع كبير من أكبر جوامع الشام، افتتحها أبو عبيدة صلحاً سنة أربع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب، وبين حمص وسلمية ستة فراسخ (عن الروض المعطار ص ١٩٨ بتصرف).

واتُّهم أبو الطيب بالتمّرد على الخليفة والخروج عليه، كما وُجِّهت إليه تُهمة الزندقة التي عقوبتها الموت. وبقي يرسف في قيوده نحو سنتين كابد خلال هذه المدة آلاماً مبرّحة وهو ما اضطره إلى استعطاف سجّانيه فكتب إلى الوالي بالأبيات التالية:

بيــدي أيهــا الأميــرُ الأريــبُ — لا لــشيءٍ إلاَّ لأنّــي غريــبُ

أو لأُمٍّ لهــا إذا ذكرتنــي — دمُ قلــبٍ بــدمع عــينٍ يــذوبُ

إنْ أكُــنْ قبــلَ أن رأيتُــكَ أَخطــأ — تُ فــإني علــى يــديك أتــوبُ

عائــبٌ عــابني لــديك ومنــه — خُلِقت في ذوي العيــوبِ العيــوبُ

قيل: كان للوالي الذي حبس المتنبي ولدٌ صغير فسمع به؛ فدخل لينظره فرآه منــزعجاً من القيود مضطرباً؛ فقال له: اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل! وكتب إليه من السجن قصيدةً يستعطفه بها حيث قال:

أيــا خــدّد اللهُ وردَ الخــدودِ — وقــدَّ قــدودَ الحــسانِ القــدودِ(١)

فهــنّ أَسَــلْنَ دمــاً مقلتــي — وعــذّبن قلبــي بطــول الــصدود

وكــم للهــوى مــن فتــىً مُــدْنَفٍ — وكــم للنــوى مــن قتيــلٍ شــهيدِ

---

(١) التخديد: الشق، والقد: القطع طولا. يدعو الشاعر على ورد الخدود أن يشققه الله فيزول حسنه، وأن يقطع قدود الحسان القدود.

ثم ينتقل إلى الاستعطاف والتنصُّل مما اتُّهم به فيقول:

لقد حال بالسيفِ دون الوعيدِ وحالت عطاياه دون الوعودِ

فأنْجُمُ أمواله في النحوسِ وأنجمُ سؤَّاله في السعودِ

ولو لم أَخَفْ غيرَ أعدائه عليه لبشَّرتُه بالخلودِ

رَمَى حلباً بنواصي الخيول وسُمْرٍ يُرِقْنَ دماً في الصعيدِ

وبيضٍ مسافرةٍ ما يُقِمْنَ لا في الرقابِ ولا في الغمودِ

قيل: ولما وصل الوالي إلى البيت الأخير: وبيضٍ مسافرةٍ لا يُقمن. قال: لقد تصبّب عرقاً، وتقلّب أرَقاً حتى استنبط هذا المعنى من قول أبي بكر النحوي المعروف بِبُرْمَة وهو:

وبيضٍ تسافر ما إن تقيمُ لا في الرقابِ ولا في القُرُبْ

بطيءٌ رضاهُنَّ لكنها غَداةَ اللِّقاء سِراعُ الغَضَب

إلى أن يقول:

أمالِكَ رقّي ومَنْ شأنُه هباتُ اللُّجين وعتقُ العبيدِ

دعوتُك عند انقطاع الرجاءِ والموتُ منِّي كحبلِ الوريدِ

دعوتُك لما براني البِلى وأَوهَنَ رجليَّ ثِقْلُ الحديدِ

وقد كان مَشْيُهما في النعالِ فقد صار مَشْيُهُما في القيودِ

وكنتُ من الناسِ في مَحْفَلٍ فها أنا في مَحْفَلٍ من قُرودِ

تُعجِّل فيّ وجوبَ الحدودِ وحَدّي قُبيلَ وجوبِ السجودِ

أي إنما تجب الحدود على البالغ، وأنا ما زلتُ صبياً لم تجب عليّ الصلاة بعد. ويجوز أن يكون صَغَّر أمر نفسه عند الوالي، لأن من كان صبيّاً لم يُظنّ به اجتماعُ الناس إليه للشقاق والخلاف. ومنها:

وقيــل عــدوتَ علــى العــالمين	**بــين وِلادي وبــينَ القُعُــود**[1]
فمــا لــك تقبــل زُورَ الكــلامِ	**وقَــدْرُ الــشهادة قــدرُ الــشهودِ**
فــلا تــسمعنّ مــن الكاشــحينَ	**ولا تعبــأنّ بِمَحْــكِ اليهــودِ**
وكــن فارقــاً بــين دعــوى أردتُ	**ودعــوى فعلــتُ بِــشأوٍ بعيــدِ**
وفي جود كفّيــك مــا جُــدتَ لــي	**بنفسي ولــو كنــتُ أشــقى ثمــودِ**

وكتب إلى أبي دُلَف سجَّان الوالي وقد برَّه في السجن:

أهــونِ بطــولِ الثــواءِ والتَّلــفِ	**والــسجنِ والقيــد يــا أبــا دُلَــفِ**
غيــرَ اختيــارٍ قَبِلْــتُ بِــرَّكَ بــي	**والجوعُ يُرضي الأُســودَ بــالجِيَفِ**
كن أيها السجنُ كيف شــئت فقــد	**وطَّنــتُ للمــوت نفــسَ معتــرفِ**
لو كــان سُــكناي فيــك منقــصةً	**لم يكن الــدرُّ ســاكنَ الــصَّدَفِ**[2]

إطلاقُ سراحه وتوجُهُه إلى الثغور الشاميَّة:

وكان السببُ في إطلاق سراحه قصيدته الدالية الآنفة الذكر، فما إن وصلت إلى والي المدينة إسحاق بن كيغلغ حتى رقّ لحاله «فاستتابه، وكتب عليه وثيقةً أَشهد عليه فيها ببطلان ما ادَّعاه، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائب منه، ولا يعاود مثله، وأطلقه[3]»، وعلى إثر ذلك امتدحه المتنبي بالقصيدة الرائية التي يقول فيها:

حاشى الرقيــبَ فخانتــه ضــمائرُه	**وغيّض الــدمعَ فانهلّــت بــوادرُه**
وكاتِمُ الحبّ يــوم البــينِ مُنْهتِــكٌ	**وصاحبُ الدمع لا تَخْفَــى ســرائرُهُ**

---

(١) أي ادعّى عليّ الناس وأنا طفل لم أستطع الجلوس وحدي بعد أني جرت وخرجت على الناس.

(٢) عن الصبح المنبي ص ٦٠ وما بعدها.

(٣) عن تاريخ بغداد ١٠٤/٤/ حاشية بلاشير ص ١٤٢.

يا مَنْ تحكَّم فــي نفــسي فعــذَّبني ... ومَنْ فؤادي على قتلــي يُــضافره
بعــودةِ الدولـــةِ الغـــرّاء ثانيـــةً ... سلوتُ عَنْكَ ونـــام الليـلَ ســاهرُهُ
من بعد ما كان ليلي لا صــباحَ لــه ... كــأنَّ أَوَّلَ يــومِ الحــشر آخـــرُهُ
غابَ الأميرُ فغابَ الخيرُ عــن بلــدٍ ... كادت لِفَقْدِ اســمه تبكــي منـــابرُهُ
إذا خلت منك حمصٌ لا خَلَتْ أبــداً ... فلا سقاها مــن الوســميّ بــاكرُهُ
دَخَلْتَهــا وشُــعاعُ الــشمسِ مُتَّقِــدٌ ... ونورُ وجهك بــينَ الخلــقِ بــاهرُهُ
من قال لستَ بخيرِ النــاسِ كلِّهــم ... فجهلُه بــكَ عنــد النــاسِ عــاذِرُهُ

ولكن الأمير أبى أن يستقبلَه أَو يسمعَ منه هذه القصيدة، وطلب منه أَنْ يترك الإقليمَ قانعاً بسلامته وحياته.

إن تجربَةَ السجن وما صاحبها من آلام جسديَّة ونفسيَّة حَدَّت من رغبة الشاعر في الوصول إلى السلطة عن طريق القوة والعنف، وهو ما جعله أكثر اقتناعاً بأن قوَّته الحقيقية تكمن في الشعر لا في سواه، فموهبته الشعرية يمكن أن تعُينَهُ في الوصول إلى الثروة والجاه معاً، فوجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى حياة التجوال لامتداح رعاة الأدب وحماته على الرغم من إحساسه الشديد بالمرارة من جرّاء ذلك؛ لأنه يبدو في نظر نفسه على الأقل مجرَّد متسوِّل بالشعر. عندئذٍ عزم على التوجُّه إلى الثغور الشامية، فقصد محمدَ بنَ زريق، وكان على بعض العمل في طَرسُوس، فمر بأنطاكية قصبة العواصم ومنها توجه إلى الإسكندرونة وهي مدينة إلى الشمال من أنطاكية على ساحل بحر الشام تبعد عنها نحو ثمانية فراسخ، ثم تليها المَصِّيصَة، وهي مدينة مشهورة من ثغور الإسلام على شاطئ نهر جيحان، وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحانُ، ولها سورٌ وخمسةُ أَبواب، وتُعمل فيها الفِراءُ التي تُحمَل إلى الآفاق، وربما بلغ الفروُ منها ثلاثين ديناراً. ومنها إلى أَذَنَة وهي بلد من الثغور الشامية قُرب المَصِّيصة، بُنِيَتْ سنة إحدى وأربعين ومئة للهجرة بأمر صالح بن علي بن عبد

الله بن عباس، وقيل عُمّرت أذنة سنة ١٩٠هـ على يد أبي سُلَيم وهو خادمٌ تركيّ للرشيد ولاَّه الثغور. ولأَذنة نهرٌ يُقال له سيحان، وعليه قنطرة من حجارة عجيبة معقودة على طاقٍ واحد، ولأَذَنة ثمانية أبواب وسور وخندق، ومن أذنه يصعد الطريق إلى طَرَسُوس وبينهما ستة فراسخ، وعلى المدينة سوران، وخندق واسع. ولها ستة أبواب، ويشقُّها نهر البَرَدان، وبها قبر المأمون عبد الله ابن الرشيد جاءها غازياً، فأدركته منيته فمات؛ فقال فيه الشاعر:

هل رأيتَ النجومَ أَغْنَتْ عن المأ ... مونِ في عِزّ مُلْكه المأسوسِ

غادروه بِعَرْصَتَيْ طَرَسُوسِ ... مثلما غادروا أباه بطُوسِ

ولم تزل هذه المديْنة مع المسلمين حتى سنة ٣٥٤ هـ حيث استولى عليها نقفور ملك الروم، وكانت حينئذٍ بيد سيف الدولة بن حمدان. وفي هذه المدينة لقي أبو الطيب محمدَ بنَ زريق فمدحه بالقصيدة التي مطلعها:

هذي برزتِ لنا فَهِجْتِ رسيسا ... ثم انْثَنَيْتِ وما شَفَيْتِ نَسِيسَا(١)

وجعلتِ حَظِّيَ منكِ حظِّيَ في الكرى ... وتركْتِني للفرقدين جَليسا

إلى أن يقول:

أبقى زُرَيقٌ للثغور محمداً ... أبقى نفيسٌ للنفيس نفيسا

إنْ حلّ فارقتِ الخزائنَ مالُه ... أو سار فارقت الجسومُ الروسا

مَلِكٌ إذا عاديتَ نفسَك عادِهِ ... ورضيتَ أَوحشَ ما كرهتَ أنيسا

ورُوي أن المتنبي لم ينل عليها إلاّ عشرة دراهم، ثم شفع له شافع فنال عشرة دراهم أخرى.

---

(١) هذه: يا هذه. الرسيس: مسّ الحمَّى وأَولها. أي مارسٌ في القلب من الهوى. والنسيس: بقية النفس بعد المرض والهزال. أي برزت لنا فحركت ما كان في قلبنا من هواك، ثم انصرفت عنا مودعة، وما شفيت ما أبقى عليه الهوى من نفوسنا بالوصال.

ولما أراد أن يرتحلَ من طَرَسُوسَ استجداه بالأبيات التالية:

محمدُ بنَ زريقٍ مـا نـرى أحَـدا … إذا فقدناك يُعطـي قبـلَ أَنْ يعـدا

وقد قـصدتُك والتّرحـالُ مقتَـرِبٌ … والدارُ شاسعةٌ والـزادُ قـد نَفِـدا

فخلّ كفَّـكَ تهمـي واثـنِ وابلَهـا … إذا اكتفيـتُ وإلاَّ أَغْـرقَ البلــدا

العودة إلى منبج:

إن الخيبة التي مُني بها أبو الطيب في رحلته إلى طَرَسوس جعلته يعود أدراجه إلى منبج قاصداً بعض الأمراء البحتريين الذين تربطُه بهم رابطةُ الانتماء إلى عرب اليمن، فمدح أبا أحمد عبيد الله بنَ يحيى بن الوليد بقصيدة يقول فيها:

بكيتُ يا ربعُ حتـى كِـدْتُ أُبكيكـا … وجُدتُ بي وبدمعي في مغانيكـا[(١)]

فِعمْ صباحاً لقد هيَّجتَ لـي شَـجَناً … وأرددْ تحيَّتَنَـا إنَّـا مُحيُّوكــا

بأيّ حُكـمِ زمـانٍ صِـرْتَ مُتَّخِـذاً … رئمَ الفلا بَـدَلاً مـن رئـْمِ أهليكـا

أيامَ فيك شموسٌ مـا انْبَعَـثْنَ لنـا … إلاَّ ابْتَعَثْنَ دماً بـاللَّحظ مـسفوكا[(٢)]

والعيشُ أخضرُ والأطـلالُ مـشرقةٌ … كـأنَّ نـورَ عُبيـدِ الله يعلوكـا[(٣)]

نجا امرؤٌ يا بنَ يحيى كنـتَ بُغيتَـهُ … وخابَ ركبُ ركـابٍ لـم يؤمُّوكـا

أَحْييتَ للشعراء الـشعرَ فامتـدحوا … جميعَ مَـنْ مـدحوه بالـذي فيكـا

وعلَّموا الناسَ منك المجدَ واقتدروا … على دقيق المعـاني مـن معانيكـا

فَكُنْ كما أنتَ يا مَنْ لا شَـبيهَ لـه … أَو كيفَ شئتَ فمـا خَلْـقٌ يُـدانيكا

كفى بأنك من قحطانَ فـي شَـرفٍ … وإن فَخَـرتَ فكـلٌّ مـن مواليكـا

---

(١) المغاني: جمع مغنى وهو المنــزل الذي كان به أهله.

(٢) أراد بالشموس: الحسان. انبعثن: ذهبن وجئن. ابتعثنَ: أَسَلْن. أي إني لأَذكر فيك حساناً ما ظهرن لنا إلا أبكيننا دماً مصبوباً بنظرنا إليهن.

(٣) خضرة العيش: كناية عن الخصب والرغد.

ثم امتدحه بقصيدة أخرى يقول فيها:

أَرِيْقُكِ أم مــاءُ الغمامـــةِ أَم خمــرُ	**بِفِيَّ بَرودٌ وهو في كبدي جَمْــرُ**[١]
أَذا الغصنُ أَم ذا الدِّعصُ أم أنتِ فتنةٌ	**وذَيَّا الذي قبَّلْتُهُ البــرقُ أم ثَغْــرُ**[٢]
رأَتْ وجهَ من أهوى بليلٍ عــواذلي	**فقلنَ نرى شمساً وما طلــع الفجــرُ**
رأينَ التي للــسحر فــي لحظاتهــا	**سيوفٌ ظُباها من دمي أبداً حُمْــرُ**[٣]
تناهى سكونُ الحُسْنِ في حركاتهــا	**فليسَ لراءٍ وجْهَهَا لم يَمُتْ عُــذرُ**[٤]
إليكَ ابنَ يحيى بنِ الوليد تجــاوزت	**بيَ البيدَ عِيْسٌ لَحْمُها والدمُ الـشِّعْرُ**
نــضحتُ بــذكراكم حــرارةَ قلبهــا	**فسارت وطولُ الأرضِ في عينها شِــبْرُ**[٦]
إلى ليثِ حربٍ يُلْحِمُ الليــثَ سـيفُه	**وبحرِ ندىً في موجه يغرقُ البحرُ**[٧]
فتىً كلَّ يومٍ تحتــوي نفــسَ مالــهِ	**رماحُ المعالي لا الردينيَّةُ الـسُّمْرُ**[٨]
تباعَدَ مــا بــين الــسحابِ وبينــه	**فنائلُهــا قطــرٌ ونائلُــه غَمْــرُ**[٩]
متى ما يُشِرْ نحوَ الــسماء بوجهــه	**تَخِرُّ له الشِّعْرى وينخسِفُ البدرُ**[١٠]

---

(١) يقول: أريق ما ذقته من فمك، أم ماءُ سحاب، أم خمر؟ وهو بارد في فمي حار في كبدي؛ لأنه يذكي جمر الهوى.

(٢) ذا: هذا. الغصن: أراد به قوامها. والدعص: كثيب الرمل يعني ردفها ذيّا: تصغير ذا.

(٣) الظُبى: أطراف السيوف مفردها ظُبة.

(٤) أي هي بلغت الغاية في الحسن فمن رآها معذور إذا هلك.

(٥) البيد: الصحاري. والعيس الإبل. يقول البرقوقي في شرح هذا البيت: كنت أحدوها بشعري الذي مدحتكم به فتقوى على السير، أي إن شعري قام لها مقام اللحم والدم في تقويتها على السير، ولكنني أرجح أن الشاعر أراد أن العيس التي حملته إلى الممدوح هي أشعاره التي تقوى على اجتياز الفيافي لتدور على كل لسان.

(٦) نضح الشيء بالماء: رشه عليه. أي إن ذكركم منحها القوة والنشاط فاستقربت البعيد.

(٧) يلحم الليث سيفه: أي يجعل الليث طعمةً له.

(٨) احتوى الشيء: حازه. أي إن المعالي تغزو أموال الممدوح فتحوزها. فأمواله تورثه العلاء والمجد. ولا يمكن لأحد أن يغتصبها.

(٩) نائلها: الضمير عائد على السحاب. والنائل العطاء. والقطر: المطر. والغمر: الكثير.

(١٠) الشعرى: كوكب نيّر يطلع عند شدة الحر. وهما شعريان: الشِّعرى العبور، والشعرى: الغميصاء.

إلى أن يقول:

أبا أحمدٍ ما الفخرُ إلاّ لأهله وما لامرئٍ لم يُمْسِ من بُحْترٍ فَخْرُ

همُ الناسُ إلاَّ أنهم من مكارمٍ يُغنّي بها حَضْرٌ ويحدوبهم سَفْرُ

بِمَنْ أَضرِبُ الأمثالَ أم مَنْ أقيسُه إليكَ وأهلُ الدهر دونَكَ والدهرُ

ثم يمدح أخاه أبا عبادة بن يحيى البحتري بالقصيدة التالية:

ما الشوقُ مقتنعاً مني بذا الكَمَدِ حتى أكونَ بلا قلبٍ ولا كَبِدِ(١)

ولا الديارُ التي كان الحبيبُ بها تشكو إليَّ ولا أشكو إلى أَحدِ

وكلّما فاض دمعي غاض مُصْطَبَري كأنَّ ما سال من جَفْنيَّ من جَلَدي(٢)

فأين من زَفَراتي من كَلِفْتُ به وأين منكَ ابنَ يحيى صَوْلَةُ الأسدِ

لَمَّا وَزَنْتُ بكَ الدنيا فمِلْتَ بها وبالورى قلَّ عندي كثرةُ العددِ

ما دار في خَلَدِ الأيامِ لي فَرَحٌ أبا عبادةَ حتى دُرْتَ في خَلَدي

مَلْكٌ إذا امتلأت مالاً خزائنُه أذاقها طعمَ ثُكْلِ الأُمّ للولَدِ

ماذا البهاءُ ولا ذا النورُ من بشرٍ ولا السماحُ الذي فيهِ سماحُ يدِ

قد كنتُ أَحْسَبُ أن المجدَ من مُضَرٍ حتى تَبَحْتَر فهو اليومَ من أُدَدِ(٣)

قومٌ إذا أمطرت موتاً سيوفُهُمُ حَسِبتَها سُحُباً جادت على بَلَدِ

لم أُجْرِ غايةَ فكري منْكَ في صفةٍ إلا وجدتُ مداها غايةَ الأبَدِ(٤)

---

(١) الكمد: الحزن مع الهم. أي إن شوقه إلى الأحبة لا يقنع بهذا الحزن الذي يستولي عليه فيجعله ذاهب العقل.

(٢) غاض: نقص. المصطبر: الاصطبار. والجلد: القوة والصبر. أي كلما بكيت نقص صبري، فكأن دموعي من صبري.

(٣) أُدد: ابن قحطان أبو اليمن.

(٤) يقول: لم أفكر في صفة من صفاتك إلاّ وجدت غايتها لا تنتهي كغاية الدهر..

تنقُّله في أرجاء الشام، والتكسُّب بالشعر:

لا شكّ في أن عودةَ الشاعر إلى حياة التكسُّب بالشعر جعلته أكثر سُخْطاً على ماضيه، وأكثر بَرَماً بحاضره البائس الذي ضاق به أشدّ الضيق، إذْ وجد نفسه مضطراً إلى تزلُّف من يحتقرهم ويزدريهم وذلك في سبيل الحصول على ما يقيم الأود ويستر الحال. ومن شعره في هذه الفترة القصيدةُ التي مدح بها أبا الفرج أحمدَ بنَ الحسين القاضي المالكي والتي يقول فيها:

لِجنيَّةٍ أم غادةٍ رُفِعَ السّجْفُ ... لِوحشيَّةٍ لا ما لوحشيَّةٍ شَنْفُ(١)

نَفُورٌ عَرتْها نَفْرةٌ فتجاذبت ... سوالفُها والحَلْيُ والخَصرُ والرِّدْفُ(٢)

وخُيِّل منها مِرْطُها فكأنّما ... تَثَنَّى لها خُوطٌ ولاحَظَنا خِشْفُ(٣)

ضنىً في الهوى كالسمّ في الشهد كامناً ... لَذِذْتُ به جَهْلاً وفي اللَّذّة الحتْفُ(٤)

فأفنى وما أفنتْهُ نفسي كأنما ... أبو الفرج القاضي له دونها كَهْف(٥)

قليلُ الكرى لو كانتِ البِيضُ والقنا ... كآرائه ما أغنتِ البَيْضُ والزَّغْفُ(٦)

يقوم مقامَ الجيشِ تقطيبُ وجهِه ... ويستغرق الألفاظَ من لفظه حَرْفُ

وإن فَقَد الإعطاءَ حَنَّت يمينُه ... إليه حنينَ الإلفِ فارقه الإلْفُ

---

(١) الغادة: المرأة الناعمة. والسجف: جانب الستر. الوحشية: الظبية الوحشية. الشنف: القرط، أو ما يعلق في أعلى الأذن.

(٢) السوالف: جمع سالفة: صفحة العنق، عرتها: أصابتها.

(٣) المرط: كساء من صوف. خيّل: مثّل. الخوط: الغصن. الخشف: ولد الظبية. أي إن مرطها مثل لنا صورتها فإذا هي كغصن بانٍ يتثنىّ.

(٤) ضنى: أي بي ضنى وهو شبه الهزال من المرض. أي بي ضنى كامن كما يكمن السم في الشهد إذا مزج به. وقد استلذذت الهوى جهلاً بذلك الضنى وحتفي في تلك اللذة.

(٥) يقول: أفنى الضنى نفسي وما أفنيته لأن الممدوح ملجأ له دون نفسي.

(٦) الكرى: النوم. البيض الأولى: السيوف، والثانية بفتح الباء: جمع بيضة الخوذة من حديد. والزغف: جمع زغفة: الدرع اللينة. والمراد: أنه قليلُ النوم لاشتغاله بتدبير الحكم، وهو نافذ الرأي لأن رأيه أمضى من السيف.

أديبٌ رَسَتْ للعلم في أرض صــدره جبالٌ جبالُ الأرض في جنبها قُفُّ[(١)]

جوادٌ سمت في الخير والشرِّ كفُّــه سموًّا أودَّ الدهرَ أنَّ اسْمَهُ كَــفُّ[(٢)]

قصدتُك والراجون قــصدي إلــيهمُ كثيرٌ ولكن لــيس كالــذَنَبِ الأنــفُ

ولا الفضَّةُ البيضاءُ والتبــرُ واحــدٌ نفوعان للُمكدي وبينهما صَــرْفُ[(٣)]

كما مدح المدعو علي بن منصور حاجب أحد أمراء الشام بقصيدة بائية تُعدّ من أجود ما نظم، فكوفئ عليها بدينار واحد فَسُمِيّت بالقصيدة الديناريَّة:

بأبي الشموسُ الجانحــاتُ غواربــا اللاَّبساتُ مــن الحريــرِ جلاببــا[(٤)]

المُنْهِبـــاتُ قلوبَنَـــا وعقولَنـــا وَجَنَـــاتِهنَّ الناهبـــاتِ الناهبـــا[(٥)]

الناعمـــاتُ القـــاتلاتُ المحييـــا تُ المبدياتُ مــن الــدلالِ غرائبــا

حـــاولن تفــديتي وخِفْــنَ مُراقبــاً فوضعن أيــديَهنَّ فــوقَ ترائبــا[(٦)]

وبَسَمْنَ عن بَــرَدٍ خَــشيتُ أُذيبَــهُ من حَرِّ أَنْفاســي فكنــتُ الــذائبا[(٧)]

يـــا حبـــذا المتحمّلـــونَ وحبّـــذا وادٍ لثمتُ بـــه الغزالـــةَ كاعبـــا[(٨)]

كيف الرجاءُ من الخطوبِ تخلُّــصاً من بعد مـــا أنْــشَبْنَ فـــيّ مخالبـــا

---

(١) القف: الغليظ من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلاً. والمراد أن جبال الأرض تصغر في جنب جبال العلم التي في صدره.

(٢) إن الدهر يتمنى أن يسمى كفًا ليشارك كفه في الاسم لأنه يجمع في كفه الخير والشر.

(٣) المكدي: الفقير. والصرف: الفضل، والمراد بين الفضة والذهب تفاوت في النفع.

(٤) بأبي: الباء للتفدية. الشموس: كناية عن النساء. الجانحات: المائلات. الجلابب: ج جلباب.

(٥) أي اللواتي جعلن قلوبنا وعقولنا نهباً لوجناتهن يسبينها بحسنهن.

(٦) الترائب: موضع القلادة من الصدر. يقول: حاولن أن يقلن لي نفديك بأنفسنا، فوضعن أيديهن على صدورهن إشارة إلى ذلك خوف الرقيب.

(٧) البَردُ: الأسنان التي تشبه البرد في نقائها.

(٨) المتحملون: المرتحلون.

أَوْحَدنَني ووجـدن حُزنـاً واحـداً متناهيـاً فجعلْنَـهُ لـيَ صـاحبا[١]
ونَصَبْنَني غَرضَ الرمـاةِ تُـصيبُني مِحَنٌ أَحدُّ مـن الـسيوفِ مـضاربا
أَظْمتنـيَ الـدنيا فلمـا جئتُهـا مُسْتَسْقِياً مَطَـرت علـيَّ مـصائبا
وحُبيتُ من خُوصِ الركاب بأَسـودٍ من دارشٍ فغدوتُ أمشي راكبـاَ[٢]
حالٌ متى علم ابـنُ منـصورٍ بهـا جاء الزمـانُ إلـيَّ منهـا تائبـاَ[٣]
مَلِـكٌ سِـنانُ قناتِـه وبَنانُـه يتباريـان دمـاً وعُرْفـاً سـاكبا[٤]
يستـصغر الخطَـرَ الكبيـرَ لِوَفْـده ويظنُّ دِجْلةَ ليس تكفـي شـاربا[٥]
كَرَمـاً فلـو حدّثْتَـهُ عـن نفـسه بعظيم مـا صـنعت لظنَّـك كاذبـا

ومدح عمر بن سليمان الشرابي، وكان يتولّى الفِداء بين العرب والروم أي تبادل الأَسرى بين الطرفين، وذلك في بلدة تُدعى اللاَّمس على شط بحر الروم من ناحية ثغر طَرسُوس، حيث يأتي الروم بسفنهم في البحر والمسلمون في البرّ ويقع الفداء بينهما يقول فيها:

نَرى عِظَماً بالبين والـصدُّ أعظـمُ ونـتَّهمُ الواشـين والـدمعُ مِـنْهمُ
ومَنْ لُبُّه مع غيـره كيـف حالُـه ومن سِرُّهُ في جَفْنِـه كيـف يَكْـتمُ

---

(١) أَوحدنني: أي الخطوب، صيّرنني واحداً. أي تركتني الخطوبَ وحيداً بعد أن فرّقت بيني وبين الأحبة، وجعلت الحزن مصاحباً لي.

(٢) من خوص الركاب: بدلاً من خوص الركاب. والدارش: ضرب من السختيان وهو جلد أسود. يقول: أعطيت عوضاً من الإبل خفًّا أسود. فأنا راكب ماشٍ.

(٣) أي أن حالي هذه لو علم ابن منصور بها تلافاها بإحسانه، فحال دون إساءة الزمان.

(٤) السنان: نصل الرمح، والبنان: أطراف الأصابع والمراد بها الكف. والعرف: المعروف، أو الجود. والساكب: المنسكب. يقول: إن سنان رمحه يقطر دماً من الأعداء، وكفه تسكب جوداً على الأولياء.

(٥) الخطر: الأمر الخطير، أي العظيم. الوفد: القاصد: أي يستصغر الشيء العظيم لمن يقصده، ويطلب رفده.

ولَمَّــا التقينــا والنــوى ورقيبُنــا غَفُولان عَنَّا ظِلْـتُ أبكــي وتبــسِمُ
فلم أرَ بَدْراً ضــاحكاً قبـل وجههـا ولـــم تَـــرَ قبلـــي مَيِّتـــاً يـــتكلَّمُ

إلى أن يقول:

وأُقسمُ لــولا أنَّ فـــي كـلّ شَـعْرةٍ له ضيغماً قلنــا لـــه أنــت ضــيغمُ
أَنَنْقُصُهُ مـــن حَظّـــه وهـــو زائـــدٌ ونَبْخَسُهُ والـــبَخْسُ شـــيءٌ مُحـــرَّمُ
يَجِلُّ عن التـشبيهِ لا الكـفُّ لُجَّــةٌ ولا هو ضرغامٌ ولا الرأيُ مِخْذَمُ(١)
ولا يُبْرَمُ الأمرُ الــذي هــو حالــلٌ ولا يُحلَلُ الأمرُ الذي هــو مُبــرِمُ(٢)
أَلَذُّ مـــن الـــصهباء بالمـــاءِ ذكــرُه وأَحْسَنُ مـــن يـــسرٍ تلقَّـــاه مُعـــدم
سَنيُّ العطايا لــو رأى نــومَ عينــه من اللـــؤم آلـــى أنـــه لا يُهـــوِّمُ(٣)
يشقّ بـــلادَ الـــرومِ والنقـــعُ أبلـــقٌ بأسيافه والجـــوُّ بـــالنقع أدهـــمُ(٤)

ولقي الشاعر خلال اضطرابه وتنقله في الشام عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي، فمدحه بالقصيدة التالية:

صِلَةُ الهجر لـــي وهجـــرُ الوصـــالِ نَكَسَاني في السُّقْمِ نُكسَ الهـــلالِ(٥)
فغدا الجسمُ ناقـــصاً والـــذي يَنْـــ ـــقُصُ منه يزيـــدُ فـــي بَلْبـــالي(٦)

---

(١) اللُّجة: معظم الماء، والضرغام: الأسد. والمخذم: السيف القاطع. أي كفه أسخى من البحر، ورأيه أنفذ من السيف، وهو أشجع من الأسد.
(٢) أي ليس للأمر الذي يبرمه ناقض، ولا للذي ينقضه مُبرم.
(٣) السني: الرفيع الشريف. يقول: لو كان النوم الذي لا بد منه للإنسان لؤماً لحلف أنه لا ينام.
(٤) النقع: الغبار. الأبلق: ما فيه سواد وبياض. الأدهم: الأسود.
(٥) يقول: إن مواصلة هجر الحبيب، وهجر وصاله إياي أسقماني بعد الصحة كما يعاد الهلال إلى النقصان بعد تمامه.
(٦) البلبال: الهم والحزن.

قف على الدِّمْنتين بالدوِّ من ريْـــــ ـــيَا كخالٍ في وجنة جَنْــبَ خــالِ[١]
بطلـــــولٍ كـــــأنهنّ نجـــــومٌ فـــي عِــراصٍ كــأنهنّ ليــالي[٢]

إلى أن يقول:

نحنُ ركبٌ مِلْجــنّ فــي زِيِّ نــاسٍ فوقَ طيرٍ لها شــخوصُ الجِمــالِ[٣]
من بنات الجديل تمشي بنا في البيـــ ـــدِ مشيَ الأيــامِ فــي الآجــالِ[٤]
عامداتٍ للبــدرِ والبحــرِ والــضِّرْ غامةِ ابــن المبــاركِ المفــضالِ[٥]
من يَزُرْهُ يَزُرْ سليمانَ فــي المُلْــكِ جَــلالاً ويوســفاً فـــي الجَمــالِ
وربيعـــاً يُــضاحِكُ الغيـــثُ فيـــه زَهَرَ الشُّكْرِ من رياضِ المعــالي[٦]
هَمُّ عبد الــرحمن نفــعُ المــوالي وبـــوارُ الأعـــداءِ والأمـــوالِ
أكبرُ العيب عندهُ البخــلُ والطَّعْـــ ـــنُ عليــه التَّــشْبيهُ بالرئبــالِ

ثم يختم القصيدة بالقول:

أنت طوراً أمرُّ مــن ناقــع السُّـــمِّ وطــوراً أحلــى مــن السّلْــسالِ[٧]
إنما الناسُ حيث أنــت ومــا النــا سُ بِناسٍ في موضــعٍ منــك خــالِ

---

(١) الدمنة: ما اسودّ من آثار الديار. والدّو: الصحراء. ريّا: اسم محبوبته. يقول: قف بدمنتي هذه المحبوبة اللتين لم يبق منهما سوى ما يشبه الخالين في الخد.

(٢) العراص: ج عرصة: ساحة الدار. يقول: إن الطلول الباقية من ديار الأحباب تلوح في عراصٍ خالية كما تلوح النجوم في الليالي المظلمة.

(٣) ملْجِنّ: من الجنّ. أي إنهم كالجن في ألفة المجاهل والفلوات، وركابهم كالطير في سرعتها.

(٤) الجديل: فحل كريم من الإبل.

(٥) عامدات: قاصدات.

(٦) أي إن جوده يمطر على السائلين فتبتسم له ثغور الثناء ابتسام الزهر بعد المطر.

(٧) السلسال: الماء العذب.

وفي أثناء تجواله في أصقاع الشام لقي عبدَ الواحدِ بن أَبي الإصبع الكاتب فمدحه بالقصيدة التالية:

أَركائـــــبَ الأَحبـــــاب إِن الأدمعـــــا … تَطِسُ الخدود كما تَطِسْنَ اليَرْمَعا[١]

قد كان يمنَعُني الحياءُ مــن البكــا … فاليومَ يمنعـــه البكـــا أن يَمْنَعـــا[٢]

حتـــى كـــأنّ لكـــلّ عَظْـــمٍ رنَّـــةً … في جلده ولكـــلِّ عِـــرْقٍ مَـــدْمَعا[٣]

إلى أن يقول في ممدوحه:

أَلِـــفَ المـــروءةَ مُـــذْ نَـــشَا فكأنـــه … سُقيَ اللِّبانَ بهـــا صـــبيًّا مُرضَـــعا

نُظِمـــت مواهبُـــه عليـــه تمائمـــاً … فاعتادها فـــإذا سَـــقَطْنَ تفزّعـــا[٤]

مُتبـــسِّماً لعُفاتِـــه عـــن واضـــحٍ … تغشى لوامعُـــه البـــروقَ اللُّمَّعَـــا[٥]

مُتَكَـــشِّفاً لِعُداتـــه عـــن سَـــطْوةٍ … لوحَكَّ مَنْكِبُهـــا الـــسماءَ لزعزعـــا

الحـــازِمَ الـــيقظَ الأغَـــرَّ العـــالمَ … الفطِنَ الأَلدّ الأريحـــيَّ الأَروعـــا[٦]

ألكاتبَ اللبـــقَ الخطيـــبَ الواهـــبَ … النَّدُسَ اللبيبَ الهِبرزِيَّ المِـــصْقَعا[٧]

نَفـــسٌ لهـــا خُلُـــقُ الزمـــانِ لأنـــه … مُفني النفوسِ مُفـــرِّقٌ مـــا جمَّعـــا

ويـــدٌ لهـــا كَـــرَمُ الغَمـــام لأنـــه … يسقي العِمـــارةَ والمكـــانَ البلقعـــا

---

(١) أركائب: يا ركائب. تطس: تدق. اليرمع: حجارة بيض صغار رخوة.

(٢) يقول: قد كان حيائي يمنع بكائي، واليوم غلب بكائي حيائي.

(٣) الرنة: من الرنين وهو صوت الباكي. والضمير في جلده للعظم، والمدمع: مجرى الدمع.

(٤) المواهب: العطايا. التمائم: ج تميمة العوذه تعلّق على الصبي للوقاية من العين.

(٥) يبتسم للسائلين عن ثغر واضح يذهب لمعانه بضوء البرق.

(٦) الأغر: الشريف. الألد: الشديد الخصومة. الأريحي: الذي يرتاح للمعروف والكرم. الأروع الذكي.

(٧) اللبق: الخفيف في الأمور. الندس: الفطن. الهبرزي: السيد الكريم. المصقع: الخطيب البليغ.

يـــا مُغنيـــاً أمـــلَ الفقيـــرِ لقـــاؤه ودعـــاؤه بعـــد الـــصلاةِ إذا دعـــا
أَكلت مفـــاخرُك المفـــاخرَ وانثنـــت عن شَأْوهنَّ مَطِيٌّ وصفي ظُلَّعـــا[١]

كما مدح القاضي أبا الفضل أحمدَ بنَ عبدِ الله بن الحسن الأنطاكي بقصيدته التي يقولُ فيها:

لكِ يا منازلُ فـــي القلـــوب مَنـــازلُ أَقْفرتِ أَنتِ وهنَّ مِنْـــكِ أَواهِـــلُ[٢]
يَعْلَمـــنَ ذاك ومـــا علمـــتِ وإنَّمـــا أَوْلاكُمـــا ببُكـــىً عليـــه العاقِـــلُ[٣]
وأنا الذي اجتلـــب المنيَّـــةَ طَرْفُـــه فَمَنِ المُطَالَـــبُ والقتيـــلُ القاتـــلُ[٤]

إلى أن يقول:

للَّهـــو آونـــةٌ تمـــرُّ كأنهـــا قُبَـــلٌ يزوِّدُهـــا حَبيـــبٌ راحِـــلُ
جَمَح الزمـــانُ فمـــا لذيـــذٌ خـــالصٌ ممَّـــا يَـــشُوبُ ولا سُـــرورٌ كامِـــلُ
حتى أبو الفضلِ بـــنُ عبـــد الله رؤ يتُهُ المُنـــى وهـــي المقـــامُ الهائـــلُ
ممطـــورةٌ طُرقـــي إليهـــا دونَهـــا من جُوده في كـــل فـــجٍّ وابـــلُ[٥]
محجوبـــةٌ بـــسُرداقٍ مـــن هيبـــةٍ تَثْني الأَزمَّـــةَ والمطـــيُّ ذوامـــلُ[٦]

(١) أكلت هنا بمعنى: غلبت. الشأو: الغاية. الظلّع: جمع ظالع الذي يغمز من يد أو رجل. والمراد: غلبت: مفاخرك مفاخر الناس، وقصر وصفي عن إدراك غايتها.
(٢) أواهل: عامرة. والمراد أن المنازل أقفرت من أهلها، ولكن القلوب ما برحت آهلة بها.
(٣) يعلمن: الضمير عائد على القلوب، والمنازل لا تعلم والأحق بالبكاء هي القلوب لأنها العاقلة.
(٤) المنية: الموت، والطرف: النظر، أي إن طرفي هو الذي جلب المنية إلي بالنظر فمن أطالب بدمي وأنا الذي قتلت نفسي.
(٥) ممطورة: أصابها المطر. الفج: الطريق الواسع بين جبلين. الوابل: المطر الغزير أي إن إحسان الممدوح يصل إليه قبل رؤيته.
(٦) الأزمَّة: جمع زمام ما تقاد به الدابة. ذوامل: مسرعات. يقول إن رؤيته محجوبة بما يغشاها من المهابة، حتى المطايا ترتد عن مسيرها إليه إشفاقاً من الإقدام.

يدري بما بـكَ قبـلَ تُظْهُـرُه لــه | من ذهنــه ويُجيــب قبـلَ تُـسائِلُ
كلماتُــه قُــضُبٌ وهــنَّ فواصــلٌ | كلُّ الــضرائب تحــتهن مفاصِــلُ[1]
هزمــت مكارمُــهُ المكــارمَ كلَّهــا | حتـــى كـــأنَّ المكرمـــاتِ قنابــلُ[2]
علاّمـــةُ العلمـــاء واللُّـــجُّ الـــذي | لا ينتهـــي ولِكُـــلِّ لُـــجٍّ ســـاحلُ[3]

ثم يقول:

لا تجسُرُ الفــصحاءُ تُنْــشِدُ ههنــا | بيتـــاً ولكنِّـــي الهِزَبْـــرُ الباسِـــلُ
مـــا نـــال أهــلُ الجاهليـــة كُلُّهــم | شعري ولا سمعت بــسِحْري بابِــلُ
وإذا أَتَتْــك مَــذَمَّتي مــن نـــاقصٍ | فهي الــشهادةُ لـــي بـــأنّيَ كامِــلُ

ومدح بقصيدةٍ ثانية أبا سهيل سعيدَ بنَ عبد الله بن الحسن الأَنطاكي، وهو أخو القاضي المار ذكرُه يقول:

قد علَّمَ البينُ منــا البــينَ أجفانــا | تَدْمَى وألَّف في ذا القلبِ أحزانـــا[4]
أَمَلْتُ ساعةَ ساروا كشفَ مِعْــصَمِها | لِيلْبثَ الحــيُّ دون الــسيرِ حَيرانــا
ولـــو بـــدت لأَتـــاهَتْهُم فحجَّبهـــا | صَوْنٌ عقولَهُمُ من لحظها صـــانا[5]

---

(١) قُضُب: جمع قضيب وهو السيف. فواصل: قواطع. الضرائب: جمع ضريبة وهي المضروب بالسيف. أي كلماته سيوف قواطع أينما أصابت فصلت.

(٢) القنابل: جمع قنبلة: الطائفة من الخيل، أي الجماعة من الجيش. أي إن مكارمه غلبت مكارم غيره كأنها جيوش.

(٣) اللجّ: معظم الماء. أي هو علامة العلماء يرجعون إليه في مسائلهم، وهو في جوده لج ليس له منتهى.

(٤) البين: البعد والفراق. يقول: إن فراق الأحبة علّم أجفاننا الدامية من طول البكاء أن يبتعد بعضها عن بعض. وهو كناية عن إدامة السهر.

(٥) تاه يتيه ويتوه: ضل وتحيّر. وأتاهه: أضلَّه وحيّره. الصون: الحفظ. يقول لو ظهرت هذه المحبوبة لهم لحيرتهم بجمال طلعتها، ولكن حجبها عنهم صان عقولهم عن لحظها.

إلى أن يقول:

يلقى الوغى والقنا والنـــازلاتِ بــه والسيفَ والضيفَ رحْبَ الباع جذلانا
تخالُهُ من ذكــاءِ القلــبِ محتميــاً ومن تكرُّمــه والبِــشْرِ نــشوانا[١]
وتَــسحَبُ الحِبَــرَ القينــاتُ رافلــةً في جودِه وتجرُّ الخيــلُ أرســانا[٢]

ثم يمتدح قومه قائلاً:

كأنّ أَلْسُنَهُمْ في النطق قــد جُعِلــت على رماحهمُ في الطعنِ خِرْصانا[٣]
كأنهم يَرِدُونَ المــوتَ مــن ظمــأٍ أَو يَنْشَقُونَ مــن الخَطــيِّ رَيحانــا
الواضـــحينَ أُبُـــوَّاتٍ وأَجْبِنـــةً ووالـــداتٍ وأَلبابـــاً وأذهانـــا

إنَّ السنواتِ الأربع التي قضاها المتنبي متنقِّلاً في أرجاء الشام عقب خروجه من السجن (من سنة ٣٢٤-٣٢٨) هــ لم تكن سوى سنوات انتظار للعثور على حامٍ للأدب جديرٍ بشعره، إذ تُشير قصائده خلال هذه الفترة إلى أنه أصبح أكثر تمكُّناً من صناعة الشعر، فقد بلغ الخامسةَ والعشرين من العمر، وازداد خبرةً وتجربة، وأصبحت نَغَماتُه أكثر شَجَاً وحزناً، وألفاظه أكثر طواعية، ولكنه لم يسجل إضافة جديدة إلى الشعر العربي الذي سبقه لا من حيثُ الألفاظُ والمعاني والأساليبُ ولا من حيث الأوزانُ والقوافي، فلم يستطع الخروج من إطار التقليد إلاّ قليلاً. ذلك على الرغم من التقدم الكبير الذي يتجلَّى في حرصه على التوازن بينَ أجْزاء القصيدة، وهو مالم يتحقَّق في شعر الفترة السابقة.

---

(١) محتمياً: متوقداً شديد الحرارة، البشر: طلاقة الوجه.

(٢) الحِبَر: جمع حبَرة بكسر ففتح: ثياب تعمل في اليمن. والقينات: المغنيات. أي إن ما تلبسه الجواري وترفل فيه من ثياب الحسن فهو من جوده، وكذلك ما تجر خيلنا من الأرسان.

(٣) الخرصان: جمع خرص وهو حلقة السنان والمراد هنا السنان. أي إن أسنتهم ماضية مضاء ألسنتهم في النطق.

الانتقال إلى جنوب الشام

لقاء الأوراجي:

وكان لقاءُ المتنبي بأبي علي هارون بن عبد العزيز الأَوراجي الكاتب مدخلاً للوصول إلى بدْرِ بنِ عمار. وكان الأَوراجي قد اضطلع بدورٍ ما في محاكمة الحلاّجِ الصوفي المعروف. ولماَّ دخل عليه المتنبي قال له: وَدِدْنا يا أبا الطيب لو كنتَ معنا اليوم، فقد ركبنا ومعنا كلب لابن ملك، فطردنا به ظبياً، ولم يكن لنا صقر، فاستحسنتُ صيده. فقال: أنا قليلُ الرغبة في مثل هذا. فقال أبو علي: إنما اشتهيتُ أَن تراه فتستحسنه؛ فتقول فيه شيئاً من الشعر. قال: أنا أفعل، أفتحبُّ أن يكون الآن؟ قال: أيمكن مثل هذا؟ قال: نعم وقد حكَّمتُك في الوزن والقافية. قال: لا بل الأمرُ فيهما إليك، فأخذ أبو الطيب دَرْجاً[١]، وأخذ أبو علي دَرْجاً آخر يكتب فيه كتاباً، فقطع عليه أبو الطيب الكتاب وقال:

ومنـــــزلٍ لـــيس لنـــا بمنـــزلِ ... ولا لغيـــر الغاديـــاتِ الهُطَّـــلِ[٢]

نَـــدِي الخُزامـــى ذَفِـــرِ القَرَنْفُـــلِ ... مُحلَّـــلٍ مِلْـــوَحْشِ لـــم يُحلَّـــلِ[٣]

عَـــنَّ لنـــا فيـــه مُراعـــي مُغْـــزِلِ ... مُحـــيَّنُ الـــنفسِ بعيـــدُ الموئـــلِ[٤]

أغناهُ حُسْنُ الجيدِ عن لُبْسِ الحُلـــي ... وعـــادةُ العُـــري عـــن التفـــضُّلِ[٥]

---

(١) الدرج: الورق الذي يكتب فيه.

(٢) الغاديات: السحائب المنتشرة صباحاً. الهطّل: الكثيرة المطر.

(٣) ندي: رطب. الذفر: الذكي الرائحة. المحلّل: الذي يحلّ كثيراً. مِلْوحش: من الوحش. أي تحل فيه الوحوش دون الإنس.

(٤) عنَّ: ظهر. المراعي: الذي يرعى مع غيره. والمغزل: الظبية لها ولد. والمحيّن : من الحين وهو الهلاك. الموئل: الملجأ.

(٥) أغنى هذا الظبي حسن جيده عن أن يلبس حلياً يتزين بها، وقد تعوّد العري فاستغنى بهذا عن اتخاذ اللباس.

كأنـــــه مُـــــضَمَّخٌ بـــــصندلِ　　معترضـــاً بمثــل قـــرنِ الأَيِّــل

يحـــولُ بـــينِ الكلـــبِ والتأمُّـــلِ　　فحـــلَّ كَلاَّبِـــي وثـــاقَ الأحبُـــلِ[(١)]

عـــن أشـــدقٍ مُـــسَوْجَرٍ مُسَلْـــسلِ　　أَقْـــبَّ ســـاطٍ شَـــرِسٍ شَـــمَرْدلِ[(٢)]

إلى أن يقول:

فلـــم يَـــضِرْنا مَعْـــهُ فَقْـــدُ الأَجـــدلِ　　إذا بقيـــتَ ســـالماً أبـــا علـــي[(٣)]

فالملُـــك للَّـــه العزيـــزِ ثُـــمَّ لـــي

ثم مدحه بقصيدته الهمزية التي يقول فيها:

أمِنَ ازديارَكِ في الـدجى الرقَبـاءُ　　إذْ حيثُ أَنتِ مـن الظـلامِ ضـياءُ

قَلَقُ المليحةِ وهـي مِـسْكٌ هَتكُهـا　　ومسيرُها في الليلِ وهـي ذُكـاءُ[(٤)]

أَسَفي على أَسَـفي الـذي دلَّهْتِنـي　　عن عِلْمـه فبـه عَلـيَّ خَفـاءُ[(٥)]

وشَـــكِيَّتي فقـــدُ الـــسَّقام لأنـــه　　قد كان لمَّـا كـان لـي أَعْـضاءُ

---

(١) الكلاَّب: الذي يسوس الكلاب. الأحبل: جمع حبل. يقول: إنه لسرعته لا يتمكن الكلب من النظر إليه، فلا يستطيع تأمله.

(٢) الأشدق: الكلب الواسع الشدق.المسوجر: الذي في رقبته ساجور وهو قلادة فيها مسامير. المسلسل: في عنقه سلسلة. الأقب: الضامر. الساطي: الذي يسطو على الصيد. الشمردل: القوي السريع.

(٣) الأجدل: الصقر.

(٤) قلق المليحة: اضطرابها وحركتها. وهتكها: انتهاكها. ذكاء: اسم الشمس يقول: إن المليحة مسك، فإذا تحركت انهتك سترها، وافتضح بتضوّع رائحتها، وهي شمس فإذا سارت رآها الناس.

(٥) أي إنه حزين لذهاب عقله لما لقي في هوى المحبوبة من البرح والشدّة، حتى خفي عليه حزنه الذي لا يدرك إلاّ باللب، وهو الآن بلالب.

مَثَّلت عَيْنَكِ فـــي حَـــشايَ جراحـــةً ... فتـــشابها كلتاهمـــا نَجْـــلاءُ[١]

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زُوحمـت ... وإذا نَطَقْـــتُ فـــإنني الجـــوزاءُ

بينـــي وبـــين أبـــي علـــيٍّ مِثْلُــهُ ... شـــمُّ الجبـــالِ ومِـــثْلَهنَّ رجـــاءُ[٢]

وعِقـــابُ لبنـــانٍ وكيـــف بقطعهـــا ... وهـــو الـــشتاءُ وصـــيفُهنَّ شـــتاءُ

لَبَسَ الثلوجُ بهـا علـيَّ مـسالكي ... وكأَنَّهـــــا ببياضـــــها سَـــــوْداءُ

وكـــذا الكـــريمُ إذا أقـــام ببلـــدةٍ ... سال النُّـضارُ بهـا وقـام المـاءُ

إلى أن يقول:

في خَطّه مـن كـلِّ قلـبٍ شَـهْوَةٌ ... حتـــى كـــأنَّ مِـــدادَهُ الأَهـــواءُ

فـــي كـــل يـــومٍ للقـــوافي جولـــةٌ ... فـــي قلبـــه ولأُذْنـــه إصـــغاءُ

من يظلـمُ اللُّؤَمـاءَ فـي تكلفـيهم ... أَنْ يُـصبحوا وهـمُ لـه أكفـاءُ

ونَـذيمُهم وبهـم عرفنـا فَـضْلَه ... وبـــضدِّها تتبـــيَّنُ الأشـــياءُ[٣]

إن هذه القصيدة الهمزية تُشِير إلى أَنَّ الشاعر قصد الأَوراجي الذي كان يُقيم قريباً من بدر بن عمار في طبرية أو في دمشق، أو ما جاورها من مُدُنِ الشام لأَنه قطع شُمَّ الجبال للوصول إليه، ومرَّ بعقاب لبنان ومسالكه الصعبة المكلَّلة بالثلج، والمرجَّح أَنه اتصل عن طريق الأَوراجي هذا ببدر بن عمّار[٤].

---

(١) أي جعلت في قلبي جرحاً واسعاً يشبه عينيك في الاتساع.

(٢) يقول: بيني وبين الممدوح جبال شامخة، ورجاء عظيم مثلها.

(٣) نذيمهم: نذّمهم.

(٤) يرجّح وجود الأوراجي بدمشق قوله: كان معنا كلب لابن ملك، وابن ملك هذا يهودي كان حاكم دمشق من قبل الإخشيد عندما مرَّ بها المتنبي متوجّهاً إلى مصر عقب مغادرته حلب. وربما كان مقيماً بدمشق في تلك الفترة.

المتنبي وبدر بن عمار:

كان المتنبي قد هجا بدرَ بن عمار قبل أكثر من ثلاثة أَعوام حين ولي على حلب من قبل ابن رائق، ولكن إسحاقَ بن كَيَغْلَغ القائد الإِخشيدي أزعجه عنها وردَّ إليها واليها السابق وفي ذلك يقول المتنبي مستعطفاً ابنَ كيغلغ لإخراجه من السجن:

فـــولَّى بأَشـــياعه الخرشـــنيُّ كـــشاءٍ أَحـــسَّ بـــزأرِ الأســـودِ
يَرَوْنَ من الـذعر صـوتَ الريـاح صـــهيلَ الجيـادِ وخفـقَ البنـودِ
فمن كـالأميرِ ابـنِ بنـتِ الأميـر أَوْ مـــن كآبائـــهِ والجـــدودِ
سَـعَوا للمعـالي وهـم صـبيةٌ وسادوا وجادوا وهم فـي المهـودِ

في كنف بدر بن عمَّار:

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة طَرَدَ ابنُ رائق أميرُ الأمراء الإخشيديين من الشام، ولكنه مُنِي بهزيمةٍ كاملة على تخوم مصر فتراجع ابنُ رائق طالباً الصلح على أن يحتفظ بفلسطين لقاء جزية. فعيَّن ابنُ رائق بدراً الخرشنيّ والياً على طبريّة في أوائل سنة ٣٢٨هـ وفيها صار المتنبي شاعره الخاص لعدة أشهر.

وطبرية بُليدة مُطلَّة على البُحَيرة المعروفة ببُحيرة طبرية، وهي في طرف جبل. وجبل الطُّور مُطِلٌّ عليها، وهي من أعمال الأَردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبين القدس، وبينها وبين عكا يومان. وهي مستطيلة على البحيرة عرضها قليل حتى تنتهي إلى جبل صغير، فعنده آخر العمارة. وحمَّاماتها يقال إنها من عجائب الدنيا فليست هذه التي على باب طبرية على جانب بحيرتها. ولكنها في موضع شرقي قرية يقال لها الحسينية في وادٍ وهي عمارة قديمة يقال: إنها من عمارة سليمان بن داود، وهو هيكل يخرج الماء من صدره. وقد كان يخرج من اثنتي عشرة عيناً كلُّ عين مخصوصة بمرض. إذا اغْتسل فيها صاحبُ ذلك المرض برئ

بإذن الله تعالى. والماءُ شديد الحرارة جداً صافٍ عذب طيِّبُ الرائحة. ويقصده المرضى يَسْتشفون به، وعيون تَصبُّ في موضعٍ كبير حرّ يسبح الناس فيه، ومنفعته ظاهرة[1]. ويقال: أَهْلُ طبرية شهرين يرقصون من كثرة البراغيث، وشهرين يلوكون[2] يعني البق فإنه كثير عندهم، وشهرين يثاقفون يعني بأيديهم العصي يطردون الزنابير عن طعومهم وحلاوتهم، وشهرين عُراة يعني من شدّة الحرّ، وشهرين يزمرون يعني يمصُّون قصبَ السكر، وشهرين يخوضون من كثرة الوحل في أَرْضهم. قال: وأسفل طبرية جسر عظيم عليه طريق دمشق وشربهم من البحيرة، وحول البحيرة كلّه قرى مُتَّصله ونخيل، وفيها سُفُن كثيرة، وهي كثيرة الأسماك لا تطيب لغير أَهْلها. والجبل مطّل على البلد، وماؤها عذب ليس بحلو. والنسبة إليها طَبرَاني على غير قياس كما قالوا صنعاني وبهراني وبحراني، وللتفريق بين النسبة إلى طبرية وطبرستان، يُقال في الأولى طَبَراني وفي الثانية طَبَرِيّ.

فُتحت طبرية على يد شُرَحْبيل بنِ حَسَنَة في سنة ١٣هـ صلحاً على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وقيل: إنه حاصرها أياماً، ثم صالح أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم إلاّ ما جلَوا عنه وخلَّوه، واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً. ثم نقضوا في خلافة عمر رضي الله عنه، واجتمع إليهم قومٌ من شواذّ الروم فَسَيَّر أبو عبيدة إليهم عَمْرَو بن العاص في أربعة آلاف وفتحها على مثل صلح شُرَحْبيل. وفتح جميعَ مُدُنِ الأردن على مثل هذا الصلح بغير قتال. (عن ياقوت بتصرف)

في طبرية لقي المتنبي الشاعرُ الأميرَ بَدْرَ بنَ عمار وهو يومئذٍ يتولّى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٨هـ فامتدحه بقوله:

أَحُلْمــاً نـــرى أم زمانـــاً جديـــداً   أمِ الخَلْقُ في شخصِ حــيٍّ أُعيــدا

تجلّـــى لنـــا فأضـــأْنا بـــه   كأنَّـــا نجـــومٌ لَقِينـــا سُـــعُودا[3]

---

(١) هي ما تُسمَّى الحمَّة اليوم، وتقع ضمن الأراضي السورية التي تحتلها إسرائيل.

(٢) كذا وردت وأحسبها يدوكون أي يسحقون البق بأيديهم.

(٣) أضأنا به: استضأنا به. كالنجوم التي تسعد ببروجها.

رأينـــــا ببـــــدرٍ وآبائـــــه لبـــدرٍ ولُـــوداً وبَـــدْراً وليـــدا[١]
طلبنـــا رضـــاه بتـــرك الـــذي رضـــينا لـــه فتركنـــا الـــسجودا[٢]
أميـــرٌ أميـــرٌ عليـــه النـــدى جـــوادٌ بخيـــلٌ بـــأنْ لا يجـــودا
يُحـــدَّث عـــن فـــضله مكرهـــاً كـــأنَّ لـــه منـــه قلبـــاً حـــسودا[٣]
ويُقـــدمِ إلاَّ علـــى أن يَفِـــرَّ ويَقْـــدِرُ إلاَّ علـــى أن يزيـــدا[٤]
كـــأن نوالَـــك بعـــضُ القـــضاء فما تُعـطِ منـه نَجِـدْهُ جُـدُودا[٥]
ورُبَّتَمـــا حملـــةٍ فـــي الـــوغَى رَدَدْتَ بها الذُبَّلَ الـسُّمرَ سـودا[٦]
ومـــالٍ وهبـــتَ بـــلا موعـــدٍ وقِـرْنٍ سـبقتَ إليـه الوعيـدا[٧]
بهجـــر ســـيوفِك أَغمادَهـــا تَمنَّى الطُّلى أن تكـونَ الغُمـودا[٨]
قتلـــتَ نفـــوسَ العـــدا بالحديـــ ـدِ حتى قتلـتَ بهـنّ الحديـدا[٩]
فأنـــــت وحيـــــدُ بنـــــي آدمٍ ولـستَ لفقـدِ نظيـرٍ وحيـدا[١٠]

---

(١) ولود: والد. ووليد: مولود. يقول: رأينا ببدر بدراً مولوداً. وبرؤية آبائه والداً لبدر.
(٢) يقول رضينا بالسجود له لاستحقاقه ذلك فلم يرض بذلك فتركنا السجود طلباً لرضاه.
(٣) أي لا يحب أن يمدحه أحد بحضرته كأن له من نفسه قلباً يحسده.
(٤) يقول: إنه يقدم على كل أمر عظيم إلاّ الفرار في الحرب، ويقدر على فعل أي شيء إلاّ على أن يزيد على ما هو عليه من علو الشأن وجلال القدر.
(٥) النوال: العطاء. والجدود: جمع جد وهو البخت. أي أن عطاءه سعد كله فهو أحد شقي القضاء.
(٦) ربتما: ربّما والتاء للتأنيث وما زائدة. والذبّل السمر: الرماح. أي ربما حملت على الأعداء فعادت رماحك مضرجة بدمائهم.
(٧) القرن: الكفء في الحرب. يقول: ربّ مالٍ وهبته بغير موعد، ورب كفء سبقت إليه من غير تهديد.
(٨) الطّلى: الأعناق. والغمود: جمع غمد جفن السيف. يقول: إن سيوفك هاجرة أغمادها لأنها مسلولة من أغمادها دائماً لضرب الأعداء، لذلك فهي تتمنى أن تكون الأعناق أغماداً لها.
(٩) يقول: ما زلت تقتل الأعداء بالسلاح حتى قتلت السلاح نفسه، أي حطمته.
(١٠) يقول: أنت وحيد لا لأنه لم يوجد لك نظير قديماً ثم فقد، وإنما لأنه لم يوجد لك نظير البتة في بني آدم.

وممَّا لا شكَّ فيه أن المتنبي فرح غايةَ الفرح بلقاء بدر بن عمار، وبنى الآمال العراضَ على هذا الأمير الذي ظنَّ أنَّه يَسْتحقُّ أَن يتوجَّه إليه بشعره الذي طالما عرضه في سوق الكساد لذلك نراه يهجم على المدح هجوماً بلا مقدّمات، فلم يَنْسِب ولم يتغنَّ، وإنما بادر إلى المدح بلا تَحفُّظ ولا احتياط، فهو يبحث عن مُسْتَقَرٍّ بعد سنوات من الاضطراب والتجوال، والمغامرات الخاسرة.

وعندما فُصِدَ بَدْرُ بنُ عمار لعلَّة عرضت له فغاص المبضع فوق حقه؛ فأضرَّبه ذلك مدحه المتنبي قائلاً:

أَبعَــدُ نـــأْيِ المليحـــةِ البَخَـــلُ ... في البُعْـدِ مـا لا تُكلَّـفُ الإبِـلُ(١)

مَلُولـــةٌ مـــا يـــدومُ لـــيس لهـــا ... مـــن مَلَـــلٍ دائـــمٍ بهـــا مَلَـــلُ(٢)

كأنمـــــا قَـــــدُّها إذا انفتلـــــت ... سكرانُ مـــن خمـــر طَرْفِهـــا ثَمِـــلُ

يجـــذبها تحـــت خـــصرها عَجُـــزٌ ... كأنـــه مـــن فراقهـــا وَجِـــلُ

بـــي حَـــرُّ شـــوقٍ إلـــى ترشُّـــفها ... ينفـــصل الـــصبرُ حـــين يتّـــصلُ

إلى أن يقول:

وفي اعتمار الأمير بدرِ بـــن عَمَّـــا ... رٍ عن الـــشُّغلِ بـــالورى شُـــغُلُ(٣)

أصبح مالٌ كمالِـــه لـــذوي الحـــ ... ـــاجةِ لا يُبتَـــدَى ولا يُـــسَلُ(٤)

هـــان علـــى قلبـــه الزمـــانُ فمـــا ... يَبـــينُ فيـــه غـــمٌّ ولا جَـــذَلُ(٥)

---

(١) النأي: البعد. يقول: أبعد ما يكون من بُعدْ المليحة البخل إذ لا يمكن للإبل أن تقطع مسافة البخل كمسافة المكان.

(٢) أي إنها تملّ كل شيء إلاّ مللها فإنها لا تملّه.

(٣) الاعتمار: الزيارة.

(٤) إن ماله ملك للعفاة يأخذونه متى شاؤوا فهو لا يبتدئهم بالعطاء ولا هم يسألونه.

(٥) الجذل: السرور. يقول: إنه لرحابة صدره ورجاحة عقله يستخف بطوارق الزمان فلا يبطره السرور ولا يجزع عند الحزن.

ثم يقول:

قُـصِدْتَ مـن شـرقها ومغربهـا … حتـى اشـتكتكَ الركـابُ والسُبُلُ
لـم تُبـقِ إلاّ قليـلَ عافيـةٍ … قـد وفـدت تجتـديكَها العِلَـلُ[(١)]
عـذرُ الملُـومَيْنِ فيـكَ أنهمـا … آسٍ جبـانٌ ومِبْـضَعٌ بَطَـلُ[(٢)]
مددتَ فـي راحـة الطبيـب يـداً … وما دَرَى كيـف يُقطَعُ الأمـلُ[(٣)]
إن يكـنِ البَـضْعُ ضَـرَّ باطِنَهـا … فربمـا ضـرَّ ظَهْرَهـا القُبَـلُ
يَـشُقُّ فـي عِرقهـا الفـصادُ ولا … يشقُّ في عِرْقِ جُودهـا العَـذَلُ[(٤)]
خـامَرَهُ إذا مـددتَها جَـزَعٌ … كأنـه مـن حَذَاقـةٍ عَجِـلُ[(٥)]
جـاز حـدودَ اجتهـادِهِ فـأتى … غيـرَ اجتهـادٍ لِأُمّـهِ الهَبَـلُ[(٦)]
أبلغُ ما يُطلبُ النجاحُ بـه الطبْـ … ـعُ وعنـد التعمُّـقِ الزلـلُ[(٧)]
ارثِ لهـا إنهـا بمـا ملكـت … بالـذي قـد أَسَـلْتَ تنهمـلُ[(٨)]
مثلُـك يـا بـدرُ لا يكـونُ ولا … تـصلُح إلاَّ لمثلـك الـدولُ

ومن القصائد الرائعة اللامية التي يصف فيها ما كان بين بدر وبين الأسد من صراعٍ ينتصر فيه بدر على الأسد إذْ قال:

---

(١) تجتديكها العلل: تستوهبك إياها.
(٢) الآسي: الطبيب. البطل: الشجاع.
(٣) أي إن يد الممدوح أمل الناس جميعًا؛ منها يرجون الإحسان والعطاء.
(٤) يشق: يؤثر. والعذل: اللوم. يقول: إن أَثَّر الفصد في يده فإن اللوم لا يؤثر في جودها.
(٥) خامرة: خالطه. والجزع: قلة الصبر. الحذاقة: الحذق. يقول جزع الطبيب من هيبتك ولم يتأنّ كأنه عجل من حذقه.
(٦) أي بالغ في الاجتهاد حتى جاوز الحد، ثم دعا عليه فقال لأمه الهبل أي الثكل.
(٧) إن النجاح مقرون بالاستطاعة، فإذ تكلف المرء فوق ما يستطيع زلّ.
(٨) ارث: رقّ لها وأرفق بها: يقول: رفقاً بهذه اليد التي تسيل بما تملك كما تسيل بمثل ما أسلته منها من دم الأعداء.

في الخَدّ إنْ عَزَم الخليطُ رحيلا مطرٌ تزيدُ به الخدودُ مُحولا[1]

ياناظرةً نَفَتِ الرقادَ وغادرت في حدّ قلبي ما حييتُ فلولا[2]

ثم ينتقل إلى المدح فيقول:

الفارجُ الكُربَ العظامَ بمثلها والتاركُ المَلِكَ العزيزَ ذليلا

نَطِقٌ إذا حَطَّ الكلامُ لِثامَهُ أعطى بمنطقه القلوبَ عقولا[3]

أعدى الزمانَ سخاؤه فسخا به ولقد يكونُ به الزمانُ بخيلاَ[4]

إلى أن يقول:

أَمعفِّرَ الليثِ الهزبْرِ بِسوْطِهِ لمن ادَّخَرْتَ الصارمَ المصقولا

وقعت على الأُردنِّ منه بليَّةٌ نُضِدت بها هامُ الرفاقِ تلولا

وَرْدٌ إذا وردَ البحيرةَ شارباً ورد الفراتَ زئيرُه والنيلا[5]

متخضِّبٌ بدم الفوارس لابسٌ في غِيلهِ من لِبْدتيه غِيلا[6]

ما قُوبلت عيناه إلاَّ ظُنَّتا تحت الدجى نارَ الفريق حُلُولا

في وحدةِ الرهبان إلاَّ أنه لا يعرف التحريمَ والتحليلا

يطأُ الثرى مترفّقاً من تيهِهِ فكأنه آسٍ يَجُسُّ عليلا

---

(١) الخليط: من يخالطك ويعاشرك. والمراد به: الحبيب. يقول: لقد عزم الحبيب الرحيل، فأبكاني رحيله إذْ سال دمعي كالمطر مما زاد في شحوبي. والمطر من شأنه أن يخصب الأرض، أما الدمع فهو مطر صنيعهُ على الضدّ من هذا.

(٢) إن نظرته إلى الحبيب لم تورثه إلاّ الأرق والسهاد، وتركت أثاراً في قلبه.

(٣) نطق: لسن، بليغ. وكانت العرب تلتثم بعمائمها، فإذا أرادوا أن يتكلموا كشفوا اللثام عن أفواههم. والمراد أنه إذا تكلم نطق بالحكمة.

(٤) يقول: إن الزمان تعلّم السخاء من سخائه فسخا به، ولولا ذلك لبخل به واستبقاه لنفسه.

(٥) الورد: الأسد.

(٦) الغيل: الأجمة، والغابة. اللبدة: الشعر المجتمع على كتف الأسد.

ويـــردُّ عُفْرتَـــهُ إلـــى يافوخِـــه	حتـــى تـــصيرَ لرأســـه إكلـــيلا[(١)]

وتظنُّـــه ممَّـــا يزمجـــرُ نَفْـــسُهُ	عنهـــا لـــشدّة غيظـــه مـــشغولا[(٢)]

قَـــصرَتْ مخافتُـــه الخُطـــا فكأنمـــا	ركِبَ الكمـــيُّ جـــوادَهُ مـــشكولا[(٣)]

ألقـــى فريْـــستَهُ وبَربْـــرَ دونهـــا	وقَربُـــتَ قُرْبـــاً خالـــه تطفـــيلا[(٤)]

فتـــشابه الخُلُقـــان فـــي إقدامِـــه	وتخالفـــا فـــي بَـــذْلِكَ المـــأْكولا[(٥)]

أسدٌ يرى عُـضْويه فيـك كليهمـا	مَتْنَـــاً أَزَلَّ وســـاعداً مفتـــولا[(٦)]

في سرجِ ظامئةِ الفصوصِ طِمِـرَّةٍ	يـــأبى تفرُّدهـــا لهـــا التمثـــيلا[(٧)]

نَيَّالَـــةِ الطلبـــات لـــولا أنهـــا	تُعطـــي مكـــانَ لجامهـــا مـــانيلا[(٨)]

تَنْـــدَى ســـوالفُها إذا استَحْـــضَرْتَها	ويُظَـــنَّ عَقْـــدُ عِنانهـــا مَحْلُـــولا[(٩)]

ما زال يجمـــع نَفْـــسَهُ فـــي زَوْره	حتى حَسِبْتَ العرضَ منـــه الطـــولا

ويَـــدُقُّ بالـــصدرِ الحجـــارَ كأنـــه	يبغي إلى ما في الحضيض ســـبيلا

---

(١) العفرة: الشعر المجتمع على قفاه.

(٢) يقول: إن نفسه تظنه مشغولاً عنها من شدة غضبه.

(٣) الكميّ: البطل المستتر بسلاحه. المشكول: المقيد بالشكال. يقول: كأن الشجاع ركب فرسه بشكاله، فلا يخطو ولا يتحرك خوفاً منه.

(٤) البربرة: الصياح، وكلام المغضب. والتطفيل: الدخول على الآكلين من غير دعوة. يقول: لما قصدته ألقى فريسته، وزمجر دونها لأنه ظن أنك تتطفل على صيده.

(٥) الخلقان: الطبعان. يريد تشابهتما في الجرأة والإقدام وتخالفتما في البذل.

(٦) عضواه: المتن والساعد. والمتن: جانب الصلب. الأزلّ: القليل لحم العجز والفخذين.

(٧) ظامئة الفصوص: دقيقة المفاصل. طمّرة: وثابة. يقول: واجهته راكباً فرساً وثابة لا مثيلَ لها في الخيل.

(٨) نيالة: من النيل. الطلبات: الحاجات. يقول: إن هذه الفرس تدرك ما تطلبه لشدة جريها. وهي مشرفة العنق لا تدني رأسها إلاّ للّجام.

(٩) السوالف: جمع سالفة وهي صفحة العنق، واستحضرتها من الحضر وهو الركض. والعنان: سير اللجام. وهو يريد بذلك طواعيتها لفارسها وسرعتها في الركض.

وكأنَّـــه غرَّتْـــهُ عـــينٌ فـــادَّنى	**لا يُبصرُ الخطبَ الجلـيلاَ جَلـيلا[١]**
أَنَفُ الكـريمِ مـن الدنيَّـة تـاركٌ	**في عينه العـددَ الكثيـرَ قلـيلا[٢]**
والعارُ مَـضَّاضٌ ولـيس بخـائفٍ	**من حَتْفه مَنْ خـاف ممَّـا قـيلا[٣]**
سـبق التقاءَكَـهُ بوثْبـةِ هـاجمٍ	**لـو لـم تـصادمْهُ لَجـازَكَ مـيلا**
خَذَلْتـــه قُوَّتُـــه وقـــد كافحتَـــهُ	**فاستنـــصر التـــسليمَ والتجـــديلا**
قَبَـضَتْ مَنِيَّتُـــه يديـــه وعنقَـــه	**فكأنمـــــا صـــــادَفْتَهُ مَغْلـــــولا**
سـمع ابـنُ عمَّتـه بـه وبحالـهِ	**فنجا يهرولُ أمْـسِ منـك مهُـولا**
وأمـــرُّ ممَّـــا فَـــرَّ منـــه فِـــرارُه	**وكَقَتْلـــهِ أن لا يمـــوتَ قتـــيلا**

إلى أن يقول:

لـو كـان علمُـكَ بالإلـه مقـسمّاً	**في الناس ما بعـث الإلـهُ رسـولا**
لو كان لفظُك فيهمُ ما أَنْـزَلَ الـ	**ـقُرآنَ والتـوراةَ والإنجـيلا**

ومما قاله في مدح بدر هذه اللامية الأخرى التي يقول فيها:

بقائي شـاءَ لـيس هُـمُ ارتحـالا	**وحسنُ الصبرِ زمُّـوا لا الجِمَـالا[٤]**
تَوَلَّـــوْا بغتـــةً فكـــأنَّ بَيْنـــاً	**تهيّبنـــي ففاجـــأني اغتيـــالا[٥]**

---

(١) ادّنى: من الدنو وهو القرب. يقول: لقد اغتّر عند رؤيتك، وخدعه بصره، فلم يقدر خطورة ما أقدم عليه من الدنو منك.

(٢) الأَنَف: الأنفة. أي إن الكريم يأنف من الدنية فلا يهرب، بل لا يعبأ بالعدد الكثير. فالأسد لم يهرب، وأنفته جعلت في عينه العدد الكثير قليلاً. وربما يعود الكلام على الممدوح.

(٣) مضّاض: مؤلم. يقول: إن العار موجع فمن خافه لم يخفِ الهلاك.

(٤) يقول: لما ارتحلوا عني ارتحل بقائي، فكأن بقائي شاء ارتحالاً لا هم شاؤوا ذلك، وكأنهم زمّوا صبري للرحيل لا جمالهم لأني فقدت الصبر بعدهم.

(٥) تولّوا: أدبروا. يريد. كأن البين هابه ففاجأه بالاغتيال.

فكـــان مـــسيرُ عِيْـــسِهِمُ ذَمـــيلاً وســـيرُ الـــدمعِ إِثْـــرَهُمُ انهمـــالا[١]

كأن العـــيسَ كانـــت فـــوق جفنـــي مُنَاخـــات فَلَمَّـــا ثُـــرْنَ ســـالا[٢]

وحجَّبَـــتِ النـــوى الظَّبْيـــاتِ عَنِّـــي فَـــساعدتِ البراقـــعَ والحجـــالا[٣]

لَبِـــسْنَ الوشـــيَ لا مُـــتَجمِّلاتٍ ولكن كـــي يَـــصُنَّ بـــه الجَمَـــالا[٤]

كـــأَنَّ الحُـــزْنَ مـــشغوفٌ بقلبـــي فساعةَ هجرهـــا يجـــدُ الوصـــالا[٥]

كذا الدنيا علـــى مـــن كـــان قبلـــي صروفٌ لـــم يُـــدِمْنَ عليـــه حـــالا

أشـــدُّ الغـــمِّ عنـــدي فـــي ســـرورٍ تـــيقَّن عنـــه صـــاحبُه ارتحـــالا

أَلِفـــتُ ترحُّلـــي وجعلـــتُ أرضـــي قُتُـــودي والغُريـــريَّ الجُـــلالا[٦]

فمـــا حاولـــتُ فـــي أرضٍ مُقامـــاً ولا أزمعـــتُ عـــن أرضٍ زوالا[٧]

علـــى قَلَـــقٍ كـــأنَّ الـــريحَ تحتـــي أُوَجِّهُهَـــا جَنوبـــاً أو شـــمَالا

إلى البدرِ بـــن عمـــارِ الـــذي لـــم يكن في غُـــرَّة الـــشهرِ الهـــلالا[٨]

بـــلا مِثْـــلٍ وإن أَبْـــصرت فيـــه لكّـــل مُغَيَّـــبٍ حـــسنٍ مثـــالا[٩]

حـــسامٌ لابـــن رائـــقٍ المرجَّـــى حُـــسامِ المتقـــي أيـــامَ صـــالا[١٠]

---

(١) الذميل: السير المتوسط. والانهمال: السكب. يقول: كانت إبلهم تسير ذميلاً، ودمعي ينصب في إثرهم انصباباً.

(٢) يقول: كأن إبلهم كانت تمسك دمعي عن السيلان، فلما فارقوني سال دمعي.

(٣) النوى: الفراق. الحجال: الخدور. يقول: حجبهم عني البعد، كما أسهم في حجبهم عني البراقع والخدور.

(٤) الوشي: الثياب المنقوشة. يقول لبسن الديباج ليصنّ به جمالهن عن أعين الناظرين لا للتجمل.

(٥) يقول: كأن الحزن يعشق قلبي، وإنما يجد الوصال إذا هجرتني.

(٦) قتودي: جمع قتد وهو خشب الرحل. والغريري: منسوب إلى غرير فحل من الإبل كان في الجاهلية تنسب إليه كرام الإبل. والجُلال: العظيم والجليل.

(٧) يقول: ما طلبت الإقامة في أرض لأني أبداً على سفر، ولا عزمت الرحيل عنها، لأن الرحيل إنما يكون بعد الإقامة، ولا إقامة لي حتى أرحل.

(٨) أي إن الممدوح بدر دائم، ولم يكن هلالاً قط.

(٩) يقول: هو منقطع النظير لا مثيل له وإن رأيت فيه من الصفات ما يمثل لك كل ما غاب عنك من المحاسن.

(١٠) أي هو حسام لأبي بكر ابن رائق الذي كان بدوره حساماً للمتَّقي الخليفة العباسي.

إلى أن يقول:

أَرى المتشاعرين غَروُا بذمِّي ومن ذا يَحْمَدُ الداءَ العُضالا

ومن يكُ ذا فمٍ مُرّ مريض يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

إن ما يُستشفُّ من البيتين الأخيرين هو التعريض بأُولئك الحسَّاد الذين سَعَوا في إفساد العلاقة بين الشاعر والأمير، لذلك انتهزوا فرصة خروج الأخير لتسلّم ولاية السواحل بالإضافة إلى عمله؛ ليوغروا صَدْرَهُ على الشاعر فنجحوا في ذلك، وكان المتنبي قد تخلَّف عن صُحْبَةِ أميره، فتقدّم إثْرَ ذلك من ممدوحه بقصيدة نونية يمدحه، ويعتذر إليه ممَّا بدر منه، فقال:

الحبُّ ما منعَ الكلامَ الأَلسُنا وألذُّ شكوى عاشقٍ ما أَعلنا

ليتَ الحبيبَ الهاجري هَجْرَ الكرى من غير جُرمٍ واصلي صِلَةَ الضنى(١)

إلى أن يقول:

وقطعتُ في الدنيا الفلا وركائبي فيها ووقتيَّ الضُّحى والمَوْهِنا(٢)

ووقفت منها حيث أوقفني الندى وبلغتُ من بدرِ بن عمَّارِ المنى(٣)

لأبي الحسين جَدىً يضيقُ وعاؤه عنه ولو كان الوعاءُ الأزمُنا(٤)

وشجاعةٌ أَغْناه عنها ذِكرُها ونهى الجبانَ حديثُها أن يَجْبُنا

أقبلتَ تَبْسِمُ والجيادُ عوابسٌ يخبُبْنَ بالحَلَقِ المضاعَفِ والقنا

فَطِنَ الفؤاد لما أَتيتُ على النوى ولما تركتُ مخافةً أن تَفْطُنا(٥)

---

(١) الضنى: المرض والهزال. يقول: ليت الحبيب الذي هجرني من غير ذنب كهجر النوم لأجفاني يواصلني كمواصلة الضنى لجسمي.

(٢) يصف كثرة أسفاره وقطعة الفلوات ليل نهار، إنه قطع المكان والزمان والمركوب، فأفنى كلا منها بأسفاره.

(٣) منها: أي من الدنيا، يقول: وقفت من الدنيا.

(٤) الجدا: العطاء. أي إن عطاءه لا يسعه وعاء ولو كان ذلك الوعاء الدهور.

(٥) إن قلبك يعرف ما فعلته في حال بعدك، وما تركته فلم أفعله خوفاً من أن تعلم فتعاتبني عليه. أي فلست في حاجةٍ إلى وشايةَ الواشين.

أضحى فراقُك لـي عليـه عقوبـةً ... ليس الذي قاسـيتُ منـه هيّنـا[١]

فاغفِر فدىً لك واحبُني من بعـدها ... لِتَخُـصَّني بعطيَّـةٍ منهـا أنـا

وانْهَ المـشيرَ عليـك فـيَّ بِـضلَّةٍ ... فـالحُرُّ ممـتَحَنٌ بـأولادِ الزنـا[٢]

وإذا الفتى طـرح الكـلامَ معرِّضـاً ... في مجلسٍ أَخذ الكلامَ اللَّذ عَنَـى[٣]

ومكايـدُ الـسفهاءِ واقعـةٌ بهـم ... وعداوةُ الـشعراء بـئس المقتنـى

لُعنـت مقارنـةُ اللئـيم فإنهـا ... ضَيْفٌ يجرُّ من الندامـةِ ضَـيْفَنَا[٤]

غَضَبُ الحسودِ إذا لقيتُـك راضـياً ... رُزْءٌ أخفُّ علـيَّ مـن أَنْ يُوزَنَـا

ولكنّ هذا المديح، وذلك التعريض بالسفهاء، ومكايدهم لم يحولا دون إفساد العلاقة بين الأَمير وشاعره. ولعلَّ المكانة التي تبوّأَها المتنبي في نفس الأَمير، وما كان يُغدقِه عليه من الصلات من الأَسباب التي أَسهمت في إثارة حَسَد الحُسَّاد وإغاظتهم. كما أَنّ نـزعة الاستعلاء، والإعجاب الشديد بالنفس الذي كان يُبديه المتنبي في شعره وسلوكه، بالإضافة إلى الجديَّة التي كان يتَّصف بها أَغرت حُسَّادَهُ وخصومَه بالكيد له بسبب استئثاره بقلب سيِّدهم ووليّ نعمتهم؛ فدسُّوا عليه الدسائس، وأوسعوه نمًّا. وكان يقف على رأس هؤلاء الكائدين ابنُ كَروَّس الذي اتهم الشاعِرَ بعدم قدرته على ارتجال الشعر في اللحظة المناسبة؛ فامتحنه بدر فثبت له ولابن كروّس أنه قادر على ارتجال الشعر حقاً. وقد أُكره أبو الطيب على الشرب ذات يوم فشرب حتى ذُهِل عن نفسه فلمَّا أصبح دخل على الأمير، فعرض عليه الصحبة للشرب فقال ارتجالا:

---

(١) عليه: على ما فعلته. أي صار فراقك عقوبة لي، على ما فعلته.

(٢) الضلَّة: الضلال. أي أشار عليك بهجراني وحرماني وهذا ضلال لأني لا أستحق ذلك. وأولاد الزنا: الوشاة.

(٣) اللذعنى: الذي عناه يعني أنه عرّض بذكر أولاد الزنا، وقد فهم التعريض من عناه به؛ فهو يأخذه لنفسه.

(٤) الضيفن: الذي يتبع الضيف. أي إن مخالطة اللئيم مذمومة لما تجر وراءها من الندامة.

وجدتُ المُدامةَ غلاَّبةً تُهيِّجُ للقلبِ أَشْواقَهُ
تُسيءُ إلى المرء تأديبَهُ ولكن تُحسِّنُ أَخْلاقَهُ
وأَنْفَسُ ما للفتى لُبُّهُ وذو اللبِّ يكره إِنفاقَهُ
وقد مُتُّ أَمْسِ بها مَوْتَةً ولا يشتهي الموتَ من ذاقَهُ

فراق بدر والتوجُّه إلى جرش:

أَحسَّ أبو الطيب بأن تغيُّراً ملحوظاً طرأ على قلب بدر، فآثر السلامة على الوقوع في دائرة الخطر، وتمثَّل قولَ الشنفرى:

وفي الأرضِ منأىً للكريم عن الأَذى وفيها لمن رام القِلى مُتعزَّلُ

ولم يجد بُدّاً من الفرار من جوار ولي نعمته، فتوجّه من طبرية إلى جَرَش لينزلَ على صديقٍ له يُدعى أبا الحسن علي بن أحمد المُريّ الخراساني، وجَرَش تقع في شرقي جبل السواد (عجلون) من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق وهي في جبل يشتمل على ضياع وقرىً يقال للجميع جبل جَرَش. وجرش اسم رجل هو جَرَشُ بنُ عبد الله بن عُلَيْم بن جناب بن هُبَل بن عبد الله بن كنانه بن بكر بن عوف بن عُذرة بن زيد اللات بنُ رُفَيدة بن ثور بن كلب بن وبرة، ويخالط هذا الجبلَ جبلُ عوف. وإليه يُنْسَب حمَى جَرَش، وهو من فتوح شرُحْبيل بن حَسَنة. وفيه قال تليد الضبّي وكان قد أُخِذ في أيام عمر بن عبد العزيز على اللصوصية:

يقولون جاهِرْنا تليدُ بتَوْبَةٍ وفي النفس منِّي عَوْدَةٌ سأَعودها
أَلا ليتَ شعري! هل أَقودنَّ عُصْبَةً قليلٌ لربِّ العالمين سُجودُها
وهل أَطرُدَنَّ الدهرَ ما عِشْتُ هَجْمَةً مُعَرَّضةَ الأفخاذِ سُجْحاً خدودُها[1]
قضاعيةً حُمَّ الذُّرا فتربَّعت حِمى جَرَشٍ قد طار عنها لُبودُها[2]

---

(١) الهجمة: العدد العظيم من الإبل لا يبلغ المئة. وسجح الخد: سهل وطال في اعتدال فهو أسْجح وجمعه: سُجح. ومعرّضة الأفخاذ: سمينة.

(٢) قضاعية: منسوبة إلى قضاعة. حُمّ الذرا: سود الأَسنمة، ولعله أراد الاكتناز والسمن.

وحطّ الشاعر رحاله في هذه المدينة لينفِّسَ عَمَّا يعتملُ في صدره من خيبةٍ وحزن، ويستعيدَ عزمَهُ وإباءه الضيم والذلَّ، فتوجَّه إلى صديقه بالقصيدة التالية:

لا افتخـــارٌ إلاّ لمـــن لا يُـــضامُ ... مُـــدركٍ أو مُحـــاربٍ لا ينـــامُ[١]

ليس عزماً ما مرَّضَ المــرءُ فيــه ... ليس همًّا ما عاق عنــه الظــلامُ[٢]

واحتمـــالُ الأذى ورؤيـــة جانيـــ ... ـــهِ غِذاءٌ تَـضْوَى بــه الأَجـسامُ

ذَلَّ مـــن يغـــبِطُ الـــذليلَ بعـــيشٍ ... رُبَّ عـــيشٍ أخـــفُّ منـــه الحِمـــامُ

كـــلُّ حِلْـــمٍ أَتـــى بغيـــر اقتـــدارٍ ... حُجَّـــةٌ لاجـــيءٌ إليهـــا اللئـــامُ

من يَهُـــن يـــسهُلُ الهـــوانُ عليـــه ... مـــا لجـــرحٍ بميِّـــتٍ إِيـــلامُ

ضاق ذَرْعا بـــأَنْ أضِـيقَ بــه ذرْ ... عاً زماني واســتكرمتني الكــرامُ[٣]

واقفاً تحت أَخْمــصَي قــدرِ نفــسي ... واقفــاً تحــت أَخَمــصَيَّ الأنــامُ[٤]

أقــــراراً أَلَــــذُّ فــــوق شَــــرارٍ ... ومَرامــاً أَبغــي وظُلْمــي يُــرامُ[٥]

دون أن يَـــشْرَقَ الحجـــازُ ونجـــدٌ ... والعراقـــان بالقنـــا والـــشآمُ[٦]

---

(١) يقول: لا فخر إلاّ لمن لا يُظلم لامتناعه وقدرته على دفع الظلم، فهو إما مدرك ما طلب أو محارب لا يتهاون في إدراك مطلوبه، ولا ينام على ضيم.

(٢) مرَّض: قصّر، أي لا يُعد عزماً ما قصّر الإنسان فيه، ولا يُعدّ همة ما حال الظلام دون طلبه.

(٣) يقول: عجز الزمان عن أن يدخل عليّ أمراً لا أحتمله، كما وجدني الكرام صبوراً على نوائب الدهر.

(٤) أي إنه لا يزال متواضعاً في نظر نفسه في الوقت الذي يقف فيه الناس تحت أخمصيه.

(٥) الشرار: ما تطاير من النار. والمرام: المطلب. يقول: لا أستلذ القرار فوق شرار النار، أي لا أصبر على مقاساة الذل، ولا أبغي مطلباً ما دام ظلمي مطلوباً.

(٦) شرق بالشيء: غصَّ به. والعراقان: العراق العربي والعراق العجمي.

شَــرَقَ الجــوُّ بالغبــارِ إذا ســا ... ر علــيُّ بــنُ أحمــدَ القَمْقَــامُ[(١)]

الأديــبُ المهــذَّبُ الأَصْــيَدُ الــضَّرْ ... بُ الذكيُّ الجَعْدُ الــسريُّ الهُمــامُ[(٢)]

والذي ريــبُ دهــره مــن أُســارا ... هُ ومن حاســدي يديــه الغمــامُ[(٣)]

يتداوى من كثــرة المــال بــالإقلال ... جــوداً كــأنَّ مــالاً سَــقامُ

حَسَنٌ فــي عيــونِ أعدائــه أَقْــ ... ــبَحُ من ضيفه رأتــه الــسَّوامُ[(٤)]

لو حمى سيداً مــن المــوت حــامٍ ... لحمــاك الإجــلالُ والإعظــامُ

إن قصيدته هذه تفيض بالألم والشكوى، فهو لا يرى نفسه جديراً بالفخر بعد أن احتمل من الجور ما احتمل. فالفخر خليقٌ بمن لا يرضى بالذل والهوان، ولكنه يحاول أن يستعيد شيئاً من عزة نفسه وكبريائه الجريح ليرى نفسه فوق الأنام جميعاً، ثم يخلصُ إلى مدح صديقه المرّي الذي وجد فيه عزاءً عَمَّا لحق به من أَذىً ونكران للجميل.

ولكن المقام لم يطل في حمى هذا الصديق فاضطر إلى أن يغادره دون وداع أو استئذان؛ خوفاً من ملاحقة بدر بن عمار، ففرّ من جرش وقال معتذراً:

لا تُنكِرنَّ رحيلي عنكَ فــي عَجَــلٍ ... فــإنَّني لرحيلــي غيــرُ مُختــارِ

وربَّمــا فــارقَ الإنــسانُ مهجتَــهُ ... يومَ الوغى غيرَ قالٍ خَــشْيةَ العــارِ

وقــد مُنيــتُ بحــسَّادٍ أُحــاربُهم ... فاجعل نداك عليهم بعضَ أنــصاري

---

(١) القَمْقَام: السيد.

(٢) الأصيد: الملك العظيم. والضرب: الماضي في الأمور. الجعد: الكريم.

(٣) ريب الدهر: صروفه ونوائبه. وأساراه: جمع أسرى جمع أسير.

(٤) السوام: الماشية. هو حسن ولكنه في عيون أعدائه أقبح من ضيفه في عيون ماله الراعي لأنه ينحر إبله للأضياف.

اضطرابُهُ في بادية الشام:

وراح المتنبي يهيم في بادية الشام مُتَخفِّياً - وقد ضاقت به الأرضُ على رَحْبِها - باحثاً عن ملاذٍ يحميه من ملاحقة بدرٍ وأعوانه، فلم يجد غير الشعر ملاذاً ينفس فيه عن كرْبه وسُخْطه على الذين نغَّصوا عليه عيشه، وأزعجوه عن مستقرّه؛ فقال قصيدته الرائية:

عَذيري من عـذارَى مـن أمـورٍ ... سكنَّ جـوانحي بَـدلَ الخـدورِ(١)
ومبتـسماتِ هَيْجـاواتِ عـصرٍ ... عن الأسياف ليس عـن الثغـورِ(٢)
ركبـتُ مـشمِّراً قـدمي إليهـا ... وكـلّ عُـذافرٍ قلـقِ الـضُّفورِ(٣)
أواناً فـي بيـوتِ البـدوِ رَحْلـي ... وآونـةً علـى قَتَـدِ البعيـرِ(٤)
أُعـرِّض للرمـاح الـصُمِّ نَحـرْي ... وأنصِبُ حُـرَّ وجهـي للهجيـرِ(٥)
وأَسري في ظـلام الليـلِ وحـدي ... كـأنّي منـه فـي قمـرٍ مُنيـرِ
فَقُلْ في حاجـةٍ لـم أَقْـضِ منهـا ... على شغَفي بها شَـرْوى نَقيـرِ(٦)
ونفـسٍ لا تُجيـبُ إلـى خـسيسٍ ... وعـينٍ لا تُـدارُ علـى نظيـرِ(٧)

---

(١) عذيري من فلان: شكواي منه. والعذارى هنا: كناية عن الخطوب العظام إنه يشكو من هذه الخطوب التي اتخذت من قلبه مسكناً لها.

(٢) الهيجاوات: الحروب جمع هيجاء. يقول: من عذيره من حروب تبسم هبواتها عن بريق السيوف لا عن الثغور.

(٣) الغذافر: القوي من الإبل. والضفور: جمع ضفر وهو الحبل تشد به الرحال، وهو هنا يشير إلى خوضه الحروب راجلاً وراكباً فهو متمرس بها.

(٤) القتد: خشب الرحل.

(٥) حر الوجه: ما بدا منه. والهجير شدة الحر. والرماح الصم: الصلاب.

(٦) كم من حاجة حاولت الحصول عليها، ثم لم أنل منها شيئاً على شغفي بها. وشروى نقير: شروى الشيء: مثله، والنقير: نكتة في ظهر النواة، والعبارة تضرب مثلاً للشيء الحقير.

(٧) يقول: لا تواتيني نفسي على أمرٍ خسيس، ولا تقنع به، كما أن عيني لا ترى نظيراً لي.

وكــــفٍّ لا تُنـــازِعُ مـــن أتـــاني يُنازِعُني سوى شَــرَفي وخِيــري[1]

وقلَّـــةِ ناصـــرٍ جوزيـــتَ عنّـــي بـــشرٍّ منـــكَ يـــا شـــرَّ الـــدهورِ

عـــدوِّي كـــلُّ شـــيءٍ فيـــكَ حتـــى لَخِلْـــتُ الأُكـــمَ مُـــوغَرَة الـــصدورِ

فلو أنـــي حُـــسِدتُ علـــى نفـــيسٍ لَجُـــدْتُ بـــه لـــذي الجَـــدّ العثـــورِ

ولكنـــي حُـــسِدتُ علـــى حيـــاتي ومـــا خيـــرُ الحيـــاةِ بـــلا ســـرورِ

ثم يخلص في أخر القصيدة إلى هجاء ابن كروَّس المسبّب الأَول في محنته، وإفساد العلاقة بينه وبين ابن عمار فيقول:

فيا بنَ كرَّوسٍ يـــا نـــصفَ أعمـــى وإن تَفْخَـــر فيـــا نـــصفَ البـــصيرِ

تُعادينـــا لأَنَّـــا غيـــرُ لُكْـــنٍ وتُبغِـــضُنا لأنَّـــا غيـــرُ عُـــورِ[2]

فلو كنـــت امـــرأً يُهجـــى هَجَونـــا ولكنْ ضاق فِتْـــرٌ عـــن مـــسيرِ[3]

العودة إلى أنطاكية:

وفي منتصف سنة ٣٢٩هـ ترامى إلى سمع المتنبي في مضطربه الصحراوي أن بدرَ بن عمار قد رحل إلى بغداد، وأَصبح بوُسْعه أَنْ يعودَ أَدراجه إلى حواضر الشام؛ فقصد مدينةَ أَنطاكية ليدخلَ في حمى قاضيها أبي عبيد الله بن محمد الخصيبي، فيمدحه بقصيدته النونية التي يقول فيها:

---

(١) الخير: بكسر الخاء: الكرم يقول: إن كفه سخيه لا تمسك شيئاً وتترك كل شيء إلاّ شرفه وكرمه فإنه لا يسخو بهما.

(٢) لُكْن: جمع ألكن وهو ثقيل اللسان.

(٣) أي لا مجال للشعر فيك، فإن الشعر يرتفع عن قدرك. والفتر يضيق مقداره عن السير فيه.

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لِـذا الـزمنِ ... يخلو من الهمِّ أَخلاهم مـن الفِطَـنِ

وإنَّما نحـنُ فـي جيـلٍ سواسـيةٍ ... شرٍّ على الحُرِّ من سُقْمٍ على بدنِ[١]

حولي بكـل مكـانٍ مـنهمُ خِلَـقٌ ... تُخطي إذا جئتَ باستفهامها بِمَـنِ[٢]

لا أقتـري بلـداً إلاَّ علـى غَـرَرٍ ... ولا أَمُرُّ بِخَلْـقٍ غيـرِ مُـضْطغِنِ[٣]

ولا أُعاشـرُ مـن أَملاكهـم أحـداً ... إلاَّ أحقَّ بضربِ الرأسِ مـن وَثَـنِ

إنـي لأَعـذِرُهم ممَّـا أُعـنِّفهم ... حتى أُعنّفُ نفسي فـيهم وأنـي[٤]

إلى أن يقول:

ألقى الكرامُ الأُلى بـادوا مكـارِمَهُمْ ... على الخصيـبيِّ عند الفـرضِ والـسُّنَنِ[٥]

قاضٍ إذا التبس الأمران عَـنَّ لـه ... رأيٌ يُخلِّصُ بـين المـاءِ واللـبنِ

غضٌّ الـشبابِ بعيـدٌ فجـرُ ليلتـه ... مُجانِبُ العين للفحـشاء والوسَـنِ

أفعالهُ نَسَبٌ لـو لـم يَقُـلْ معهـا ... جدّي الخصيبُ عرفنا العِرقَ بالغُصُنِ

منـذ احتبيـتَ بأنطاكيَّـةَ اعتـدلت ... حتى كأن ذوي الأوتار في هُـدَنِ[٦]

---

(١) سواسية: متساوون في الشر واللؤم. والمراد نحن في جيل من الناس تساووا في الشر دون الخير. وهم أكثر شراً على الكريم من السقم.

(٢) خِلَق: جمع خلقه وهي الصورة التي يخلق عليها الشيء والمراد الأشخاص. يقول: حولي من هؤلاء الناس جماعة كالبهائم التي لا تعقل.

(٣) أقتري: أتتبع. الغرر: تعريض النفس للتهلكة.

(٤) التعنيف: اللوم. حتى: ابتدائية. أني: أفتر. يقول: إني أعذرهم فيما ألومهم به من الغفلة واللؤم لأنهم جهال، والجاهل لا يلام على ترك المكارم.

(٥) يقول: إن الكرام أورثوه مكارمهم، فهي عنده بجانب فروض الدين وسننه، يحافظ عليها كما يحافظ على هذه.

(٦) الاحتباء: أن يجمع الرجل ظهره وساقيه بعمامته أو بحمائل سيفه، وقد يحتبي بيديه. الأوتار: جمع وتر وهو الثأر. والهدن: جمع هدنة وهي السكون بين المتحاربين.

ذهابه إلى العراق وموت جدّته:

وفي أثناء وجود المتنبي لدى ابن الخصيب ورده كتابٌ من جدته لأمه تشكو شوقها إليه، وطول غيبته عنها؛ فتوجَّه نحو العراق، ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك، فانحدر إلى بغداد. وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسيرَ إليه، فقبَّلَتْهُ، وحُمّت لوقتها سروراً به، وغلب الفرح على قلبها؛ فقتلها، فقال يرثيها:(*)

ألا لا أُري الأحداثَ مدحاً ولا ذمَّا	فما بَطْشُها جَهْلاً ولا كفُّها حِلْما[1]
إلى مثلِ ما كان الفتى مَرْجِعُ الفتى	يعودُ كما أُبدي ويُكْرِي كما أَرْمى[2]
لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها	قتيلةِ شوقٍ غيرِ مُلحِقها وَصْما
أَحِنُّ إلى الكأسِ التي شربت بها	وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمَّا
بكيتُ عليها خيفةً في حياتها	وذاق كلانا ثُكْلَ صاحبه قِدْما
عرفتُ الليالي قبلَ مَا صَنعت بنا	فلمَّا دَهَتْني لم تزِدْني بها عِلْما
حرامٌ على قلبي السرورُ فإنني	أعُدُّ الذي ماتت به بعدها سُمَّا
طلبتُ لها حَظّاً ففاتَتْ وفاتني	وقد رَضِيَتْ بي لو رَضِيْتُ بها قِسْما
فأصبحتُ أَسْتسقي الغمامَ لقبرها	وقد كنتُ استسقي الوغى والقنا الصُّمَّا
وكنتُ قُبيلَ الموتِ أستعظم النوى	فقد صارت الصغرى التي كانتِ العظمى

(*) يرجّح بلاشير أن المتنبي علم أثناء وجوده لدى ابن الخصيب - كما ذكرنا - بموت جدته فنظم هذه القصيدة في رثائها. ولكن مقدمة القصيدة تشير إلى ذهابه إلى العراق وعدم تمكنه من دخول الكوفة لأسباب نجهلها، فكتب إليها يسألها المسير إليه إلى بغداد، ولم تذكر المصادر التي تناولت سيرة المتنبي شيئاً عن المسار الذي اتخذه للوصول إلى بغداد، لذلك اكتفينا بالإشارة إلى ذلك بحسب ما ورد في مقدمة القصيدة.

(١) يقول: لا أمدح نوب الدهر وأحداثه ولا أذمها لأن الفعل في ذلك ليس لها.

(٢) أبدي: خلق. وأكرى الشيء: نقص. وأرمى: زاد.

فـــوا أســـفا ألاّ أُكِـــبَّ مقـــبِّلاً لرأسِك والصدرِ اللَّذَيْ مُلِئـا حزْمـا
وألاّ أُلاقي روحَـكِ الطيِّـبَ الـذي كأَنَّ ذكيَّ المسْكِ كـان لـه جـسما
لئن لــذَّ يـومُ الـشامتين بيومهـا فقد ولَـدت منّـي لأنفهِـمُ رَغْمـا
تغرّب لا مـستعظماً غيـرَ نفـسهِ ولا قـابلاً إلاّ لخالقــه حُكمـا
يقولون لي: ما أنت في كـل بلـدةٍ وما تبتغي ما أبتغي جلَّ أن يُـسمى
كـأن بنــيهم عــالمون بـأنني جَلوبٌ إليهم مـن معادنـه اليُتْمـا
وما الجمعُ بين الماءِ والنارِ في يدي بأصعبَ من أن أجمعَ الجَدَّ والفهمـا
ولكننــي مستنــصِرٌ بذُبابــه ومُرتكبٌ في كل حالٍ بـه الغَـشْما
وجاعِلُــه يــومَ اللقــاءِ تحيتــي وإلاّ فلستُ الـسيدَ البطـلَ القَرْمَـا
كذا أنا يا دنيـا إذا شـئتِ فـاذهبي ويا نفسُ زيدي في كرائهها قُـدْما
فلا عبرت بـي سـاعةٌ لا تُعِزُّنـي لا صحبتني مهجـةٌ تقبـلُ الظُّلْمـا

التوجُّه إلى حلب:

وفي شهر رمضان سنة ٣٢٩هـ غادر ابنُ رائق قاعدةَ ملكه في الشام عائداً إلى بغداد حيث نال للمرة الثانية لقبَ أميرِ الأمراء، ولكنه اغتيل سنة ٣٣٠هـ في شهر رجب بأمر من ناصر الدولة صاحب الموصل. فسارع محمد الإخشيد بإرسال جيش بقيادة مساور بن محمد فاستولى على حلب مما أغرى المتنبي باللِّحاق بالقائد المنتصر في الشهور الأولى من سنة ٣٣٠هـ آملاً بأن يحظى لديه بمكانةٍ خاصة فمدحه بقصيدتين يقول في الأولى:

جَلَـلاً كمـا بـي فَلْيَـكُ التبـريحُ أغِذاءُ ذا الرشأ الأَغـنِّ الـشيحُ(١)

---

(١) الجلل: الأمر العظيم. التبريح: الجهد والشدة. يقول: ليكن التبريح عظيماً مثل الذي حلّ بي وإلاّ فلا. ثم يقول: ليس غذاء هذا الرشأ الشيح كظباء الصحراء، بل غذاؤه قلوب العشاق.

لعبت بِمشْيَتِهِ الـشَّمولُ وغـادرت	صَنَماً من الأَصنْام لـولا الـروحُ[1]

مـا بالُـه لاحظتُـه فتـضرّجت	وَجَنَاتُـهُ وفـؤاديَ المجـروحُ

ورمـى ومارَمَتـا يـداه فـصابني	سـهمٌ يعـذِّبُ والـسهامُ تُـريح[2]

قَـرُب المـزارُ ولا مـزارَ وإنَّمـا	يغدو الجَنَـانُ فنلتقـي ويـروحُ[3]

وفَـشَتْ سـرائرُنا إليـكَ وشـفَّنا	تعريـضُنا فبـدا لـكَ التـصريحُ[4]

لمـا تقطَّعـتِ الحمـولُ تقطَّعـتْ	نفـسي أَسـىً وكـأنهنَّ طُلـوحُ[5]

وجلا الوداعُ من الحبيـبِ محاسـناً	حُسْنُ العزاءِ وقد جُلـينَ قبـيحُ[6]

إلى أن يقول:

لولا الأمـينُ مُـساوِرُ بـنُ محمـدٍ	ما جُشِّمت خطـراً وردُّ نـصيحُ[7]

---

(١) الشمول: الخمر. يقول: جعلته الخمر يترنح في مشيته، وزادت في حسنه، حتى بدا كأنه صنم لولا أنه ذو روح.
أو: هو يترنح في مشيته كأنه نشوان، ولكنها نشوة الدلّ وليست نشوة الخمرة كما ذكر البرقوقي.

(٢) وما رمتا يداه: على لغة من يقول قاما أخواك. يقول: رماني بلحظه فأصابني سهمه، ولكنه سهم مختلف عن السهام المعروفة التي تقتل فتريح وإنما يعذب من أصابه.

(٣) الجنان: القلب.

(٤) السرائر: الأسرار. شفه: أنحله. والتعريض: عدم التصريح بالقول. يقول: إن عدم التصريح بالقول. يقول: إن عدم التصريح بما تجنُّه الضلوع، والنحول الدال على السقم يقوم مقام التصريح، وبيان حقيقة الحال.

(٥) الحمول: الأحمال. الطلوح: جمع طلح شجر تشبه به الجمال عليها الهوادج يقول: لما ارتحل الأحباب وتفرقوا وبدت ركابهم كأنها طلوح تقطعت نفسي وجداً وحزناً.

(٦) يقول: كشف الوداع محاسن الحبيب عند الفراق، فصار الصبر الجميل على الفراق قبيحاً.

(٧) جشّمت: كُلّفت والضمير عائد على الإبل. والنصيح: الناصح. يقول لولا الممدوح ما عرضنا إبلنا للخطر ولا تجاهلنا قول الناصح الذي نهانا عن ركوب هذه الأهوال.

ومتى ونَتْ وأَبو المظفَّر أَمَّها   فأتاح لي ولها الحِمامَ مُتيحُ[١]
شِمنْا وما حُجِبَ السماءُ بروقَهُ   وحَرًى يجودُ وما مَرَتْهُ الريحُ[٢]
هذا الذي خَلَتِ القرونُ وذكرُه   وحديثُه في كُتْبها مشروحُ[٣]
أَلبابُنا بجمالِه مبهورةٌ   وسحابُنا بنوالِه مَفْضُوحُ
يا بنَ الذي ما ضمَّ بُردٌ كابنه   شَرَفاً ولا كالجدِّ ضمَّ ضريحُ
نَفديك من سَيْلٍ إذا سُئل الندى   هولٍ إذا اختلطا دمٌ ومَسيحُ[٤]
لو كنتَ بحراً لم يكن لك ساحلٌ   أو كنتَ غيثاً ضاق عنكَ اللُّوحُ[٥]
إن القريضَ شجٍ بعِطفي عائذٌ   من أن يكونَ سَواءَك الممدوحُ[٦]
وذكيُّ رائحة الرياضِ كلامُها   تبغي الثناءَ على الحيا فتفوحُ[٧]
جُهْدُ المُقِلِّ فكيف بابن كريمةٍ   تُوليه خيراً واللسانُ فصيحُ[٨]

---

(١) ونت: توانت وفترت. أمها: قصدها. والمراد: إذا توانت هذه الإبل في سيرها قاصدة الممدوح فالموت خير لي ولها.

(٢) شمنا بروقه: رجونا عطاءه. وهو جدير بأن يجود دون أن يطلب منه ذلك. ومرته الريح: استدرّته.

(٣) خلت القرون: أي تمضي القرون والأدهار ويبقى ذكره ويخلّد في الكتب.

(٤) المسيح: العَرَق سمّي مسيحاً لأنه يُمسح إذا صبّ: هول: أي وهول معطوف على سيل أي إن الممدوح سيل عند العطاء، وهول عند القتال إذا سالت الدماء وامتزجت بالعرق.

(٥) اللُّوح: الهواء بين السماء والأرض.

(٦) شجٍ: حزين. العطف: الجانب. عائذ: لاجئ. يقول: يستجير الشعر بي من أن أمدح به سواك: إذْ لا يستحقه غيرك.

(٧) الحيا: المطر. يقول: ليست الرائحة الطيبة التي تفوح من الرياض إلاَّ ثناء على المطر الذي أحياها. وكأن المراد هو أن شعر المتنبي ثناء على كرم الممدوح وعطائه، فهو كالعطر الذي يفوح من الرياض اعترافاً بفضل المطر.

(٨) جهد المقلّ: الذي قلت ذات يده، فرائحة الرياض أقصى ما تستطيعه من التعبير عن الشكر، فكيف ظنك إذا كان الإحسان إلى شاعر فصيح؟!

ثم مدحه بقصيدة ثانية عند دخوله حلب يقول فيها:

أَمُساوِرٌ أم قَرْنُ شمسٍ هذا ... أَمْ ليثُ غابٍ يقدُمُ الأستاذا[١]
شِمْ ما انتضيتَ فقد تركتَ ذُبابَه ... قِطَعاً وقد ترك العبادَ جُذاذا[٢]
هَبْكَ ابنَ يَزْداذٍ حَطَمْتَ وصَحْبَهُ ... أَتَرى الورى أَضْحَوا بني يَزْداذا[٣]
غادرتَ أوجُهَهم بحيث لقيتَهم ... أَقْفاءَهم وكُبودَهم أَفلاذا
في موقفٍ وقفَ الحِمامُ عليهم ... في ضَنْكِهِ واستَحْوَذَ استحواذا
جَمَدت نفوسُهُمُ فلمَّا جِئْتَها ... أَجْرِيتَها وسقيتَها الفولاذا
لما رأَوك رأَوْا أَباكَ محمداً ... في جَوْشَنٍ وأخا أَبيكَ مُعَاذا
أَعْجَلْتَ أَلْسُنَهم بِضَرْب رقابهم ... عن قولهم لا فارسٌ إلاَّ ذا
غِرٌّ طلعتَ عليه طِلْعةَ عارضٍ ... مَطَرَ المنايا وابلاً ورذَاذا[٤]
فغدا أسيراً قد بلَلْتَ ثيابَهُ ... بدمٍ وبلَّ ببولِه الأَفْخاذا
سَدَّت عليه المشرفيةُ طُرْقَهُ ... فانصاع لا حَلَباً ولا بغداذا
طلب الإمارةَ في الثغور ونشْؤه ... ما بين كرخايا إلى كَلْواذا[٥]
فكأنه حَسِبَ الأسنَّةَ حلوةً ... أَوْ ظنَّها البَرنيَّ والآزاذا[٦]
لم يلقَ قبلَكَ مَنْ إذا اختلف القنا ... جعل الطّعانَ من الطعان ملاذا[٧]

---

(١) قرن الشمس: أول ما يبدو منها. الأستاذ: المراد به الوزير.

(٢) شم سيفك: أغمده. وذباب السيف: حده. والجذاذ: جمع جذاذة: القطعة المكسورة. يقول: أغمد سيفك الذي سللته، فقد تفلل حده من الضراب، وقد ترك الناس قطعاً.

(٣) ابن يزداذ: هو محمد بن يزداذ نائب ابن رائق بحلب هزمه مساور بن محمد.

(٤) غِرّ: هو ابن يزداذ، والغر: الغافل. والعارض: السحاب المعترض في الأفق.

(٥) كرخايا وكلواذا: قريتان بسواد العراق. أي إنه سواديّ خسيس لا يصلح للإمارة.

(٦) البرني والأزاذ: نوعان من التمر.

(٧) اختلاف القنا: تداخلها في القتال. والملاذ: الملجأ.

في أنطاكية من جديد:

وممن تقرَّب إليهم من عُمَّال الإخشيديين في الشام علي بن أحمد بن عامر الأَنطاكي الذي كان عاملاً لهم في تلك المدينة فمدحه برائيته المشهورة:

أُطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهرُ ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصَّبْرُ
وأشجعُ منّي كلَّ يومٍ سلامتي ... وما ثبتت إلاَّ وفي نفسها أَمْرُ[1]
تَمرَّسْتُ بالآفات حتى تركتُها ... تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُعْرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأَتيّ كأنّ لي ... سوى مهجتي أو كان لي عندها وِتْرُ[2]
ذَرِ النفسَ تأخذْ وُسْعَها قبل بينها ... فمفترِقٌ جارانِ دارُهما العمرُ[3]
ولا تَحْسَبَنَّ المجدَ زِقًّا وقينةً ... فما المجدُ إلاَّ السيفُ والفتكةُ البِكْرُ
وتضريبُ أعناقَ الملوكِ وأن تُرى ... لكَ الهبَواتُ السودُ والعسكرُ المَجْرُ
وتركُكَ في الدنيا دويًّا كأنما ... تداولُ سمعَ المرءِ أَنمُلُه العَشْرُ
إذا الفضلُ لم يرفعكَ عن شكرِ ناقصٍ ... على هبةٍ فالفضلُ فيمن له الشكرُ[4]
ومن يُنفقِ الساعاتِ في جمع مالهِ ... مخافةَ فَقْرٍ فالَّذي فعلَ الفقرُ
عليَّ لأهل الجور كلُّ طِمِرَّةٍ ... عليها غلامٌ مِلْءُ حَيْزُومه غِمْرُ[5]
يُديرُ بأطراف الرماحِ عليهم ... كؤوسَ المنايا حيث لا تُشْتَهَى الخمرُ
وكم من جبالٍ جُبْتُ تشهد أنني الـ ... جبالُ وبحرٍ شاهدٍ أَنني البحرُ

---

(١) يقول: أن سلامته أشجع منه. ولكن سلامته بقيت لأمر عظيم سيظهر على يديه.

(٢) الأتيّ: السيل. الوتر : الثأر. المهجة: النفس.

(٣) الوسع: الطاقة. يقول: دع نفسك تأخذ ما تستطيع من لذة أو مال، أو سلطان فإنها مفارقة جسدها لا محالة.

(٤) يدعو إلى الترفع عن هبة الناقص والتنزه عن الأخذ منه حتى لا تحتاج إلى شكره.

(٥) الطمّرة: الفرس الوثابة. الحيزوم: الصدر. الغمر: الحقد.

إلى أن يقول:

ويـــومٍ وصـــلناه بليـــلٍ كأنمـــا ... على أُفْقه من بَرْقِــه حُلــلٌ حُمْــرُ

وليـــلٍ وصـــلناه بيـــومٍ كأنمـــا ... على مَتْنه من دَجْنه حُللٌ خُــضْرُ[1]

وغيـــثٍ ظننَّـــا تحتـــه أن عـــامراً ... علا لم يَمُتْ أو في السحابِ له قبــرُ[2]

أوِ ابنَ ابنهِ الباقي عليَّ بن أحمـــدٍ ... يجودُ به لو لم أجُزْ ويدي صِــفْرُ[3]

فتىً لا يضمُّ القلــبُ هِمَّــاتِ قلبــه ... ولو ضَمَّها قلبٌ لما ضمَّه صــدرُ[4]

مُفَـــدَّىً بآبـــاءِ الرجـــالِ سَـــمَيْذعاً ... هو الكرمُ المَدُّ الذي ما له جَــزْرُ[5]

وما زلتُ حتى قادني الشوقُ نحــوه ... يُسايرني في كلِّ ركــبٍ لــه ذِكْــرُ

وأســـتكبرُ الأَخبـــارَ قبـــل لقائـــه ... فلمَّا التقينا صغَّر الخَبَــرَ الخُبْــرُ[6]

دعاني إليك العِلْمُ والحِلْمُ والحجــى ... وهذا الكلامُ الــنظْمُ والنائــلُ النثــرُ

وما قُلْتُ من شــعرٍ تكــادُ بيوتُــه ... إذا كُتبت يَبْيَضُّ من نُورها الحِبْــرُ

كأن المعاني فـــي فـــصاحة لفظهـــا ... نجومُ الثُريَّـــا أو خلائقُــك الزُّهْــرُ

وجَنَّبني قُــرْبَ الــسلاطين مَقْتُهــا ... وما يقتضيني من جماجمها النَّسرُ[7]

---

(١) المتن: الظهر، والدجن: الظلمة وأراد به الغيم. يريد أنه سافر في أيام الربيع والأرض خضراء.

(٢) عامر: هو جد الممدوح.

(٣) صفر: خالية

(٤) هِمَّات: جمع همم. أي إن ما في قلبه من الهمم لا يجمعها قلب غيره لأن الصدر آنئذٍ لا يتسع لها.

(٥) أي يقول له الرجال: فديناك بآبائنا. السميذع: السيد الكريم. أي كرمه في مدّ دائم لا جزر له.

(٦) الخُبْر: الاختبار والمراد أنه وجده خيراً مما كان يسمعه عنه.

(٧) يقتضيني: يطالبني. يقول: اجتنبتُ السلاطين لأنني أمقتهم، وبودِّي لو استطعت أن أقدم جماجمهم طعاماً للنسور.

ومدح في هذه الفترة عليّ بن محمد بن سَيّار أحد رجال الحرب وكان أبوه والياً على أنطاكية، وكان علي هذا يحب الرمي بالنُّشَّاب ويتعاطاه، فكتب إليه المتنبي يقول:

ضروبُ الناسِ عُشَّاقٌ ضروبا   فأعذَرُهم أشَفُّهمُ حبيبا[1]

وما سَكَني سوى قتلِ الأعادي   فهل من زَوْرَةٍ تشفي القلوبا[2]

تظَلُّ الطيرُ منها في حديثٍ   تردُّ بها الصراصرَ والنعيبا[3]

وقد لَبِسَتْ دماءَهُمُ عليهم   حداداً لم تَشُقَّ لها جيوبا[4]

أَدَمْنا طَعْنَهم والقتلَ حتى   خَلَطْنا في عظامِهِمُ الكُعوبا[5]

كأنّ خيولَنا كانت قديماً   تُسَقَّى في قُحوفِهِم الحليبا[6]

فمرّت غيرَ نافرةٍ عليهم   تدوسُ بنا الجماجمَ والتريبا[7]

يُقَدِّمُها وقد خُضِبتْ شَواها   فتىً ترمي الحروبُ به الحروبا[8]

شديدُ الخُنْزوانةِ لا يُبالي   أصابَ إذا تنمَّر أم أُصيبا[9]

---

(١) الضروب: الأصناف. أشفّهم: أفضلهم. أي أحق الناس بالعشق والحب من كان محبوبه أفضل.

(٢) السكن: ما تسكن إليه النفس وتهواه. يقول: أحب شيء إلى نفسي قتل أعدائي، فهل أظفر بذلك؟!

(٣) تردّ: تردد. الصراصر: جمع صرصرة وهو صوت النسر والبازي ونحوها. والنعيب: صوت الغراب. أي هل من سبيل إلى معركة يكثر فيها القتلى فيجتمع عليها الطير.

(٤) لبست: أي الطير. أي إن الطير تغوص في دماء القتلى فتتلطخ بها وتجف عليها، فتسودّ، وتصير كأنها ثياب حداد على القتلى بيد أنها لم تشق عليهم جيوباً كما تفعل النساء الباكيات على موتاهن.

(٥) الكعوب: جمع كعب وهو ما بين الأنبوبتين من القناة.

(٦) القحوف: جمع قحف بكسر القاف، وهو العظم الذي فوق الدماغ. أي كأن خيلنا في صغرها كانت تُسقَّى اللبن في أقحاف رؤوسهم.

(٧) التريب: عظم الصدر، والجمع ترائب.

(٨) الشَوى: القوائم. يقول: إن هذه الخيل يزجها في الحرب فتى طال تَمَرُّسُهُ بها، فكلما فرغ من حرب خاض حرباً أخرى.

(٩) الخنزاونة: المراد بها الكِبْر. تنّمر: صار كالنمر غضباً.

إلى أن يقول:

عَجيبٌ في الزمان وما عجيبٌ أَتى من آلِ سيَّارٍ عجيبا[1]

وشيخٌ في الشبابِ وليس شيخاً يُسمّى كلُّ من بلغ المشيبا

قسا فالأُسْدُ تفزعُ من قواه ورقَّ فنحن نَفْزَعُ أَنْ يذوبا

أشدُّ من الرياحِ الهوجِ بَطْشاً وأَسرعُ في الندى منها هُبوبا

وقالوا ذاك أَرمى مَنْ رأينا فقلتُ رأيتُمُ الغرَضَ القريبا

ألستَ ابنَ الأُولى سَعِدوا وسادوا ولم يَلِدُوا أمراً إلاَّ نجيبا

ونالوا ما اشتهَوا بالحزمِ هَوْناً وصادَ الوحشَ نَمْلُهُم دَبيبا

ثم مدحه بقصيدة ثانية تُعدُّ من روائع شعره يقول فيها:

أَقلُّ فَعَالي بَلْهَ أكثَرَهُ مَجْدُ وذا الجِدُّ فيه نِلْتُ أَمْ لم أَنَلْ جَدُّ[2]

سأطلبُ حَقّي بالقَنَا ومشايخٍ كأنهُمُ من طولِ ما التثموا مُرْدُ[3]

ثقالٍ إذا لاقَوْا خِفافٍ إذا دُعُوا كثيرٍ إذا شَدُّوا قليلٍ إذا عُدُّوا[4]

وطَعْنٍ كأَنَّ الطعنَ لا طعنَ عنده وضربٍ كأَنَّ النارَ من حَرِّه بَرْدُ

إذا شئتُ حَفَّت بي على كلّ سابحٍ رجالٌ كأن الموتَ في فمها شَهْدُ

أَذُمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيلَهُ فأعلمهم فَدْمٌ وأَحْزمُهم وَغْدُ[5]

---

(١) عجيب: هو عجيب أي الممدوح.

(٢) الفَعال: اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوهما. بَلْه: دع. والجد بكسر الجيم: الاجتهاد. وبفتحها: الحظ، أي أن أقل فعلٍ أقوم به إنما هو في سبيل المجد. فإذا وفقت في ذلك أو لم أوفق فذلك عائد إلى الحظ.

(٣) يقول: سأطلب حقي بنفسي وبأصحاب محنكين مجربين لا يفارقهم اللثام لأنهم أحلاس حرب.

(٤) ثقال: أي شديدو الوطأة على العدو، سريعو الإجابة للنجدة، وهم على قلّتهم يغنون غناء العدد الكثير لشجاعتهم ومضائهم.

(٥) الفدم: العيي في ثقل وقلة فهم. الوغد: الأحمق الخسيس.

وأكــرمُهم كلْــبٌ وأبــصرُهم عَــمٍ وأَسْهَدُهم فهدٌ وأشــجعُهم قِــردُ[1]
ومن نكد الدنيا على الحُرّ أن يــرى عدوًّا لــه مــا مــن صــداقته بُــدُّ
بقلبي وإن لــم أَرْوَ منهــا مَلالــةٌ وبي عن غوانيها وإن وصلت صَــدُّ[2]
خليلايَ دونَ الناسِ حــزنٌ وعَبْــرةٌ على فَقْدِ من أَحببتُ مالهمــا فَقْــدُ
تَلَــجُّ دمــوعي بــالجفونِ كأَنمــا جفــوني لعينَــي كُــلِّ باكيــةٍ خَــدُّ
وإني لَتُغْنينــي عــن المــاء نُغْبــةٌ واصبرُ عنه مثلَ ما تَــصْبِرُ الربَّــدُ
وأمضي كما يمضي السِّنانُ لِطِيتَّــي وأَطوي كما تَطْوي المجلَّحُة العُقْــدُ
وأُكبِرُ نفسي عــن جَــزاءٍ بِغِيْبــةٍ وكلُّ اغتيابٍ جُهْدُ مَنْ مالــه جُهْــدُ
وأَرحم أَقواماً مــن العِــيّ والغَبــا وأَعذِرُ فــي بُغْــضي لأنَّهــمُ ضِــدُّ
ويمنَعُني ممَّن ســوى ابــنِ محمــدٍ أيادٍ له عندي تَــضيقُ بهــا عِنْــدُ
تَــوالى بــلا وعــدٍ ولكــنَّ قبلهــا شمائلَهُ من غير وَعْــدٍ بهــا وَعْــدُ
سَرى السيفُ ممَّا تَطْبَعُ الهندُ صــاحبي إلى السيف مما يطبعُ اللهُ لا الهندُ[3]
فلمــا رآنــي مقــبلاً هــزَّ نَفْــسَه إليَّ حُسامٌ كلُّ صَــفْحٍ لــه حَــدُّ[4]
فلم أرَ قبلي من مشى البحرُ نحــوه ولا رجــلاً قامــت تُعانِقُــهُ الأُسْــدُ
بنفسي الــذي لا يَزْدهــي بخديعــةٍ وإن كَثُرت فيها الــذرائعُ والقَــصْدُ
ومَنْ بُعْدُه فَقرٌ ومَــنْ قربُــه غِنــىً ومن عِرضُهُ حُرٌّ ومن مالُــه عَبْــدُ
فإنْ يَكُ سيّارُ بــنُ مُكْــرَمٍ انقــضى فإنكَ ماءُ الوَرْدِ إنْ ذَهَــبَ الــوَرْدُ

---

(١) الكريم فيهم كالكلب خسةً ودناءة، والبصير فيهم أعمى القلب، واليقظ ينام نوم الفهد، والشجاع: أجبن من قرد.
(٢) أروى منها: من الدنيا. والغواني: النساء الجميلات.
(٣) يقول: سريت إليه ومعي سيفي يصحبني في طريقي وهو سيف من صنع الهند، وقصدت سيفاً طبعه الله وهو الممدوح.
(٤) يقول: لما رآني مقبلاً عليه هز نفسه للقائي كما يهتز السيف. وكل صفحة من سيفه حد، أي يقطع بصفحته كما يقطع بحده.

مضى وبنـــوه وانفـــردْتَ بفـــضلهم وألْفٌ إذا ما جُمِّعت واحـــدٌ فَـــرْدُ[١]

لهـــم أَوْجـــهٌ غُـــرٌّ وأَيـــدٍ كريمـــةٌ ومعرفـــةٌ عِـــدٌّ وأَلـــسِنَةٌ لُـــدُّ[٢]

وأرديـــةٌ خُـــضْرٌ ومُلْـــكٌ مطاعـــةٌ ومركوزةٌ سُمرٌ ومُقْرَبـــةٌ جُـــرْدُ[٣]

في دمشق:

ثم توجَّه أَبو الطيب إلى دمشقَ قاصداً عليَّ بنَ صالح الروذباريّ الكاتب، فألفاها أجلَّ مدنِ الشام، فهي جنةُ الأَرْض بلا خلاف؛ لحسن عمارة ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونـــزاهة رقعة، وكثرة مياه، قيل: سُمِّيت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أَيْ أسرعوا. وقد بُنيت في أرضٍ مستوية، فَدُحيت بين جبالٍ تحتفّ بها، إلى مياهٍ كثيرة، وأشجار وزروع قد أحاطت بها متصلةً، وتُعرف تلك البقعة بالغوطة عَرْضُها مرحلة في مرحلتين. وليس بالشام أنـــْزَهُ منها. ومَخْرجُ مائها من تحتِ بِيْعة تُعرف بالفيجة. مع ما يأتي إليه من عين بردى من جبل سِنِير. وليس في بلد آخر مثلها من حيث كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فقلَّ أن تمرّ بحائط إلاّ والماء يخرج منه في أُنبوب إلى حوضٍ يُشرب منه، ويَسْتَقي الوارد والصادر، ولا ترى بها مَسْجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلاَّ والماءُ يجري في بركة في صحن هذا المكان، ويَسحُّ في ميضأة. والمساكن بها عزيزةٌ لكثرة أَهلها والساكنين بها، وضيق بقعتها. ولها ربضٌ دون السور محيطٌ بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه. وتُحيط بها الجبالُ الشاهقة من جميع جهاتها. وبها جبلُ قاسيون، ليس في موضع من المواضع أَكثر من العُبَّاد الذين فيه. وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تُحملُ إلى جميع ما حولها

---

(١) مضى جدُّك وبنوه، وانفردت بفضائلهم جميعاً، فأنت واحد صورة، جماعة معنى كالألف الذي هو واحد في الصورة جمع في المعنى.

(٢) غُرّ: جمع أغر وهو الأبيض المشرق. معرفة عد: كثيرة، غزيرة. لُد: جمع ألد وهو الشديد الخصومة.

(٣) خضرة الرداء: يكنى بها عن السيادة. والملك السلطان يذكر ويؤنث. والمركوزة: الرماح. والمقربة: الخيل تربط قريبة من البيوت. والجرد: القصيرة الشعر.

من البلاد من مصر إلى حَرّان، وما يقارب ذلك فتعمّ الكلّ، وقد وصفها الشعراء فأكثروا. وأَما جامِعُها فهو الذي يُضرب به المثل في حسنه.

وجملة الأَمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلاَّ وفي دمشق مثله. ومن المحال أن يُطلب بها شيءٌ من جليل أعراض الدنيا، ودقيقها إلاّ وهو فيها أوجد من جميع البلاد. وفتحها المسلمون في رجب سنة ١٤هـ بعد حصارٍ ومنازلة. وكان قد نــزل على كلّ بابٍ من أبوابها أميرٌ من المسلمين.

وأما جامِعُها فقد وصفه بعضُ أهلها فقال: هو جامعُ المحاسن. كاملُ الغرائب، معدودٌ إحدى العجائب، قد زُوِّرَ[١] بعضُ فرشه بالرخام، وأُلِّف على أحسن تركيب ونظام. وفوق ذلك فصٌّ أَقداره متفقة، وصنعته مؤتلفة. بساطه يكاد يقطر ذهباً، ويشتعل لهباً، وهو منــزّه عن صور الحيوان إلى صنوفَ النبات وفنون الأغصان، لكنها لا تُجنى إلاَّ بالأبصار، ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار، بل باقية على طول الزمان، مدركة بالعيان في كل أوان، لا يمسُّها عطش مع فقدان القطر، لا يعتريها ذبول مع تصاريف الدهر. وقالوا: عجائب الدنيا أربع: قنطرة سَنْجة[٢]، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرُّها، ومسجد دمشق. وحكاية هذا المسجد وتكاليف بنائه يطول شرحها. وقال أبو المطاع ابن حمدان في وصف دمشق:

سقى اللهُ أرضَ الغوطتين وأهلَها … فلي بجنوبِ الغوطتين شُجُونُ
وما ذقتُ طعمَ الماءِ إلاَّ استخفَّني … إلى بردى والنيربينِ حنينُ
وقد كان شكّي في الفراقِ يَرُوعُني … فكيف أكونُ اليومَ وهو يقين؛
فواللهِ ما فارقتكم قالياً لكم … ولكنَّ ما يُقضَى فسوفَ يكونُ

(عن ياقوت بتصرف)

---

(١) زُيِّن وحُسِّن.
(٢) سنجة نهر عظيم لا يتهيأ خوضه يجري بين حصن منصور وكيسوم من ديار مضر، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هي إحدى عجائب الدنيا، وهي طاق واحد من الشط إلى الشط، والطاق يشتمل على مئتي خطوة، وهو متخذ من حجر مهندم، طول الحجر منه عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع. (عن ياقوت).

وفي دمشق لقيَ أبو الطيب أبا بكر عليَّ بنَ صالح الروذباريّ فمدحه بالقصيدة التالية:

كَفِرِنْــدي فِرِنْــدُ سَــيفي الجُــرازِ ... لـــذّةُ العـــينِ عُـــدَّةٌ للبـــرازِ[١]

تَحْسَبُ الماءَ خَطَّ فـي لهـب النـا ... رِ أدقَّ الخطـوطِ فـي الأحـرازِ[٢]

كلَّمـا رُمْـتَ لونَـه منـع النـا ... ظِرَ مـوجٌ كأنـه منـك هـازي[٣]

ودقيـــقٌ قـــذى الهبـــاءِ أَنيـــقٌ ... متـــوالٍ فـــي مـــستوٍ هَزْهـــازِ[٤]

وَرَدَ المـــاءَ فالجوانـــبُ قَـــدْراً ... شَرِبَتْ والتـي تَليهـا جـوازي[٥]

حملتـــه حمائـــلُ الـــدهرِ حتـــى ... هـــي محتاجـــةٌ إلـــى خـــرَّازِ[٦]

وهو لا تَلحـقُ الـدماءُ غِرارَيْـــ ... ــه ولا عِرْضَ مُنْتَضيه المخازي[٧]

إلى أن يقول:

لـــيس كـــلُّ الـــسّراةِ بالرُوذَبـــار ... يِّ ولا كـــلُّ مـــا يطيـــرُ بِبـــازِ[٨]

فارســـيٌّ لـــه مـــن المجـــدِ تـــاجٌ ... كان من جـوهرٍ علـى أَبْـرَوَازِ[٩]

---

(١) الفرند: جوهر السيف، وهي الخضرة التي تردّد فيه، والجراز: القاطع. يقول: إن سيفي يشبهني في المضاء، وهو يجمع المضاء إلى حسن المنظر.

(٢) الأحراز: جمع حرز وهو العوذة. يقول: إن سيفي يبرق كاللهب واثار الفرند تبدو على صفحته كخطوط الماء دقيقة.

(٣) هازي: هازئ أي من الصعب على الناظر معرفة لونه فهو كالموج لا يستقر على حال.

(٤) هزهاز: مضطرب: يقول: يمنع الناظر من لونه فرند دقيق كأنه قذى يتطاير إلى عينه فيمنعه النظر.

(٥) الجوازي: جمع جازئه وهي المستغنية عن الشيء. والمراد أن هذا السيف أشربت جوانبه من الماء، أما متنه فلم يُسق؛ لأن السيف لا تسقى إلا شفرتاه.

(٦) الحمائل: ما يُحمل به السيف. والبيت كناية عن قدم السيف، وتداول الأيدي عليه.

(٧) غرار السيف: حده. والعِرض: الشرف. أي إن هذا السيف لسرعة قطعه يسبق الدم فلا يتلطخ به، ولا تدنس عِرضَ صاحبه المخازي.

(٨) السراة: جمع سري وهو الشريف. أي إن الممدوح كالباز بين الطيور.

(٩) أبرواز: هو أبرويز: أحد الأكاسرة. أي إنه من أبناء الملوك.

نفسُه فــوقَ كــلِّ أصــلٍ شــريفٍ ... ولو انِّي له إلــى الــشمس عــازي
وكـــأن الفريـــدَ والــدُّرَّ واليـــا ... قوتَ من لفظـــه وَسَـــامَ الركـــازِ[١]
شَـــغلت قَلْبَـــه حِـــسَانُ المعـــالي ... عن حسانِ الوجـــوه والأَعْجـــازِ[٢]
أيها الواســعُ الفِنــاء ومـــا فيـــ ... ـــه مبيــتٌ لمالِــكَ المجتــازِ[٣]
بكَ أضــحى شَــبا الأَســنَّةِ عنــدي ... كشَبَا أسْــوُقِ الجــرادِ النــوازي[٤]
وانثنـــى عَنِّـــيَ الردينـــيُّ حتـــى ... دار دورَ الحـــروفِ فـــي هَـــوَّاز[٥]
وبآبائـــــك الكـــــرامِ التأَسِّـــــي ... والتسلِّي عمَّــن مــضى والتعــازي

وممّن توجه إليهم المتنبي بالمدح في هذه الفترة الحُسين بن علي الهمذاني، وهو ابن صديقه القديم وحاميه الذي كان مقيماً في جرَش. والحسين هذا كان في خدمة الإخشيدي. فقال:

لقد حازني وجدٌ بمــن حــازه بُعْــدُ ... فيـــاليتني بُعْــدٌ وياليتـــه وَجْــدُ[٦]
أُسَرُّ بتجديد الهوى ذِكْرَ ما مــضى ... وإن كان لا يبقى له الحجرُ الصَّلْدُ[٧]
سهادٌ أتانا منكَ في العــين عنــدنا ... رُقَادٌ وقُلاَّمٌ رعــى سَــرْبُكم وَرْدُ[٨]

---

(١) السام: عروق الذهب. والركاز: معدن الذهب. أي إن الدر والياقوت والذهب استعارت الحسن من لفظه.

(٢) يقول: هو مشغول بطلب المعالي والأمجاد لا يطلب النساء.

(٣) يقول: إنه مع سعة فنائه فإن المال يجتاز به، ولا يقيم فيه. كناية عن أنه متلاف للمال.

(٤) شبا الأسنة: حدها. أسوق: جمع ساق. النوازي: الوثابة. يقول لما جاورتك صرت لا أكترث لعدوّ ولا سلاح.

(٥) هواز: هوّز. يقول: التوى الرمح على نفسه التواء الحروف في كلمة هوز.

(٦) يقول: لقد همت وجداً بالحبيب الذي ابتعد عني؛ فليتني بعد لأقترب منه، وليته وجد ليحوزني فنجتمع معاً ولا نفترق.

(٧) إنني أُسَرُّ بأن الهوى يُجدّد لي ذكرى أيام الوصال ولذاذاتها ولو كانت الذكرى تذيب الحجر الصلد.

(٨) القُلاَّم: نبت من الحمض والناس يأكلونه مع اللبن والسَّرب بفتح السين: المال الراعي. يقول: إذا كان السهاد لأجلكم فهو في أعيننا كالرقاد. والذي ترعاه ماشيتكم طيب عندنا كأنه ورد.

مُمثَّلَــةٌ حتــى كــأن لــم تُفــارقي وحتَّى كأن اليأسَ من وصلكِ الوعدُ[١]
وحتَّى تكــادي تَمْـسَحين مــدامعي ويَعْبَقُ في ثَوْبَيَّ من ريحِـكِ النَّــدُ
إذا غَدَرت حسناءُ وفَّــت بعهــدها فمن عَهْدها ألاَّ يــدومَ لهــا عَهْــدُ
وإن عشِقت كانــت أَشــدَّ صــبابةً وإن فَرِكت فاذهب فما فِرْكُها قَصْدُ[٢]
وإن حَقَدت لم يبقَ في قلبها رضــاً وإن رَضِيَتْ لم يبقَ في قَلْبها حقْــدُ
كــذلك أخــلاقُ النــساء وربَّمــا يَضِلُّ بها الهادي ويخفَى بها الرُّشْدُ[٣]
ولكنّ حُبًّا خامر القلبَ فــي الــصِّبا يزيدُ علــى مــرِّ الزمــانِ ويَــشْتدُّ
سقى ابنُ عليّ كلَّ مُــزْنٍ ســقتكُمُ مكافأةً يغدو إليهــا كمــا تغــدو[٤]
لِتَروَى كما تُــرْوِي بــلاداً ســكَنْتَها ويَنْبُتَ فيها فوقَكَ الفخرُ والمجــدُ[٥]

إلى أن يقول:

بصيرٌ بأَخْذِ الحمدِ من كُلِّ مَوْضِــعٍ ولو خَبَأْتَــهُ بــين أَنيابهــا الأُسْــدُ
بتأميله يَغنَــى الفتــى قبــل نَيْلِــهِ وبالذُّعرِ من قبــلِ المهنَّــدِ يَنْقَــدُّ[٦]
مدحتُ أَبــاه قبلَــهُ فــشفَى يَــدي من العُدْم من تُشْفَى به الأَعيُنُ الرُمْدُ
حَبَــاني بأَثْمــان الــسوابقِ دونَهــا مخافةَ سيري إنَّها للنــوى جُنْــدُ[٧]
فلا زلتُ أَلقَــى الحاســدين بمثلهــا وفي يدهم غيظٌ وفي يَدِيَ الرِّفــدُ[٨]

---

(١) ممثَّلة: ماثلة في البال والخاطر. وكأن اليأس من وصالك وَعْد بالوصال.
(٢) فركت المرأة زوجها: أبغضته، فهي فارك وفروك.
(٣) هذه هي أخلاق النساء، ومع ذلك فإنهن يسحرن الرجال حتى يضل بهن من يهدي غيره.
(٤) ابن علي: الممدوح. وجعله يسقي السحاب لأنه أكثر منها ندى وجوداً.
(٥) يقول: لترتوي السحاب بنداه كما تُروى بلادك بمطرها، وينبت فوقك المجد والفخر.
(٦) النيل: العطاء: يقول: إذا أمله الإنسان استغنى بذلك الأمل قبل أن ينال عطاءه لأنه لا يخيب أملاً، وإذا خافه أحد تقطع خوفاً قبل أن يقتله بسيفه.
(٧) حباني: منحني. السوابق: الخيل: يقول: أعطاني أثمان الخيل، ولم يعطني الخيل مخافة أن أمتطيها وأفارقه. والخيل معين على البعد والفراق.
(٨) يقول: لا زلت أَتلقَّى عطاياه، وأواجه بها حُسَّادي فتنفطر قلوبهم غيظاً.

يَرُومونَ شَأْوي في الكلامِ وإنما ... يُحاكي الفتى فيما خلا المنطقَ القِردُ[1]

ومنِّي استفادَ الناسُ كلَّ غريبةٍ ... فجازوا بترك الذمِّ إن لم يكن حَمْدُ[2]

وجدتُ علياً وابنَهُ خيرَ قومِهِ ... وهُم خيرُ قومٍ واستوى الحرُّ والعبدُ

وأصبح شعري منهما في مكانه ... وفي عنق الحسناء يُستحسَنُ العِقْدُ

وفي أواخر سنة ٣٣٤هـ حَظِيَ المتنبي بلقاء محمد الإخشيد في دمشق حيث أنشده شيئاً من شعره، وتلقّى منه مكافأةً جيدة، ولكن الإخشيد توفي فجأةً في ذي الحجة من السنة نفسها فرثاه المتنبي بقصيدة منها قولُه:

هو الزمانُ مُشِتٌّ بالذي جَمَعا ... في كلّ يومٍ ترى من صَرفِه بِدَعا

إنْ شئْتَ مُتْ أَسفاً أَوْ فابقَ مضطرباً ... قد حلَّ ما كنت تخشاه وقد وقعا

لو كان مُمْتَنِعٌ تُغنيه مَنْعَتُهُ ... لم يصنعِ الدهرُ بالإخشيدِ ما صنعا

ووضع أبو الطيب نفسَهُ بعد وفاة الإخشيد في خدمة أنوجور ابنه وخَلَفه البالغ من العمر آنذاك نحو خمس عشرة سنة، ولكنّه كان في واقع الأمر ولداً عاجزاً تخلّى عن السلطة إلى الوصي كافور حاكم مصر الفعلي.

في خدمة ابن عم الإخشيد بالرملة:

ولمّا خاب أَملُ المتنبي في أن يضع نفسه في خدمة هذا الحامي الجديد للأدب سرعان ما انتقل إلى خدمة حامٍ آخر هو ابن عم الإخشيد أبو محمد الحسنُ بن عُبيد الله، وكان حينئذٍ والياً على الرملة في فلسطين الذي «ابيضَّت أَيامُه بعده» فتوجَّه إليها من دمشق سالكاً الطريقَ الذي تمرُّ به القوافل إذا خرجت من دمشق إلى فلسطين فمصر، فمرّ بالكُسْوة وهي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، ويُقال: إنما سُميّت الكُسوة بذلك لأن غسان قتلت بها رُسُلَ ملك الروم لما أَتَوا إليهم لأَخْذ الجزية منهم،

---

(١) الشأو: الغاية، أي يحاول حسادي بلوغ غايتي في الشعر ولكنهم كالقرود التي تحاكي الإنسان في حركاته ما عدا المنطق، فإنها تعجز عنه.

(٢) جازوا: أمر من الجزاء، أي جازوني بترك ذمّي إن لم تُقِرُّوا بفضلي.

واقْتَسَمت الكُسْوَةَ. والمسافةُ بين الكُسوة ودمشق اثنا عشرَ ميلاً. ومنها يتجه الطريق إلى جاسم وهي قريةٌ بينها وبين دمشق ستة وثلاثون ميلاً على يمين الطريق الأعظم إلى طبرية، وقد نسب إليها عديّ بن الرقاع العاملي فقال:

لولا الحياءُ وأنَّ رأْسيَ قد عَسا فيه المشيبُ لَزُرْتُ أُمَّ القاسمِ

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أَحْورُ من جآذر جاسمِ

وسْنانُ أَقْصَده النعاسُ فرنَّقت في عينه سِنَةٌ وليس بنائمِ

ومنها كان أبو تمام حبيبُ بنُ أوس الطائي. ثم يمرّ الطريق بفيق وهي بَلْدة ينحدر منها الطريق إلى غور الأردن، ويُشرف على طبريّة وبحيرتها. وقد سبق وصفها - ومن طبرية إلى اللَّجُّون عشرون ميلاً. واللَّجُّون بلدٌ بفلسطين فيها صخرةٌ مدوَّرة في وسط المدينة وعليها قبة، وتحتها عينُ ماء غزيرة، وبساتينهم وقراهم تُسقى من هذا الماء. واللَّجُّون مرج طولُه ستة أميال، كثير الوحل صَيْفاً وشتاءً. ثم يمرُّ الطريق بحصن قَلَنْسُوة الذي يبتعد عن اللَّجُّون عشرين ميلاً وهو على الطريق الأعظم بين مصر والشام، ومنها إلى الرملة قصبة فلسطين، وأَعظم مدنها نحو أربعة وعشرين ميلاً.

الرملة:

والرملة مدينة قديمة. ولمَّا ولي الوليدُ بن عبد الملك الخلافة، ولَّى أخاه سليمانَ جُنْدَ فلسطين، فنزل «لُدّ»، ثم انتقل إلى الرملة ومَصَّرها، واحتفر فيها آباراً عذبة، وهي مدينة كثيرة الفواكه صحيحة الهواء. وفيها حَظِيَ المتنبي بلقاء أَميره الشابّ فامتدحَهُ بالقصيدة التالية:

أنا لائمي إن كنتُ وقتَ اللَّوائم علمتُ بما بي بين تلك المعالم(١)

حِسانُ التثنّي ينقشُ الوشيُ مثلَهُ إذا مِسْنَ في أجسامهنَّ النواعمِ(٢)

---

(١) يذكر وقوفه على الديار، وما أصابه من الدهش والوجد لفرقتهم مما أذهب عقله حتى لم يشعر بما كان منه من الجزع والبكاء.

(٢) الوشي: النقش في الثوب. مِسْنَ: تبخترنَ.

ويبسمن عن دُرٍّ تقلَّدنَ مثله كأن التراقي وُشِّحت بالمباسِمِ
فما لي وللدنيا طِلابي نجومُها ومَسْعايَ منها في شدوقِ الأَراقمِ
من الحِلْمِ أَنْ تستعملَ الجهلَ دونَه إذا اتَّسعت في الحلم طُرْقُ المظالمِ[1]
وأَنْ تَرِدَ الماءَ الذي شَطْرُهُ دمٌ فتُسْقَى إذا لم يُسْقَ مَنْ لم يُزاحِمِ[2]
ومن عرفَ الأيامَ معرفتي بها وبالناسِ روَّى رمحَهُ غيرَ راحمِ
فليس بمرحومٍ إذا ظَفِروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثمِ
إذا صُلْتُ لم أترك مصالاً لصائلٍ وإن قلتُ لم أترك مقالاً لقائلِ

إلى أن يقول في مدح ابن طغج:

عن المقتني بذلَ التلادِ تلادَه ومجتنبِ البخلِ اجتنابَ المحارم[3]
تمنَّى أَعاديه محلَّ عُفاته وتَحسدُ كفَّيه ثقالُ الغمائم[4]
ولا يتلقَّى الحربَ إلاّ بمهُجةٍ مُعظَّمةٍ مذخورةٍ للعظائم
حمته على الأعداء من كل جانبٍ سيوفُ بني طُغْجِ بن جُفَّ القَماقِمِ[5]
هم المحسنون الكرَّ في حومةِ الوغى وأَحسنُ منه كرُّهم في المكارم
وهم يُحسنون العفوَ عن كلّ مذنبٍ ويحتملون الغُرْمَ عنِ كلّ غارمِ
حييّون إلاَّ أنهم في نزالهم أقلُّ حياءً من شِفار الصوارمِ

---

(١) يقول: إذا كان حلمُك داعياً إلى ظلمك. فإن من الحلم أن تجهل لأن الحلم إنما يُلجأ إليه لتدارك الشرّ فإذا تفاقم به الشرّ، ولم يتدارك الشرّ إلا بالجهل كان الجهل حلماً.

(٢) شطره: نصفه. يقول: من الحلم أن ترد الماء الذي كثر القتل عليه حتى امتزج بدماء المقتولين عليه.

(٣) التلاد: المال القديم الموروث: يقول: عن الذي يحرص على بذل ماله التالد كما يحرص غيره على حفظ تلاده.

(٤) أقصى ما يتمناه عداته أن يكونوا مكان طالبي معروفه.

(٥) طغج بن جُفّ: جد الممدوح. القماقم: جمع قمقام: السيد العظيم.

إن صحبة المتنبي للأمير الإخشيدي الشاب اضطرته إلى أن يتعلّم شيئاً من حياة القصور، ومعاشرة الحكام، ومنادمتهم إذا اقتضى الأمر ذلك. فالمتنبي كان يكره الخمر، ولكنه يشربها إذا رغب إليه سيده أن يشربها فيقول:

سقاني الخمرَ قولُكَ لي بحقّي ... وودٌّ لم تَشُبْهُ لي بِمَذْقِ

يميناً لو حلفتَ وأنت ناءٍ ... على قتلي بها لضربتُ عُنْقي

ثم يأخذ الكأس ويقول:

حُيِّيتَ من قَسَمٍ وأفدي مُقْسِما ... أَمسى الأنامُ له مُجِلاًّ مُعْظِما

وإذا طلبتُ رضا الأميرِ بشربها ... وأخذتُها فلقد تركتُ الأَحْرَمَا

وجرى حديث وقعة أبي الساج مع أبي طاهر صاحب الأحساء، فذكر أبو الطيب ما كان فيها من القتل، فهال بعض الجلساء ذلك، وجزع منه؛ فقال أبو الطيّب لأبي محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدي ارتجالاً:

أباعثَ كلِّ مَكْرُمةٍ طَمُوحِ ... وفارسَ كلِّ سَلْهبةٍ سَبوحِ[1]

وطاعنَ كلِّ نجلاءٍ غَمُوسٍ ... وعاصي كلِّ عَذَّالٍ نَصيحِ[2]

سقاني اللهُ قبلَ الموت يوماً ... دمَ الأعداء من جوفِ الجروحِ

ويبدو أن هذه الأبيات القصيرة المرتجلة لم تكن لتُرضي رغبةَ الأمير في سماع المدائح الطوال؛ فرغب إليه في ذلك. ولكن الشاعر اعتذر إليه بهذه الأبيات:

تركُ مدحيكَ كالهجاءِ لنفسي ... وقليلٌ لكَ المديحُ الكثيرُ

غير أَني تركتُ مُقتَضبَ الشعرِ ... لأَمْرٍ مثلي به معذورُ

---

(١) يقول: يا مُحيي كل مكرمةٍ تستعصي على غيرك، ويا فارس الخيل السوابق.

(٢) النجلاء: الواسعة، والغموس: التي تغمس المطعون في الدم.

وســــجاياك مادحاتُـــك لا لَفــــ ـــظي وجودٌ على كلامـــي يُغيـــر[1]

فـــسقى اللهُ مـــن أُحِـــبُّ بِكفَّيــ ـــكَ وأَسْـــقَاكَ أيُّهـــذا الأميـــرُ

وقال يمدحه:

ووقتٍ وَفَى بالدهر لي عنــدَ واحـدٍ وفَى لـــي بأهليــهِ وزاد كثيــرا[2]

شَرِبتُ على استحسان ضَوءِ جبينه وزهرٍ تـــرى للمـــاءِ فيـــه خريــرا

غدا الناسُ مِثلَـيْهم بــه لا عدمتُــه وأصبح دهري في ذراه دهــورا[3]

وقال وقد كَرِهَ الشرب، وكثر البخورُ، وارتفعت رائحةُ النَدّ والأصوات بمجلسه:

أَنَـــشْرُ الكِبـــاءِ ووجـــهُ الأميـــرِ وصوتُ الغناءِ وصافي الخمــورِ[4]

فـــداوِ خُمـــاري بـــشُربي لهــــا فإني سَـكِرْتُ بــشُربِ الــسرورِ[5]

وقال أبو محمد يوماً: إن أباه استخفى مرةً فعرفه رجلٌ يهودي فقال:

لا تَلُـــــومنَّ اليهـــــوديَّ علـــــى أَنْ يـــرى الـــشمسَ فـــلا يُنكرهـــا

إنمــــا اللـــومُ علـــى حاسِـــبها ظُلمـــةً مـــن بعـــدِ مـــا يُبــصرها

وساير أبا محمد بن طغج وهو لا يدري أين يريد فلما دخل كَفْرزِنِّس وهي قرية قريبة من الرملة قال:

---

(١) يقول: إنما تمدحك أخلاقك الحميدة التي أتعلم منها المدح، وجودك الذي يستغرق كلامي في وصفه حتى كأنه يغير عليه وينهبه.

(٢) أي إن وقتي عنده يعدل الدهر كله، كما أنه يعدل أهل الدهر جميعاً بشخصه.

(٣) أي إنه لعظمه يعادل الناس كلهم، ودهري به أصبح دهورا.

(٤) النشر: الرائحة الطيبة. والكباء: العود الذي يتبخر به. يقول: أتجتمع هذه الأشياء النادرة لأحدٍ كما اجتمعت لي؟!

(٥) يقول: إنني سكرت من السرور حين اجتمعت لي هذه الأشياء، فداوني بالخمر لأنفي الخمار لا للسكر.

وزيـــارةٍ عـــن غيـــرِ مَوعِـــدْ كالغُمضِ فـــي الجَفْـــنِ المـــسهَّدْ[١]

مَعَجَـــتْ بنـــا فيهـــا الجيـــا دُ مـــع الأَميـــرِ أبـــي محمّـــدْ[٢]

حتـــــى دخلنـــــا جنَّـــــةً لـــــو أَنَّ ســـــاكنَها مُخلَّـــــدْ

خـــــضراءَ حمـــــراءَ التـــــرا بِ كأنهـــا فـــي خـــدّ أغْيَـــدْ

أَحببـــــتُ تـــــشبيهاً لهـــــا فوجدتُـــهُ مـــا لـــيس يوجْـــد

وإذا رجعـــــتُ إلـــــى الحقـــــا ئـــقِ فهـــي واحـــدةٌ لأَوْحَـــدْ[٣]

واجتاز أبو محمد ببعض الجبال، فأثارت الغلمانُ خِشْفاً فَتَلَقَّفَتْه الكلابُ فقال:

وشـــامخٍ مـــن الجبـــالِ أَقْـــوَدِ فَـــرْدٍ كيـــافوخ البعيـــرِ الأَصْـــيدِ[٤]

يُـــسار مـــن مـــضيقه والجلمـــدِ في مثـــل مـــتنِ المـــسَدِ المعقّـــدِ[٥]

زُرْنـــاه للأمـــر الـــذي لـــم يُعْهَـــدِ للـــصيد والنُّـــزْهةِ والتمـــرُّدِ

بكـــلّ مَـــسْقيّ الـــدماءِ أســـودِ مُعـــاودٍ مقـــوَّدٍ مُقلَّـــدِ[٦]

بكـــلّ نـــابٍ ذَرِبٍ محـــدَّدِ علـــى حِفـــافَي حَنَـــكٍ كـــالمبردِ

كطالـــبِ الثـــأر وإنْ لـــم يَحْقـــدِ يَقْتُـــلُ مـــا يقتلُـــه ولا يَـــدي[٧]

---

(١) يقول: زرنا هذه القرية على غير موعد فكانت زيارة ممتعة كالنوم الذي يعتري المسهَّد.

(٢) معجت: أسرعت.

(٣) أي هي واحدة في الحسن لأوحد في المجد.

(٤) الشامخ: العالي. الأقود: المنقاد طولاً. والأصيد: الملتوي العنق.

(٥) الجلمد: الصخر، المسد: الحبل من ليف. يقول: إن السائر في هذا الجبل يسلك طريقاً ضيقاً وعراً متعرجاً كالحبل المعقد.

(٦) أي زرناه بكلاب معودة على شرب دماء ما تصيد، لكل منها مقود، وقلادة.

(٧) ودى القتيل يديه: دفع ديته، وهي ثمن الدم.

يَنْشُد من ذا الخشفِ ما لـم يَفْقِـدِ **فثار من أَخْضَرَ ممطـورٍ نَـدِي**[1]
كأنَّـــه بَـــدْءُ عِـــذار الأمـــردِ **فلـمَ يكَـدْ إلاَّ لحتـفٍ يَهْتَـدي**[2]
ولـم يقـع إلاّ علـى بطـنِ يـدِ **ولـم يَـدَعْ للـشاعرِ المجـوِّدِ**[3]
وصفاً لـه عنـد الأميـرِ الأمجـدِ **الملـكِ القَـرْمِ أبـي محمـدِ**
القـانِصِ الأَبطـالَ بالمهنَّـدِ **ذي النِّعَمِ الغُرِّ البـوادي العـوَّدِ**[4]
إذا أردتُ عَـدَّها لـم تُعْـدَدِ **وإن ذَكـرتُ فـضلَهُ لـم يَنْفَـدِ**

وكان المتنبي في هذه الفترة قد شاع ذكرُه، وعَظُم في أَعين الناس من عارفي فضله حتى إن طاهرَ بنَ الحسين بن طاهر العَلَوي أحد الرجال المرموقين في حاشية الأَمير أبي محمد رغب في مدح المتنبي ولكن الأَخير امتنع منه وقال: ما قصدتُ غيرَ الأمير، ولكن الأمير توسَّط له عند الشاعر ولم يزل يسأله أن يخصَّ طاهراً العلويَّ بقصيدة من شعره، وأنه قد اشتهى ذلك. وأبو الطيب يقول: ما قصدتُ إلاَّ الأميرَ، ولا أَمْدحُ سواه، فقال أبو محمد: عزمتُ أن أسألك قصيدةً تنظمها فيَّ فأجعلها فيه. وضمن له عنده مئات الدنانير، فأجاب.

قال محمد بن القاسم الصوفي: فسرتُ أنا والمطَّلبي برسالة طاهر إلى أبي الطيّب، فركب معنا حتى دخلنا عليه، وعنده جماعةٌ من الأَشراف، فلما أقبل أَبو الطيِّب، نـزل طاهر عن سريره، والتقاه مسلِّماً عليه، ثم أخذه بيده

---

(١) الخشف: ولد الظبية. يقول: يطلب من هذا الخشف ضالة لم يفقدها من قبل، فثار الخشف بين يديه من مكان معشوشب ندي.
(٢) شبه النبات الأخضر بشعر العارضين أول ما يبدو على خدّ أمرد. ولم يكد يهتدي الخشف إلا لحتفه لأن الكلب سدّ عليه مسالك الهرب.
(٣) أي وقع الخشف على باطن يده لاطئاً بالأرض. ولم يدع الكلب للشاعر وصفا يصفه به لدى الأمير.
(٤) يقول: إنه يقتنص الأبطال بسيفه. الغر: البيض. البوادي العوّد: التي تظهر أولاً ثم تعود.

فأَجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه، وتحدَّث معه طويلاً، ثم أَنشده أَبو الطيب؛ فخلع عليه - للوقت - خلَعاً نفيسه. قال عليُّ بنُ القاسم الكاتبُ كنتُ حاضراً هذا المجلس، فما رأَيْتُ ولا سمعتُ أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب. فإني رأيتُ هذا الشريف قد أجلسه في مجلسه، وجلس بين يديه فأَنشده هذه القصيدة(١):

أَعيدوا صباحي فهو عند الكواعِـبِ	**وردُّوا رُقادي فهو لَحْظُ الحبائــبِ(٢)**
فـــإِنَّ نهـــاري ليلـــةٌ مُدلهمَّـــةٌ	**على مُقْلةٍ من بعدكم في غياهبِ(٣)**
بعيــدةِ مــا بــينَ الجفــونِ كأَنَّمــا	**عَقَدْتُم أعالي كُلِّ هُدْبٍ بحاجـبِ(٤)**
وأَحسَبُ أَني لــو هَوِيــتُ فــراقَكُم	**لفارقْتُهُ والدهرُ أَخْبَــثُ صــاحبِ(٥)**
فياليتَ مــا بينـــي وبــينَ أحبَّتـــي	**من البعد ما بيني وبين المصائبِ(٦)**
أراكِ ظَنَنْتِ السِّلْكَ جِـسمي فَعُقْتِــهِ	**عليك بِدُرٍّ عــن لقــاءِ الترائــبِ(٧)**
ولو قلمٌ أُلقيتِ فــي شَــقِّ رأسِــهِ	**من السُّقمِ ما غيّرتِ مِن خطّ كاتبِ(٨)**
تُخــوِّفني دونَ الــذي أَمَــرتْ بــهِ	**ولم تدرِ أن العارَ شرُّ العواقــبِ(٩)**

---

(١) رواية هذه المقدمة مستمدة من ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ص ٢٧٤ ج١.

(٢) الكواعب: ج كاعب وهي الفتاة التي بدأ ثدياها في النهود. يقول: أصبح يومي ليلاً كله بعد ارتحال الأحبة، فلن يعود صباحي ورقادي إلاّ بردّهن.

(٣) مدلهمة: شديدة السواد. الغياهب: الظلمات.

(٤) يقول: إن عينيه لا تنطبقان، فأجفانه متباعدة كأن أعالي أهدابها معقودة بالحاجبين.

(٥) يشكو خبث الدهر المولع بمخالفته فهو لو هوي الفراق لاستحال الفراق إلى وصال.

(٦) يعني أن المصائب ملازمة لا تفارقه، فهو يتمنى أن يواصله الأحبة مواصلة المصائب.

(٧) يشكو مخالفتها إياه فيقول: أظنك حسبت السلك الذي في قلادتك جسمي لمشابهته إياه في الدقة، فحلت بينه وبين ترائبك بالدر المنظوم لئلا يلامس صدرك.

(٨) يقول: لشدة سقمي نحل جسمي فلو أُلقي في شق القلم لما تغير خطّه إثر ذلك.

(٩) تخوفنني: الضمير عائد على المحبوبة. والذي أمرت به هو الإقلاع عن السفر. وما تخوفه به هو الموت. فهي تخوفه الهلاك وهو عنده أهون من العار الذي أمرتني بارتكابه.

ولا بُـدَّ مـن يـومٍ أغـرَّ محجَّـلٍ يطولُ استماعي بعـده للنـوادبِ[١]

يهون علـى مثلـي إذا رامَ حاجـةً وقوعُ العوالي دونَها والقواضِـبِ[٢]

كثيرُ حيـاةِ المـرءِ مثـلُ قليلِهـا يَزُولُ وباقي عَيْشِه مثـلُ ذاهـبِ[٣]

إليكِ فإني لـستُ ممَّـن إذا اتَّقـى عِضاضَ الأفاعي نام فوق العقاربِ[٤]

أتـاني وعيـدُ الأدعيـاءِ وأنَّهـم أعدُّوا ليَ السودانَ في كَفْرِ عاقبِ[٥]

ولو صدقوا في جَـدّهم لَحـذِرتُهم فهل فيَّ وحدي قولُهم غيرُ كاذبِ[٦]

إليَّ لَعَمْـري قَـصْدُ كـلِّ عجيبـةٍ كأني عجيبٌ في عيونِ العجائـبِ[٧]

بـأيّ بـلادٍ لـم أَجُـرَّ ذؤابتـي وأيُّ مكانٍ لـم تطـأْهُ ركـائبي[٨]

كأنّ رحيلي كان من كـفّ طـاهرٍ فأَثْبتَ كوري في ظهور المواهبِ[٩]

فلم يبقَ خَلْـقٌ لـم يَـرِدْنَ فِنـاءَهُ وهنَّ له شِربٌ وُرودَ المـشاربِ[١٠]

---

(١) أغرّ محجّل: أي مشهور. فهو يقول: لا بد من أن يأتي ذلك اليوم الذي يكثر فيه قتل الأعداء، ليسمع بعده صياح النوادب عليهم.

(٢) العوالي: صدور الرماح. القواضب: السيوف القواطع. يقول: إن خوض الحروب والأهوال لا يحول دون الوصول إلى غايتي.

(٣) إن طول العمر وقصره سيَّان لأن نهاية كل منهما الزوال.

(٤) إليك: اسم فعل بمعنى كفّي. يقول: دعيني فإني لست ممن إذا خشي الموت رضي بالذل والهوان.

(٥) يريد هنا جماعة يدعون نسب علي بن أبي طالب أرادوا به سوءاً فأغروا جماعة من السودان بقتله. ويقول البرقوقي: كفر عاقب: قرية بالشام من أعمال حلب. ولكنها على الحقيقة قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن كما يقول ياقوت. وهي القرية التي عناها المتنبي.

(٦) يقول: لو كانوا قد صدقوا في انتمائهم لجاز أن يصدقوا في وعيدهم.

(٧) يقول: لا عجب من قصدهم إليَّ بالوعيد وأنا عجيبة العجائب.

(٨) يقول: لم أدع مكاناً من الأرض إلاّ وطئته ركابي.

(٩) الكور: الرحل. وطاهر: هو الممدوح. يقول: كما أن عطايا الممدوح لم تدع مكاناً إلاّ أتته كذلك أنا، فكأني امتطيت ظهور مواهبه.

(١٠) يقول: إن عطايا الممدوح تصل إلى الناس جميعاً دون أن يسعوا في طلبها.

فتـــىً علَّمتْـــهُ نفـــسُه وجـــدودُه قِراعَ الأَعادي وابتذالَ الرغائـــبِ[١]

فقد غيَّب الشُّهَّادَ عن كـلِّ مَـوْطنٍ وردَّ إلــى أوْطانــهِ كـلَّ غائـــبِ[٢]

كذا الفاطميُّونَ النَّدى فــي بَنَـانهم أعزُّ امِّحاءً من خُطوطِ الرواجب[٣]

أنـــاسٌ إذا لاَقْـــوا عِـــدًى فكأنمـــا سلاحُ الذي لاقَوا غُبارُ السلاهبِ[٤]

رَمَوا بنواصـيها القِـسيَّ فجئنَهـا دوامي الهوادي سالماتِ الجوانبِ[٥]

أولئك أحلـــى مـــن حيـاةٍ مُعـادةٍ وأكثرُ ذِكْراً من دهورِ الــشبائب[٦]

نــصرتَ عليًّـا يـا ابنَـهُ ببـواترٍ من العقلِ لافَلٌّ لها في المضاربِ[٧]

وأبهـــرُ آيـــاتِ التهـــاميّ أنـــه أبوك وأجدى ما لكم من مناقِـبِ[٨]

---

(١) الابتذال: البذل. الرغائب: جمع رغبة وهي الشيء المرغوب فيه يقول: إن الممدوح ورث الشجاعة والسخاء فهما غريزتان فيه.

(٢) الشهّاد: جمع شاهد بمعنى حاضر. يريد أن سخائه يدعو الناس إليه فيتركون أوطانهم لنيل عطاياه، كما يردّهم إلى أوطانهم بعد أن يُغدق عليهم من نعمه.

(٣) البنان: أطراف الأصابع، والمراد بها هنا: الأكف. والممدوح من ولد السيدة فاطمة الزهراء. والمراد أن الجود لا يفارق هؤلاء حتى إن خطوط الرواجب يمكن أن تمحى من أكفهم ولكن الجود لا يمحى. والرواجب: مفاصل الأصابع.

(٤) سلاهب: جمع سلهب وهو الفرس الطويل. يقول: إنهم لشجاعتهم وإقدامهم يعدون سلاح أعدائهم كالغبار الذي تثيره خيلهم، فهم لا يعبؤون به.

(٥) نواصي الخيل: مقدمة شعر الرأس. والهوادي: الأعناق. أي استقبلوا الأعداء بوجوه خيلهم دون أعطافها وأعجازها. وفي ذلك إشارة إلى الإقدام الذي يواجهون به الأعداء.

(٦) يقول: هم أحلى في القلوب من الحياة إذا أعيدت، وذكرهم على الألسنة أكثر من ذكر أيام الشباب. والشبائب: جمع شبيبة، وشبّة.

(٧) يريد بعلي: علي بن أبي طالب. يقول: أفعالك الجميلة الخالية من العيوب عززت بها فعال أبيك فهي كأنها سيوف قواطع.

(٨) يريد بالتهامي: الرسول الكريم. يقول: إن أبهر آيات النبي أنه أبوك وكونه أباك هو أجدى مناقبكم. أو هو إحدى مناقبكم الكثيرة على رواية إحدى.

إذا لم تكن نفسُ النسيب كأصلِه … فماذا الذي تُغْني كرامُ المناصبِ[(١)]

وما قَرُبت أشباهُ قومٍ أباعدٍ … ولا بَعُدت أَشباهُ قومٍ أقاربِ[(٢)]

إذا عَلَويٌّ لم يكن مثلَ طاهرٍ … فما هو إلاّ حُجَّةٌ للنواصبِ[(٣)]

يقولون تأثيرُ الكواكبِ في الورى … فما بالُه تأثيرُهُ في الكواكبِ[(٤)]

علا كَتَدَ الدنيا إلى كلِّ غايةٍ … تسير به سيرَ الذَّلولِ براكبِ[(٥)]

وحُقَّ له أَنْ يَسبِقَ الناسَ جالساً … ويُدرِكَ ما لم يُدْركوا غيرَ طالبِ[(٦)]

ويُحذى عرانينَ الملوكِ وإنها … لَمِن قدميه من أَجلِّ المراتبِ[(٧)]

يدٌ للزمانِ الجمعُ بيني وبينه … لتفريقه بيني وبين النوائبِ[(٨)]

هو ابنُ رسول الله وابن وصيِّه … وشِبْهُهُما شَبَّهتُ بعد التجاربِ[(٩)]

يرى أنَّ ما مابانَ منكَ لِضاربٍ … بأقتلَ ممَّا بانَ منك لعائبِ[(١٠)]

---

(١) النسيب: ذو النسب الشريف. المناصب: الأصول. يقول: إذا لم تكن نفس الشريف مشابهة لأصله في الكرم لم ينفعه الانتساب إلى أصل كريم.

(٢) الأشباه: جمع شبه: يقول: إن صحة النسب لا تتحقق إلاّ بمشابهة الفروع للأصول. فإذا ادعى قوم نسباً وهم أشباه لقوم أباعد عن أهل ذلك النسب فليسوا لهم بأقارب، وكذلك القول في الأقارب. وهذا تعريض بالذي ذكرهم من الادعياء.

(٣) النواصب: جمع ناصبي وهو الذي ناصب علياً بن أبي طالب العداء.

(٤) المعتاد: أن الكواكب تؤثر في الخلق، ولكن الممدوح يؤثر في الكواكب فيجعل المنحوس سعيداً بما يغدق عليه من نعمته.

(٥) الكتد: مجتمع الكتفين من الإنسان. والمراد: أن الدنيا انقادت إليه انقياد الدابة الذلول لراكبها.

(٦) يقول: خليق به أن يسبق الناس إلى المعالي دون سعي منه لأنه بلغ ما بلغ لشرف نسبه.

(٧) عرانين: جمع عرنين وهو الأنف. يقول: إنه جدير بأن يحتذي عرانين الملوك فيطؤها بقدمه.

(٨) اليد: النعمة والفضل. يقول: من نعم الزمان أنه جمعني به، فدرأ عني مصائب الزمان.

(٩) يقول: شبهته بهما بعد الاختبار والتجربة.

(١٠) يقول: إنه يرى العيب أشد وطأة عليه من القتل.

إنَّ النجاحَ الذي حقَّقه المتنبي في إقبال الناس ولا سيما ذوي الشأن منهم على مدائحه جعله يتوق إلى أن يضع موهبته في خدمة بلاطٍ يستحقُّها، فاستأذن أَميرَ الرملة في الرحيل، فأَذِن له، فقال ارتجالاً يودِّعُه:

ماذا الوَداعُ وَادعُ الوامِــقِ الكمِــدِ هذا الوَداعُ وَداعُ الروحِ للجِــسدِ[١]

إذا السحابُ زَفَتْه الــريحُ مرتفعــاً فلا عدا الرملةَ البيضاءَ من بَلَــدِ[٢]

ويا فراقَ الأميرِ الرحــبِ منـــزلُه إن أنت فارقتنــا يومــاً فَــلا تَعُــدِ

لعل المتنبي كان يؤمِّل أن يتمرَّدَ الأميرُ الحسن بن عبيد الله على الخصيّ كافور، فيستولي على مصر والشام. ولكن أَمله خاب، فآثر أنْ يعودُ أدراجه إلى شمالي الشام حيث قامت دولة حمدانية يتــزعمها أَميرٌ عربي هو سيف الدولة الحمداني الذي أخفقت محاولة الشاعر الالتحاق بخدمته سنة ٣٢١هــ لأسباب مجهولة.

التوجُّه إلى أنطاكية من جديد:

في الشهور الأولى من سنة ٣٣٦هــ استأذن المتنبي أميرَ الرملة بالسفر، فأذن له، فقصد مدينةَ أَنطاكية عن طريق طرابلس فالساحل. سالكاً أقصر الطرق وأيسرها، فانطلق من الرملة إلى يافا وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكة، ثم حيفا وهي حصن على ساحل بحر الشام قريبة من يافا، ثم تليها عكّة وهي من أحسن بلاد الساحل، وهي مدينة حصينة. ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون فبنى ميناءها حيث جمع صُنَّاعَ الكُوَر وعرض عليهم ذلك، فنهض بهذه المهمة أبو بكر البنَّاء المقدسيّ[٣]. فالتمس منهم إحضارَ

---

(١) الوامق: المحب. الكمد: الحزين.

(٢) زفته: ساقته. عدا: جاوز.

(٣) هو جدّ المقدسي الجغرافي الشهير صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم المتوفى سنة ٣٩٠ هــ.

فِلَقٍ من خشب الجُمَّيز، فلما حضرت عمد يصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البرّي، وضمّ بعضها إلى بعض، وجعل لها باباً عظيماً من ناحية الغرب، ثم بنى عليها الحجارة والشِّيد، وجعل كلَّما بنى خمس دوامس[١] ربطها بأعمدة غلاظ ليشتدَّ البناء، وجعلت الفلق كلَّما ثَقُلت نـزلت حتى إذا علم أَنها قد استقرَّت على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيثُ ترك، وكلَّما بلغ البناءُ إلى الحائط الذي قبله أَدخله فيه، ثم جعل على الباب قنطرة، والمراكب كلّ ليلة تدخل الميناء، وتجر سلسلة بينها وبين البحر الأعظم مثل صور. فدفع إليه ألف دينار سوى الخِلَع والمركوب، واسمه عليه مكتوب إلى اليوم. وفُتحت عَكَّةُ سنة ١٥هـ على يد عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان. ثم يصعد الطريق من عكة إلى صور وبينهما ستة فراسخ، وهي شرقي عكة. وصور مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام، داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلاَّ الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً لا سبيل إليها إلا بالخذلان، افتتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب. ثم يلي صور مدينة صيدا وهي شرقي صور بينهما ستَّةُ فراسخ.

قال الزجَّاجي: اشتقاقُها من الصَّيَد، يقال: رجل أَصْيَد وامرأة صيداء وهو ميل في العنق من داء، وربما فعل ذلك الرجلُ كِبْراً، والنسبةُ إليها صيداوي.

ومن صيدا يصعد الطريق إلى بيروت وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ، وتُعدُّ من أعمال دمشق. ورد ذكرها في شعر للوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فقال:

إذا شئتُ تصابرتُ ولا أصبرُ إنْ شيتُ

(١) دوامس: من دمس الشيء إذا أخفاه، والمراد بالدوامس هنا الصفوف من الحجارة التي طمرها الماء.

ولا واللهِ لا يَصْبِرُ في البريَّةِ الحوتُ
ألا يا حبذا شخصٌ حَمَتْ لُقياهُ بيروتُ[(١)]

ثم تلي بيروت على ساحل بحر الشام مدينة طرابلس، أو أطرابلس وقد سبق ذكرها مفصلاً.

العودة من طرابلس إلى دمشق:

وفي طرابلس ووجه المتنبي بما لم يكن يتوقّعه حيث وجد إسحاقَ بنَ كيغلغ سجَّانَهُ سابقاً والياً على المدينة وكان قد انتقل إليها من حمص وكان جاهلاً، وكان يجالسه ثلاثة نفر من بني حيدرة، فقالوا له: أتحبُّ أَن يتجاوزَك ولا يمدحك؟ وجعلوا يُغرونه، فراسله أن يمدحه، فاحتجّ عليه بيمين لحقته لا يمدح أحداً إلى مدَّة، فعاقه عن طريقه ينتظر المدة، وأخذ عليه الطريق وضبطها؛ ومات النفر الثلاثة الذين كانوا يُغرونه في مدة أربعين يوماً، فهجاه أبو الطيب، وأملاها على من يثق به، فلّما ذاب الثلج خرج وكأنه يُسيِّر فَرَسَه، وسار إلى دمشق، فأَتبعه ابنُ كيغلغ خيلاً وَرَجْلاً فأَعجزهم، وظهرت القصيدة وهي[(٢)]:

لِهوَى النفوسِ سَريرةٌ لا تُعلَمُ عَرَضاً نظرتُ وخِلْت أَنّي أَسْلَمُ[(٣)]
يا أُختَ مُعْتنقِ الفوارِس في الوغى لَأَخوكِ ثَمَّ أَرقُّ منكِ وأَرحمُ[(٤)]

---

(١) عن ياقوت بتصرف.

(٢) الديوان ص ٢٤٧ ج ٤ بشرح البرقوقي.

(٣) السريرة: السِّر. عرضاً: فجأةً. يقول: إنَّ سرَّ الهوى لا يُعرف، ولا يُدرى من أين يأتي ويتسرب إلى قلب العاشق.

(٤) معتنق الفوارس: وصف للرجل الشجاع. وقد اختلف الشراح في هذين البيتين. قال ابن جني: يرميه بأخته وبالأُبنة. وثمّ: إشارة إلى المكان الذي يخلو فيه للحال المكروهة. وقال العروضي: شبب بامرأةٍ أخوها مبارز فتّاك، فقال لها: لأخوك على قساوة قلبه وإراقته الدماء أرحم منك؟!.

يرنو إليك مع العفاف وعنده | أَنَّ المجوسَ تُصيبُ فيما تَحكُمُ
راعتكِ رائعةُ البياضِ بعارضي | ولو أنَّها الأُولى لراع الأسحمُ[(١)]
لو كان يُمكنني سفَرتُ عن الصِّبا | فالشيبُ من قبل الأَوان تلثُّمُ[(٢)]
ولقد رأَيتُ الحادثاتِ فلا أَرى | يَقَقاً يُميتُ ولا سواداً يَعْصِمُ[(٣)]
والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحَافةً | ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِمُ[(٤)]
ذو العقل يشقي في النعيم بعقله | وأَخو الجهالةِ في الشقاوة يَنْعُم
لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأَذى | حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ
أَلظلمُ من شِيَمِ النفوس فإن تَجِدْ | ذا عِفَّةٍ فَلعلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ثم يبدأ بهجاء ابن كيغلغ:

يحمي ابنُ كَيْغَلَغَ الطريقَ وعِرْسُهُ | ما بين رجليها الطريقُ الأَعظمُ
وارفق بنفسكَ إنَّ خَلْقَكَ ناقصٌ | واستر أَباك فإن أَصلَكَ مُظْلِم
واحذَرْ مناوأَةَ الرجالِ فإنَّما | تقوى على كَمَرِ العبيدِ وتُقدِمُ
ومن البليَّة عَذْلُ مَنْ لا يرعوي | عن غَيِّه وخطابُ مَنْ لا يفهَمُ

---

(١) رائعة البياض: الشعرة البيضاء التي تروع الناظر. والأسحم: الأسود. يقول: أفرغك شيبي، ولو كان أول لون الشعر بياضاً، ثم يسودّ لراعك الأسود إذا ظهر، فلا تراعي إذن بالبياض.

(٢) سفرت: كشفت. يقول: لو أمكنني أن أظهر صباي لكشفت عنه فإني حدث السن، ولكن الشيب جار علي عاجلاً فستر شبابي فكأنه لثام.

(٣) اليقق: الأبيض. يعصم: يحفظ. يقول: ليس بياض الشعر موجباً للموت، وليس سواده واقياً منه.

(٤) يخترم: يستأصل. الجسيم: العظيم الجسم. يقول: إن الحزن إذا استولى على المرء هزله، كما أنه يشيب الصبي قبل الأوان.

إلى أن يقول:

وجفونُـــه مـــا تـــستقرُّ كأَنهـــا　　مطروفـــةٌ أَوْفُـــتَّ فيهـــا حِـــصْرِمُ

وإذا أَشـــار مُحَـــدِّثاً فكأنـــه　　قـــردٌ يُقَهْقِـــه أَوعجـــوزٌ تَلْطِـــمُ

وتـــراه أَصْـــغَرَ مـــا تَـــراه ناطقـــاً　　ويكونُ أَكذبَ مـــا يكـــونُ ويُقـــسِمُ

بقي أبو الطيب مختبئاً في دمشق زمناً، كان خلاله يتابع أخبارَ ابن كيغلغ الذي أَرسل في إثْرِهِ عدداً من الفرسان للِّحاق به، ولكنهم أخطؤوا الطريقَ إذْ طاردوه نحو الشمال في حين أَنه أَغذَّ السير نحو دمشق. وبلغه في أثناء هربه أن رجالَ حاشية الأمير إسحاق الذين تآمروا عليه ماتوا الواحد تلو الآخر، فَسُرَّ أبو الطيب بذلك الخبر. ولـمَّا علم أَنَّ حاكم طرابلس غادرها في غزوة إلى بلاد الروم، وقد بلغه أنه يتهدَّده من هناك قال:

أَتاني كـــلامُ الجاهـــلِ ابـــنِ كَيَغْلَـــغٍ　　يَجـــوبُ حُزونـــاً بيننـــا وســـهولا

ولو لم يكن بين ابنِ صفراءَ حائـــلٌ　　وبيني سوى رمحي لكـــان طـــويلا

وإسحاقُ مأمونٌ على مَـــنْ أَهانَـــه　　ولكـــن تَـــسلَّى بالبكـــاء قلـــيلا

وليس جمـــيلاً عِرْضُـــهُ فيـــصونَهُ　　ولـــيس جمـــيلاً أَنْ يكـــونَ جمـــيلا

ويكـــذبُ مـــا أَذْلَلْتَـــهُ بهجائـــه　　لقد كان من قبـــلِ الهجـــاءِ ذلـــيلا

ثم بلغه وهو في دمشق أن غلمان ابن كيغلغ قتلوه في جَبْلَة، فقال:

قالو لنا مات إســـحاقٌ فقلـــت لهـــم　　هذا الدواءُ الذي يَشْفي من الحُمُـــقِ

إن مات مات بـــلا فَقْـــدٍ ولا أَسَـــفٍ　　أَو عاش عاش بلا خَلْقٍ ولا خُلُقِ(١)

منـــه تعلَّـــم عبـــدٌ شَـــقَّ هامَتَـــه　　خَوْنَ الصديقِ ودسَّ الغدرِ في المَلَقِ

---

(١) يقول: إن موته وحياته سواء، إذ ليس له خلق كريم، أو خلقة جميلة.

وحَلْفَ أَلْفِ يمــينٍ غيــرِ صــادقةٍ مطرودةٍ ككعوبِ الرمحِ في نَسَقِ[(١)]
ما زلتُ أَعرفُــه قــرداً بــلا ذنــبٍ خِلْواً من البأسِ مملوءاً من النَّــزَقِ

تريَّث المتنبي قليلاً في دمشق بعد مَقْتل ابن كيغلغ لأَن أخبارَ أنطاكية لم تكن مُطَمْئنةً، إذْ تعرَّض أبو العشائر الذي كان يؤمِّل لقاءَه فيها لخطرٍ جسيم حيث جُرِحَ إثر معركةٍ جرت بينه وبين جند السلطان؛ فخرج من المدينة متقهقراً حتى الرقَّة على الفرات، ولكنه استطاع - بعدَ زمن - العودةَ إلى المدينة. ولمَّا علم أبو الطيب بذلك عَقَد العزمَ على التوجُّه إلى أنطاكية، فانطلق من دمشق متوجّهاً إلى بعْلَبَكَّ، لَيَحلَّ ضيفاً على قائد حاميتها علي بن عسكر. والقاصد من دمشق إلى بعلبك لا بدَّ له من المرور بعَقَبة دُمَّر، وهي عقبة تُشرِفُ على غوطة دمشق، يَجْتازُها المسافر إلى بعلبك. ومنها إلى الزَبَداني وهي كورة معروفة إلى الغرب من دمشق. ومنها يخرج النهر المعروف بنهر بردى. ومن الزبداني يصعد الطريق إلى بِقَاع كَلْب وهو أَرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة، ومياه غزيرة نميرة، وأكثر شُرْب هذه الضياع من عينٍ تَخْرج من جبل، يُقال لهذه العين: عين الجرّ. أَمَّا مدينة بَعْلَبَكّ فتبعد عن دمشق مسير ثلاثة أيام. وهي مدينة قديمة، فيها أَبنية عجيبة، وآثار عظيمة، وقصور على أَساطين من الرّخام لا نظيرَ لها في الدنيا، وهو اسم مُركَّب من بَعْل اسم صنم وبَكّ أَصله من بكَّ عنقه أَي دقَّها، فإما أَنْ يكونَ نُسِب الصنمُ إلى بكَّ وهو اسم رجل، أو جعلوه يبكُّ الأَعناق هذا إن كان عربياً، وإنْ كان أعجمياً فلا اشتقاق. وبِبَعْلَبَكَّ دِبْسٌ وجُبنٌ وزيت ولبن ليس في الدنيا مثلها، يُضرب بها المثل. وقد ذكرها امرؤ القيس في شعره فقال:

لقــد أنكرتْنــي بَعْلَبَــكُّ وأَهلُهــا ولابْنُ جُريجٍ في قُرى حمصَ أَنكرا

(١) يقول: تعلم من سيده أن يحلف ألف يمين كاذبة متتابعة كأنابيب الرمح.

استُقْبل أبو الطيب في بَعْلَبَكَّ من قبل علي بن عسكر استقبالاً حَسناً، فأكرمه غايةَ الإِكرام، وخلع عليه وأَجازه، وطمع في مدحه، ولكن ضيفه اكتفى بأربعة أبياتٍ من الشعر استأذنه فيها بالرحيل فقال:

رَوِينا يا بنَ عَسْكرٍ الهُمامــا ولم يَتْرِكْ نداكَ بنــا هُيامــا

وصار أَحبُّ ما تُهــدِي إلينــا لغيرِ قِلىً وَدَاعَــك والــسلاما

ولم نَمْلَــلْ تَفَقُّــدَكَ المــوالي ولم نَذْمُم أَياديَــك الجِــسَاما

ولكــنَّ الغيــوثَ إذا توالــت بأَرضِ مُسافرٍ كِــرهَ المُقامــا

ثم غادر المتنبي بعلبكَّ متوجهاً إلى أَنطاكية مروراً بحمص. فاجتاز في طريقه إليها جُوسِيَة وهي قرية من قرى حمص على ستَّة فراسخ منها من جهة دمشق بين جبل لبنان وسَنِير، فيها عيون تسقي أكثر ضياعها سَيْحاً، وهي كورة من كور حمص. وجبل سَنِير: بين حمص وبعلبك على الطريق، وعلى رأسه قلعةُ سَنِير وهو الجبل الذي يمتدُّ مُغَرِّباً إلى بَعْلَبَكّ، ويمتدّ مُشَرّقاً إلى القريتين وسَلَمْيَة، وهو الذي يقول فيه البحتري:

وتَعَمَّــدتُ أَنْ تظــلَّ ركــابي بين لُبْنــانَ طُلَّعــاً والــسنيرِ

مُشْرِفاتٍ على دمشقَ وقد أَعْرضَ منها بيــاضُ تلــكَ القــصور

أما **جبلُ لبنان** فهو جبل مُطِلٌّ على حمص، وهو كُورةٌ جليلة فيه من جميع الفواكه والزرع من غير أَن يزرعها أَحد. ومن حمص - وقد مر ذكرها مفصلاً - يصعد الطريق إلى حماه مارًّا بالرَّسْتَن، وهي بُلَيدة قديمة كانت على نهر الميماس (العاصي) الذي يمرّ قُدّام حماه، وهي في نصف الطريق بين حماة وحمص، بها آثار باقية تدلّ على جلالتها.

أما حماه، فهي مدينة صغيرة نــزهة، كثيرة المياه والشجر، والزرع والفواكه والخُضَر. عليها سور من حجارة، وفيها بناء بالحجارة واسع، والأَرُنْط (العاصي) يجري أَمامها، ويسقي بساتينها ويدير نواعيرها، وبين حماة ودمشق خمسة أيام للقوافل. وفيها يقول امرؤ القيس:

تَقطَّعُ أَسبابُ اللُّبانةِ والهــوى عشيةَ جاوزنا حماةَ فــشيزرا

ومن حماة يتجه الطريق إلى قِنَّسرِين وهي مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص وما زالت آهلة عامرة إلى أن كانت سنة ٣٥١هـ وغلبت الروم على مدينة حلب، وقتلت جميع من كان بربضها، فخاف أهل قِنَّسْرين وتفَرّقوا في البلاد. فطائفةٌ عبرت الفرات، وطائفة نقلها سيف الدولة ابن حمدان إلى حلب كثَّر بهم من بقيَ من أهلها. ومن قِنَّسْرين توجه أبو الطيب إلى أَنطاكية، فبلغها في الشهور الأَخيرة من سنة ٣٣٦هـ وقد مَرَّ وصفُ هذه المدينة التي سبق للشاعر أن زارها، ولقي فيها ممدوحَهُ المغيث بن بِشرْ العجلي.

كان أَبو الطيب آنئذٍ قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره، وأصبح شاعراً مرموقاً يتناقل الناسُ أَشعارَه في أَرجاء الشام ومصر والعراق. فشعرُه لم يرتَقِ إلاَّ في كنف الأُمراء والأَشراف من ذوي النفوذ، بَدْءاً بالتنوخيين الذين عاش في كنفهم حيناً في اللاذقية، ثم الاحتماء في ظلِّ حاكم طبريّة بدرِ بن عمَّار، وصولاً إلى الأمير الإخشيدي الشاب أبي محمد الحسن بن عبيد الله في الرملة بفلسطين. وهو ما أَغراه بتجاوز أَمثال هؤلاء، والتطلُّع إلى أمير أكثر خطراً أَلا وهو سيف الدولة بن حمدان الذي لمع نجمه في السنوات الأخيرة، فرأى أن يتوسَّل إليه بابن عمّه أبي العشائر أمير أنطاكية حيث أعدّ له قبل أن يغادر دمشق قصيدته الشينية التي يمدحه فيها، ويذكر إيقاعه بأصحاب باقيس، ومسيره من دمشق فقال:

مَبِيتي من دمــشقَ علــى فــراشٍ   حشاهُ لي بِحَــرِّ حَــشايَ حــاشِ(١)

لَقَــى ليــلٍ كعــين الظبــي لونــاً   وهَــمٍّ كالحُميَّــا فــي المُــشاشِ(٢)

---

(١) يقول: أتيت من دمشق على فراش حار حُشي بحرارة قلبي من الهوى.

(٢) اللقى: الشيء الملقى، والحُميَّا: سَوْرة الخمر. والمشاش: رؤوس العظام الرخوة. وعين الظبي: يضرب به المثل في السواد: يقول: إنني طريح ليل أسود وهمّ قد خالطه وتمشى فيه تمشّي الخمر في العظام.

وشـــوقٍ كالتوقُّــدِ فــي فـؤادٍ كجمرٍ فــي جــوانحَ كالمُحــاش[(١)]

سقى الدمُ كـلَّ نـصلٍ غيـرِ نـابٍ وروَّى كــلَّ رمــحٍ غيــرِ راشِ[(٢)]

فــإنَّ الفــارسَ المنعــوتَ خَفَّــتْ لِمُنْــصُلِهِ الفــوارسُ كالريــاشِ[(٣)]

فقد أَضحى أبــا الغَمَــرات يُكْنَــى كأنَّ أبــا العــشائر غيــرُ فــاشِ[(٤)]

وقد نُــسِيَ الحُــسينُ بمــا يُــسمَّى رَدَى الأبطالِ أو غيــثَ العِطــاشِ[(٥)]

لَقُــوه حاســراً فــي درعِ ضَــرْبٍ دقيقِ النَّسْجِ مُلتهــبِ الحواشــي[(٦)]

كأَنَّ علــى الجمــاجمِ منــه نــاراً وأيدي القــومِ أَجنحــةُ الفــراشِ[(٧)]

إلى أن يقول:

فيـــا بحـــرَ البحـــور ولا أُوَرِّي ويا ملــكَ الملــوكِ ولا أُحاشــي[(٨)]

كأنـــك نـــاظرٌ فـــي كـــلِ قلـــبٍ فما يَخفى عليــكَ محــلُّ غــاشِ[(٩)]

أأصبِرُ عنــكَ لــم تبخــلْ بــشيءٍ ولـــم تَقبـــلْ علـــيّ كـــلامَ واشِ

---

(١) المحاش: ما أحرقته النار.

(٢) يدعو بالسقيا لكل سيف لا ينبو عن الضريبة، ولكل رمح غير ضعيف.

(٣) المنعوت: الموصوف يعني أبا العشائر. الذي تطايرت الفوارس عن سيفه تطاير الريش.

(٤) يقول: غلبت على أبي العشائر كنية أبي الغمرات لكثرة خوضه الحروب والشدائد بدلاً من كنيته المعروفة.

(٥) رَدَى الأبطال: هلاكها. يقول نسي الناس اسمه الحقيقي (الحسين) فغلبت عليه صفتا الجود والشجاعة.

(٦) الحاسر: الذي لا درع له. يقول: إنه لضربه الأعداء كأنه دارع لأن ضربه بالسيف يحميه.

(٧) يقول: كأن سيفه يحرق الجماجم لشدّة ضربه إياها، وسيفه يلمع كالنار عليها. وكأن أيدي القوم كالفراش المتطاير لضربه إياها بالسيف.

(٨) ورّى الحديث: أخفاه وأظهر غيره. يقول: لا أستر قولي، بل أجهر به. ولا أحاشي: لا أستثني أحداً.

(٩) الغاشي: الزائر. يقول: إنك عليم بما في قلوب الناس، فليس يخفى عليك حال قاصد إليك وزائر يغشاك.

وكيف وأنت في الرؤساءِ عندي عتيقُ الطيرِ ما بين الخَشاش[1]
أرى الناسَ الظلامَ وأنتَ نورٌ وإنّي منْهُمُ لَإليكَ عَاشِ[2]
فَسِرْتُ إليكَ في طلب المعالي وسار سواي في طلب المعاشِ

في حمى أبي العشائر:

ومما لا شك فيه أن المتنبي كان تَوَّاقاً لمدح أَمير عربي شجاع، يفهم مراميَ شعره، ويقدِّر موهبتَه خلافاً لأولئك الحكام الأَعاجم الذين انتزعوا السيادةَ من أَيْدي العرب، فأصبحوا غرباءَ في بلادهم لا حول لهم ولا طول. لذلك فهو يؤمّل في هذه المرحلة من حياته - بعد أن تجاوز نزوات الشباب وحدَّتَه وما أصابه من الخيبة والخذلان إثر خروجه على السلطان - أن يجدَ ضالَّتَه في بلاط التغالبة من بني حمدان، فيغدو شاعرهم بلا منازع. فكان له ما أراد إذ استقبله أبو العشائر استقبالاً حافلاً، فأكرمه، وعرف منزلته، واهتزّ لمدحه بعد سماعه القصيدة الشينية الآنفة الذكر، وبعد أن استقر أبو الطيب في حمى أبي العشائر مدحه بقصيدته التالية:

أَتُراها لِكَثْرةِ العُشَّاقِ تَحْسَبُ الدمْعَ خِلْقةً في المآقي[3]
كيف ترثي التي ترى كلَّ جَفْنٍ راءَها غيرَ جَفْنِها غيرَ راقي[4]
أنتِ مِنَّا فتنتِ نفسَكِ لكِنَّكِ عُوفيتِ من ضنىً واشتياقِ[5]
حُلْتِ دون المزارِ فاليومَ لو زُرْتِ لحال النحولُ دونَ العناقِ

---

(١) العتيق الكريم. والخِشاش: صغار الطير، والحشرات.

(٢) عشا إلى النار: أتاها ليلاً هذا هو الأصل، ثم صار كل قاصد عاشياً.

(٣) أتراها: أتظنها يقول الشاعر لصاحبه: أتظنها لكثرة ما ترى الدمع في مآقي عشاقها تتوهم أنه خلقه فيها؛ فلا ترحم ولا ترثي!

(٤) راءها: رآها. راقي: منقطع الدمع. أي إن هذه المعشوقة لا ترحم باكياً لأنها ترى كل جفن سائل الدمع إلا جفنها.

(٥) يقول: أنت مفتونة بعشق نفسك، ولكنك نجوت من النحول والاشتياق لأنك تواصلين محبوبك وهو نفسك.

إلى أن يقول:

لـــيس إلاَّ أبـــا العـــشائر خَلْـــقٌ ســـاد هـــذا الأَنـــامَ باســـتحقاقِ

طاعِنُ الطعنةِ التي تَطْعــنُ الفَـيـْـ ــلَقَ بالــذُّعرِ والــدَّمِ المُهَــراقِ

ضاربُ الهامِ في الغُبــار ومــا يــر هبُ أَنْ يَشربَ الــذي هــو ســاقي

ثاقـــبُ الـــرأي ثابـــتُ الحِلْـــــ ـــمِ لا يقدرُ أمرٌ له على إقــلاقِ(١)

يا بنـــي الحـــارثِ بـــنِ لقمـــان لا تَعْـــدَمْكُمُ فـــي الـــوغى متـــونُ العتـــاقِ(٢)

بعثوا الرعبَ في قلــوبِ الأعــاديِّ فكـــانَ القتـــالُ قبـــلَ التلاقـــي

يابـــنَ مَـــنْ كلَّمـــا بـــدوتَ بَـــدالي غائبَ الشخصِ حاضرَ الأخـــلاقِ(٣)

قـــلّ نفـــعُ الحديـــدِ فيـــك فمـــا يلقـــاك إلاّ مَـــنْ ســـيفُه مـــن نِفـــاقِ(٤)

إلْـــفُ هـــذا الهـــواءِ أَوْقَـــعَ فـــي الأنْفُـــسِ أَنَّ الحِمـــامَ مُـــرُّ المـــذاقِ(٥)

والأَسى قبل فُرْقَــةِ الــروحِ عَجْــزٌ والأَسى لا يكــونُ بعــد الفــراقِ(٦)

كم ثـــراءٍ فرَّجْـــتَ بـــالرمحِ عنـــه كان من بُخلِ أهلِــه فـــي وثـــاقِ(٧)

والغنـــى فـــي يـــد اللئـــيم قبـــيحٌ قَدْرَ قُـــبْحِ الكـــريمِ فـــي الإمـــلاقِ

---

(١) يقول: لا يقلقه أمر من الأمور لثبات حلمه.

(٢) الحارث بن لقمان: جدّ أبي العشائر.

(٣) يقول: أنت شديد الشبه بأبيك، فإذا ظهرت لي شاهدت فيك أخلاقه، وإن غاب شخصه.

(٤) أي إن أعداءك لا يقدرون عليك بسيوف الحديد، فلا يلقونك إلاّ بسيف النفاق.

(٥) يقول: إن نفوسنا ألفت هذا الهواء، فظننت أن الموت كريه الذوق. مما أوقع في النفوس أن الموت مرّ الطعم.

(٦) يقول: إن الجزع من الموت قبل حلوله عجز سببه الجبن والضعف، وأنه لا جزع بعد الموت لعدم حس الميت بشيء مما هو فيه.

(٧) يقول: كم مالٍ كان قد أوثقه البخل، ففتلت أربابه وأبحته لطلاّبه.

شاعرُ المجدِ خِدْنُه شــاعرُ اللَّفـظِ كِلانـــا ربُّ المعـــاني الـــدِّقاقِ[١]
لـــم تَـــزَلْ تَـــسْمَعُ المـــديحَ ولكـــنَّ صـــهيلَ الجيـــادِ غيـــرُ النّهـــاقِ

ولا يخفى ما في هذه القصيدة من تكلُّفٍ ظاهر ومبالغاتٍ سبق للشاعر أن أَسبغها على ممدوحيه السابقين، بَيْدَ أنه في هذه القصيدة تجاوز مدح أبي العشائر إلى مدح بني حمدان جميعاً، مؤمّلاً أن يبلغ إطراؤه مسامعَ سيف الدولة بحلب، وهو محطُّ آماله ومرتجاه.

ولكن تعريضه بمنافسيه من الشعراء، والتصريح بذمّهم كما ورد في البيت الأخير؛ إذ جعل نفسه جواداً، وجعلهم حميراً؛ أَلَّب خصومه عليه، فسعَوا في الكيد له ولكنه ثبت لهم، ولأن هزيمته أمامهم تعني موتَهُ وخمولَ ذكره، فسجَّل انتصاره عليهم بقصيدته اللامية في مدح أبي العشائر التي تُعَدُّ من روائع مدائحه حيث قال:

لا تَحـــسَبوا ربعَكـــم ولا طَلَلَـــهْ أوّلَ حـــيٍّ فـــراقُكم قَتَلَـــهْ[٢]
قـــد تَلِفَـــت قبلَـــه النفـــوسُ بكـــم وأكثـــرت فـــي هـــواكُم العَذَلَـــهْ[٣]
خـــلا وفيـــه أَهـــلٌ وأَوحَـــشَنَا وفيـــه صِـــرْمٌ مُـــروّحٌ إبِلَـــهْ[٤]
لو ســار ذاك الحبيـــبُ عـــن فَلَـــكٍ ما رَضـــيَ الـــشمسَ بُرْجُـــه بَدَلَـــهْ
أُحِبُّـــــــه والهـــــــوى وأدؤُرَهُ وكـــلُّ حُـــبٍّ صـــبابةٌ وَوَلَـــهْ[٥]

---

(١) يقول: أنت شاعر المجد الناظم لمحاسنه، وأنا شاعر اللفظ، وكلانا يفتنّ في صناعته.

(٢) الربع: المنــزل. والطلل: ما شخص من أثار الديار. يقول: رحلتم عن الديار فخربت، ولكنها ليست أول ديار قتلت من جراء فراقكم.

(٣) العذلة: ج عاذل. يقول: إن نفوس العشاق تلفت قبل تلف الربع بسببكم، وأكثر العذال العذل في هواكم لما رأوا من التهالك فيكم.

(٤) الصرم: الجماعة من البيوت بمن فيها. يقول: إن الربع موحش وإن كان فيه ناس وذلك لارتحال أحبابنا عنه.

(٥) الأدؤرَ: جمع دار. يقول: أحبه وأحب كل ما له علاقة به.

إلى أن يقول:

أنا ابنُ مَــنْ بعــضُهُ يفــوقُ أبــا الباحــثِ والنَّجْــلُ بعــضُ مَــنْ نَجلَــهْ[(١)]

وإنمـــا يـــذكر الجـــدودَ لهـــم مــن نَفَــروه وأنفــدوا حِيَلَــه[(٢)]

فخـــراً لعـــضْبٍ أَرُوحُ مُـــشتَمِلَهْ وسَـــمْهريٍّ أَروحُ مُعْتَقِلَـــهْ[(٣)]

أنا الذي بيَّن الإلــهُ بــه الأَقْــدارَ والمـــرءُ حيثمـــا جَعَلَـــهْ[(٤)]

جـــوهرةٌ يفـــرحُ الكـــرامُ بهـــا وغُـــصَّةٌ لا تُـــسيغُها الـــسَّفِلَهْ

إنَّ الكِـــذَّابَ الـــذي أُكادُبُـــه أهونُ عندي مــن الــذي نَقَلَــهْ[(٥)]

ودارعٍ سِـــفْتُه فخـــرَّ لَقـــىً في الملتقى والعجَاجِ والعَجَلَـــهْ[(٦)]

وســـامعٍ رُعْتُـــه بقافيـــةٍ يحــارُ فيهــا الـــمُنَقِّحُ القُوَلَــه[(٧)]

وربَّمـــا أُشْـــهِدُ الطعـــامَ معـــي من لا يُساوي الخبزَ الذي أَكَلَــهْ[(٨)]

---

(١) النجل: الولد. ونجله: ولده. يقول: أنا ابن الذي بعضه، أي ولده. يفوق أبا الباحث عن نسبي.

(٢) نافر فلاناً: فاخره. يقول: لا يذكر المرء أجداده إلاّ إذا غُلب في الفخر لأنه لا فضيلة له في نفسه.

(٣) العضب: السيف القاطع. والسمهري: الرمح. يقول: إن سيفي ورمحي يفتخران بي لا أنا بهما.

(٤) يقول: بين الله أقدار الناس في الفضل بي لأني أصف الواحد بما فيه.

(٥) الكذاب: الكذب. أُكادبه: أُقصَد به على وجه الكيد بي.

(٦) الدارع: لابس الدرع. سفته: ضربته بالسيف. لقىً: مطروح أرضاً. يقول: ربّ دارعٍ ضربته بالسيف فتركته مطروحاً كالشيء الملقى عند المواجهة.

(٧) رُعته: أعجبته، أو أخفته. القافية: القصيدة. المنقّح: الذي يهذب القول. القولة: الجيد القول.

(٨) أُشهد الطعام: أُحضر. يقال: إنه أراد به الرجل الذي وشى به. وكان يقال له المسعودي، وكان المتنبي وصله بأبي العشائر فصار نديماً له، ثم تناوله عند أبي العشائر.

ويُظهرُ الجهلَ بي وأعرفُه — والدرُّ دُرٌّ برغم مَنْ جَهِلَه

مُستَحْيِياً من أبي العشائر أن — أسحبَ في غير أرضِه حُلَلَه[1]

أَسحبها عنده لدى مَلِكٍ — ثيابه من جليسه وَجِلَه[2]

وبيضُ غلمانه كنائله — أوَّلُ محمولِ سَيْبِه الحَمَلَهْ[3]

ماليَ لا أمدحُ الحسينَ ولا — أَبذُلُ مِثْلَ الودّ الذي بَذَلَهْ

يحتقر البيضَ واللِّدانَ إذا — سَنَّ عليه الدِّلاصَ أو نَثَلَهْ[4]

قد هَذَّبتْ فهمَهُ الفَقَاهةُ لي — وهذَّبت شعريَ الفصاحةُ لَهْ[5]

فصرْتُ كالسيفِ حامداً يَدَهُ — لا يَحمدُ السيفُ كلَّ من حَمَلَهْ[6]

لأشكَّ في أن هذه القصيدة تُعدُّ في روائع شعره، فهو يفخر بنفسه فخراً لا مزيدَ عليه، إنه فوقَ أَبِ الذي يَبحثُ عن نَسَبه ويَستَقصي أَصلَه. ولا يفخر بالآباء والجدود إلاَّ من غلبة المفاخرون، فاتخذ من آبائه وجدوده مُتَّكأً يستند إليه، وغطاءً يستر به عجزه. ويكفيه فخراً انتسابه إلى البأس والشدّة، والمروءة والنجدة، وبه يفخر السيف والرمح مثلما يفخر به الفخر نفسه. وهو إلى ذلك كله يقهر بشعره الشعراء كافّة، ويحار في شعره وتأويله، واكتشاف محاسنه النقادُ البارعون.

---

(١) الحلل: الثياب. يقول: إنما أقمت مع الأعداء في هذا البلد حياءً من أبي العشائر أن أرتدي خلعه في غير بلده.

(٢) وجلة: خائفة. يقول: إن ثيابه لا تحب أن تفارقه فهي تخاف أن يخلعها على جليسه.

(٣) النائل: العطاء. يقول: إنه يهب غلمانه كما يهب ماله.

(٤) البيض: السيوف. واللدان: الرماح الّلينة. ج لدن. وسن الدرع: لبسها. الدلاص: الدرع الملساء. ونثل الدرع: خلعها. أي أنه يحتقر السيوف والرماح دارعاً كان أو حاسراً.

(٥) الفقاهة: الفهم والفطنة.

(٦) يقول: أنا احمده كما يحمده السيف، والسيف لا يحمد كلّ حامل له، وكذلك أنا لا أحمد كل يد.

وقال يمدح أبا العشائر، ويودِّعه وقد أراد سفراً:

ألنَّاسُ ما لم يَرَوْكَ أَشباهُ ... والدهرُ لَفْظٌ وأَنت معناهُ[(١)]

والجودُ عينٌ وأنت ناظرُها ... والبأسُ باعٌ وأَنتَ يُمناهُ[(٢)]

أفدي الذي كلُّ مَأْزِقٍ حَرِجٍ ... أَغبرَ فرسانُه تَحاماهُ[(٣)]

أَعلى قناةِ الحسينِ أَوسطُها ... فيه وأعلى الكميّ رجلاهُ[(٤)]

تُنشِدُ أثوابُنا مدائحَه ... بأَلسنٍ ما لهنَّ أفواهُ[(٥)]

إذا مررنا على الأصمّ بها ... أغنته عن مِسْمَعَيْه عيناهُ

سبحانَ من خار للكواكب بالبعْدِ ولو نِلْنَ كُنّ جدواهُ[(٦)]

لو كان ضوءُ الشمسِ في يده ... لصاعه جودُه وأفناهُ[(٧)]

يا راحلاً كُلُّ من يودّعُه ... مودِّعٌ دِيْنَهُ ودُنياهُ[(٨)]

إنْ كانَ فيما نراه من كرمٍ ... فيك مزيدٌ فزادكَ اللَّهُ[(٩)]

---

(١) يقول: الناس يشبه بعضهم بعضاً، فإذا رأوك اختلفوا بك إذ لا نظير لك بينهم.

(٢) ناظر العين: إنسانها. والباع: قدر مد اليدين. يقول: أنت من الجود بمنزلة الناظر من العين، ومن البأس بمنزلة اليمين من الباع.

(٣) يقول: أفدي الذي تتحاماه الأبطال في الحرب لشجاعته وفتكه.

(٤) الكمي: البطل المغطى بسلاحه. أي إن قناة رمحه تعوج للينها حين يحمل قرنه برمحه فيصير أوسطه أعلاه، ويكون الفارس منكّساً.

(٥) يقول إننا نرتدي خلعه التي يستدلّ بها على جوده فكأنها أنشدت مدائحه.

(٦) خار: اختار. نلن: كن ما يُنال. يقول: سبحان من جعل الكواكب بعيدة عن متناوله، لأنها لو كانت قريبة لفرقها في جملة عطاياه.

(٧) صاعه: فرَّقه.

(٨) يريد: أنه لا دين إلاّ به؛ لأنه يحفظه على الناس، ولا دنيا إلاّ معه.

(٩) يقول: لا مزيد على كرمك لأنه بلغ الغاية، فإن كان يقبل الزيادة فزادك الله منه.

إن سيرة المتنبي مع أبي العشائر لا تختلف كثيراً عن سيرته مع علي بن إبراهيم التنوخي، وبدر بن عمار والحسن بن عبيد الله الإخشيدي، مع جنوح واضح إلى الإفراط في المبالغة، والتكلُّف في النظم، والحرص على التنويه بنفسه وبشعره ليكون جديراً بالحُظْوة التي يتوق إليها عند سيف الدولة. وللمتنبي في أبي العشائر عدد من المقطوعات الشعرية في موضوعات مختلفة يغلب عليها طابع الارتجال، والاستجابة إلى رغبة الممدوح، ومنها قوله وقد ضرب أبو العشائر خيمةً على الطريق، فكثر سُؤَّالُه وغاشيتُه؛ فقال أحدهم: جعلت مضربَك على الطريق، فقال: أحبّ أن يذكره أبو الطيب فقال:

لام أناسٌ أبا العشائر في ... جودِ يديه بالعَينِ والورِقِ[1]

وإنما قيل لِمْ خُلِقْتَ كذا ... وخالقُ الخَلْقِ خالِقُ الخُلُقِ

قالوا: ألَم تكْفِهِ سماحتُهُ ... حتى بنى بيتَهُ على الطُرُقِ

فقلتُ إنَّ الفتى شجاعتُه ... تُريه في الشُّحِّ صورةَ الفَرَقِ[2]

بضرْبِ هامِ الكُماةِ تَمَّ له ... كَسْبُ الذي يَكْسِبون بالملَقِ[3]

الشمسُ قد حلَّتِ السماءَ وما ... يَحْجُبُها بُعْدُها عن الحَدَقِ[4]

كُنْ لُجَّةً أيها السماحُ فقد ... آمنَهُ سيفُه من الغَرَقِ[5]

---

(١) العين: الذهب. الورق: الفضَّة، وقيل: هي الداهم المضروبة.

(٢) الشحّ: البخل. الفرق: الخوف والذعر. يقول: إن الشجاع لا يكون بخيلاً، وإنما يتجنب البخل كما يتجنَّب الخوف.

(٣) الهام: الرؤوس. الكماة جمع كمي: الشجاع المستتر بسلاحه. يقول: إنه محبوب لشجاعته ومضائه، فتم له بضرب رؤوس الأبطال ما يكسبه المتملّق.

(٤) يقول: إنه لا يمكن أن يحتجب عن قصاده فهو كالشمس على بعدها يراها كل راء.

(٥) يقول: أنه لا يخاف الفقر لأنه غير قادر على إغراقه فسيفه آمنه من ذلك. فكلما أعطى سائليه وقصاده مالاً أخذ له سيفه أضعاف ذلك.

لقاؤه بسيف الدولة

أمضى أبو الطيب بضعةَ أشهر في صحبة أبي العشائر، كان ينتظر خلالها الفرصة المواتية للمثول أمام سيف الدولة عميد بني حمدان. وكانت المفاجأة السعيدة قدومَ سيف الدولة إلى أنطاكية في شهر جمادى الأولى من سنة ٣٣٧هـ فضُرب له صِيْوان من خَزّ، وشرع يستقبل فيه الوفود التي قَدِمت للسلام عليه بمن فيهم الشعراء، وكان أبو الطيب في عدادهم فقدّمه إليه أبو العشائر، وأَثنى عليه، وعرَّفه منـزلته من الشعر والأدب.

ولا شك في أن المتنبي - بوصفه متتبعاً لأحداث عصره، وأخبار المشاهير من رجاله - كان على علم بأخبار بني حمدان التغالبة الذين كان لهم نفوذ وسلطان إبان الخلافة العباسية منذ سنة ٢٦٠هـ، إذ تولّى أمراؤهم ولايات كثيرة، فأخوه ناصر الدولة الحسن بن عبد الله تولّى إمارة الموصل عقب أَبيه، وأصبح أمير الأمراء سنة ٣٣٠هـ أما سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان فقد تولَّى مدينةَ واسط جنوبي بغداد ثم انتـزع لنفسه مملكة من الإخشيديين في شمالي الشام، وجعل من حلب عاصمة له إذ سار إليها سنة ٣٣٣هـ «فملكها واستولى عليها، وكان مع المتّقي بالله بالرقَّة، فلما عاد المتقي إلى بغداد، وانصرف الإخشيد إلى الشام بقي يأنس المؤنسي بحلب، فقصده سيف الدولة، فلما نازلها فارقها يأنس وسار إلى الإخشيد؛ فملكها سيف الدولة، ثم سار منها إلى حمص. فلقيه عسكر الإخشيد محمد بن طُغْج صاحب الشام ومصر مع مولاه كافور واقتتلوا، فانهزم عسكر الإخشيد وكافور، وملك سيف الدولة مدينة حمص، وسار إلى دمشق فحصرها، فلم يفتحها أهلُها له؛ فرجع وكان الإخشيد قد خرج من مصر إلى الشام، وسار خلف سيف الدولة، فالتقيا بِقِنَّسرين، فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر. ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، فلما عاد الإخشيد إلى دمشق رجع سيف الدولة إلى حلب، ولما ملك سيف الدولة حلب سارت الروم إليها، فخرج إليهم، فقاتلهم بالقرب منها، فظفر

بهم، وقتل منهم[1]» وفي هذه السنة ٣٣٣هـ «غزا سيف الدولة بلاد الروم وردّ سالماً بعد أن بدع في العدو، وسبب هذه الغزاة أنه بلغ الدمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب أضداده (الحرب الداخلية) فسار في جيش عظيم، وأوقع بأهل بغراس ومرعش، وقتل وأسر؛ فأسرع سيف الدولة إلى مضيق وشعاب، فأوقع بجيش الدمستق....، واستنقذ الأسارى والغنيمة، وانهزم الروم أقبح هزيمة. ثم بلغ سيف الدولة أن مدينة للروم تهدّم بعض سورها وذلك في الشتاء؛ فاغتنم سيف الدولة الفرصة، فأناخ عليها وقتل وسبى لكن أصيب بعضُ جيشه[2]».

لقد كان الهم الأول لسيف الدولة منازلة الروم، والدفاع عن حياض العرب والإسلام في زمن أخذت فيه مملكتُهم بالتداعي. إذ استطاع أن يحقق انتصاراً مشهوداً على الجيش البيزنطي بقيادة فَرْدَس فُقَّاس في أواخر سنة ٣٣٦هـ ثم قضى على تمرُّد الأكراد في قلعة برزويه المنيعة، وهي حصن قرب السواحل الشامية يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة.

بُهِتَ المتنبي عندما شاهد سيف الدولة لأول مرة إذ رآه رجلاً مهيباً جميلاً جداً، آسِراً كان عمُره آنئذٍ لا يتجاوز الخامسة والثلاثين وهو إلى ذلك يتصف بصفات تؤهّلُه للسيادة والمجد كالكرم، والشجاعة، وسمو النفس. وقد تداول الناس سيرة هذا الأمير الذي حرص على أن يجعل من حلب حاضرةً منافسةً لبغداد، حيث جمع حوله فئةً ممتازة من رجال العلم والأدب. فهو محارب مثقَّف تلقى تعليمه على أيدي المشاهير من شيوخ عصره. فشبَّ على حُبّ العلم وأهله، وهو بالإضافة إلى معرفته الواسعة بالشعر العربي كان شاعراً، وله اهتمام كبير بالأدب والفلسفة والموسيقا وعلم التنجيم. فسيف الدولة سيّد عربي بامتياز، في زمنٍ كانت الغلبةُ فيه للأعاجم على مقاليد الأمور في معظم أرجاء دار الإسلام. لذلك وجد فيه أبو الطيب ضالَّته

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير - ج ٨ ص ٤٤٥-٤٤٦. ط دار صادر - ١٩٧٩.

(٢) (الذهبي ١-١٦٠ - عن كتاب سيف الدولة وعصر الحمدانيين - سامي الكيالي - دار المعارف بمصر - ١٩٥٩).

المنشودة، ولكنّه اشترط عليه أَلاَّ يُنْشِدَه إلاَّ وهو قاعد، وأَلاَّ يُكلَّفَ تقبيلَ الأرض بين يديه، فنُسِب إلى الجنون، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، وتطلَّع إلى ما يَرِدُ منه، وكان أبو الطيّب قد وضع في حسابه أنه سيمثل أمام أميرٍ خطير يميّز جيّد الشعر من رديئه، لذا كان عليه أن يتروّى ويُعيد النظر فيما سيُنشده من شعر، وأَن تكونَ قصيدتُه الأولى جديرةً بالإنشاد بين يدي سيدِّه الجديد، فلم يُرسل نَفْسَه على سجيتها، بل أخضع عواطفه ورغباته لنظامٍ دقيق ليستحوذَ على إعجاب الأمير ونُدمائه من العارفين والذائقين للشعر. فقال يمدحه، وكان جالساً تحت مظلةٍ من الديباج عليها صورة ملك الروم، وصور وحش وحيوان:

وفاؤُكما كالرَّبْع أَشْجاه طاسِمُهْ — بأن تُسْعِدا والدمعُ أَشفاهُ ساجِمُه[١]

وما أنا إلاّ عاشقٌ كلُّ عاشقٍ — أعقُّ خليليه الصفيّين لائمُهْ[٢]

وقد يتزيّا بالهوى غيرُ أَهلِهِ — ويستصْحِبُ الإنسانُ من لا يلائمُهْ[٣]

بَلِيت بِلَى الأَطلال إن لم أَقِف بها — وُقُوفَ شحيحٍ ضاع في التُّرْبِ خاتِمُهْ

كئيباً توقّاني العواذلُ في الهوى — كما يتوقّى رَيِّضَ الخيلِ حازِمُه[٤]

قفي تَغْرَمِ الأُولى من اللحظ مهجتي — بثانيةٍ والمُتْلفُ الشيءَ غارِمُه[٥]

---

(١) أشجاه: أشده شجواً أي حزناً. والطاسم: الطامس الدارس. يقول مخاطباً خليليه اللذين عاهداه على أن يساعداه على البكاء عند ربع الأحبة: إن وفاءكما بمساعدتي على البكاء كهذا الربع الذي كلما تقادم عهده كان أشجى لزائره، وكذلك وفاؤكما كلما قلّ اشتدّ حزني.

(٢) يقول: كل عاشق له خليلان صفيان أعقهما في الود من يلومه في هواه.

(٣) التزّيي: تكلّف الزيّ وهو اللباس والهيئة. يقول: قد يتكلف الإنسان الهوى وليس من أهله وقد يصاحب المرء من لا يكون موافقاً له في أحواله.

(٤) الكئيب: الحزين. ريّض الخيل الصعب قياده. والحازم: السائس. يقول: إن العواذل يحذرن جانبي إذا وقفت على ربع الأحبة كئيباً، كما يحذر السائس جماح فرسه.

(٥) يقول: إنه نظر إليها نظرة أتلفت مهجته، لذا يطلب منها أن تمكنه من نظرة ثانية تردّ إليه مهجته. وغرم ما أتلفه: لزمه أداؤه.

إلى أن يقول

وأحسنُ مــن مــاءِ الــشبيبةِ كُلِّـــه	حيا بارقٍ في فازةٍ أنــا شــائمه[(١)]
عليها رياضٌ لــم تَحُكْهــا ســحابةٌ	وأغصانُ دوحٍ لم تَغَــنَّ حمائمُــه[(٢)]
وفوق حواشي كــلّ ثــوبٍ موجَّـــهٍ	من الدرّ سِمْطٌ لم يثقِّبــه ناظمُــه[(٣)]
ترى حيوانَ البــرّ مُــصْطلِحاً بهـــا	يحـــاربُ ضــدٌّ ضِــدَّهُ ويــسالِمُه[(٤)]
تُقبِّـــل أفـــواهُ الملـــوكِ بـــساطَهُ	ويَكْبُــرُ عنهــا كُمُّـــهُ وبَراجِمُـــه[(٥)]
له عسكرا خيــلٍ وطيــرٍ إذا رمـــى	بها عسكراً لم يبق إلاَّ جماجمُـــه[(٦)]
أَجِلَّتُهـــا مـــن كُـــلّ طـــاغٍ ثيابُـــهُ	وموطِئُها من كلّ بـــاغٍ ملاغمُـــه[(٧)]

---

(١) ماء الشبيبة: نضارتها وحسنها. الحيا: المطر. البارق: السحاب ذو البرق. والفازة: مظلة بعمودين نصبت لسيف الدولة. والشائم: الناظر إلى البرق يرجو المطر. يقول: إن الشخص الذي يراه أحسن نضارة من ماء الشباب، إذ جعله كالسحاب في جوده وعموم نفعه؛ لذا فهو يعلّق رجاءه فيه آملاً جوده.

(٢) يصف تلك الخيمة وما عليها من صور رياضٍ وأشجار ليست مما أنبته السحاب وحاكه لذا فإن ما عليها من حمائم وطيور لا تتغنى لأنها ليست حية.

(٣) موجّه: ذو وجهين. السمط: السلك. وسمط الدر: الدوائر البيض على حواشي تلك الأثواب التي اتخذت منها الفازة.

(٤) يقول: إن هذه الفازة مزينة بصور الحيوانات يصول الواحد منها على الآخر ولكنه لا يلحق به أذىً لأنها جميعاً مسالمة لا روح فيها.

(٥) البراجم: مفاصل الأصابع. يقول: إن الملوك حين يلقونه يقبلون بساطه، ولا يرقون إلى تقبيل كمه أو يده.

(٦) يقول: إن له عسكرين: الخيل والطير التي اعتادت أن تصحبه في حروبه لتأكل لحوم القتلى، فكأنها من عداد جيشه. فإذا رمى بهذين الجيشين عسكر العدو لم يبق إلا عظام الجماجم لأن عسكر الخيل يقتلهم، وعسكر الطير يأكل لحومهم.

(٧) الأجلة: جمع جلّ: ما يجعل على ظهر الدابة. والملاغم: ما حول الفم مما يبلغه اللسان ويصل إليه. يقول: إن أجلة خيله من ثياب ملوك الروم، وحوافرها تطأ وجه كل باغٍ فيهم.

فقد ملَّ ضوءُ الصبحِ ممَّـا تُغيـرُه ... وملَّ سوادُ الليلِ ممـا تزاحمُـه[1]

وملَّ القنـا ممَّـا تَـدُقُّ صُـدورَهُ ... وملّ حديدُ الهنـدِ ممَّـا تلاطِمُـه[2]

سحابٌ من العقبانِ يزحـفُ تحتهـا ... سحابٌ إذا اسْتَسْقت سقتها صوارِمُهْ[3]

ثم يقول:

غضبتُ لـه لمـا رأيـتُ صـفاتِه ... بلا واصفٍ والشعرُ تهذي طماطمُه[4]

وكنـتُ إذا يمَّمـتُ أرضـاً بعيـدةً ... سريتُ وكنتُ السرَّ والليلُ كاتِمُـهْ[5]

لقد سلّ سيفُ الدولةِ المجدَ مُعلِمـاً ... فلا المجدُ مُخْفِيه ولا الضربُ ثالِمُهْ[6]

على عاتقِ المَلْـك الأَغـرّ نِجـادُه ... وفي يد جبَّار الـسماوات قائمُـه[7]

تحاربُـه الأعـداءُ وهـي عبيـدُهُ ... وتدَّخِرُ الأمـوالَ وهـي غنائمُـه[8]

ويستكبرون الدهرَ والدهرُ دونه ... ويَسْتعظِمون الموتَ والموتُ خادِمُه[9]

---

(١) يقول: لكثرة غاراتك وقت الصبح قد مّل الصبح منها وضجر، كما ملّ الليل من مزاحمتك إياه.

(٢) يقول: ملت رماحك من الطعن، كما ملت سيوفك من الضراب.

(٣) جعل العقبان التي فوق جيشه سحاباً، وجعل جيشه سحاباً لما فيه من بريق الأسلحة وسفح الدماء، وجعل الجيش الأسفل يسقي الأعلى من دماء القتلى.

(٤) هذى: تكلم بغير معقول. والطماطم جمع طِمْطِم: من كان في لسانه عجمة. يقول: غضبت لأجله لقصور هؤلاء الشعراء عن الإحاطة بصفاته.

(٥) يمّمت: قصدت. يقول: كنت إذا قصدت أرضاً بعيدة سريت في الظلام كأني سرّ والليل يكتم هذا السرّ.

(٦) يقول: إن الممدوح سيف سلّه المجد، فلا يغمده ولا يثلمه الضرب لأنه ليس سيفاً من حديد.

(٧) الملك الأغر: الخليفة. العاتق: موضع الرداء من المنكب. ونجاد السيف: حمالته، وقائمه: مقبضه. يقول: هو سيف يتقلّده الخليفة، ويضرب به أعداءه.

(٨) يقول: إن أعدائه يحاربونه، ولكنه يسبيهم ويسترقّهم، ويدّخرون الأموال ليغنمها في محاربتهم.

(٩) هم يعدون الدهر عظيم الشأن لما يفعله من إسعاد قوم، وإشقاء آخرين، والدهر دونه لأنه طوع أمره، ويستعظمون الموت والموت ينفذ مراده في أعدائه.

وإن الذي سَـمَّى عليَّـا لَمُنْـصِفٌ   وإن الذي سمَّاهُ سـيفاً لَظالِمُـهْ[1]

وما كلُّ سيفٍ يقطـعُ الهـامَ حـدُّه   وتقطع لَزْبات الزمـانِ مكارمُـه[2]

وما إن انتهى أبو الطيب من إنشاد هذه القصيدة حتى أَقبل عليه سيفُ الدولة، «وقرَّبه، وأجازه الجوائزَ السنيّة، ومالت نفسُه إليه وأَحبَّه» (الصبح المنبي ٧٨) إذْ سمع منه لأول وهلة شعراً باهراً اهتــزّ له طرباً كما سحر ألباب سامعيه، وشغل عقولهم. إنه شعر مختلف عما اعتادوا سماعه من هؤلاء الشعراء المحيطين بالأمير. فهو شعر مُتْقن الصنعة، يكلّف السامعَ والقارئَ الكثير من الجهد والعناء لفهمه، وتذوقه. فالمتنبي أَراد أَن يخالفَ المألوفَ؛ فيأتي بالغريب من المعاني إذ شبَّه الوفاءَ بالربع الدارس، ووفاءَ صاحبيه لا يكون إلاّ بمساعدته على البكاء، كهذا الربع الذي كلّما تقادم عهده كان أشجى لزائره وأَشدَّ إثارةً لحزنه. إنه يتعمَّد أداءَ هذا المعنى الغريب بأسلوبٍ لا يقلّ عنه غرابةً، وهو ممّا يشغَلُ المفسِّرين والنُّحاة، ويدفعهم إلى البحث والاستقصاء. وهو في مضمار العشق أيضاً مختلِفٌ عن سواه من العشَّاق، فهو لا يحفل بموقف صاحبيه منه، ولا بلومهما إيَّاه، فالعواذل يخشَيْنَه، ويجتنبْنَ عذله.

كئيباً توَقّاني العواذلُ فـي الهـوى   كما يتوقّى ريّـضَ الخيـل حازمُـه

ولا يخفى أنه آخذ في حسابه ثقافة الممدوح، وفضولَ الحاشية التي تصحبه من النحاة واللغويين ورجال الفقه، والفلسفة، وعلم الكلام، بل رجال الحرب أيضاً.

---

(١) علي: اسم سيف الدولة. يقول: إن الذي سماه علياً أنصفه لأنه وصفه بالعلو والسموّ. أما الذي سماه سيفاً فقد ظلمه لأن السيف إذا قطع الهام فهو عاجز عن قطع شدائد الزمان ونكباته كما يفعل المدوح.

(٢) يقول: ليس كل السيوف قاطعة، ولكن سيف الدولة يقطع رؤوس الأبطال كما يقطع شدائد الزمان بمكارمه وعطاياه.

ولكن الأهمّ من ذلك كله هو إرضاء الممدوح، والدخول إلى قلبه وعقله، والتمكُّن منه، لذلك صوَّره على جانب عظيم من المهابة والجلال، فالملوك تُقبِّل الأرضَ بين يديه، ولا تتمكَّن من الوصول إلى كُمّه أَو لثم يده. وإذا كان لغيره من الملوك جيشٌ يزحَفُ على الأرض، فلسيف الدولة جيشان جيش على الأرض، وجيش من العقبان في الجو يغطِّي السماء كالسحاب، وسحابُ جيشه الزاحف على الأرض يسقي سحابَ العقبان من دماء القتلى.

ثم يحاول المتنبي أن يقطع الطريق على الشعراء الآخرين فيتَّهمهم بالتقصير والعجز عن الإلمام بصفات الأمير النادرة، وكأنه أراد أن يتغدَّى بهم قبل أن يتعشَّوا به فقال:

غضبتُ لـــه لمـــا رأيـــتُ صـــفاتِه بلا واصفٍ والشعرُ تهذي طماطمُـــه
وكنـــتُ إذا يَمَّمـــتُ أرضـــاً بعيـــدةً سريتُ فكنتُ السرَّ والليـــلُ كاتِمُـــه

لقد تعمّد أبو الطيب أن يجعل من هذه القصيدة مدخلاً إلى قلب سيِّده ليستأثر به دون المنافسين من حوله فهل كان له ما أراد؟! هذا ما سوف تظهر آثاره في القصائد القادمة.

ولما همّ سيفُ الدولة بالرحيل عن أنطاكية قال يمدحه:

أَيـــن أَزْمَعـــتَ أيُّهـــذا الهُمـــامُ نحنُ نبتُ الرُّبا وأَنـــت الغَمـــامُ(١)
نحنُ مَنْ ضايقَ الزمانُ لـــه فيـــ ـــك وخانتـــه قُرْبَـــكَ الأيـــَّامُ(٢)
في سبيل العُـــلا قتالُـــك والـسِّلْـ ـــمُ وهـــذا المقـــامُ والإجـــذامُ(٣)

---

(١) الإزماع: العزم على الأمر. الهمام: الملك العظيم. يقول: أين أزمعت أن تسير أيها الملك العظيم ونحن الذين لا عيش لنا إلاّ بك فنحن كنبت الربا، وأنت كالغمام لا بقاء لنا إلاّ بك.

(٢) يقول: حرمتنا الأيام لقاءك والقرب منك، وباعدت بيننا وبينك.

(٣) الإجذام: الإسراع في السير. يقول: إن أفعالك مقصورة على المعالي قاتلت أو سالمت، أقمت أو سرت.

لیت أنَّا إذا ارتحلــتَ لَــكَ الخيـــ ـــلُ وأنَّــا إذا نـــزلتَ الخيــامُ[1]
كــلَّ يــومٍ لــكَ ارتحــالٌ جديــدٌ ومـــسيرٌ للمَجــدِ فيـــه مُقــامُ
وإذا كانــــتِ النفـــوسِ كبـــاراً تَعِبــت فـــي مُرادهـــا الأجـــسامُ
وكـــذا تَطْلُـــعُ البـــدورُ علينـــا وكــذا تَقْلَــقُ البحــورُ العِظــامُ[2]
كلٌّ عــيشٍ مــا لــم تُطِبْــهُ حِمــامٌ كلٌّ شمسٍ ما لــم تَكُنْهــا ظــلامُ[3]
أَزِلِ الوحــشةَ التـــي عنــدنا يــا مَنْ به يــأنَسُ الخمـيسُ اللُّهــامُ[4]
والذي يَشْهدُ الوغى ســاكنَ القلــبِ كـــأَنَّ القتـــالَ فيهـــا ذِمَـــامُ[5]
والـــذي يَــضْرِبُ الكتائـــبَ حتـــى تتلاقــــى الفِهـــاقُ والأَقــــدامُ[6]
إنمـــا هيبَـــةُ المؤمَّـــلِ ســيفِ الــدْ دولَة المَلْكِ في القلــوبِ حُــسامُ[7]
فكثيـــرٌ مـــن الــشجاع التــوقّي وكثيـــرٍ مـــن البليـــغِ الــسَّلامُ[8]

لقد تنازل أبو الطيب عن استعلائه الذي ظهرت بوادره بوضوح في القصيدة السابقة، فهو يتمنَّى في هذه القصيدة أن يكونَ خادماً من خدم الأمير،

(١) قال ابن جني: وتلخيص المعنى: ليتنا نقيك الأذى، ونتحمل عنك الردى.

(٢) يقول: أنت كالبدر يطلع تارةً ويغيب أخرى، وكالبحر يموج ويضطرب، وكذلك أنت لا تستقر على حال.

(٣) يقول: كل عيش لا تؤنسه بقربك هو والموت سواء، وكل شمس ظلام بدونك.

(٤) الخميس: الجيش. اللهام: الكثير. يقول: أقم عندنا لتنفي عنا الوحشة يا من يأنس بوجوده الجيش العظيم.

(٥) الذمام: العهد: أي انه يحضر الحرب رابط الجأش كأن القتال عاهده على ألاّ يُقْتَل.

(٦) الكتيبة: الفرقة من الجيش. والفهاق: جمع فهقة وهي العظم الذي يكون على اللهاة. يقول: إنه يضرب بسيفه الأعناق حتى تتلاقى مع الأقدام.

(٧) يقول: إن هيبته في القلوب تقوم مقام السيف.

(٨) يقول: إن توقاه الشجاع وحفظ منه نفسه فذلك منه كثير. والبليغ إن أمكنه أن يسلم عليه فذلك غاية البلاغة.

أو جواداً يحمله إلى حيث شاء، أو خيمةً يتفيأ ظلَّها في الإقامة، لأن الفوز برضا الأمير يقتضيه المزيد من التــزلُّفِ والمَلَق.

وقال يستمهله في الرحيل عن أنطاكية وقد كَثُر المطر:

رويَــدكَ أيُّهــا الملــكُ الجليــلُ	**تَــأنَّ وَعُــدَّه ممــا تُنيــلُ**(١)
وجُــودَك بالمُقــامِ ولــو قليــلا	**فمــا فيمــا تجــودُ بــه قليــلُ**(٢)
لأكبــتَ حاســداً وأرى عــدوًّا	**كأنهمــا وَداعُــكَ والرحيــلُ**(٣)
ويهــدأَ ذا الــسحابُ فقــد شَــكَكْنا	**أَتَغْلِــبُ أم حَيَــاُه لكــم قبيــلُ**(٤)
وكنتُ أَعِيْــبُ عَــذْلاً فــي سَــماحٍ	**فها أنا في السَّماح لــه عَــذُولُ**(٥)
وما أخــشى نُبُــوَّكَ عــن طريــقٍ	**وسيفُ الدولةِ الماضي الــصقيلُ**(٦)
وكــلُّ شــواةِ غِطْريــفٍ تمنَّــى	**لِــسَيْرِكَ أَنَّ مَفْرِقَهــا الــسبيلُ**(٧)
ومِثْــلِ العَمْــقِ مملــوءٍ دمــاءً	**جرت بكَ في مجاريــه الخيــولُ**(٨)

---

(١) تمهّل في رحيلك أيها الملك لأن بقاءك القليل نعده نوالاً منك وعطاءً.

(٢) يقول: جُدْ علينا بالإقامة عندنا ولو لبعض الوقت، فإنّ ما تجود به لا يُعدّ قليلاً.

(٣) الكبت: الإغاظة. أرى عدواً: أصيبه برئته. يقول: إقامتك كبت لحاسدي ووجع لرئة عدوي. كما أن وداعك يلذع قلبي كما يلذعه حاسدي وعدوي.

(٤) تغلب: قبيلة الممدوح. والحيا: المطر. القبيل: العشيرة. يقول الشاعر: أقم بيننا حتى يُقلع هذا السحاب خجلاً من أياديك فقط أفرط حتى شككنا: أبنو تغلب قبيلتكم أم هذا الغيث!

(٥) كنت فيما مضى أعيب من يلوم على الجود، ولكني الآن صرت ألوم السحاب لإفراطه في السماح مخافة أن يكدّر عليه الطريق.

(٦) يقول: لا أخشى أن تعجز عن قطع الطريق وأنت السيف الصقيل الذي لا يعرف الكلال.

(٧) الشواة: جلدة الرأس. الغطريف: السيد الكريم في قومه. يقول: إن كل سيد شريف يتمنى أن يكون مفرق رأسه طريقاً لسيرك.

(٨) العَمْق: سهل من نواحي أنطاكية منه أكثر ميرتها، فيه بحيرة تسمى بحيرة العمق. يقول رب مكان كالعمق مملوء بالدماء بدلاً من الماء خضته بخيلك، فيكيف أخشى عليك قطع هذه الطريق الموحلة!

إذا اعتاد الفتى خوضَ المنايا فأهونُ ما يمرُّ به الوحولُ
وَمَنْ أمر الحصونَ فما عَصَتْهُ أطاعتْهُ الحُزونةُ والسهولُ

وممَّا عجَّل في مغادرة سيف الدولة مدينةَ أنطاكية ورود نبأ وفاة والدته في ميَّافارقين، فلم يلبث أَنْ قصد المدينة المذكورة على وجه السرعة، ولم يرافقه أبو الطيب في رحلته تلك، وإنما التقاه في حلب بعد عودته في جُمادى الآخرة من سنة ٣٣٧هـ ليُلقي على مسمعه مرثاتها إذ يقول:

نُعِدُّ المشرفيَّةَ والعوالي وتقتلُنا المَنُونُ بلا قتالِ[١]
ونرتبطُ السوابقَ مُقْرَباتٍ وما يُنجين من خَبَبِ الليالي[٢]
ومَنْ لم يَعْشقِ الدنيا قديماً ولكن لا سبيلَ إلى الوصالِ
نصيبُك في حياتك من حبيبٍ نصيبُك في منامكَ من خيالِ[٣]
رماني الدهرُ بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرتِ النصالُ على النصالِ
وهذا أوَّلُ الناعين طُرًّا لأول ميتةٍ في ذا الجَلالِ
كأن الموتَ لم يفجع بنفسٍ ولم يخطر لمخلوقٍ ببالِ
صلاةُ الله خالقنا حَنُوطٌ على الوجه المكفنِ بالجمالِ[٤]
رواقُ العزّ حولَكِ مُسْبَطِرٌّ ومُلْكُ عليٍّ ابنكِ في كمالِ[٥]
سقى مثواك غادٍ في الغوادي نظيرُ نوالِ كفّك في النوالِ[٦]

---

(١) المشرفية: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: المنية.
(٢) السوابق: الخيل. المقربات: القريبة من البيوت. خبب الليالي: سعيها من أذانا.
(٣) أي أن حظ الإنسان من وصال الحبيب كحظه من وصال خياله في منامه. كأنه يريد أن يقول: إن حياة المرء حلم سرعان ما ينقضي.
(٤) الحنوط: طيب يخلط لغسل الميت. هو يدعو لها بأن تكون رحمة الله حنوطاً لها.
(٥) مسبطرّ: ممتد. يقول: مُتِّ وأنتِ في هذه الحال من العز وفي ظل مُلْك ابنك الظليل.
(٦) المثوى: القبر. الغادي: السحاب. يدعو لقبرها بالسقيا، ويشيد بسخائها وكرمها.

أَســائلُ عنــكِ بعــدكِ كــلَّ مجــدٍ   وما عهدي بمجــدٍ عنــكِ خــالي[1]
يمــرّ بقبــركِ العــافي فيبكــي   ويشغله البكــاءُ عــن الــسؤالِ[2]
ولــو كــان النــساءُ كمــن فقــدنا   لفُــضّلَتِ النــساءُ علــى الرجــالِ
وما التأْنيثُ لاسم الــشمسِ عيــبٌ   ولا التــــذكيرُ فخــــرٌ للهــــلالِ

ثم يقول:

أَســيفَ الدولــةِ اســتنجدْ بــصبرٍ   وكيــفَ بمثــلِ صــبركِ للجبــالِ
فأنــت تُعلِّــم النــاسَ التعــزِّي   وخوضَ الموتِ في الحربِ السِّجالِ
وحــالاتُ الزمــانِ عليــك شــتّى   وحالُك واحــدٌ فــي كــلّ حــالِ[3]
رأيتُــك فــي الــذين أرى مُلوكــاً   كأنــك مــستقيمٌ فــي مُحــالِ[4]
فــإن تَفُــقِ الأنــامَ وأنــتَ مــنهم   فإن المــسكَ بعــضُ دمِ الغــزالِ[5]

وبعد نحو شهر من إنشاد القصيدة السابقة نظم أبو الطيب قصيدةً تالية في شهر شعبان من سنة ٣٣٧هـ يمدح سيفَ الدولة إثر استنقاذِه أَبا وائل تغلب بن داود بن حمدان ابن عمه من أَسْر الخارجيّ الملقَّب بابن هِرَّة الرَّماد الذي شنَّ الغارةَ على ضواحي حمص، وكان أبو وائلٍ المذكورُ قائدَ حاميتها، فوقع في أَسْر الخارجيّ، فطلب الأخيرُ مقابلَ إطلاق سراحه فديةً من المال

(١) يقول: لم أرَ مجداً خالياً منك أيام حياتك، فأنا بعد وفاتك أسأل عنك كل مجد لأنك كنت صاحبته.

(٢) العافي: السائل، وطالب المعروف.

(٣) يقول: إن اختلفت أحوال الزمان من الصفو والكدر عليك، فإن حالك من الصبر والحلم والكرم لا تتبدل.

(٤) مُحال: معوج. يقول: أنت بين الملوك كالمستقيم بين المعوج. أي إنك أكثرهم استقامة وفضلاً.

(٥) يقول: لا عجب إن فقت الناس جميعاً بفضلك، فقد يفضل بعض الشيء جملته كما يفضل المسك دمَ الغزال وهو جزء منه.

والخيل، فتظاهر سيفُ الدولة بقبول الشرط، ثم زحف في ألفين من جنوده بالإضافة إلى بعض أنصاره من البدو، فواقعه بالقرب من حمص، فانهزم الخارجيُّ وجماعتُهُ، ولكن سيف الدولة أدركَ المتمرد وقتله، وجرح أبو وائل في هذه الواقعة جُرحاً بليغاً، وأُنقِذ من الأَسْر، فقال أَبو الطيب في ذلك:

إلامَ طَماعيـــــــةُ العـــــاذلِ ... ولا رأْيَ في الحــبِّ للعاقــلِ
يُرادُ مــن القلــبِ نـسيانُكُم ... وتأْبى الطِّباعُ علــى الناقــلِ
وإني لَأَعشقُ مــن عِـشْقكم ... نحولي، وكلَّ امــرئٍ ناحِــلِ
ولو زُلْـتُمُ ثُـمَّ لـم أَبْكِكُــم ... بَكَيْتُ على حُبِّــيَ الزائــلِ[1]
أَيُنكِرُ خَـدِّي دمــوعي وقــد ... جَرَتْ منه في مَسْلكٍ سابلِ[2]
أَأَوَّلُ دمـــعٍ جــرى فوقَـــهُ ... وأَوَّلُ حُــزْنٍ علــى راحــلِ
ولو كنتُ في أَسْرِ غير الهوى ... ضَمِنتُ ضمانَ أبي وائــلِ[3]
فدى نفسَهُ بضمانِ النُّـضار ... وأعطى صدورَ القنا الذابلِ[4]
ومنَّـــاهُمُ الخيــلَ مَجنْوبـــةً ... فجئنَ بكــلّ فتــى باســلِ[5]
كــأنَ خــلاصَ أبــي وائــلٍ ... معـــاودةُ القمـــر الآفِــلِ
دعا فــسمعتَ وكــم ســاكتٍ ... على البُعْدِ عندكَ كالقائــلِ[6]

---

(١) زُلْتم: بعدتم. يقول: لو فارقتموني ولم أبكِ على فراقكم لبكيت على ما زال من حبي إياكم.

(٢) المسلك السابل: الطريق الكثير المارّة. يقول: لا يستطيع خدّي إنكار ما يسيل عليه من الدموع وهي تجري منه في طريق مذلّل.

(٣) أبو وائل: ابن عم سيف الدولة. يقول: لو كان آسري غير الحب لخرجتُ من أسره بحيلة وضمان كما فعل أبو وائل في ضمانه للخارجي.

(٤) النضار: الذهب، والقنا الذابل: الرماح. يقول: ضمن لهم الذهب، ثم أعطاهم صدور الرماح بدل الذهب. إشارة إلى أن سيف الدولة استنقذه بغير فداء.

(٥) منّاهم: جعله أمنية لهم. والمجنوبة: الخيل التي لا تركب بل تقاد. يقول: وعده بالخيل المجنوبة في فدائه، فجاءت تحمل الفرسان على صهواتها.

(٦) يقول: دعاك لإنقاذه، فأجبته، ولو سكت لما قعدت عنه، فكم ساكتٍ وهو بعيد عنك لم تغفل عنه حتى كأنه قائل يسألك حاجة؟

فَلَبَّيتَــهُ بــكَ فــي جحفـلٍ — **لــه ضــامنٍ وبــه كافــلِ**[١]

فَلُقّـــين كـــلَّ رُدينيَّـــةٍ — **ومصبوحةٍ لــبنَ الــشائلِ**[٢]

وجــيشَ إمــامٍ علــى ناقــةٍ — **صحيحِ الإمامةِ في الباطلِ**[٣]

فلمَّـــا بـــدوتَ لأصــحابهِ — **رأت أُسدُها آكـلَ الآكـلِ**[٤]

بـــضربٍ يعمُّهُـــم جـــائرٍ — **له فـيهم قـسمةُ العـادلِ**[٥]

وطعـــنٍ يُجمِّـــعُ شُـــذَّانَهم — **كما اجتَمَعتْ درّةُ الحافـلِ**[٦]

إلى أن يقول:

تركتَ جَماجمَهُم فــي النَّقــاَ — **ومـــا يتخلَّـــصْن للنَّاخِـــلِ**[٧]

فَأَنْبَتَّ منهم ربيــعَ الــسباعِ — **فأَثنت بإِحــسانِكَ الــشاملِ**[٨]

وعُدْتَ إلــى حلــبٍ ظــافراً — **كعَودِ الحُليّ إلــى العاطـلِ**[٩]

تَفُكُّ العُنــاةَ وتُغْنِــي العفــاةَ — **وتَغْفِرُ للمــذنبِ الجاهــلِ**[١٠]

---

(١) بك: بنفسك. والجحفل: الجيش. أي أجبته بنفسك في جيش عظيم ضمن إنقاذه وكفل بإعادته إلى مكانه.

(٢) يقول: إن خيل سيف الدولة استقبلت من الخارجي بالرماح الردينية وبالخيل الكريمة التي تسقى لبن النياق صباحاً لكرمها.

(٣) أي لقيت هذه الخيل جيش إمام المبطلين ولكنه صحيح الإمامة عليهم.

(٤) يقول: فلمَّا ظهرت لأصحابه رأى شجعانهم منك شجاعاً يأكلهم ويفنيهم.

(٥) يقول: إنك إن بالغت في ضربهم إلاّ أنك قسمت الضرب بينهم قسمة عدل فلم يفلت منهم أحد.

(٦) شذان : متفرقون. الدرة: اللبن إذا كثر وسال. والحافل: التي امتلأ ضرعها بالحليب. يقول: جمع متفرقهم بشدّته، وحصرهم بضربهم كجمع الضرع لدرته.

(٧) النقا: الكثيب من الرمل. يقول: طحنت جماجمهم بحوافر خيلك، فلو نخل الرمل لم يتخلّص من رؤوسهم شيء.

(٨) يقول: تركتهم جزراً للسباع، فكأنك أنبتَّ لها ربيعاً بما وسعت عليها من لحومهم.

(٩) يقول: لقد ازدانت بعودك حلب كما تزدان العاطل بحليها.

(١٠) العناة: جمع عانٍ: الأسير، العفاة جمع عاف: السائل. يقول: من مآثرك فك الأسرى، وإغناء السائلين، والعفو عن المذنبين.

فهنَّـــأَكَ النـــصرَ مُعْطِيكَـــهُ وأرضاهُ سعيُك في الآجـلِ[١]

فذي الدارُ أَخْوَنُ من مومسٍ وأَخْدَعُ من كِفَّــةِ الحابـلِ[٢]

تفانى الرجـالُ علــى حبّهـا وما يحصلون علــى طائـلِ

وفي شهر ذي القعدة من سنة ٣٣٧هــ طلب ناصر الدولة أمير الموصل النجدة من أخيه سيف الدولة لمحاربة معزّ الدولة البويهي حاكم بغداد الذي أجلاه عن عاصمته قبل شهرين، ولكن الطرفين المتنازعين توصّلا إلى اتفاق قبل أن يصل سيف الدولة إلى الموصل لنصرة أخيه فقال أبو الطيب في هذه المناسبة:

أَعلى الممالكِ ما يُبنى على الأَسَلِ والطعنُ عنـد مُحِبِّـيْهِنَّ كالقُبَـلِ[٣]

وما تَقَـرُّ سـيوفٌ فـي ممالكهـا حتى تُقَلْقَلَ دهراً قبلُ فـي القُلَـلِ[٤]

مثلُ الأميـر بَغـى أمـراً فقرَّبـه طولُ الرماح وأيدي الخيلِ والإبلِ[٥]

وعَزْمَـــةٌ بعثتهـــا هِمَّـــةٌ زُحَـــلٌ من تحتها بمكان التُّربِ من زُحَلِ[٦]

على الفرات أعاصيرٌ وفــي حلَـبٍ تَوحُّشٌ لِمُلقّـي النـصر مُقْتَبَـلِ[٧]

---

(١) يقول: هنأك الله بالنصر الذي أعطيته، ورضي الله عنه في الآخرة.

(٢) المومس: الفاجرة. والكفة: الحبالة أي الشرك. الحابل: الصائد يقول: إن هذه الدنيا خوانه لأصحابها كالمومس لا تقيم على خليل، وهي خادعة تصرع كل من اطمأن إليها.

(٣) يقول: أعلى الممالك رتبة ما أخذ بالقوة لا ما جاء عفواً. ومن أحب الممالك يستلذ الطعن استلذاذ القبل.

(٤) يريد لا ثبات للملك إلاّ بقطع رؤوس المعادين لك. تقلقل: تحرك بعنف. القُلل: جمع قلة: أعلى الرأس.

(٥) يقول: إذا حاول سيف الدولة أمراً بعيد المنال، فإنه يمتلك القدرة على تحقيقه.

(٦) يقول: إنه يمتلك العزيمة والهمة التي تعلو على زحل لتحقيق ما يصبو إليه.

(٧) يقول: إن جيش أخيك ناصر الدولة يثير الأعاصير على نهر الفرات، وفي حلب تسود الوحشة لابتعادك عنها.

تتلو أَسِــنَّتُهُ الكتْــبَ التــي نفــذت ... ويجعلُ الخيلَ أبدالاً مــن الرسُــلِ[1]

يلقى الملوكَ فلا يلقى سوى جَــزَرٍ ... وما أَعدُّوا فلا يلقى ســوى نَفَــلِ[2]

صان الخليفــةُ بالأبطــال مهجتــه ... صيانةَ الــذَّكَرِ الهنــديّ بالخِلَــلِ[3]

إلى أن يقول في وصف الأمير:

هو الشجاعُ يَعُدُّ البُخلَ مــن جُــبُنٍ ... وهو الجوادُ يَعدُّ الجُبْنَ مــن بَخَــلِ

يعودُ من كل فــتحٍ غيــرَ مفتخــرٍ ... وقد أَغــذَّ إليــه غيــرَ مُحتَفِــلِ[4]

إِذا خَلَعْتُ على عــرْضٍ لــه حُلــلاً ... وجدتُها منه في أبهى من الحُلَــلِ[5]

يا من يَسيرُ وحُكْمُ النــاظرَيْن لــه ... فيما يراه وحكمُ القلب في الجــذَلِ[6]

إن الــسعادة فيمــا أَنــت فاعلُــه ... وُفِّقْت مــرتحلاً أو غيــرَ مُرتحــلِ

أَجْرِ الجيادَ على ما كنــتَ مُجْرِيَهــا ... وخُذْ بنفسك فــي أَخلاقــك الأُوَلِ[7]

ينظُرن من مُقَــلٍ أدمــى أَحجَّتَهــا ... قَرْعُ الفوارسِ بالعــسَّالة الــذُّبُلِ[8]

فلا هجمــتَ بهــا إلاّ علــى ظفــرٍ ... ولا وصــلتَ بهــا إلاَّ علــى أمَــلِ

---

(١) أي إن رماحه تتبع كتبه إلى أعدائه لأنه ينذرهم أولاً فإن لم يرتدعوا جعل خيله بدلاً من الرسل.

(٢) الجزر: القتلى. النفل: الغنيمة. يقول: إنه يجعل الملوك مأكلاً للسباع، وأسلابهم غنيمة لأصحابه.

(٣) يقول: إن الخليفة أكرمه، فصانه بما وجه إليه من الأبطال والرجال كما يصان السيف الهندي بالغمد، والخِلل: أغشية الأغماد.

(٤) أغذّ: أسرع في السير، احتفل في الأمر: اهتم. يقول: إنه يفتح الفتوح العظيمة فلا يفخر بها كما أنه يسرع إليها غير مهتم لثقته بقوته وشجاعته.

(٥) يقول: إذا مدحته تزين مدحي به أكثر مما يتزين هو بمدحي.

(٦) الناظران: العينان، الجذل: الفرح، يقول: إن ما استحسنته عيناه فهو له، وإذا تمنى قلبه شيئاً وصل إليه لا يحول دونه حائل.

(٧) يقول: عاود القتال، ودع السلم، وخذ نفسك بما عوّدتها من أخلاقك الأولى.

(٨) ينظرن: أي الجياد. والأحجة: جمع حجاج وهو العظم فوق العين. والعسالة: الرماح. الذبل: ج ذابل: اليابس.

وقال يمدح سيف الدولة وقد سأله المسير معه لمَّا سار لنصرة أخيه ناصر الدولة وذلك سنة سبعٍ وثلاثين وثلاث مئة:

سِرْ حَلَّ حيثُ تَحُلُّه النُوَّارُ — وأَرادَ فيكَ مُرادَكَ المقدارُ[1]
وإذا ارتحلتَ فشيَّعتْك سَلامةٌ — حيث اتَّجهتَ وديمةٌ مدرارُ
وأراك دَهْرُك ما تحاول في العِدا — حتى كأنّ صروفَهُ أنصارُ
وصدرتَ أَغْنَمَ صادرٍ عن مَوْرِدٍ — مرفوعةً لقدومِكَ الأبصارُ
أنتَ الذي بَجِحَ الزمانُ بذكرِه — وتزيَّنت بحديثه الأسمارُ[2]
وإذا تنكَّر فالفَنَاءُ عِقابُه — وإذا عفا فعطاؤه الأَعمارُ
وله وإن وهب الملوكُ مواهبٌ — دَرُّ الملوكِ لدرّها أَغْبارُ[3]
لله قلبُك ما يخافُ من الردى — ويخافُ أن يدنو إليكَ العارُ
وتحيدُ عن طَبَعِ الخلائق كُلِّه — ويَحيدُ عنك الجحفلُ الجرّارُ[4]
يا من يَعِزُّ على الأَعزّةِ جارُه — ويَذِلُّ من سَطَواتِه الجبَّارُ[5]
كن حيثُ شئتَ فما تحولُ تَنُوفةٌ — دون اللقاءِ ولا يشطُّ مزارُ[6]
وبدونِ ما أنا من ودادِك مُضْمِرٌ — يُنْضَى المطيُّ ويقربُ المُسْتارُ[7]

---

(١) النّوار: الزهر. المقدار: القدر. يقول: اذهب لطيّتك حل النوار حيث تحل، وأعانك القدر على بلوغ ما تطلب.

(٢) بجح: فرح.

(٣) الدرّ: الحليب. الأغبار: جمع غبر: بقية اللبن في الضرع. أي عطاياه لا تقاس بعطايا غيره من الملوك.

(٤) الطبع: الدنس. الخلائق: الأخلاق.

(٥) يريد أنه لا يقدر الجبابرة على أن ينالوا جاره بسوء، كما يصير الجبابرة أذلاَّءَ لديه إذا غضب.

(٦) تحول: تعترض. تنوفه: فلاة مترامية الأطراف. يشط: يبعد أي كن حيث شئت من الأرض فما يمنعنا من لقائك بُعْدُ المسافة.

(٧) المستار: المسار. يعني أنه يضمر له الكثير من المودة مما يجعل البعيد قريباً.

إن الــذي خَلَّفْــتُ خَلْفــيَ ضــائعٌ		مالي على قَلَقــي عليــه خِيــارُ[1]
وإذا صُحِبْتَ فكــلُّ مــاءٍ مــشربٌ		لــولا العيــالُ وكــلُّ أرضٍ دارُ[2]
إذْنُ الأميــرِ بــأَنْ أعــودَ إلــيهم		صِــلةٌ تــسيرُ بــشُكْرِها الأَشــعارُ

وفي شهر صفر سنة ٣٣٨هـ توفي أبو الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة بميَّافارِقين فرثاه أبو الطيب بالقصيدة التالية:

بنا منْكَ فوقَ الرملِ ما بكَ في الرملِ		وهذا الذي يُضني كذاك الذي يُبْلي[3]
كأنك أبصرتَ الــذي بــي وخِفْتَــهُ		إذا عشْتَ فاخترتَ الحِمامَ على الثُكْلِ[4]
تركــتَ خــدودَ الغانيــاتِ وفوقهــا		دموعٌ تُذيبُ الحُسْنَ في الأعُــينَ النُّجْـلِ[5]
تَبُلُّ الثرى سوداً من المسك وَحْـدَهُ		وقد قَطَرْت حُمْراً على الشَّعَرِ الجثْـلِ[6]
فإن تَكُ في قبرٍ فإنَّكَ فــي الحَــشا		وإن تَكُ طفلاً فالأسى ليس بالطفــلِ
ومِثْلُك لا يُبكى علــى قَــدْرِ ســنّه		ولكن على قَدْرِ المخيلةِ والأَصــلِ[7]
ألستَ من القوم الأُلى من رمــاحهم		نداهم ومن قتلاهُمُ مهجةُ البُخْــلِ[8]
بمولودهم صــمتُ اللــسانِ كغيــره		ولكنّ في أعطافه مَنْطِقُ الفــضلِ[9]

---

(١) يريد انه آثر صحبته على أهله الذين خلّفهم وراءه، فهو يؤثره عليهم لأنه مقيد بإحسانه.
(٢) يريد: لولا من خلَّفتُ من العيال فإن كل ماءٍ يوافقني وكل أرض تحلها داري.
(٣) يريد: أننا أموات حزناً عليك كما أنك ميت في الأرض، فإن الحزن يضني مثل الموت الذي يُبلي الإنسان.
(٤) يقول: كأنك أبصرت ما بي من الحزن عليك فخفت أن تبتلي بمثله لو عشت فاخترت الموت على فقد الأعزة والحزن عليهم.
(٥) تركت خدود الحسان من نوادبك، وفوقها دموع مسفوحة عليك تذهب بحسن العيون.
(٦) الجثل: الكثيف. إن دموع الغانيات تصل إلى الأرض سوداً لامتزاجها بالمسك الذي اتخذنه قبل المصيبة، كما أن الدموع تتساقط حمراً لامتــزاجها بالدم على شعورهن الغزيرة.
(٧) المخيلة: الفراسة.
(٨) يريد: أنه من قوم نداهم في رماحهم، والبخل من قتلاهم. أي أنت من القوم الذين أفنوا البخل بجودهم.
(٩) الأعطاف: جمع عطف وهو الجانب. يقول: إن صبي هؤلاء القوم كغيره من الأطفال لا ينطق ولكن مخايل الكرم والسيادة ظاهرة فيه.

تُسلِّيهمُ عَلْيـاؤهم عـن مُـصابهم ... ويَشْغَلُهم كسبُ الثناءِ عن الشُّغْلِ[١]

أَقـلُّ بِـلاءً بالزرايـا مـن القنـا ... وأَقدمُ بين الجحفلينِ مـن النَّبْـلِ[٢]

عَزاءَك سيفَ الدولةِ المقتَـدى بـه ... فإنك نـصلٌ والـشدائدُ للنـصلِ[٣]

مُقيمٌ من الهيجاء في كـل منـزلٍ ... كأنكَ من كلّ الـصوارم فـي أَهْـلِ

ولم أرَ أَعصى منك للحـزنِ عَبْـرةً ... وأَثْبتَ عَقْلاً والقلـوبُ بـلا عَقْـلِ

تخونُ المنايا عهـدَهُ فـي سَـليلهِ ... وتَنْصُره بينَ الفوارس والرَّجْـلِ[٤]

ويبقى على مرّ الحـوادث صـبرُه ... ويبدو كما يبدو الفِرِنْدُ على الـصقْلِ[٥]

ومن كان ذا نفـسٍ كنفـسكَ حُـرَّةٍ ... ففيه لها مُغْنٍ وفيها لـه مُـسْلِي[٦]

وما الموتُ إلاّ سارقٌ دقَّ شخـصُه ... يصولُ بلا كفٍّ ويسعى بـلا رِجْـلِ

ثم يقول:

إذا مـا تأَمَّلْـتُ الزمـانَ وصَـرْفَهُ ... تيقَّنْتُ أن الموتَ ضربٌ من القَتْـلِ

هـل الولـدُ المحبـوبُ إلاّ تَعِلَّـةٌ ... وهل خَلْوةُ الحسناءِ إلاّ أذى البَعْلِ[٧]

وقد ذُقْتُ حَلواءَ البنينَ على الـصِّبا ... فلا تحسبنّي قُلتُ ما قُلتُ عن جهـلِ

---

(١) يقول: إن معاليهم تسلّيهم عما يُصبهم فهم يترفعون عن الجزع الذي هو سمة النفوس الوضيعة. كما أن اهتمامهم بكسب الثناء يشغلهم عن الشغل بما عدا ذلك.

(٢) البلاء: المبالاة. القنا: الرماح. أقدم: أكثر إقداماً أي هم لا يبالون بما يصيبهم من الزرايا، وأشد إقداماً من السهام المرسلة.

(٣) عزاءك: الزم عزاءك الذي يقتدي به الناس فأنت كالنصل الذي شيمته التمرس بالحروب، وعدم المبالاة بمقارعة الحديد.

(٤) السليل: الولد. أي إن المنايا تخونه في ولده فلا يستطيع لها دفعاً، ولكنها تنصره في الحرب، وتنفذ مراده في أعدائه.

(٥) الفرند: جوهر السيف وماؤه. يقول: إن صبره باقٍ على حوادث الدهر ظاهرة آثاره ظهور فرند السيف إذا صقل.

(٦) يقول: من كانت نفسه حرة كنفسك أغنته عن تعزية غيره، وأسلته عن مصيبته.

(٧) يقول: ليس الولد إلا تسلية ومسرّة، ولكنها لا تدوم، والحزن بسببه أكثر من السرور به. كما أن الخلوة بالمرأة أذى للمرء لأنها تجلب له ولداً يغتمّ به.

وما تَسَعُ الأَزمانُ علمــي بأمرهــا ولا تُحِسنُ الأيامُ تكتُبُ مــا أُملــي
وما الدهرُ أهــلٌ أن تُؤَمَّــلَ عنــده حياةٌ وإن يُشتاقُ فيه إلــى النَّــسْلِ

وفي شهر جمادى الأولى من سنة ٣٣٨هـ توفي أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان بحمص إثر الجراحة البليغة التي أُصيب بها حينما أنقذه سيف الدولة من أسر الخارجي؛ فقال أبو الطيب يرثيه، ويمدح سيف الدولة:

مـــا سَــدِكت عِلَّـــةٌ بمـــورُودِ أكــرمَ مـــن تَغْلِــبَ بــنِ داوُدِ(١)
يأنفُ مــن ميتــة الفِــراشِ وقــد حــلَّ بـــه أَصــدقُ المواعيــدِ
ومثلُـــه أَنكــر الممـــاتَ علـــى غيرِ سُــروجِ الــسوابحِ القُــودِ(٢)
بعـــد عِثـــارِ القنـــا بِلَبَّتِـــه وضَــــرْبِهِ أَرؤسَ الـــصناديدِ(٣)
وخوضِـــه غَمْـــرَ كـــلّ مَهْلَكَـــةٍ للـــذِّمر فيهـــا فـــؤادُ رِعْديـــدِ(٤)
فـــإن صـــبرنا فإننـــا صُـــبُرٌ وإن بكَيْنـــا فَغَيْـــرُ مَـــرْدُودِ
وإن جَزِعنـــا لـــه فـــلا عجـــبٌ ذا الجَزْرُ في البحرِ غيرُ معهــودِ(٥)
أيـــن الهبـــاتُ التـــي يُفرِّقُهـــا علـــى الزَّرافـــاتِ والمواحيـــدِ(٦)
ســـالِمُ أهـــلِ الـــودادِ بَعْـــدهُم يـــسلمُ للحـــزنِ لا لتخليـــدِ(٧)
فما تُرجِّــي النفــوسُ مــن زمــنٍ أحمـــدُ حَالَيْـــهِ غيـــرُ محمـــودِ(٨)

---

(١) سدكت: لزمت. المورود: المحموم.
(٢) القود: الطوال من الخيل. والمراد أن مثل هذا الرجل لا يرضى بالموت إلاّ على صهوات الخيل.
(٣) أي إنه ينكر الموت على فراشه بعد تعثّر الرماح في صدره، وضربه رؤوس الأبطال.
(٤) الغمر: الكثير. والمراد أصعب مواقع الحروب. والذمر: الشجاع، والرعديد: الجبان.
(٥) شبهه بالبحر، وشبه موته بالجزر الذي لم يعهد في البحر إذ جزر حتى جف ونضب.
(٦) الزرافات: الجماعات. المواحيد: الأفراد.
(٧) يقول: إن الذي يسلم من القوم المتحابين بعد ذهاب أصحابه إنما يسلم ليحزن لفقدهم لا ليخلد لأنه لا حق بهم.
(٨) أحمد حاليه: البقاء، وذلك غير محمود لتعجل الحزن. فالبقاء معجله بلاء ومؤجله فناء.

إنَّ نُيـــوبَ الزمـــانِ تعرفنـــي أنا الـذي طـال عَجْمُهـا عـودي

وفيّ مـا قـارعَ الخطـوبَ ومـا آنـــسني بالمـــصائبِ الـــسودِ[١]

مـا كنـتَ عنـه إذِ اسـتغاثك يـا سـيفَ بنـي هاشـمٍ بمغمـودِ[٢]

يـا أكـرمَ الأكـرمينَ يـا مَلِـك الأَمـلاكِ طُـرًّا يـا أَصْـيدَ الـصِّيدِ[٣]

قـد مـاتَ مـن قَبْلِهـا فأَنـشره وقعُ قنـا الخـطّ فـي اللغاديـدِ[٤]

ورمْيُـك الليـلَ بـالجنودِ وقـد رميـتَ أجْفـانَهم بتـسهيدِ[٥]

فـصبّحتْهم رِعالُهـا شُزَّبـاً بـين ثُبـاتٍ إلـى عَباديـدِ[٦]

تحمِـلُ أغمادُهـا الفـداءَ لهـم فانتقـدوا الـضربَ كالأخاديـدِ[٧]

إلى أن يقول:

لا يَـنقُصُ الهـالكون مـن عَـدَدٍ منـه علـيٌّ مـضيِّقُ البيـدِ[٨]

تهـبُّ فـي ظهرهـا كتائبُـهُ هبـوبَ أرواحهـا المراويـدِ[٩]

ومـن مُناتـا بقـاؤه أَبـداً حتـى يُعـزَّى بكـلّ مولـودِ

---

(١) يقول: إنني جلد على مقارعة الخطوب ومدافعتها، وطول ألفتي للمحن جعلني أنسى المصائب.

(٢) يقول: لما استغاثك وهو في الأسر أغثته، وأنقذته من أيديهم ولم تكن سيفاً مغمداً.

(٣) أصيد الصيد: يا ملك الملوك.

(٤) اللغاديد: لحمات بين الحنك وصفيحة العنق. أنشره: أحياه. يقول: لقد مات قبل هذه الميتة بأسر الخارجي إياه فأعدته إلى الحياة بطعن الأعداء في لغاديدهم.

(٥) أي رميت عيون الأعداء بالسهر، ورميت الليل بالجنود لإنقاذه من الأسر.

(٦) الرعال: جمع رعلة: القطعة من الخيل. والشزَّب: جمع شازب: الضامر. والثبات: جمع ثبة وهي الجماعة. العباديد: الفرق. يقول: فاجأتهم الخيل في الصباح زرافات ووحدانا.

(٧) يقول: حملوا السيوف إليهم في أغمادها وجعلوها فداءه لأنهم أنقذوه بها.

(٨) يقول: من هلك من عشيرتك لا ينتقص به عددك لأن الفلوات تضيق بأتباعك.

(٩) الأرواح: الرياح. يقول: إن جيوشه تنتشر في الفلوات انتشار الريح عند هبوبها.

وفي شهر شوال من سنة ٣٣٨هـ نظم أبو الطيب قصيدة أخرى يمدح بها سيف الدولة في الذكرى السنوية لوفاة والدته، وكان قد عزم على الذهاب إلى ميافارقين في موكب ضخم ليزور قبرها حيث مدفن العائلة. وقصد ميّافارقين في خمسة آلاف من الجند وألفين من غلمانه لهذه الغاية؛ فقال أبو الطيب المتنبي في ذلك:

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ أَكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيَّمُ(١)

لَحُبُّ ابن عبد الله أَوْلَى فإنَّه به يُبدأُ الذكرُ الجميلُ ويُختَمُ(٢)

أطعتُ الغواني قبلَ مَطْمح ناظري إلى منظرٍ يَصْغُرن عنه ويعظُمُ(٣)

تعرَّضَ سيفُ الدولةِ الدهرَ كُلَّه يطبّق في أوصاله ويُصمِّم(٤)

فجازَ له حتى على الشمس حكمُهُ وبان له حتى على البدرِ مَيْسَمُ(٥)

كأنّ العدا في أَرضهم خلفاؤه فإن شاء حازوها وإن شاء سلَّموا

ولا كُتْبَ إلاّ المشرفيةُ عنده ولا رُسُلٌ إلاّ الخميسُ العرمْرَمُ

إلى أن يقول:

يُقرُّ له بالفضلِ من لا يودُّهُ ويقضي له بالسعدِ من لا يُنجّمُ

أَجار على الأيام حتى ظَنَنتُهُ تطالبُه بالرَّدِّ عادٌ وجُرهُم(٦)

---

(١) النسيب: التشبيب بالنساء.

(٢) ابن عبد الله: سيف الدولة.

(٣) يقول: كنت أرغب في النساء قبل التقائي بسيف الدولة، ولما التقيته صغُرن في عيني إزاء عظمته.

(٤) تعرض الدهر: أتاه عن عرض. والتطبيق: أن يصيب المفصل في الضرب. والتصميم: أن يمضي السيف في الضريبة. والمراد: أنه اخضع الدهر لما يريد.

(٥) يقول: إن حكمه جائز على الشمس، وحسنه ظاهر على البدر، أي هو أحسن منه. والميسم: الحسن.

(٦) يقول: أجار الناس من الأيام ونوائبها فلا تقدر أن تصيبهم بمكروه حتى أطمع قبائل عاد وجرهم في إنقاذهم من يد العدم بعد هلاكهم في الزمان الأول.

ضلالاً لهذي الريح ماذا تُريُده وهَدْياً لهذا السيل ماذا يؤمّم[١]
ألم يسألِ الوبلُ الذي رام ثَنْيَنَا فَيُخْبِرَهُ عنك الحديدُ المثَلَّمُ[٢]
ولمّا تلقَّاكَ السحابُ بِصَوْبِهِ تلقَّاه أعلى منه كعْباً وأَكْرمُ
فباشَرَ وَجْهاً طالما باشَرَ القَنا وبلَّ ثياباً طالما بلَّها الدمُ
تلاك وبعضُ الغيث يتبعُ بعضَهُ من الشأم يتلو الحاذقَ المتعلِّمُ[٣]
فزار التي زارت بك الخيلُ قَبْرَها وجشَّمه الشوقُ الذي تتجشَّمُ[٤]
ولمَّا عرضتَ الجيشَ كان بهاؤه على الفارس المُرخي الذؤابةَ مِنْهُم[٥]
حواليه بحرٌ للتجافيف مائجٌ يسير به طَوْدٌ من الخيلِ أَيْهَمُ[٦]
تساوت به الأقطارُ حتى كأنه يجمّعُ أشتاتَ الجبالِ وينظِمُ
وكلُّ فتىً للحرب فوق جبينه من الضربِ سطرٌ بالأسنة مُعْجَمُ
على كلّ طاوٍ تحت طاوٍ كأنّه من الدم يُسقى أو من اللحم يُطْعَمُ[٧]
لها في الوغى زِيُّ الفوارسِ فوقها فكلُّ حِصانٍ دارعٌ مُتَلَثِّمُ

---

(١) يدعو على الريح بالضلال لأنها آذتهم، ويدعو للسيل بالهداية لأنه يشبه الممدوح في الجود.

(٢) الوبل: المطر الغزير. وثنينا: صرفنا. أي ليس بوسع المطر العزيز أن يثنيك عن قصدك وإلاّ فليسأل سيوفك التي ثلمتها الوقائع.

(٣) تبعك الغيث من الشام وأنت غيث يتبعك الغيث ليتعلّم منك الجود.

(٤) جشّمه الشيء: كلفه إياه. يقول: إن السحاب زار قبر والدتك معك وكلفه الشوق ما كلفك من المسير إليها.

(٥) الذؤابة: الضفيرة من شعر الرأس. والمراد بها هنا ما أرسل من طرف العمامة. والفارس المرخى الذؤابة: سيف الدولة.

(٦) التجافيف: ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح. الطود: الجبل. الأيهم: الذي لا يهتدى فيه.

(٧) الطاوي: الخميص الجوف. يقول: كل فتى ضامرٍ يمتطي فرساً ضامراً كأن شرابه الدم وطعامه اللحم.

وما ذاك بخلاً بالنفوسِ على القنـا ... ولكنَّ صدمَ الـشرّ بالـشّر أَحْـزمُ

أَتَحْسِبِ بيضُ الهندِ أَصلَكَ أَصـلَها ... وأَنك منها؟ سـاء مـا تتـوهَّمُ[(١)]

إذا نحـن سَـمَّيناك خِلْنا سـيوفَنا ... من التيـه فـي أَغمادهـا تتبـسَّمُ

ولم نَرَ مَلْكـاً قـطُّ يُـدعى بدونـهِ ... فيرضى ولكن يجهلـون وتحلُـمُ[(٢)]

أَخذتَ علـى الأعـداء كـلَّ ثنيّـةً ... من العيش تُعطي من تشاءُ وتحرمُ[(٣)]

فلا مـوتَ إلاَّ مـن سـنانِك يُتَّقـى ... ولا رزقَ إلاّ مـن يمينـكَ يُقـسَمُ

من حلب إلى ميَّافارقين:

وما إن فرغَ سيفُ الدولة من استعراض جيشه، والاستماع إلى قصيدة أبي الطيب حتى توجَّه بخيله ورَجْله تصحبُه حاشيتُه وشاعره أبو الطيب **من حلب إلى ميَّافارقين،** مروراً بمنبج، وجسر منبج، ثم رأس العين، ونصيبين، ودارا، وكفرتوثا، وقد سبق ذكر هذه الأماكن جميعاً، وصولاً إلى آمد وهي أعظمُ مدن ديار بكر وأجلُّها قَدْراً، وأَشْهرُها ذكراً، وهي بلد ركين، حصين مبنيٌّ بالحجارة السود على جبل غربيّ دِجْلة مُطِلٌّ عليها من نحوِ خمسين قامة، وعليها سور أَسود من حجارة الأَرحية، وليس لحجارته في جميع الأَرض نظير، ومنها ما يُتَّخذ للطحن به في العراق ويُساوي الواحدُ منها خمسين ديناراً إلى أكثر أو أَقل. وبآمد مُزْدَرَعٌ داخلَ سورها ومياه، وطواحين على عيون تنبع منها.

ثم توجّه الأمير بجيشه وحاشيته من آمد إلى ميَّافارقين. وهي مدينة جليلة عظيمة الخطر، عليها سور من حجارة، وفصيل (حائط قصير أقل من السور) وخندق عميق. مصطكَّة العمارة، ضيّقةُ الأَسواق. والفواكه والأشجار والأنهار محيطة بها. وفي هوائها وخامة ما. ويُقال: إن المدينة من أَبنية الروم، وقد ذُكِر في ابتداء عمارتها أَنه كان في موضع بعضها اليوم قرية

---

(١) يقول: أتظن سيوف الهند أنها تشاركك في الأصل؟ ساء ما تتوهم لأنك أشرف وأجل شأناً منها.

(٢) يقول: لم نر ملكاً يلقب بدون ما يستحق فيرضى بذلك إلاّ أنت لأن محلك أفضل.

(٣) الثنية: العقبة. يقول: إنك تتحكم بمصائر أعدائك، فتعطي من تشاء وتحرم من تشاء.

عظيمة، وكان بها بِيْعة من عهد المسيح، آثارُها لا تزال باقية. وهي مدينة حصينة، يُقال: إنها لم تؤخذ عَنْوة قَطّ إلى ذلك الحين وهو سنة ٣٣٨هـ. وقيل: إنه ابتُدئ بعمارتها بعد المسيح بثلاث مئة سنة. وما زالت بأيدي الروم إلى أيام قباذ بن فيروز ملك الفرس، فإنه غزا ديار بكر وربيعة، وافتتحها، وسبى أهلها ونقلهم إلى بلاده، وبنى لهم مدينةً بين فارس والأهواز. فأَسْكنهم فيها وجعل اسمها أَبَزْقباذ. وبقيت بأيدي الفرس إلى أن افتتحها هرقل ملك الروم صاحب عمر بن الخطاب، وأعادها إلى مملكة الروم، وملكها ثماني سنين آخرها سنة ثماني عشرة للهجرة، إذ افتتحها العرب المسلمون. فأنفذ عمر بن الخطاب بعد فتح الشام عياضَ بْنَ غَنْم بجيش كثيف إلى أرض الجزيرة، فجعل يفتحها موضعاً موضعاً. ومن كُتّاب السير من قال: إنها فُتْحِت عَنْوة، ومنهم مَنْ ذكر أنها فُتحت صلحاً على خمسين ألف دينار.

وبعد أن زار الأمير قبر الوالدة عسكر خارج المدينة استعداداً لغزو الروم. لكن ريحاً شديدة أوقعت الخيمة التي ضُربت له، فتكلَّم الناس في ذلك، وأَوْجسوا شرًّا، فابتدره أبو الطيب بالقصيدة التالية:

أَيقدحُ في الخيمةِ العُذَّلُ ... وتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَها يَشْمَلُ(١)

وتعلو الذي زُحَلٌ تحته ... مُحالٌ لَعَمْرُكَ ما تُسْأَلُ(٢)

فَلِمْ لا تلومُ الذي لامها ... وما فَصُّ خاتمه يذبُلُ(٣)

تَضِيقُ بشخصِك أرجاؤها ... ويركض في الواحدِ الجحفَلُ(٤)

---

(١) أيقدح: أيعيب. يقول: هؤلاء الذين يلومون خيمته على السقوط أيعيبونها وعذرها في هذا التقوض أنها اشتملت على من شمل الدهر فضاقت عنه؛ فلم تثبت حوله؟

(٢) وهل تعلو الخيمة الذي زحل تحته في علو القدر والنباهة؟ إذاً فثبوتها فوقه محال.

(٣) يذبل: جبل مشهور بنجد في طريقها. يقول: لم لا تلوم لائمها على انه ليس فص خاتمه يذبل؟

(٤) الواحد: أحد أرجائها. يقول: إن هذه الخيمة التي يركض الجيش الكثير في أحد جوانبها، ولكنها مع ذلك ضاقت جميعها بشخصك هيبة لك وإجلالاً أن تعلوك.

وتَقْصُرُ ما كنـتَ فـي جوفهـا | وتُركَـزُ فيهـا القنـا الـذُّبَّلُ[1]
وكيـف تقـوم علـى راحـةٍ | كـأنَّ البحـارَ لهـا أَنْمُـلُ[2]
فليـتَ وقـارك فَرَّقْتَـهُ | وحمَّلت أرضـك مـا تحمِـلُ[3]
فـصار الأنـامُ بـه سـادةً | وسُـدْتَهُمُ بالـذي يَفْـضُلُ[4]
رأت لونَ نـورك فـي لونهـا | كلـون الغزالـةِ لا يُغْـسَلُ[5]
وأنّ لهـا شَـرَفاً باذخـاً | وأن الخيـامَ بهـا تَخْجَـلُ[6]
فـلا تُنكِـرَنَّ لهـا صـرعةً | فمن فَـرَح الـنفسِ مـا يقْتُـلُ
ولـو بُلِّـغ النـاسُ مـا بُلِّغـت | لخـانتهم حولـك الأرجُـلُ[7]
ولمَّـا أَمَـرْتَ بتطنيبهـا | أُشـيع بأنـك لا ترحَـلُ
فمـا اعتمـد الله تقويـضها | ولكـن أشـار بمـا تفعـلُ
وعـرَّف أنـك مـن هَمِّـه | وأنَّـك فـي نَـصْره ترفُـلُ[8]
فمـا العانـدون ومـا أَثَّلـوا | وما الحاسدون ومـا قوَّلـوا[9]

---

(١) يقول: إن هذه الخيمة على اتساعها وعلوها لا تستطيع أن تعلوك إجلالاً لك لعلو مقامك مع أنها عالية حتى تركز فيها الرماح.

(٢) يريد: كيف تبقى هذه الخيمة قائمة وتحتها راحتك الواسعة الجود، فكأن البحار أنامل لها!

(٣) يقول: ليتك فرقت وقارك على الناس، وحملت أرضك من باقي وقارك ما تستطيع حمله، فإنك لو فعلت ذلك لخص الخيمة ما يوقرها ويثبتها فلا تسقط.

(٤) يقول: لو فرق من وقاره الكثير لساد به الناس وبقي منه ما يسودهم به.

(٥) الغزالة: الشمس عند طلوعها. والمعنى: أن الخيمة اكتسبت من نورك ما صارت به موازية للشمس التي لا يزول نورها.

(٦) الباذخ: العالي: يقول: رأت أن لها شرفاً عظيماً إذا سكنتها، وإذا رأتها الخيام خجلت لأنها لم تبلغ ما بلغت من الاشتمال عليك.

(٧) يقول: لو بلغ الناس مبلغ هذه الخيمة من الاشتمال عليك لخانتهم أرجلهم هيبة لك. كما خانتها أطنابها وعمدها.

(٨) من همة: مما يهتم به ويحتفل.

(٩) العاند: المائل عن الحق وهو يعرفه. أثلوا: أَصَّلوا من الكلام وجعلوه أصلاً لتكذابهم أي لا تأثير لما يلفقونه من الأقوال. وما يروّجونه من التشاؤم عند سقوط الخيمة.

هُـــمُ يطلبـــون فَمَـــنْ أدركـــوا وهـــم يكـــذبون فَمَـــنْ يقبـــلُ
وهـــم يتمنَّـــون مـــا يـــشتهون ومِـــنْ دونـــه جَـــدُّكَ المُقْبِـــلُ[١]
وملمومـــــــةٌ زردٌ ثوبُهـــــــا ولكنّـــــه بالقنـــــا مُخْمَـــــلُ[٢]
يُفـــاجئ جيـــشاً بهـــا حَيْنُـــهُ ويُنذِرُ جيـشاً بهـا القـسطلُ[٣]
جعلتُـــك بالقلـــب لـــي عُـــدَّةً لأنـــك باليـــد لا تُجعَـــلُ
لقـــد رفـــع اللهُ مـــن دولـــة لها مِنْـكَ يـا سـيفها مُنْـصُلُ
فإن طُبعـت قبلـك المرُهَفـاتُ فإنـك مـن قَبْلِهـا المِقْـصَلُ[٤]
وإن جـاد قبلـك قـومٌ مَـضَوا فإنـــك فـــي الكَـــرَمِ الأوّلُ
وكيـف تُقـصّر عـن غايـة وأُمُّـكَ مـن ليثهـا مُـشْبِلُ[٥]
وقـد ولَـدتْك فقـال الـورى ألم تكـن الـشمسُ لا تُنْجَـلُ[٦]
فَتبّـاً لـدينِ عبيـدِ النجـوم ومـن يـدَّعي أنهـا تعقِـلُ
وقـد عرفَتْـكَ فمـا بالُهـا تـراك تراهـا ولا تنـزِلُ
ولـو بِتُّمـا عنـد قَـدْريكما لبـتَّ وأعلاكمـا الأسـفلُ[٧]
أنَلْـتَ عبـادك مـا أمَّلـوا أنالَـكَ ربُّـك مـا تأمُـلُ

---

(١) الجد: الحظ. يقول: إنهم يتمنون هلاكك ولكن إقبال حظك يحول دون ما يشتهون.

(٢) الملمومة: الكتيبة من الجيش مجموعة. يعني أن جيشك الذي اتخذ فرسانه الدروع لباساً يحول دون ما يشتهون.

(٣) القسطل: الغبار. والحيْن: الهلاك. يقول: يفاجئ بهذه الكتيبة جيشاً هلاكه بها، وينذر غبارها جيشاً آخر.

(٤) المرهفات: السيوف الرقيقة الحد. وطبع السيف: صنعه. المقصل: القاطع.

(٥) مُشبل: ذات أشبال.

(٦) أي لما ولدتك أمك كنت شمساً في رفعة المحل؛ فقال الناس: ألم تكن الشمس لا تُولد فكيف ولدت هذه المرأة شمساً.

(٧) لو بات كل منكما في الموضع الذي يستحقه لبتَّ في موضع النجوم وباتت النجوم في موضعك لعلو شرفك.

ولم تدُمْ إقامةُ سيفُ الدولة بميَّافارقين سوى بضعة أشهر ففي شهر ربيع الأول من سنة ٣٣٩هـ غادرها على وجه السرعة لكي يصدَّ غارةً سريعةً شنَّها الروم على أنطاكية. فتوجه سيف الدولة بجيشه يتبعه من الشعراء المتنبي وأبو فراس والببغاء من أعالي دجلة إلى الشام، فوصل إلى حلب ثم أغذَّ السير إلى أنطاكية قاصداً قيسارية، «فوافاه عسكر طرسوس في أربعة آلاف عليهم القاضي أَبو حُصين. وقيسارية مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، ومنها توجه بجيشه إلى الفندق وهو موضع بالثغر قرب المصِّيصة والمَصِّيصة مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام تقارب طَرَسُوس، وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان، ولها سور وخمسة أبواب. وتُعمل بها الفراء التي تُحمل إلى الآفاق، وربما بلغ الفرو منها ثلاثين ديناراً. ثم توغّل في بلاد الروم وفتح عدة حصون، وسبى وقتل، ثم سار إلى سَمَنْدو وهي بلد في وسط بلاد الروم، حيث جرت معركة حامية الوطيس بينه وبين الدمستق فهزمه سيف الدولة شرّ هزيمة، ثم واصل هجومه نحو خرشنة يقتل ويسبي، وخَرْشَنَة بلد قرب مَلَطْيَة من بلاد الروم، ثم زحف بجيشه إلى صارخَة التي تبعد عن القسطنطينية سبعة أيام، فلما نـزل عليها أحرق ربضها وكنائسها، وواقع الدمستقُ مقدّمتَه، فظهرت عليه، فلجأ إلى الحصن وخاف على نفسه، ثم جمع والتقى سيفَ الدولة فهزمه أَقبح هزيمة، وأُسِرت بطارقتُه، وكانت غَزاةً مشهورة، وغَنِم المسلمون ما لا يوصف، وبقوا في الغزو أشهراً. ثم إن الطرسوسيّين قفلوا، ورجع العُربان، ورجع سيف الدولة في مضيق صعب، فأخذت الروم عليه الدروب، وحالوا بينه وبين المقدّمة، وقطعوا الشجر، وسدَّوا به الطرق، ودَهْدَهوا[1] الصخور في المضائق على الناس، والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون، ولا منفذ لسيف الدولة، ولكن معه أربع مئة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم، وعقر جِمالَهُ، وكثيراً من دوابّه، وحرق الثّقل، وقاتل قتال الموت، ونجا نفر يسير، واستباح الدمستق أكثر الجيش وأسر أمراءَ وقُضاةً[2]».

---

(١) دهده الحجر: دحرجه.

(٢) الذهبي ١- عن سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص ٢١٠.

ثم توجه سيف الدولة بمن بقي معه نحو سُميساط وهي مدينة على الشاطئ الغربي للفرات. وكان المتنبي من شهود هذه الغزوة التي انتهت بفاجعة يصعُب الإحاطة بتفاصيلها، وهو من القلَّة الذين صمدوا ولم يتراجعوا إلا بإشارة من سيف الدولة. وكان بوسعه أن يسجل في شعره هذه الكارثة التي حلَّت بجيش سيّده؛ فانقلب النصر إلى هزيمة موجعة، ثم يرثي من سقطوا في هذه المواجهات الدامية، ولكنه حاول أن يُزيلَ الأثر الكارثي لتلك الحملة فعمل جاهداً على أن يُحيلَ الهزيمة إلى نصر مبين(١). ولمَّا «ركب سيف الدولة في بلد الروم من منــزلٍ يُعرف بالسنبوس في جُمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة، وأصبح وقد صفَّ الجيش يريد سَمَنْدُو. وكان أبو الطيب متقدّماً، فالتفت؛ فرأى سيف الدولة خارجاً من الصفوف يُدير رمحاً فعرفه فردّ الفَرسَ إليه فسايره وأنشده(٢):

لهــذا اليــومِ بعــد غــدٍ أريــجُ ... ونـــارٌ فــي العــدوّ لهــا أَجــيجُ(٣)

تبيــتُ بهــا الحواضــنُ آمنــاتٍ ... وتسلَمُ فــي مــسالكها الحجــيجُ(٤)

فلا زالــت عُــداتُك حيــث كانــت ... فــرائسَ أيُّهــا الأسَــدُ الـــمَهِيجُ

عرفتُــــك والـــصفوفُ مُعَبَّـــآتٌ ... وأنــت بغيــر ســيفِك لا تَعــيجُ(٥)

ووجهُ البحــرِ يُعــرفَ مــن بعيــدٍ ... إذا يَـــسْجو فكيـــف إذا يمـــوجُ(٦)

---

(١) وجاء في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير-ج ٨ ص ٤٨٥-٤٨٦ ما يلي في هذه السنة (٣٣٩هـ) دخل سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم، فغزا، وأوغل فيها، وفتح حصوناً كثيرة، وسبى وغنم. فلما أراد الخروج من بلد الروم أخذوا عليه المضايق؛ فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً، واسترد الروم الغنائم والسبي، وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم، ونجا سيف الدولة في عدد يسير.

(٢) سيف الدولة وعصر الحمدانيين - ص ٢١١.

(٣) الأريج: الرائحة الطيبة. والأجيج: اشتعال النار.

(٤) الحواضن: العفيفات.

(٥) لا تعيج: لا تبالي.

(٦) يسجو: يسكن.

بــــأرضٍ تَهْلِــكُ الأشـــواطُ فيهـــا إذا مُلِئت من الــركضِ الفُــروجُ[(١)]

تحاولُ نَفْــسَ مَلْــكِ الــروم فيهــا فتفديــــــه رعيَّتُــــــهُ العلـــــوجُ[(٢)]

أَبِـــالْغَمَراتِ تُوعِـــدنا النـــصارى ونحن نجومُهــا وهِــيَ البــروجُ[(٣)]

وفينـــا الــسيفُ حَمْلَتُـــه صَــدوقٌ إذا لاقـــى وغارتُــــه لَجـــوجُ[(٤)]

نعـــوّذُه مـــن الأعيـــانِ بأســـاً ويكثُــر بالــدُّعاءِ لــه الــضجيجُ[(٥)]

رضـــينا والدمُـــسْتُق غيـــرُ راضٍ بما حَكَــم القواضِــبُ والوشــيجُ[(٦)]

فـــإن يُقْــدِمْ فقــد زُرْنــا سَــمَنْدو وإن يُحْجِــمْ فموعــدُنا الخلــيجُ[(٧)]

ثم نظم أبو الطيب قصيدة ثانية يمدح فيها سيف الدولة، ويذكر تلك الواقعة التي نُكِب بها المسلمون، وعَقَّب عليها بالآتي:

«ومرّ سيف الدولة في هذه الغزاة بِسَمَنْدو، وعبر آلِس وهو نهرٌ عظيم على يوم من طَرَسوس، ونــزل على صارخه وهي مدينة هناك، فأحرق رَبَضَها وكنائسها، وربضَ خرشنة وما حولها وأقام بمكانه أياماً، ثم عبر آلِس راجعاً. فلما أمسى ترك السواد وأكثر الجيش، وسرى حتى جاز خرشنة، وانتهى إلى بطن لُقان ظُهْرَ الغد، فلقيَ الدمستقَ في ألوفٍ من الخيلِ. فلما رأى الدمستق أوائل خيل المسلمين ظنَّها سَرِيَّة لها، فانتشب القتال بين الفريقين، فانهزم الدمستق؛ وقُتل من فرسانه خَلْقٌ كثير، وأُسر من بطارقته وزَرَازرته نيّفٌ على ثمانين، وأفلت الدمستق، وعاد سيف الدولة إلى عسكره وسواده،

(١) الشوط: الجري مرة إلى غاية. الفروج: ما بين قوائم الفرس.

(٢) تحاول: تطلب.

(٣) الغمرات: الشدائد. يقول: أتهددنا النصارى بالحرب ونحن أبناؤها لا نفارقها كما لا تفارق النجوم منازلها.

(٤) السيف: سيف الدولة. غارة لجوج: دائمة لا تنثني.

(٥) الأعيان: العيون. أي نعوّذ الممدوح بالله من أن تصيبه العيون لدى رؤية بأسه.

(٦) الدمستق: قائد جيش الروم. القواضب: السيوف. القواطع. والوشيج: عيدان الرماح.

(٧) سمندو: قلعة ببلاد الروم. والخليج، خليج القسطنطينية.

حتى وصل إلى عَقَبه تُعرف بمقطِّعة الأثفار. فصادفه العدو على رأسها، فأخذ ساقةَ الناس يحميهم. ولمَّا انحدر بعد عبور الناس ركبه العدوّ؛ فجرح من الفرسان جماعة، ونـــزل سيفُ الدولة على بَرَدَى وهو نهر بَطَرسوس، وأخذ عليه العدو» عَقَبة المسير، وهي عقبة طويلة، فلم يقدر على صعودها لضيقها، وكثرة العدوّ بها، فعدل متياسراً في طريق وصفه بعض الأدلّة، وجاء العدوّ آخر النهار من خلفه فقاتل إلى العشاء، وأظلم الليل، وتساند أصحاب سيف الدولة، أي أخذوا في سند الجبل يطلبون سوادهم، فلما خفّت عنه أصحابُه سار حتى لحق بالسواد تحت عقبة قريبة من بحيرة الحدث، فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين، وجعل سيف الدولة يستنفر الناس، فلم ينفر أحد. ومن نجا من العقبة نهاراً لم يرجع، ومن بقي تحتها لم تكن فيه نُصْرة، وتخاذل الناس، وكانوا قد ملُّوا السفرَ، فأمر سيف الدولة بقتل البطارقة، وبقية الأسرى. فكانوا مئات، وانصرف؟ واجتاز أبو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من التعب، وبعضهم يحركونهم، فيجهزون على من تحرك منهم، فقال يصف ذلك(١):

غيري بأكثرِ هــذا النــاسِ ينخــدعُ ... إن قاتَلوا جَبُنُوا أو حدّثوا شَــجُعُوا

أهـــلُ الحفيظـــةِ إلاَّ أن تُجَـــرِّبَهمُ ... وفي التجارب بعدَ الغَيّ ما يَــزَعُ(٢)

وما الحياةُ ونفسي بعدَ مــا علمــت ... أن الحياةَ كما لا تــشْتهي طَبَــعُ(٣)

ليس الجمالُ لوجـــهٍ صَــحَّ مارنُـــهُ ... أنفُ العزيزِ بقطع العِــزّ يُجتــدَعُ(٤)

أُطرحُ المجدَ عن كِتْفِـــي وأَطْلُبُـــه ... وأتركُ الغيثَ في غمدي وأنتجــعُ(٥)

---

(١) حاشية على قصيدة أبي الطيب تُلقي الضوء على مناسبة القصيدة: الديوان ج ٢ ص ٣٢٩-٣٣٠ وقد نُسِبت للمتنبي.

(٢) الحفيظة: الحمية والأنفه. الغي: الانهماك في الجهل. يزع: يردع.

(٣) طبع: دنس. يريد أن الحياة خلافاً لما يريده المرء دنس، فعلامَ الحرص عليها.

(٤) المارن: ما لان من الأنف. يقول: ليس كل وجه صحيح المارن بجميل، فإن العزيز متى قطع عزه ذلّ؛ فصار كمن جُدع أنفه.

(٥) يقول: إن المجد وسعة الرزق إنما يطلبان بالسيف، فلم أطلبهما بشيء آخر؟

والمـــشرفيَّةُ لا زالـــت مـــشرَّفةً دواءُ كلّ كريمٍ أو هـــي الوَجَـــعُ[١]
وفارسُ الخيلِ من خفَّـت فوقَّرهـــا في الدرب والدمُ في أعطافها دُفَعُ[٢]
وأَوحَدَتْــه ومـــا فـــي قلبـــه قلـــقٌ وأغضبته وما في لفظـــه قَـــذَعُ[٣]
بـــالجيش تمتنـــع الـــسادات كُلُّهُـــمُ والجيش بابن أبي الهيجاء يَمْتنِعُ[٤]
قادَ المقانبَ أقـــصى شـــربها نَهـــلٌ على الشكيمِ وأدنى سيرها سِـــرَعُ[٥]
لا يعتقي بلـــدٌ مـــسراه عـــن بلـــدٍ كالموتِ ليس لـــه ريٌّ ولا شِـــبَعُ[٦]
حتى أقام علـــى أربـــاضِ خرشـــنةٍ تَشْقى به الرومُ والـــصُّلْبانُ والبِيَـــعُ
للسَّبْي ما نَكَحوا والقتلِ مـــا ولَـــدوا والنهب ما جمعوا والنار مـــا زرعوا
مُخْلىً له المرجُ منصوباً بـــصارخةٍ له المنابرُ مشهوداً بهـــا الجُمَـــعُ[٧]
يُطمِّعُ الطيرَ فـــيهم طـــولُ أَكْلهـــمُ حتى تكادَ علـــى أَحْيـــائهم تَقَـــعُ[٨]
ولـــو رآه حَواريُّـــوهُمُ لَبَنَـــوْا على محبَّتِه الشَّرْعَ الذي شَرَعوا[٩]

---

(١) المشرفية: السيوف. يقول: إن السيوف دواء الكريم أو داؤه لأنه إما أن يدرك طلبته بها فتكون دواء، وإما أن يقتل دون غايته فتكون داء.

(٢) فارس الخيل: يريد سيف الدولة. لأن خيله ارادت الهزيمة فثبتها في مضيق من مضايق الروم. الأعطاف: الجوانب.

(٣) أوحدته: تركته وحيداً. القذع: الفحش.

(٤) ابن أبي الهيجاء: سيف الدولة. يقول إذا امتنع الملوك بجيوشهم، فإن جيشك يمتنع بك، فأنت عزه ومنعته.

(٥) المقانب: جمع مقنب: الجماعة من الخيل. والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام. والسَّرَع: السرعة. يقول: قاد الجيوش على عجل فسقاها وهي ملجمة للحاق بالعدو ومنازلته.

(٦) لا يعتقي: لا يعوقه. يقول: إن سيره من بلدٍ لفتحه لا يعوقه عن سيره إلى غيره، فهو كالموت الذي يعم فلا يرتوي ولا يشبع.

(٧) المرج: موضع ببلاد الروم. وصارخة: مدينة سبق ذكرها. يقول: أخلي له المرج، ونصبت المنابر بصارخة، وشهدت صلوات الجمع.

(٨) يقول: اعتادت الطير أكل لحوم قتلاهم حتى تكاد تقع على لحوم الأحياء منهم.

(٩) الحواريون: أصحاب السيد المسيح. يقول: لو رأى الحواريون سيف الدولة وشاهدوا عدله وإنصافه لأوجبوا محبته وطاعته في شرعهم.

ذمَّ الدُّمُستُقُ عينيــه وقــد طَلَعــت سودُ الغمامِ فظنــوا أنهــا قَــزَعُ[1]
فيها الكماةُ التي مَفْطُومُهــا رَجــلٌ على الجياد التي حَوْلِيُّهــا جَــذَعُ[2]
تذري اللُّقَانُ غباراً فــي مناخرهــا وفي حناجرها من آلِــسٍ جُــرَعُ[3]
كأنهــــا تتلقَّــــاهم لتَــــسْلُكَهُم فالطعنُ يَفتَحُ في الأجواف ما تَسَعُ[4]
تَهْدِي نَواظِرَها والحــربُ مُظْلِمــةٌ من الأسِنَّةِ نــارٌ والقنــا شَــمَعُ[5]
دون الــسَّهامِ ودونَ القُــرِّ طافحــةً على نفوسِهِمُ المُقْــوَرَّةُ المُــزُعُ[6]
إذا دعا العِلْجُ عِلْجاً حــال بينهمــا أظمى تفارقُ منهُ أُختَها الــضِّلَعُ[7]
أَجَلُّ مــن ولَــدِ الفُقَّــاس مُنكتِــفٌ إذْ فاتهنَّ وأمضى منه مُنْــصرِعُ[8]
يُباشِرُ الأمنَ دهــراً وهــو مُخْتَبِــلٌ ويشربُ الخمرَ حولاً وهــو مُمتَقَــعُ
وما نجا من شِفار البــيضِ مُنْفَلِــتٌ نجا ومِــنْهُنَّ فــي أَحــشائهِ فَــزَعُ
كم من حُشاشةِ بِطْريــقٍ تــضمَّنَها للبــاتراتِ أمــينٌ مــا لــه ورَعُ[9]

---

(١) سود الغمام: جيش سيف الدولة. القزع: المتفرق من السحاب، يقول: أساء الدمستق الظن بعينيه، إذْ حسب جيش سيف الدولة شراذم قليلة، فأنكر حاسة بصره.
(٢) الحولي: الذي أتى عليه الحول. والجذع: الذي أتى عليه حولان. يقول: في جيشه أبطال، صبيهم رجل لدى الوغى، وحوليهم جذع لدى الوغى.
(٣) اللُّقان: موضع ببلاد الروم. آلس: نهر هناك. يصف سرعة جري خيله إذ شربت الماء من آلس، وبلغت اللقان قبل أن تبتلعه لسرعتها على الرغم من بعد المسافة بينهما.
(٤) يقول: كأن خيله تتلقى الروم لتفتح في أجوافهم جراحات تسع الخيل.
(٥) يقول: إن خيل سيف الدولة تهتدي في ظلمة الحرب بنار الأسنة وشموعها.
(٦) السهام: حر السموم. القر: البرد. طافحة: مسرعة. المقورّة: الضامرة مُزُع: مسرعة. يقول: قبل حر الصيف وشدة البرد تأتيهم خيل سيف الدولة فتطؤهم بحوافرها.
(٧) العلج: الرجل الغليظ من الروم. أظمى: رمح أسمر. يقول: إذا استعان علج بآخر منهم حال بينهما رمح أظمى يشق الأضلاع.
(٨) الفقاس: جد الدمستق. يقول: إن هرب الدمستق فإن الأسير المنكتف أعظم قدراً منه، والقتيل المصروع أشجع منه لأنه لم ينهزم.
(٩) الحشاشة: بقية الروح. الباترات: السيوف؟ المراد بالأمين: الذي لا ورع له. والبطريق: الفارس من الروم، أو القائد. يقول: كم من بطريق أسر ليقتل إذا دعت الحاجة إلى قتله، فأرواحهم في ضمان القيد للسيوف.

يقاتلُ الخطــوَ عنـــه حـــين يطلبُـــهُ ويطردُ النومَ عنه حينَ يَـضْطجِعُ[(١)]
تغدو المنايـــا فـــلا تنفـــكُّ واقفـــةً حتى يقولَ لها عـــودي فَتَنْـــدفِعُ[(٢)]
قُلْ للدمُـــسْتُقِ إن المُـــسْلَمِين لكـــم خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا[(٣)]
وجـــدتموهم نيامـــاً فـــي دمـــائكمُ كـــأَنَّ قـــتلاكُمُ إيـــاهُمُ فَجَعُـــوا[(٤)]
ضَعْفى تَعِفُّ الأيادي عـــن مثـــالهم من الأعادي وإن همُّوا بهم نَـــزَعُوا[(٥)]
لا تَحْسَبوا من أسَرْتُم كان ذا رَمَـــقٍ فلـــيس يأكـــلُ إلاَّ الميِّـــتَ الـــضَبُعُ
هلاّ على عَقَبِ الوادي وقد صَـــعدت أُسْدٌ تمرُّ فُـــرادى لـــيس تجتمِـــعُ[(٦)]
تَـــشقُّكم بقناهـــا كـــلُّ سَـــلْهبةٍ والضربُ يأخذ منكم فوق ما يَدَعُ[(٧)]
وإنمـــا عـــرَّض اللهُ الجنـــودَ بكـــم لكي يكونوا بلا فَسْلٍ إذا رَجَعـــوا[(٨)]
فكـــلُّ غـــزوٍ إلـــيكم بعـــد ذا فَلَـــهُ وكلُّ غـــازٍ لـــسيف الدولـــةِ التَّبَـــعُ
يمشي الكرامُ علـــى أثـــارِ غيـــرهم وأنت تَخْلُـــقُ مـــا تـــأتي وتبتـــدِعُ
وهل يَشينُك وقـــتٌ كنـــتَ فارسَـــه وكان غيرَكَ فيه العاجزُ الـــضَّرَعُ[(٩)]

---

(١) أي إن القيد يمنعه الخطو إن أراد السير، ويمنعه النوم عند الاضطجاع.
(٢) يقول: إن المنايا تنتظر أمر سيف الدولة، فهي إن منعها ولّت، وإن أمرها بالعودة تدفقت عليهم.
(٣) المسلَمين: الذين أسلمهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه.
(٤) يقول: وجدتموهم بين قتلاكم ملطخين بدمائهم كأنهم مفجوعون بهم.
(٥) ضعفى: جمع ضعيف. نـــزع عن الشيء: أعرض عنه. يقول: إن هؤلاء من ضعفاء عسكر سيف الدولة إن همّوا بعدوهم أعرض عنهم لضعفهم وخساستهم.
(٦) العقب: جمع عقبة. يقول: هلا قاتلتم في ذلك الموقع وقد واجهتم رجالاً أبطالاً يسرعون إلى الحرب أفراداً لا ينتظرون الآخرين لشجاعتهم.
(٧) السلهبة: الطويلة من الخيل. يقول: يشق صفوفكم كل فرسٍ من خيلِ هؤلاء الرجال، ويمكن سيفه منكم فلا يدع منكم إلاّ القليل.
(٨) الفسل: الرذل العاجز. يقول: ترك لكم العجزة الذين قتلتموهم من عسكر سيف الدولة ليعود في الأبطال المنتخبين ليس فيهم فسل ولا دنيء.
(٩) الضّرع: الضعيف.

من كان فوقَ محلّ الشمسِ موضِعُهُ ... فلـيسَ يرفعــه شـــيءٌ ولا يَـــضَعَ

لم يُسْلِمِ الكَرُّ في الأعقاب مُهْجَتَــهُ ... إن كان أسلمها الأصحابُ والشِّيَعُ[1]

ليتَ الملوكَ على الأقــدار مُعْطِيــةٌ ... فلم يكُن لــدنيءٍ عنــدها طَمــعُ[2]

رضيتَ منهم بأن زُرْتَ الوغى فرأوا ... وأن قرعت حَبِيكَ البيضِ فاســتمعوا[3]

لقــد أَباحَــك غِــشّاً فــي معاملــةٍ ... مَنْ كنتَ منه بغير الصدقِ تَنْتفِــعُ[4]

الــدهرُ معتــذرٌ والــسيفُ منتظِــرٌ ... وأرضُهم لك مُــصْطافٌ ومُرْتَبَــعُ[5]

ومــا الجبــالُ لِنَــصْرانٍ بحاميــةٍ ... ولو تنصَّر فيها الأَعْصَمُ الــصَّدَعُ[6]

وما حَمِدتُكَ فــي هَــوْلٍ ثَبِــتَّ لَــهُ ... حتى بَلَوتُــك والأبطــال تَمْتَــصِعُ[7]

فقد يُظَنُّ شجاعاً مــن بــه خَــرَقٌ ... وقد يُظَنُّ جباناً مَــنْ بــه زَمَــعُ[8]

إن السلاحَ جميــعُ النــاس تحمِلُــهُ ... وليس كلُّ ذواتِ المِخْلَبِ الــسَّبُعُ[9]

---

(١) الكر: الرجوع إلى الحرب مرة بعد أخرى. أسلمه: خذله. يقول: إن كان أصحابه قد خذلوه وأسلموه للأعداء فإنه من شجاعته في منعة.

(٢) يقول: ليت الملوك يعطون الشعراء قدر استحقاقهم، ولو فعلوا لما طمع بنوالهم خسيس.

(٣) الحبيك: جمع حبيكه، وهي الطرائق تكون في السماء وفي الماء الساكن. والمراد الطرائق التي في السيوف. يقول: رضيت من الشعراء بالنظر إلى قتالك والاستماع إلى قراعك في الوغى دون أن يباشروا القتال مثلي.

(٤) يعرض بالشعراء الذين يتقربون إلى سيف الدولة ويأخذون ماله بشعر كاذب لا يصحبه فعل.

(٥) أي إن الدهر معتذر إليك مما فعل من قتل الروم ضعفاء أصحابك، وأرض الروم منــزل لك في الربيع والصيف.

(٦) النصران: النصراني. الأعصم: الوعل. الصدع: الفتي.

(٧) الامتصاع: المجالدة بالسيوف. وامتصع: هرب.

(٨) الخرق: الخفة والطيش. الزمع: الرعدة.

(٩) وذكر البديعي في كتابه الصبح المنبي عن حيثية المتنبّي أن المتنبي صحب سيف الدولة في عدة غزوات إلى بلاد الروم ومنها غزوة الفنا التي لم ينجُ منها إلا سيف الدولة بنفسه، وستة أنفار أحدهم المتنبي، وأخذت الطرق عليهم الروم، فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر، وخرَّق الصفوف، وبدَّد الألوف. (ص٧٨).

«ووصل سيف الدولة إلى حلب، ولم يكد. ثم مالت الروم، فعاثوا وسَبَوا، وتزلزل الناس، ثم لطف الله تعالى، وأرسل الدمستق إلى سيف الدولة يطلب الهدنة؛ فلم يُجب سيف الدولة، وبعث يتهدّده(١)». وفي الشهور الأولى من سنة ٣٤٠هـ قرّر سيف الدولة الانتقام من الروم إثر هذه الهزيمة؛ فجهَّز جيشاً واتجه من حلب إلى حرَّان والرّها. واصطحب في حَاشيته شاعره أبا الطيّب.

وحَرَّان مدينة عظيمة من مدن الجزيرة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرُّها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. وذكر قوم أنها أول مدينة بُنيت على الأرض بعد الطوفان. وكانت منازلَ الصابئة الحرانيين الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل، ثم توجّه إلى آمد على رأس وحدات من جنود أخيه ناصر الدولة أمير الموصل، وجماعات من البدو، مواصلاً سيره نحو الشمال الغربي، ماراً بشِمْشَاط وهي مدينة على شاطئ الفرات، ليهاجم قلعة القبق الشرقية على حدود أرمينية. وهو يكتسح في طريقه كل شيء. ونُمي إليه أن جيشَ الروم وعددُه أربعون ألفاً مرابطٌ في السَّنَبُوس قرب سَمَنْدو فأوعز إلى شاعره أبي الطيّب أن يُثيرَ نخوةَ الجند، ويستحثَّهم على مواجهة العدو، ويذكّرهم بالمواقف الحاسمة لجيش سيف الدولة، فأنشد في حضرة الجيش:

نزورُ دياراً ما نُحـبُّ لهـا مَغْنَـى ... ونسألُ فيها غيرَ ساكنها الإذْنـا(٢)

نقود إليها الآخـذاتِ لنـا المـدى ... عليها الكُماةُ المحسِنون بها الظنَّا(٣)

ونُصفي الذي يُكنـى أبـا الحـسنِ ... ونُرضي الذي يُسمَى الإلهَ ولا يُكنى(٤)

وقد علـم الـرومُ الـشقيُّون أنَّـا ... إذا ما تركنا أرضَهم خَلْفنَا عُـدْنا(٥)

---

(١) سيف الدولة: ص ٢١١ عن الذهبي ١-١٦٣.

(٢) المغنى: المنـزل الذي كان به أهلوه فغني بهم. أراد أنهم يزورون هذه الديار على غير محبة منا لأنها معادية، ولا نطلب إذناً من ساكنها.

(٣) الآخذات: الخيل. يقول: نقود إلى هذه الديار الخيل التي تبلغنا غايتنا وعلى متونها فرسان عرفوا خيلهم فأحسنوا الظن بها.

(٤) أبو الحسن: سيف الدولة. نصفي الهوى: نمحض المحبة.

(٥) يقول: يعلم الروم الأشقياء أننا نترك أرضهم لنعود إليها ثانية لأننا لا نكف عن قتالهم.

وأنا إذا ما الموتُ صرَّحَ في الوغى لبسنا إلى حاجاتنا الضربَ والطعنا[١]

قصدنا لــه قــصدَ الحبيــبِ لقــاؤه إلينــا وقلنــا للــسيوف هَلُمُنَّــا[٢]

وخيــلٍ حــشوناها الأســنةَ بعــدما تكدَّسْنَ من هَنَّا علينا ومن هَنَّــا[٣]

ضُــرِبْنَ إلينــا بالــسياط جهالَــةً فلمَّا تعارفنا ضُــرِبْنَ بهــا عَنَّــا[٤]

تَعدَّ القُرى والمُسْ بنا الجيشَ لمسةً نُبارِ إلى ما تشتهي يَدُك اليُمنــى[٥]

فقد بردت فــوق اللُّقــانِ دمــاؤهم ونحن أُناسٌ نُتْبِعُ الباردَ الــسُّخْنا[٦]

وإن كنتَ سيفَ الدولةِ العضبَ فيهمُ فدعْنا نَكُنْ قبلَ الضرّابِ القنا اللُّدْنا[٧]

فنحن الأُلى لا نــأتلي لــك نُــصْرَةً وأنت الذي لو أنه وحــده أغنــى[٨]

يقيك الردى من يبتغي عندك العــلا ومن قال لا أرضى من العيش بالأدنى

فلولاك لم تجــرِ الــدماءُ ولا اللُّهــا ولم يكُ للدنيا ولا أَهْلِهــا معنــى[٩]

وما الخوفُ إلاّ ما تَخَوَّفَــهُ الفتــى ولا الأمنُ إلاَّ ما رآه الفتى أمْنــا[١٠]

---

(١) صرَّح: ظهر وبرز. يقول: إذا صار الموت صريحاً توسلنا إلى بغيتنا الضرب والطعن وقاءً لنا منه.

(٢) هلمنّا: هلمّي إلينا.

(٣) أراد بالخيل: خيل العدو. حشوناها الأسنة: جعلنا الأسنة حشواً لها. تكدسن: اجتمعن علينا. من هنّا: من هنا ومن هنا.

(٤) أي لما رأى الروم عسكر سيف الدولة ظنوهم روماً فحثوا خيلهم نحوهم فلما تحققوا الأمر ولوا هاربين.

(٥) تعدّ: تجاوز. نبارِ: نسابق. يقول لسيف الدولة تجاوز القرى إلى الصحراء وحارب بنا جيش الروم فسوف نسابق يدك اليمنى لبلوغ ما تريد.

(٦) اللقان: موضع بالروم. أي لقد برد ما سفكناه من دمائهم في ذلك الموضع وعادتنا أن نتبع البارد من دمائهم السخن.

(٧) العضب: القاطع. القنا اللدن: الرماح اللينة.

(٨) لا نأتلي: لا نقصر.

(٩) اللها: العطايا. يقول: لولاك لم تكن شجاعة ولا جود.

(١٠) يقول: الخوف على الحقيقة: ما يراه الإنسان خوفاً فإن خاف شيئاً غير مخوف صار خوفاً، وإن أمن غير مأمون فقد تعجل الأمن.

وكان سيف الدولة عازماً على متابعة هجومه حتى خرشنة، ولكن الشتاء عاقه عن الوصول إليها، فالدرب غير سالكة؛ لذا قرَّر العودة إلى حلب عن طريق آمد. فقال المتنبي يمدحه، ويذكر الواقعة:

عواذلُ ذاتِ الخـال فـيَّ حَواسِـدُ ... وإنَّ ضجيعَ الخَوْدِ منـي لماجِـدُ[1]
يردُّ يداً عـن ثوبهـا وهـو قـادِرٌ ... ويَعْصِي الهوى في طيفها وهو راقِدُ[2]
متى يشتفي من لاعج الشوقِ فـي الحشا ... مُحِبٌّ لهـا فـي قربـه مُتباعِـدُ[3]
إذا كنت تخشى العارَ في كل خَلْـوةٍ ... فلِمْ تتـصبَّاكَ الحسانُ الخرائـدُ[4]
ألـحّ علـيّ السُّقْمُ حتـى أَلِفْتُـهُ ... وملّ طبيبـي جـانبي والعوائـدُ[5]
مَرَرْتُ على دارِ الحبيب فحَمْحَمَـت ... جوادي وهل تشجو الجيادَ المعاهـدُ[6]
وما تُنكِرُ الدهماءُ من رسم منـزلٍ ... سَقَتْها ضريبَ الشَّول فيها الولائدُ[7]
أهـمُّ بـشيءٍ والليـالي كأنهـا ... تُطاردني عـن كونـه وأُطـاردُ[8]
وحيدٌ من الخُلَّان فـي كـلّ بلـدةٍ ... إذا عَظُم المطلـوبُ قـلَّ المُـساعدُ
وتُسعِدُني في غَمْـرةٍ بعـد غَمْـرةٍ ... سَبوحٌ لها منها عليهـا شـواهِدُ[9]

---

(١) الخود: المرأة الناعمة. يقول: إن من يعذلن تلك المرأة يحسدنها عليّ لأنها ظفرت مني بضجيع ماجد.

(٢) يردُّ يداً عن ثوبها: إشارة إلى عفافه عنها.

(٣) اللاعج: المحرق. يقول: متى يجد المحب الشفاء من الشوق لهذه المحبوبة وهو إذا دنا منها بشخصه نأى عنها بعفافه.

(٤) تتصبَّاك: تدعوك إلى الصبوة. الخرائد: الحييَّات.

(٥) العوائد: العُوَّاد.

(٦) الحمحمة: دون الصهيل. وشجاه: أحزنه. المعاهد: ديار الأحبة.

(٧) الدهماء: فرسه. الضريب: اللبن يحلب من عدة لقاح. الشَّول: النياق التي بعد عهدها بالنتاج فجف لبنها. الوليدة: الجارية التي تخدم.

(٨) عن كونه: عن حصوله. يقول: أريد الأمر الخطير والليالي تحول بيني وبينه.

(٩) الغمرة: الشدّة. السبوح: الفرس.

تَثنّى علـــى قَـــدْرِ الطعـــانِ كأنمـــا مفاصلُها تحت الرمـــاحِ مـــراوِدُ[١]

مُحرَّمةٌ أَكفالُ خيلـــي علـــى القنـــا مُحلَّلـــــةٌ لَبَّاتُهـــــا والقلائـــــدُ[٢]

وأَوردُ نفسي والمهنَّـــدُ فـــي يـــدي موارِدَ لا يُصدِرْنَ مَـــنْ لا يُجالِـــدُ[٣]

ولكن إذا لـــم يحمـــلِ القلـــبُ كفَّـــهُ على حالةٍ لم يحمِلِ الكفَّ ســـاعِدُ[٤]

خليليّ إنـــي لا أرى غيـــرَ شـــاعرٍ فَلِمْ مِنهُمُ الدعوى ومنّي القصائدُ[٥]

فـــلا تعجبـــا إن الـــسيوف كثيـــرةٌ ولكن سيفَ الدولةِ اليـــومَ واحـــدُ[٦]

له من كريم الطبعِ في الحرب مُنْـتضٍ ومن عادةِ الإحسانِ والصفحِ غامِـــدُ[٧]

ولمـــا رأيـــتُ النـــاسَ دونَ محلِّـــه تَيقَّنْتُ أَنَّ الـــدهرَ للنّـــاسِ ناقِـــدُ[٨]

أَحقُّهمُ بالسيف من ضَـــرَبَ الطُّلَـــى وبالأَمْنِ من هانت عليه الـــشدائدُ[٩]

وأَشقى بلادِ اللهِ ما الـــرومُ أهلُهـــا بهذا وما فيها لمجـــدِك جاحِـــدُ[١٠]

---

(١) المراود: جمع مرود وهو حديدة تدور في اللجام. يقول إن هذه الفرس للين مفاصلها تميل مع الرماح كيفما اتجهت.

(٢) الأكفال: الأعجاز. اللّبات: أعالي الصدور. القلائد: مواضع القلائد من الأعناق. أي إنه يواجه العدو، ولا يعرف الهرب.

(٣) يقول: أورد نفسي في الحرب موارد مهلكة لا ينجو منها من لم يكن شجاعاً مثلي.

(٤) يقول: إن قوة الضرب إنما تكون بالقلب لا بالكف، فإذا لم تقوا الكف بقوّة القلب، لم تقو بقوة الساعد.

(٥) يشكو من أدعياء الشعر وهو الشاعر الوحيد بينهم لأن كلامهم لا يستحق أن يسمّى شعراً.

(٦) يقول: إنه في الشعراء كسيف الدولة في السيوف فكلاهما منقطع النظير.

(٧) انتضى السيف: سله. يقول: ينتضيه في الحرب كرم طبعه، وما خصّه الله به من الشجاعة، ولا يغمده إلاّ الإحسان والعفو.

(٨) ناقد لهم: يعطي كلاً على قدر ما يستحقه.

(٩) الطُّلى: الأعناق. أي أحق الناس بتقلّد السيف من كان ضارباً للأعناق، وأحقهم بالأمن من هانت عليه الشدائد وغمرات الحروب.

(١٠) بهذا: أي بكونك تضرب الأعناق ولا تكترث لغمرات الحروب، ومع هذا فهم معترفون بسطوتك وإقدامك.

شَنَنْتَ بها الغاراتِ حتى تركتَها وجَفْنُ الذي خلفَ الفرنجةِ ساهدُ
مُخضَّبةٌ والقومُ صرعى كأنها وإن لم يكونوا ساجدين مساجِدُ[١]
تُنكِّسُهم والسابقاتُ جبالُهم وتَطْعُنُ فيهم والرماحُ المكَايِدُ[٢]
وتضْرِبُهم هَبْراً وقد سكنوا الكُدى كما سكنت بطنَ الترابِ الأساودُ[٣]
وتُضْحي الحصونُ المُشْمَخِرَّاتُ في الذُّرا وخيلُك في أعناقهنّ قلائدُ
عَصَفْنَ بهم يومَ اللُّقانِ وسُقْنَهم بِهِنْزِيطَ حتى ابيضَّ بالسبي آمِدُ[٤]
وأَلْحقْنَ بالصَّفْصاف سابورَ فانهوى وذاق الردى أهلاهُما والجلامِدُ[٥]
وَغَلَّس في الوادي بهنَّ مُشَيَّعٌ مُباركُ ما تحت اللِّثامين عابدُ[٦]
فتىً يشتهي طولَ البلادِ ووقتِه تضيقُ به أوقاتُه والمقاصِدُ[٧]
أخو غَزَواتٍ ما تُغِبُّ سيوفُهُ رقابَهُمُ إلاَّ وسَيْحانُ جامِدُ[٨]
فلم يبقَ إلاّ مَنْ حماها من الظُّبا لمى شفتيها والثُّديُّ النواهِدُ[٩]

---

(١) يقول: إن بلادهم ملطخة بدمائهم. مساجد: جمع مسجدة وهي السجّادة.

(٢) تنكسهم: تنزلهم منكوسين من جبالهم التي تحصنوا بها، وتأتي عليهم بكيدك.

(٣) الهبر تقطيع اللحم. الكدى: جمع كدية وهو الأرض الصلبة. الأساود: الحيات العظيمة.

(٤) اللقان وهنزيط: من بلاد الروم. والضمير في عصفن عائد على خيل سيف الدولة. ابيض بالسبي آمد: لكثرة من حصل بها من الأسرى.

(٥) الصفصاف وسابور: حصنان منيعان للروم. انهوى: سقط. وهلك أهل الحصنين وحجارتها.

(٦) غلّس: سار في الغلس أي في آخر الليل. بهن: بالخيل. المشيّع: المقدام. اللثام: ما يكون على الوجه. واللثام الثاني: ما يرسله على الوجه من حلق المغفر. والمبارك والعابد سيف الدولة.

(٧) أي يتمنى أن تكون البلاد أوسع مما هي والزمان أطول لأن الأوقات تضيق بما يريد.

(٨) أغبّ عنهم: جاءهم يوماً وغاب عنهم يوماً. أي لا تفارق سيوفه رقابهم إلاّ إذا اشتد البرد وجمدت أنهارهم.

(٩) الظُبا: جمع ظبة: حد السيف. اللمى: سمرة مستملحه في الشفة. يقول: إنه عصف بالروم وأتى عليهم فلم يبق منهم إلاّ النساء.

تُبكِّي عليهنّ البطاريقُ في الدُّجى وهنَّ لدينا مُلْقَياتٌ كواسِدُ[1]

بذا قضتِ الأيامُ ما بين أَهلِها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

ومن شَرَفِ الإقدامِ أَنك فيهمُ على القتلِ مَوْموقٌ كأنَّك شاكدُ[2]

وأن دماً أجريتَهُ بك فاخرٌ وأن فؤاداً رُعْتَه لكَ حامِدُ

وكلٌّ يرى طُرْقَ الشجاعةِ والندى ولكنَّ طبعَ النفسِ للنفسِ قائدُ[3]

نهبتَ من الأَعمار مالَوْحَوَيْتَهُ لَهُنِّئتِ الدنيا بأنك خالِدُ[4]

فأنتَ حُسامُ المُلْكِ واللهُ ضاربٌ وأنت لواءُ الدين واللهُ عاقِدُ

وأنتَ أبو الهيجا ابنُ حمدانِ يا ابنَهُ تَشابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالِدُ[5]

وحمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ وحارثُ لقمانٌ ولقمانُ راشِدُ[6]

فإن قليلَ الحبّ بالعقلِ صالحٌ وإن كثيرَ الحبّ بالجهلِ فاسِدُ[7]

ولا يُخفي المتنبي في هذه القصيدة استياءه ممَّن يهدّدون مكانته لدى سيف الدولة وفي مقدمتهم أبو فراس. وفي قوله:

خليليَّ إني لا أرى غيرَ شاعرٍ فَلِمْ منهمُ الدعوى ومنِّي القصائدُ

---

(١) البطاريق: قادة الروم. فهم يبكونهن لأنهن أسيرات. كواسد: لا يُرغب فيهن.

(٢) موموق: محبوب: الشاكد: المعطي. يقول أنت على قتلك إياهم محبوب فيما بينهم حتى لكأنك تعطيهم شيئاً. لأن الشجاع محبوب حتى عند من يقتله!

(٣) يقول: إن كل أحد يعرف طرق الشجاعة والكرم ولا يسلك طريقهما إلا من قادته نفسه وطبيعته إليهما.

(٤) قال الواحدي: هذا من أحسن ما مدح به ملك وهو مديح موجّه - أي ذو وجهين - وذلك أنه مدحه في المصراع الأول بالشجاعة وكثرة قتل الأعداء. وجعله في المصراع الثاني جمالاً للدنيا تهنأ ببقائه فيها.

(٥) أبو الهيجاء: والد سيف الدولة، والهيجاء: الحرب. يريد قوة الشبه بينه وبين والده حتى كأنه هو.

(٦) هؤلاء آباء سيف الدولة أي كل واحدٍ من آبائك يشبه أباه في كرمه وسائر محاسنه.

(٧) الجهل: الحمق. يريد أنا أحبك - يا سيف الدولة - بعقل فينتفع بي، وغيري يحبك بجهل فلا ينتفع به.

ما يُشير إلى بداية تذمُّره من كيد الحاسدين، وإفساد العلاقة الحميمة التي تربطه بسيف الدولة.

ولكن سيف الدولة انصرف بعض الشيء عن شاعره، وقرّب بعض خصومه، فأبطأ المتنبي في مدح الأمير، ثم أنكر الأميرُ ذلك منه، وأظهر غضبه في محضرٍ من الناس، فخجل المتنبي واستدرك الأمر، فأرسل إلى سيده الأبيات التالية:

أرى ذلك القربَ صار ازورارا ... وصار طويلُ السلام اختصارا

تَركْتَنِيَ اليومَ في خَجْلَةٍ ... أمُوتُ مراراً واحيا مرارا

أُسارِقُك اللَّحْظَ مستحيياً ... وأزجرُ في الخيل مهري سِرارا

وأعلمُ أني إذا ما اعتذرتُ ... إليك أراد اعتذاري اعتذارا

كفرتُ مكارمَك الباهراتِ ... إنْ كان ذلك منّي اختيارا

ولكن حَمى الشعرَ إلاّ القليلَ همٌّ حمى النومَ إلاّ غِرارا

وما أنا أَسْقمتُ جسمي به ... وما أنا أَضْرمتُ في القلب نارا

فلا تُلزِمَنّي ذنوبَ الزمانِ ... إليّ أساء وإيَّاي ضارا

وعندي لك الشُّرَّدُ السائرا ... تُ لا يَخْتَصِصْنَ من الأرضِ دارا

قوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْولي ... وَثَبْنَ الجبالَ وخُضْنَ البحارا

ولي فيك ما لم يقل قائلٌ ... وما لم يَسِر قمرٌ حيث سارا

فلو خُلِقَ الناسُ من دهرهم ... لكانوا الظلامَ وكنتَ النهارا

أشدُّهمُ في الندى هِزَّةً ... وأبعدُهم في عدوٍّ مُغَارا

سما بكَ همّيَ فوق الهموم ... فلستُ أعدُّ يساراً يسارا

ومَنْ كنتَ بحراً له يا علَيٌّ لم يقبلِ الدُّرَّ إلاّ كبارا

فالشاعر يشير إلى ازورار الأمير عنه، ويعترف بذنبه، ثم يعتذر منه، فهو لم يتعمّد ذلك وإنما اضطرته إلى ذلك هموم ومشاغل صرفته عن الالتفات إلى سيده. ثم يؤكد له أنه لم يوفِّه حقَّه من المدح، لذا فهو يَعِدُهُ بالكثير؛ على الرغم من أن ما قاله فيه سار حيث لم يستطع القمر أن يسير. ومع ذلك فهو لم ينل عطف الأمير؛ لذلك آثر أن يُلَقِّنَ حُسَّادَهُ درساً لعله يستعيد ثقة أميره به ومحبته له؛ فأنشده ميميته الرائعة التي سترد لاحقاً.

وفي شهر رمضان سنة ٣٤٠هـ توفي يَماك الخصيّ التركي الذي كان من خيرة قادة سيف الدولة، فنظم أبو الطيب قصيدةً بائية تجمع بين الرثاء والمدح والحكمة، حيث يقول:

لا يُحــزِنُ اللهُ الأميــرَ فــإنني	**ســآخُذُ مــن حالاتــه بنــصيبِ**
ومَنْ سرَّ أَهلَ الأرضِ ثمَّ بكى أَسىً	**بكــى بعيــونٍ سَــرَّها وقلــوبِ**
وإنــي وإن كــان الــدفينُ حبيبَــهُ	**حبيبٌ إلــى قلبــي حبيــبُ حبيبــي**
وقد فــارق النــاسُ الأحبَّــةَ قبلَنــا	**وأعيــا داوءُ المــوتِ كــلَّ طبيــبِ**
سُبقنا إلى الدنيا فلو عــاش أَهلُهــا	**مُنِعْنا بهــا مــن جَيْئَــةٍ وذُهــوبِ**
تملَّكهــا الآتــي تملُّــكَ ســالبٍ	**وفارقها الماضــي فــراقَ ســليبِ**
ولا فضلَ فيها للــشجاعةِ والنــدى	**وصبرِ الفتى لولا لقــاءُ شَــعُوبِ[1]**
وأَوفى حيــاةِ الغــابرين لــصاحبٍ	**حياةُ امرئٍ خانته بعــدَ مَــشيبِ[2]**
لَأَبقى يَماكٌ فــي حَــشايَ صــبابةً	**إلى كل تُركــيِّ النِّجــارِ جَليــبِ[3]**
وما كــلُّ وجــهٍ أَبــيضٍ بمُبــاركٍ	**ولا كــلُّ جَفْــنٍ ضــيِّقٍ بنجيــبِ[4]**

---

(١) شعوب: من أسماء المنيّة لأنها تفرق.

(٢) الغابر: الماضي. يقول إن الحياة لا بدّ من أن تغدر بصاحبها فهي لا محالة - وإن طالت - مفارقته. ولكن أوفاها التي تصحبه إلى وقت المشيب.

(٣) لأبقى: جواب قسم محذوف، (والله لأبقى) الصبابة: الميل. والنجار: الأصل.

(٤) يقول: إنه يحب لأجله الترك، والترك يوصفون ببياض الوجوه وضيق الجفون فهو يحبهم لأنهم يشبهونه في الصورة وإن لم يشبهوه في اليمن والنجابة.

لَـئن ظهـرت فينـا عليـه كآبـةٌ — لقد ظهرت في حدّ كـل قـضيبِ[١]
وفي كُلِّ قوسٍ كـلَّ يـومِ تَناضُـلٍ — وفي كُلّ طِرْفٍ كُلَّ يـومِ رُكُـوبِ[٢]
يَعِـزُّ عليـه أن يُخِـلَّ بعـادةٍ — وتدعو لأمرٍ وهو غيـرُ مُجيـبِ[٣]
وكنـتُ إذا أبـصرتُه لـك قائمـاً — نظرتُ إلـى ذي لِبْـدتينِ أَديـبِ[٤]
فإن يَكُنِ العِلْـقَ النفـيسَ فقدتَـهُ — فمن كـفّ مِـتْلافٍ أغـرَّ وَهـوبِ
كأنّ الردى عادٍ علـى كـلّ ماجـدٍ — إذا لـم يُعـوِّذ مجـدَهُ بعيـوبِ[٥]

إلى أن يقول:

كفـى بـصفاء الـودّ رِقًّـا لمثلـهِ — وبـالقربِ منـه مَفْخـراً للبيـبِ[٦]
فعُوِّض سيفُ الدولـةِ الأجـرَ إنـه — أجلُّ مُثَـابٍ مـن أجـلِ مُثيـبِ[٧]
فتى الخيلِ قد بلّ النجيـعُ نُحورَهـا — يُطاعنُ في ضَنْكِ المُقامِ عـصيبِ[٨]
يعاف خيامَ الـرَّيطِ فـي غزواتِـه — فمـا خَيْمُـه إلاّ غبـارُ حـروبِ[٩]

---

(١) و (٢) القضيب: السيف القاطع. والتناضل: الترامي بالسهام. والطرف: الفرس الكريم. يقول: لم يكن الحزن عليه مقصوراً علينا بل حزنت عليه السيوف والقسي والخيل.

(٣) أن يخل بعادة: أي يغير عادته في خدمتك.

(٤) أي كان يجمع بين الأدب في الخدمة وقوة الأسد لدى البأس.

(٥) يقول: لا يسلم الشريف من نوائب الدهر حتى يجعل لشرفه رقية من العيوب وأنت لا عيب فيك لذا أصابك الدهر بمن تحب.

(٦) يقول: إن سيف الدولة استعبد الناس بمحضهم الود فاسترقهم بالإحسان إليهم.

(٧) يدعو لسيف الدولة بأن يعوضه الله الأجر من يماك، فإن الأجر أجلّ ثواب من أجل مثيب هو الله سبحانه.

(٨) فتى الخيل : سيف الدولة. يقول: إن سيف الدولة إذا بلت الدماء نحور الخيل فهو فتاها الثابت في الطعان.

(٩) خيام الريط: الخيام المتخذة من النسيج اللين . أي إنه يستظل بغبار الحروب.

علينا لك الإسـعادُ إن كـان نافعـاً　　　بشقّ قلـوبٍ لا بـشقّ جيـوبِ[1]
فُربَّ كئيبٍ لـيس تَنْـدى جُفُونُـه　　　وربَّ كثيـرِ الـدمع غيـرُ كئيـبِ
تَـسلَّ بفكـرٍ فـي أَبَيْـكَ فإنمـا　　　بكَيْتَ فكان الضِّحْكُ بعـدَ قريـبِ[2]
وكم لكَ جَدًّا لم ترَ العـينُ وجهَـهُ　　　فلم تَجْـرِ فـي آثـاره بغُـروبِ[3]
فـدتك نفـوسُ الحاسـدين فإنهـا　　　مُعذَّبـةٌ فـي حـضرةٍ ومغيـبِ

استرداد مرعش وإعادة بنائها:

إن الحملة التي شنها سيفُ الدولة على الروم سنة ٣٣٩هـ والتي انتهت بانسحابه المفجع، وعجزه عن اجتياز المضائق بين البستان ومرعش التي كانت قلعتها آنئذٍ بيد الروم، جعلت سيفَ الدولة أكثر تصميماً على استعادة هذه القلعة. ففي الشهر الأول من سنة ٣٤١هـ هاجمها بضراوة، وتمكن من الاستيلاء عليها. ومرعش مدينة من مدن الثغور. لها سوران وخندق. وفي وسطها حصن عليه سور يُعرف بالمرواني بناه الخليفة الأموي مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار، ثم أَحدث الرشيدُ بعده سائرَ المدينة، وبها ربَضٌ يُعرف بالهارونية، وهو مما يلي باب الحدث. وقد ذكرها شاعر الحماسة فقال:

فلـو شَـهِدَتْ أُمُّ القُديـدِ طعانَنَـا　　　بمـرعشَ خيـلَ الأَرمنـيّ أَرنَّـتِ
عَـشيَّةَ أرمـي جمعَهـم بِلَبَانِـه　　　ونفـسي وقـد وطّنتُهـا فاطمأنَّـتِ

وكان الروم قد أخربوا هذه المدينة سنة ٣٣٧هـ فأعاد سيفُ الدولة بناءها سنة ٣٤١. وجاء الدمستق ليمنعه من ذلك؛ فقصده سيف الدولة فولّى هارباً، وتمَّم سيفُ الدولة عمارتها. فقال أبو الطيب يمدحُه ويذكر هذه الواقعة:

---

(١) الإسعاد: الإعانة.

(٢) أَبَيك: أبواك.

(٣) الغروب: الدمع جمع غرب.

فَدَيْناكَ من رَبْعٍ وإن زِدْتَنــا كَرْبــا ... فَإنكَ كنتَ الشرقَ للشّمسِ والغربا[1]
وكيف عرفنا رسمَ مَنْ لا يَــدَعْ لنــا ... فؤاداً لعرفــانِ الرســومِ ولالُبَّــا[2]
نزلنا عن الأكوار نمــشي كرامــةً ... لمن بان عنه أن نُلِمَّ بــه رَكْبــا[3]
نذمُّ السحابَ الغُرَّ فــي فعلهــا بــه ... ونُعرِضُ عنها كلَّما طلعَت عَتْبَــا[4]
ومن صَحِبَ الدنيا طــويلاً تقلَّبــتُ ... على عينه حتى يرى صدقَها كِــذْبا
وكيف التذاذي بالأصائلِ والــضحى ... إذا لم يَعُدْ ذاكَ النسيمُ الــذي هَبَّــا
ذكرتُ به وصلاً كــأَنْ لــم أَفُزْبــهِ ... وعيشاً كأَني كنــتُ أَقْطَعُــه وَثْبــا
وفتَّانــةَ العينــين قتَّالــةَ الهــوى ... إذا نفحتَ شــيخاً روائحُهــا شــبَّا

ثم يقول:

ولستُ أُبالي بعــدَ إدراكــيَ العُــلا ... أكان تُراثاً مــا تناولــتُ أم كَــسْبا
فَربَّ غــلامٍ علَّــم المجــدَ نَفْــسَهُ ... كتعليم سيفِ الدولةِ الطعنَ والضربا[5]
إذا الدولةُ استكفت به فــي مُلِمَّــةٍ ... كفاها فكان السيفَ والكفَّ والقلبا[6]

---

(١) الربع: المنــزل. وأراد بالشمس: الحبيب الذي يخرج من الربع ويعود إليه.

(٢) يتعجب من معرفته آثار ديار الحبيب بعد أن سلبه قلبه وعقله، ولم يدع له سبيلاً إلى إدراك الأشياء.

(٣) الأكوار: جمع كور وهو رحل البعير. يقول: لما أتينا هذا الربع ترجَّلنا عن رواحلنا كرامة للحبيب الذي كان فيه، ثم ارتحل عنه.

(٤) السحاب الغر: البيض لأنها كثيرة الماء. يقول: ذممنا السحاب لأنها عفت الربعَ وغيّرت معالمه بما ينهلّ منها من المطر، وإذا طلعت عليه أعرضنا عنه عتباً عليها لفْعلها بالرسوم ما فعلت من التعفية.

(٥) ربّ غلام: يعني نفسه. يقول: يمكن للمرء أن يعلّم نفسه المجد، وإن لم يكن له من يعلّمه، كما علّم سيف الدولة نفسه الطعن والضرب بشجاعته وحذقه.

(٦) يقول: إن الدولة إذا استعانت به في الملمات كفاها، وبلغت به ما تريد، فكان سيفاً على الأعداء، وكفاً تضرب بها، وقلباً تقتحم به الأهوال.

تُهابُ سيوفُ الهنـدِ وهـي حدائـدٌ فكيف إذا كانـت نِزاريَّـةً عُرْبَـا[١]
ويُرهَبُ نابُ الليَّثِ واللَّيـثُ وحـدَهُ فكيف إذا كان اللَّيوثُ لـه صَـحْبا
علـيمٌ بأسـرارِ الـدياناتِ واللُّغَـى له خَطراتٌ تفضحُ النـاسَ والكُتْبـا
هنيئاً لأهـل الثغـر رأيُـك فـيهم وأَنكَ حِزْبَ اللهِ صِرْتَ لهـم حِزْبـا
وأَنكَ رُعْتَ الـدهرَ فيهـا ورَيْبَـه فإن شكَّ فليُحدِث بساحتها خَطْبـا[٢]
فيوماً بخيلٍ تَطْـردُ الـرومَ عـنهم ويوماً بجودٍ يَطردُ الفَقْـرَ والجَـدْبا
سراياكَ تترى والدمـستقُ هـاربٌ وأصحابُه قتلى وأموالُـه نُهْبـى[٣]
أَتى مَرْعشاً يستقرِبُ البعـدَ مُقْـبِلاً وأَدبر إذْ أَقْبَلْتَ يَـستْبعِدُ القُرْبـا[٤]
وهـل رَدَّ عنـه باللُّقـانِ وقوفُـهُ صدورَ العوالي والمَطهَّمَةَ القُبَّـا[٥]
مضى بعد ما التفَّ الرماحان ساعةً كما يتلقَّى الهُدْبُ في الرَّقْدةِ الهُدْبا[٦]
ولكنـه ولَّـى وللطعـنِ سَـوْرةٌ إذا ذَكرتْها نَفْسُه لَمـسَ الجَنْبَـا[٧]

---

(١) يقول: السيوف تهاب مع أنها حديد لا يعقل. فكيف إذا كانت عربية نزارية كسيف الدولة العربي النـزاري.

(٢) رُعت الدهر: أفزعته. وريب الدهر: صروفه وحوادثه. والمراد: أن سيف الدولة فعل في الأرض أفعالاً أفزعت الدهر، فإن شك الدهر في قولي فليُحدث في الأرض خطباً.

(٣) تترى: متواترة متتابعة.

(٤) يقول: أتى الدمستق هذا الثغر مبتهجاً يجد البعيد قريباً، فلما أقبلت عليه ولّى مدبراً وهو يرى القريبَ بعيداً خوفاً من أن تدركه.

(٥) اللقان: ثغر ببلاد الروم (الأناضول) والعوالي: الرماح. والخيل المطهمة: التامة الخلق. والقُبّ: جمع أقب، وهو الضامر البطن يقول: كان الدمستق قد أقام باللقان، فلما أقبل سيف الدولة انهزم، فهل أغنى عنه وقوفه، وهل ردّت عنه الرماح، والخيل العتاق؟

(٦) الرماحان: رماح الفريقين والهدب: أشفار العين. يقول: انهزم بعد أن تشاجرت الرماح ساعةً كما تختلط الأهداب الأعالي بالأسافل عند الرقاد.

(٧) السورة: الحدّة. يقول: ولكنه انهزم وللطعن في أصحابه حدّة إذا تذكرها لمس جنبه قائلاً: هل أصابه شيء منه؟ أي إنه انهزم مرعوباً مدهوشاً.

وخلَّى العذارى والبطاريقَ والقُــرى | وشُعْثَ النصارى والقرابينَ والصُّلْبا[(١)]
أَرى كُلَّنـــا يبغــي الحيـــاةَ لنفـــسِهِ | حريصاً عليها مُسْتهاماً بهـــا صَـــبَّا
فحبُّ الجبانِ الـــنفسَ أَورده التُّقـــى | وحبُّ الشجاعِ النَّفْسَ أَورده الحَرْبا[(٢)]
ويختلف الرزقـــان والفعـــلُ واحـــدٌ | إلى أن يُرى إحسانُ هذا لذا ذَنْبـــا[(٣)]
فأضحت كأنَّ السُورَ من فوقِ بدئـــهِ | إلى الأرض قد شقَّ الكواكبَ والتُّرْبا[(٤)]
تَصُدُّ الرياحُ الهوجُ عنهـــا مخافـــةً | وتفزعُ منها الطيرُ أن تَلْقُـــطَ الحبَّـــا
وتَرْدِي الجيادُ الجُرْدُ فـــوق جبالهـــا | وقد نَدَفَ الصِّنَّبْرُ في طُرْقها العُطْبـــا[(٥)]
كفى عجباً أن يعجبَ النـــاسُ أنَّـــه | بنـــى مرعـــشاً تَبَّـــا لآرائهـــم تَبَّـــا
وما الفرقُ ما بـــين الأَنـــامِ وبينَـــهُ | إذا حَذِر المحذورَ واستصْعَبَ الصعبا
لِـــأَمْرٍ أَعدتْـــهُ الخلافـــةُ للعـــدا | وسمَّتْهُ دون العالَمِ الصارمَ العَـضْبا

وفي أوائل سنة ٣٤١هـــ أخذت تظهر بوادر التنافر بين سيف الدولة وشاعره أَبي الطيب لأَسبابٍ يصعب حَصْرُها، ولكنّ المرجَّح أنَّ من أهم هذه الأسباب تعاظُمَ المتنبي، وكبرياءه واعتداده المفرط بنفسه؛ وهو ما أغاظ سيف

---

(١) يقول: إنه انهزم لا يلوي على شيء، وترك هؤلاء خلفه لهول ما رأى.

(٢) التُّقَى: جمع تُقاة وهي الخشية والخوف. يقول: كل من الجبان والشجاع سواء في حب النفس وإن اختلف فعلهما، فالجبان يتقي الحرب حباً لنفسه، وإبقاءً عليها والشجاع يقدم على الحرب دفاعاً عن نفسه وذوداً عن مهجته لأنه يخاف على نفسه العدو إن هو قعد عن الحرب.

(٣) يقول: إن الرجلين ليفعلان فعلاً واحداً؛ فيرزق أحدهما بذلك الفعل، ويُحرم الثاني حتى كأن إحسان المرزوق ذنب للمحروم.

(٤) أضحت: أي قلعة مرعش. أراد كأن سورها من أعلى ابتدائه قد شق الكواكب في علوه في السماء، وشق التراب في رسوخه في الأرض.

(٥) تردي: من الرديان وهو ضرب من العدو ترجم الجياد الأرض بحوافرها. والجرد: القصار الشعر. والصنبر: السحاب البارد الريح في غيم. والعطب: القطن. يقول: خيلك تعدو فوق جبال هذه القلعة وقد امتلأت طرقها بالثلج الذي كأنه قطن مندوف.

الدولة، وأغرى حُسَّادَه بالنيل منه لدى الأمير الذي ضاق ذرعاً بشاعره، فهو لا يقول فيه القصيدة إلاّ بعد أن يطلبها ويستعجلَها أَشْهراً طِوالاً. وكان سيفُ الدولة إذا تأخر المتنبي عن مدحه «شقَّ عليه، وأكثر أَذاه، وأحضر من لا خيرَ فيه، وتقدَّم إليه بالتعرُّض له في مجلسه بما لا يُحبُّ، فلا يُجيب أَبو الطيّب أحداً عن شيء؛ فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة...»[1].

وكان أبو فراس من أَبرز الحاقدين على المتنبي إذ قال لسيف الدولة: «إن هذا المتشدِّقَ كثيرُ الإدلال عليك، وأنت تُعطيه كلَّ سنة ثلاثةَ آلافِ دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أَن تُفرِّق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره، فتأثَّر سيفُ الدولة من هذا الكلام، وعمل فيه، وكان المتنبّي غائباً، وبلغتْه القصةُ فدخل على سيف، وأنشد»[2]:

أَلاَ مالِسيفِ الدولـــةِ اليــومَ عاتبــا	**فَدَاه الورى أَمضى السيوفِ مضاربا**
ومالي إذا ما اشتقتُ أَبصرتُ دونَــه	**تنَــــائفَ لا أَشْـــتاقُها وسَباسِـــبا**[3]
وقد كان يُدني مجلسي من سَـمائه	**أُحادثُ فيهــا بَــدْرَها والكواكبــا**[4]
حنانَيْـــكَ مـــسؤولاً ولبيَّـــكَ داعيــاً	**وحَسْبِيَ موهوباً وحَسْبُك واهبــا**[5]
أَهذا جَزاءُ الصدقِ إن كنتُ صــادقاً	**أَهذا جزاءُ الكِذْبِ إن كنتُ كاذبــاً**[6]
وإن كان ذنبـــي كـــلَّ ذنـــبٍ فإنــه	**محا الذنبَ كلَّ المحوِ مَنْ جاء تائبــاً**[7]

---

(١) مقدمة شرح ديوان المتنبي ص ٤٢ (من شرح ابن جني)

(٢) الصبح المنبي ص ٨٧ - ٨٨.

(٣) تنائف: جمع تنوفة وهي المفازة. والسباسب: جمع سبسب وهي الفلاة القفر يقول: مالي إذا اشتقت إليه حالت بيني وبينه فلوات بعيدة الأطراف من تجافيه واستيحاشه؟.

(٤) شبه مجلسه بالسماء وجعله بدراً وحوله الكواكب من ندمائه وأهل مجلسه.

(٥) حنانيك: حنان بعد حنان، ومثلها لبيك من لبَّ به إذا لزمه. أي اشملني بعطفك وحنانك إذا كنت مسؤولاً ولك الإجابة إذا دعوتني لأمر، وأشكر من يهبني وأشيد بذكره، وكفى بك واهبا.

(٦) أي إن كنت صادقاً في مديحك فليس ما تعاملني به جزاء لصدقي، وإن كنت كاذباً فليس هذا جزائي لأني إن كذبت تجمّلاً في القول فجاملني في المعاملة.

(٧) هذا المعنى مأخوذ من الحديث الشريف: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

وأطرق سيفُ الدولة بعد سَماعه هذه المقطوعة، ولم ينظر إلى أبي الطيب كعادته، فخرج من عنده متغيِّراً، وحضر أَبو فراس وجماعةٌ من الشعراء، فبالغوا في الوقيعة في حَقِّ المتنبي الذي انصرف لإعداد قصيدته الميمية التي أنشدها في محفلٍ من العرب، فأثارت جدلاً في مجلس سيف الدولة، وتصدى أبو فراس لنقده وتحفَّز شانئوه للانتقام منه حيث قال:

واحــرَّ قلبــاهُ ممَّــن قلبُــه شَـبِمُ ... ومن بجسمي وحالي عنده سَـقَمُ(١)
مالي أُكتِّم حُبًّا قــد بَــرى جـسدي ... وتَدَّعي حُبَّ سيفِ الدولةِ الأُمَــمُ(٢)
إن كــان يجمعُنــا حُــبٌّ لغُرَّتــهِ ... فليت أنَّا بقَــدْرِ الحــبِّ نقتـسِمُ(٣)
قد زُرْتُه وسـيوفُ الهنـدِ مُغْمَـدةٌ ... وقد نظرتُ إليــه والـسيوفُ دَمُ(٤)
فكــان أحــسنَ خَلْــقِ الله كلِّهــم ... وكان أَحْسَنَ ما في الأَحسنِ الشِّيَمُ(٥)
يا أَعدلَ النــاسِ إلاّ فــي معــاملتي ... فيكَ الخصامُ وأنت الخصمُ والحكـمُ
أُعيــذُها نظــراتٍ منــكَ صــادقةً ... أن تحسِبَ الشحْمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخــي الـدنيا بنـاظره ... إذا استوت عنده الأنــوارُ والظُلَــمُ
سيعلَمُ الجمعُ ممّن ضــمَّ مجلــسُنا ... بأنني خيرُ مــن تــسعى بــه قَــدَمُ
أنا الذي نظر الأعمــى إلــى أدبــي ... وأسمعت كلماتي مَنْ بــه صَــمَمُ(٦)

---

(١) الشبم: البارد أي إن قلبه يحترق حباً وهياماً، وقلب سيف الدولة بارد لا يحفل به.

(٢) براه: أنحله وأضناه. يقول: إذا كان الناس يدعون حُبّه، ويظهرون خلاف ما يُضمرون، فلِم أخفي أنا حبه الذي برَّح بي وأسقمني؟

(٣) الغُرَّة: الطلعة. يقول: إن كان يجمعني وغيري محبته فليتنا نقتسم برَّه كما نقتسم حبه.

(٤)(٥) يقول: إنه خدمه في السلم والحرب. فكان في الحالين أحسن الناس.

(٦) يقول: إن الأعمى أبصر أدبي، والأصم سمع شعري. يعني أن شعره سار في الآفاق واشتهر حتى تحقق عند الأعمى والأصم.

أنامُ مِلْءَ جفوني عن شواردها ... ويسهرُ الخَلْقُ جرَّاها ويختصِمُ[(١)]

وجاهلٍ مَدَّهُ في جهلِهِ ضَحِكي ... حتى أتته يدٌ فَرَّاسةٌ وفمُ[(٢)]

إذا نظرتَ نيوبَ الليثِ بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أنَّ الليثَ يبتسمُ

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به ... حتى ضربتُ وموجُ البحر يلتطِمُ

فالخيلُ والليلُ والبيداء تعرفني ... والسيف والرمحُ والقِرطاسُ والقَلَمُ

يا من يَعِزُّ علينا أن نُفَارقَهم ... وِجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَمُ

إن كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا ... فما لِجُرحٍ إذا أرضاكمُ أَلَمُ

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجِزُكم ... ويكرهُ اللهُ ما تأْتون والكَرَمُ

ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفي ... أنا الثريّا وذانِ الشيبُ والهرمُ

لئنَ تركْنَ ضُميراً عن ميامننا ... ليحدثنَّ لمن ودّعتُهم نَدَمُ[(٣)]

إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قَدَروا ... أَنْ لا تفارقَهم فالراحلونَ هُمُ

شَرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ به ... وشرُّ ما يكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

بأَيِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعنِفَةٌ ... تجوزُ عندك لا عُربٌ ولا عَجَمُ[(٤)]

هذا عتابُكَ إلا أنه مِقَةٌ ... قد ضُمِّن الدُرَّ إلاّ أنّه كَلِمُ[(٥)]

---

(١) الشوارد: الأشعار السائرة. والضمير في شواردها: للكلمات. يقول: تأتيني شوارد الشعر دون عناء، أما غيري فإنهم يسهرون ويختصمون لأجلها.

(٢) مدّه: أمهله. وأصل الفَرْس: دقّ العنق. يقول: ربّ جاهلٍ خدعته مجاملتي فتركته في جهله حتى افترسته وبطشت به بعد زمن.

(٣) الضمير في تركن: عائد إلى الركاب. وضمير بلدة على يمين الراحل إلى مصر من الشام قريبة من دمشق.

(٤) الزعنفة: اللئام من الناس والأوباش. يقول: هؤلاء السقَّاط من الشعراء بأي لفظ يقولون الشعر وهم ليسو عرباً ولا عجماً، أي إنهم ليسو شيئاً.

(٥) المقة: المحبّة. يقول: هذا عتابك، فإن أمضَّك وأزعجك فهو صادر عن محبة خالصة، ومودّة صادقة.

يبدو أَنَّ أبا الطيب كان عازماً على البوح بما يعتمل في نفسه من إحساس بالتقصير في حَقِّه من قبل الأمير، وبما يُحاط به من الحسد والكراهية من قبل رجال الحاشية، ولا سيما أبو فراس الذي تصدَّى للشاعر، وقاطعه مرّات كثيرة أثناء إنشاده فاضحاً سرقاته حيناً، ومُزْدرياً إيَّاه حيناً آخر. فما إن أنشد المتنبي البيت:

مالي أُكتِّمُ حبًّا قد برى جسدي وتدَّعي حُبَّ سيفِ الدولةِ الأُمَمَ

حتى ماج المجلسُ إزاءَ هذا التعريض الصريح بالآخرين، ولكن الشاعر تابع إنشاده غير عابئٍ بما حدث فقال:

إن كان يجمعُنا حُبٌّ لغُرَّته فليت أَنَّا بِقَدْر الحُبِّ نَقْتَسِمُ

قد زُرْتُه وسيوفُ الهندِ مُغْمَدةٌ وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دَمُ

فهمّ جماعةٌ بقتله في حضرة سيف الدولة، لشدَّة إدلاله، وإعراض سيف الدولة عنه، فلمَّا وصل في إنشاده إلى قوله:

يا أعدلَ الناسِ إلاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكم

فقال أبو فراس: مسخت قولَ دعبل وادَّعيته وهو:

ولستُ أرجو انتصافاً منك ما ذرفت عيني دموعاً وأنت الخصمُ والحكمُ

فقال المتنبي:

أُعيذُها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ

فعلم أبو فراس أنه يعنيه؛ فقال: ومن أنت يا دعيَّ كندة حتى تأْخُذَ أعراضَ الأمير في مجلسه؟ فاستمر المتنبي في إنشاده ولم يردَّ إلى أن قال:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِه إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَم

سيعلمُ الجمعُ ممَّن ضمّ مجلسُنا بأنني خيرُ مَنْ تسعى به قَدَمُ

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَنْ به صَمَمُ

أَنامُ ملءَ جفوني عن شواردها ويسهرُ الخلقُ جَرَّاها ويختصِمُ

فزاد ذلك من غيظ أبي فراس وقال: سرقتَ هذا من عمرو بن عروة بن العبد في قوله:

أوضحتُ من طُرُق الآداب ما اشتكلت ... دهراً وأظهرتُ إغراباً وإبداعاً

حتى فتحتُ بإعجازٍ خُصِصْتُ به ... للعُمْيِ والصمِّ أبصاراً وأسماعا

ولما وصل إلى قوله:

والخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاسُ والقَلَمُ

قال أبو فراس: وما أبقيتَ للأمير، إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة، والرياسة والسماحة، تمدح نفسَكَ بما سرقته من كلام غيرك، وتأخذ جوائز الأمير؟ أما سرقت هذا قول الهيثم بن الأسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني وهو:

أَعاذلتي كم مَهْمَةٍ قد قطعتُهُ ... أليفَ وحوشٍ ساكناً غيرَ هائبِ

أنا ابنُ الفلا والطعنِ والضربِ والسُّرى ... وجُرْدِ المذاكي والقنا والقواضبِ

حليمٌ وقورٌ في البوادي وهيبتي ... لها في قلوب الناسِ بطشُ الكتائبِ

فقال المتنبي:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

قال أبو فراس: وسرقتَ هذا من مَعْقِل العجلي، وهو:

إذا لم أميِّزْ بين نورٍ وظلمةٍ ... بعينيَّ فالعينانِ زُورٌ وباطِلُ

ولمحمد بن أحمد بن أبي مرة المكّي مثله وهو:

إذا المرءُ لم يُدرِك بعينيه ما يُرى ... فما الفرقُ بين العُمْيِ والبُصراءِ

وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة، وكثرة دعاويه فيها، وضربه بالدواة التي بين يديه، فقال المتنبي في الحال:

إن كان سرَّكُم ما قال حاسدُنا ... فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

فقال أبو فراس: أخذت هذا من قول بشار:

إذا رضيتُم بـأن نُجفـى وسَـرَّكمُ قولُ الوشاةِ فلا شكوى ولا ضَـجَرُ

ومثلُه لابن الرومي:

إذا مـا الفجـائعُ أكسَبْنَني رضـاكَ فمـا الـدهرُ بالفـاجعِ

فلم يلتفت سيفُ الدولة إلى ما قاله أبو فراس. وأعجبه بيتُ المتنبي، ورضيَ عنه في الحال، وأدناه إليه. وقبَّل رأسه، وأَجازه بألفِ دينار، ثم أردفه بألفٍ أخرى؛ فقال المتنبي:

جـاءت دنـانيرُكَ مختومـةً عاجلـةً أَلْفـاً علـى أَلْـفِ

أشْـبَهَها فِعْلُـكَ فـي فَيْلَـقٍ قَلَبْتَـهُ صـفًّا علـى صـفِّ[1]

ومما لا شكّ فيه أن سيف الدولة أدرك ما ألمح إليه شاعرُهُ من الرغبة في عدم البقاء في هذا الوسط الذي يكنُّ له الكراهيةَ والحقد والحسد لذلك خاطب الأمير بقوله:

يا مـن يعـزّ علينـا أن نُفـارِقَهُمْ وجدانُنا كُـلَّ شـيءٍ بعـدكم عَـدَمُ

لئن تركْنَ ضُـمَيراً عـن ميامننـا لَيَحْـدثنَّ لمـن ودّعـتهُم نَـدَمُ

إنه يُنْذِر ممدوحه بالتحوُّل عنه إلى مصر حيث أعداؤه الإخشيديُّون. والمرجّح أن هذه الميميّة قد أحدثت شرخاً عميقاً في العلاقة التي تربط الشاعر بالأمير، ووضعت أبا الطّيب في مواجهة خصومه، فأعلن الحربَ عليهم دون مواربة. كما أن تعريضه بالأشراف من حاشية الأمير، وفي مقدّمتهم أبو فراس، وأبو العشائر الذي نسيَ المتنبي صنيعته نسْياناً تاماً بعد دخوله في حمى سيف الدولة، كلّ هذا كان مسوّغاً لمحاولتهم قتله بعد خروجه من القصر. «ولما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة، وقف له رجَّالةٌ

---

(١) الصبح المنبي ص ٨٩ وما بعدها بتصرف.

في طريقه ليغتالوه؛ فلما رآهم أبو الطيب، ورأى السلاح تحت ثيابهم سلّ سيفه وجاءهم حتى اخترقهم؛ فلم يُقدِموا عليه[1]».

كذلك أرسل أبو العشائر ذات ليلة «عشرةً من خاصتّه، فوقفوا بباب سيف الدولة، وجاء رسولُه إلى أبي الطّيب، فسار إليه حتى قرب منهم، فضرب أحدهم يده إلى عنان فرسه؛ فسلَّ أبو الطيب السيف؛ فوثب الرجلُ أمامه، وتقدَّمت فرسُه الخيلَ، وعبرت قنطرةً كانت بين يديه، واجترَّهم إلى الصحراء، فأصاب أَحدُهُم نحرَ فرسه بسهم، فانتــزع أبو الطيب السهمَ ورمى به.... ثم كرّ عليهم، فوقفوا عنه، فسار وتركهم. ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة في الليلة الثانية مستخفياً، فأقام عند صديقٍ له، والمراسلة بينه وبين سيف الدولة، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل ذلك أو أمر به».

فعقَّب أبو الطيب على ما فعله به أبو العشائر بالقول:

ومُنْتسبٍ عندي إلى مَنْ أُحِبُّه ... وللنبل حولي من يديه حفيفُ

فهيَّج من شوقي وما مِنْ مذلَّة ... حَنَنْتُ ولكنَّ الكريمَ أَلوفُ

وكلُّ ودادٍ لا يدومُ على الأذى ... دوامَ ودادي للحسينِ ضعيفُ

فإن يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحداً ... فأفعالُه اللّائي سَرَرْنَ أُلوفُ

ونفسي له نفسي الفداءُ لنفسه ... ولكنَّ بعضَ المالكين عَنيفُ

ثم ألح في طلب العفو من الأمير الذي أبدى استعداده للتغاضي عمّا بدر منه إذا اعتذر المتنبي من ذنبه، ففعل وعفا الأمير عنه، وأجاره من خصومه، "فدخل على سيف الدولة بعد تسعة عشر يوماً فتلقَّاه الغلمانُ، وأَدخلوه إلى خزانة الأَكسية، فخُلِع عليه، ونُضِح بالطيب، ثم أُدخل على سيف الدولة، فسأله عن حاله وهو مستحٍ، فقال أبو الطيب: رأيتُ الموتَ

---

(١) أبو الطيب المتنبي - بلا شير ص ٢٩٣ عن الواحدي.

عندكَ أَحَبَّ إليَّ من الحياةِ عند غيرك، فقال: بل يُطيلُ اللهُ عمرك، ودعا له، ثم ركب أَبو الطيب وسار معه خلقٌ كثير إلى منـــزله، وأَتْبعه سيفُ الدولة هدايا كثيرة؛ فقال أبو الطيب يمدحه بعد ذلك، وأَنْشده إيَّاها في شعبان سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طللِ ... دعا فلبَّاه قبــلَ الركــبِ والإبــلِ[(١)]

ظللـــتُ بـــين أُصـــيحابي أُكفْكِفُـــه ... وظَلَّ يسفحُ بين العُــذْرِ والعَــذَلِ[(٢)]

أشكو النوى ولهم من عَبْرتي عَجَبٌ ... كذاك كنتُ وما أشكو سوى الكِلَلِ[(٣)]

وما صــبابةُ مــشتاقٍ علــى أمــلٍ ... مــن اللقــاءِ كمــشتاقٍ بِــلا أَمَــلِ

متى تَزُرْ قومَ من تهــوى زيارتَهــا ... لا يُتحفوكَ بغيرِ البِيْضِ والأَسَــلِ[(٤)]

إلى أن يقول:

لا أَكْسِبُ الذكرَ إلاَّ مــن مَــضاربه ... أَو من سنانٍ أَصمِّ الكعبِ معتــدِلِ[(٥)]

جاد الأميرُ به لــي فــي مواهبــه ... فزانها وكساني الدرعَ في الحُلــلِ[(٦)]

ومِنْ عليٍّ بن عبــد الله معرفتــي ... بِحَمْلِه مَنْ كعبــد الله أو كعلِــي[(٧)]

---

(١) يقول: استدعى الطلل دمعي وكنت أول من أجاب ببكائه قبل أصحابي وقبل الإبل.

(٢) يقول: ظللت أكفكف الدمع خوفاً من لوم الركب فظل الدمع يسيل وأصحابي بين عاذرٍ لي وعاذل.

(٣) النوى: البعد. والكِلل: جمع كِلَّة: الستر الرقيق. يقول: أشكو الفراق وهم يتعجبون من بكائي ولا عجب في ذلك، وقد كنت على مثل ما يرون من البكاء حين كانت المحبوبة قربي لا يحجبها غير الستر، فكيف الآن قد حجبها عني الفراق!!

(٤) الإتحاف: الإطراف بالهدية. الأسل: الرماح. أراد أن الحبيبة منيعة في قومها.

(٥) المضارب: جمع مضرب وهو حد السيفِ. والسنان: نصل الرمح. الأصم: الصلب. والكعب: العقدة بين الأنبوبتين. يقول: إنه لا يكسب المجد إلا بإقدامه وبأسه.

(٦) يعني أنه وهبه سيفاً ودرعاً في جملة ما وهبه.

(٧) علي: سيف الدولة الذي تعلّم منه حمل السيف. وعبد الله: أبوه.

مُعطي الكَواعبِ والجُردِ السَّلاهِبِ والبِيْضِ القواضبِ والعسَّالةِ الذُّبُلِ[١]

ضاق الزمانُ ووجهُ الأرضِ عن مَلِكٍ | مِلءِ الزمانِ ومِلءِ السهلِ والجبلِ
فنحنُ في جَذَلٍ والرومُ في وَجَلٍ | والبَرُّ في شُغُلٍ والبحرُ في خَجَلِ[٢]
من تَغْلِبَ الغالبينَ الناسَ مَنْصِبُه | ومن عَدِيٍّ أعادي الجُبْنِ والبَخَلِ
ليت المدائحَ تَستَوفي مناقبَهُ | فما كُليبٌ وأهلُ الأعصُرِ الأُوَلِ[٣]
خُذْ ما تراه ودَعْ شيئاً سمعتَ بِهِ | في طلعةِ الشمسِ ما يُغنيك عن زُحَلِ
وقد وجَدْتَ مجالَ القولِ ذا سَعَةٍ | فإن وجَدْتَ لِساناً قائلاً فَقُلِ
إنَ الهُمامَ الذي فخرُ الأنامِ بِهِ | خيرُ السيوفِ بكَفَّي خَيْرة الدولِ[٤]
جاز الدروبَ إلى ما خلفَ خَرْشَنَةٍ | وزال عنها وذاك الروعُ لم يَزُلِ[٥]
يا أيُّها المحسنُ المشكورُ من جهتي | والشكرُ من قِبَلِ الإحسانِ لا قِبَلي
ما كان نومِيَ إلاّ فوق معرفتي | بأَنَّ رأْيَكَ لا يُؤتَى من الزللِ[٦]
أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ علِّ سَلِّ أَعِدْ | زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ[٧]
لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبُهُ | فربَّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

---

(١) الكواعب: الجواري الشَّابَّات. الجرد: القصار الشعر، وذلك دليل عتقها. والسلاهب: الخيل الطوال. والبيض القواضب: السيوف القواطع. العسَّالة: الرماح التي تضطرب للينها. الذبل: الضامرة.

(٢) الجذل: الفرح. الوجل: الخوف. يقول: نحن فرحون بانتصاره، والروم في خوف منه لغاراته، والبر مشتغل بجيشه، والبحر خجل من ندى يديه.

(٣) كليب: هو كليب بن ربيعة رئيس تغلب في الجاهلية.

(٤) الهمام: ذو الهمة العالية. خيرة: مؤنث خير: وخيرة الدول: دولة الخلافة.

(٥) الدورب: مداخل بلاد الروم. وخرشنة: بلد من بلاد الروم. الروع: الخوف.

(٦) يقول: ما لحقني السهو والتفريط إلاّ بعد سكون نفسي إلى فضلك وحلمك.

(٧) أقل: من الإقالة من العثرة. أنل: أعطِ. اقطِع: أعطِ إقطاعاً. أحمل: أعط مركوباً. عَلّ: ارفع مكانتي. سلّ: من التسلية. أعد: أعدني إلى ما كنت عليه من حسن الظن. زِدْ: زدني من إحسانك. هش وبش: ابتسم إلي وآنسني.

وما سـمَعتُ ولا غيـري بمقتـدرٍ أَذَبَّ منكَ لزُوْرِ القولِ عـن رَجُـلِ

لأن حِلْمَـك حِلْـمٌ لا تَكَلَّفُـهُ ليس التكحُّلُ في العينينِ كالكَحَـلِ[1]

وما ثناكَ كلامُ النـاس عـن كـرمٍ وَمَنْ يَسُدُّ طريقَ العارضِ الهَطِلِ[2]

أنت الجـوادُ بـلا مَـنٍّ ولا كَـدَرٍ ولا مِطـالٍ ولا وَعْـدٍ ولا مَـذَلِ[3]

لا زلتَ تضْرِبُ مَنْ عاداكَ عن عُرُضٍ بعاجلِ النصر في مُسْتأخرِ الأجَـلِ[4]

لقد نالت هذه القصيدة إعجابَ الناس واستحسانَهم، كما أُعجِب بها سيفُ الدولة، فأَجزل العطاءَ لشاعره، فقال المتنبي متحدياً خصومه:

إنَّ هذا الشعرَ فـي الـشعرِ مَلَـكْ سار فهو الـشمسُ والـدنيا فَلَـكْ

عَـدَلَ الـرحمنُ فيـه بيننـا فقضى بـاللفْظِ لـي والحمـدِ لَـكْ

فـإذا مَـرَّ بـأُذُنَيْ حاسـدٍ صـار ممَّـن كـان حيّـاً فَهَلَـكْ

وفي أواخر السنة نفسها ٣٤١هـ قدم وفدٌ من الروم إلى حلب يحمل كتاباً من ملك الروم لفداء الأسرى؛ فعمد سيف الدولة إلى استعراض قوّته الحربية ليُلقيَ الرعبَ في قلوب أعدائه، فقال أبو الطيب:

لعينيكِ ما يلقى الفـؤادُ ومـا لَقِـي وللحبّ ما لم يبقَ منِّي ومـا بقِـي

وما كنتُ ممَّن يدخُل العـشقُ قلبَـهُ ولكنَّ من يُبـصِرْ جفونَـكِ يعـشَقِ

وأَحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ ربُّه وفي الهجرِ فهو الدهرَ يرجو ويتَّقي

وغضْبى من الإدلال سَكْرى من الصِّبا شَفَعْتُ إليها من شـبابي بريِّـقِ[5]

---

(١) تكلّفه: تتكلّفه. الكحل: سواد في أجفان العين خلقةً.

(٢) ثناك: ردّك، وصرفك. العارض: السحاب. الهطل: الغزير.

(٣) المذل: الضجر والقلق.

(٤) عن عرض: كيفما اتفق. يدعو له. يقول: لا زلت ضارباً أعداءك كيفما وجدتهم مقبلين ومدبرين بنصر عاجل معصوماً بأجل يستأخرك.

(٥) ريّق الشباب: أوله. أي جعل شبابه شفيعاً إلى هذه الفتاة لفرط دلالها وزهوها.

وأَشْنبَ معسولِ الثنيَّاتِ واضحٍ ستَرتُ فمي عَنْهُ فقبَّلَ مَفرِقي[1]
وما كلُّ من يهوى يَعِفُّ إذا خلا عفافي ويُرضِي الحِبَّ والخيلُ تلتقي[2]

إلى أن يقول:

نُودّعهم والبينُ فينا كأنه قنا ابن أبي الهيجاءِ في قلبِ فيلقِ[3]
قَواضٍ مَواضٍ نسجُ داودَ عندها إذا وقعت فيه كنسجِ الخِرْنقِ[4]
هوادٍ لأملاكِ الجيوش كأنها تَخيَّرُ أرواحَ الكُماةِ وتنتقي[5]
تقُدُّ عليهم كُلَّ درعٍ وَجَوشنٍ وتَفْري إليهم كلَّ سُورٍ وَخَنْدقِ[6]
يُغيرُ بها بينَ اللُّقانِ وواسطٍ ويُركزُها بينَ الفُراتِ وجِلِّقِ[7]
ويُرجِعُها حُمْراً كأَنَّ صحيحَها يُبكِّي دَماً من رَحْمةِ المتدقِّقِ[8]
لقد جُدْتَ حتى جُدْتَ في كل مِلَّةٍ وحتى أَتاك الحمدُ من كُلِّ مَنْطِقِ[9]
رأى مَلِكُ الرومِ ارتياحَك للندى فقام مَقَامَ المجتدي المتملِّقِ

---

(١) الأشنب: الأبيض الأسنان لحسنها. المعسول: الحلو كالعسل.... والثنيات: الأسنان التي في مقدم الفم.
(٢) الحِب: المحبوب.
(٣) أبو الهيجاء والد سيف الدولة. يقول: إنه يودع الأحبة والبين يفتك به فتك رماح سيف الدولة بأعدائه.
(٤) قواضٍ: قواتل يعني الرماح. مواضٍ: نوافذ. نسج داود: الدرع. الخرندق: العنكبوت. يقول: إن رماح سيف الدولة قواتل من يقصدها نوافذ في دروع الأبطال تخرقها كأنها تخرق نسج العنكبوت.
(٥) هواد: من الهداية. الأملاك: الملوك. يقول: إن هذه الرماح تهتدي إلى الملوك فتقتلهم كأنها تتخيّر الأبطال.
(٦) الجوشن: الدرع. تقدّ: تقطع. وتفري: تقطع.
(٧) يريد كثرة غاراته وفشوّها في البلاد من العراق إلى أقاصي الروم والشام.
(٨) المتدقق: المتكسّر. يقول: يردّ الرماح تقطر دماً كأنّ صحاحها تبكي على ما تكسر منها من شدَّة الطعن رثاءً لها.
(٩) يقول: لقد عمّ جودك أهل كلّ ملّة حتى حمدوك جميعاً لما نالوا من برّك وإحسانك.

وخلَّى الرماحَ السَّمْهريَّةَ صاغراً لأَدْربَ منه بالطعانِ وأَحذقِ
وكَاتَبَ من أرضٍ بعيدٍ مرامُها قريبٍ على خيلٍ حَوالَيْك سُبَّقِ
وقد سار في مَسْراكَ منها رسولُه فما سار إلاَّ فوق هامٍ مُفَلَّقِ
فلمَّا دنا أَخفى عليه مكانَهُ شُعاعُ الحديدِ البارقِ المتألِّق[(١)]
وأقبل يمشي في البساط فما دَرَى إلى البحر يمشي أم إلى البدرِ يرتقي[(٢)]
ولم يَثْنِكَ الأعداءُ عن مُهَجاتهم بمِثْلِ خضوعٍ في كلامٍ مُنَمَّقِ[(٣)]
وكنتَ إذا كاتَبْتَهُ قبلَ هذه كتبتَ إليه في قَذالِ الدمُستُقِ[(٤)]
فإن تُعطِه منك الأمانَ فسائلٌ وإن تُعطِه حَدَّ الحسامِ فأَخلِقِ[(٥)]
وهل ترك البيضُ الصوارمُ منهُمُ أَسيراً لفادٍ أو رفيقاً لِمُعْتِقِ
لقد وردُوا وِرْدَ القطا شَفَراتِها ومرُّوا عليها زَرْدقاً بعد زَرْدَقِ[(٦)]
بلغتُ بسيفِ الدولةِ النورِ رُتْبةً أَثَرْتُ بها ما بين غربٍ ومشرقِ[(٧)]
إذا شاءَ أن يلهو بلحيةِ أحْمقٍ أراهُ غُباري ثم قال له الْحقِ
وما كَمَدُ الحُسَّادِ شيئاً قصدتُه ولكنه من يزحَمِ البحرَ يَغْرقِ[(٨)]

---

(١) يقول: لما اقترب الرسول أعشى بصره لمعان الحديد حتى لم ير مكان سيف الدولة.

(٢) أقبل: يعني الرسول.

(٣) المهجة: الروح. ونمَّق الكلام: زيَّنه.

(٤) القذال: مؤخر الرأس. المراد بالمكاتبه ما تحدثه سيوف سيف الدولة في قذال الدمستق.

(٥) يقول: فإن أعطيته الأمان فهو سائل يسالك، وأنت لا تخيّب سائلاً، وإن قتلته فهو جدير بذلك.

(٦) الزردق: الصف من الناس (تعريب رسته).

(٧) وصف سيف الدولة بالنور لبعد صيته وشهرته، يقول: هو نور وقد بلغت بخدمته رتبة ارتفع بها ذكري، واشتهر صيتي اشتهار النور في المشرق والمغرب.

(٨) يقول: لست اقصد أن أكمد حسادي لأني لا آبه لهم، فكانوا كمن زاحم البحر فغرق في تياره.

ويمــــتحنُ النـــاسَ الأميـــرُ برأيـــه ويُغْضي على علمٍ بكلّ مُمَخْـــرِقِ[١]

وإطراقُ طرفِ العين لـــيس بنـــافعٍ إذا كان طرفُ القلبِ ليس بمُطرِقِ[٢]

وفي شهر جمادى الثانية سنة ٣٤٢هـ رحل سيف الدولة عن حلب إلى ديار مضر لاضطراب البادية فيها فنــزل حرَّان، وأخذ رهائنَ من بني عُقَيل وقُشير وبَلْعَجلان، ثم حدث له بها رأْيٌ في الغزو؛ فعبر الفراتَ إلى دُلُوك وهي بُليدة بالعواصم، ومنها إلى قنطرة صنجة، وهي قنطرة عظيمة من عجائب الأرض يمرّ تحتها نهر صنجة، وهو نهر بين ديار مضر وديار بكر. إلى درب القُلَّة، فشنّ الغارة ورجع إلى مَلَطْيَة، وهي مدينة قديمة من بناء الإسكندر، وجامعها من بناء الصحابة، وهي من بلاد الروم تتاخم الشام، كان أبو جعفر المنصور قد وجّه عبدَ الوهاب بنَ إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لبناء مَلَطْيَة سنة ١٤٠هـ فأقام عليها حتى بناها وأسكنها الناسَ، وغزا الصائفةَ. وفي سنة ٣٢٢هـ غزاها الدمُستُق وهدم سورها وقصورها، وقيل فيها أشعار كثيرة منها قول بعضهم:

فَلأَبكـــينَّ علـــى مَلَطْيَـــةَ كُلَّمـــا أبصرتُ سيفاً أو ســمعتُ صــهيلا

هدم الدمستقُ ســورَها وقــصورَها فــسمعتُ فيهـــا للنـــساءِ عـــويلا

والعلـــجُ يـــسحبُها وتلطُـــمُ كفُّـــهُ متورِّداً يقَـــقَ البيـــاض جمـــيلا[٣]

قالوا الــصليبُ بهـــا بـــأمرٍ ثابـــتٍ قد أظهـــروا الــصلبانَ والإنجـــيلا

وعَبَر قُباقبَ وهو نهرٌ بالثغر قرب ملطية يدفع في الفرات، حتى ورد المخاضَ على الفرات، واجتاز مضيق هنــزيط، وبحيرة سُمنين، ثم توقف في

---

(١) الممخرق: صاحب العبث والأباطيل. يقول: إنه يمتحن الناس بعقله، ثم يغضي عن العابث منهم فلا يفضحه لكرمه.

(٢) يقول: إن إغضاءه عن هؤلاء العابثين لا ينفعهم إذا كان يعرفهم بقلبه فلا يخفى عليه حالهم.

(٣) يَقَق: شديد البياض.

أرقنين، ثم بلغ بعد ذلك آمدَ مثقلاً بالغنائم، ورحل إلى سُميساط وهي مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم، ولها قلعة في شقّ منها يسكنها الأَرمن.

فورد الخبر أن العدو في بلد المسلمين؛ فأسرع إلى دُلوك وعبرها فأدركه راجعاً على جَيْحان فهزمه، وأسر قسطنطينَ بنَ الدمستق، وجُرِح الدمستقُ في وجهه فقال أبو الطيب يمدح سيفَ الدولة، ويذكر ما شهده في هذه الحملة:

ليـــاليَّ بعـــدَ الظَّـــاعنين شُـــكُولُ	طِــوالٌ وليــلُ العاشــقين طويــلُ
يُبِنَّ لــيَ البــدرَ الــذي لا أُريــدُهُ	ويُخفــينَ بــدراً مــا إليــه ســبيلُ
وما عِشتُ من بعد الأَحبَّــةِ سَـلْوَةً	ولكنَّنــــي للنائبــــات حَمُــــولُ
وإنَّ رحــيلاً واحــداً حــال بيننــا	وفي الموت من بعد الرحيلِ رحيــلُ
ومــا شَــرَقي بالمــاءِ إلاَّ تــذكُّراً	لمــاءٍ بــه أَهــلُ الحبيــب نُــزولُ
ألم يرَ هذا الليــلُ عينيــكِ رؤيتــي	فتظهــرَ فيــه رقَّــةٌ ونحــولُ
لقيتُ بــدربِ القُلَّــةِ الفجــرَ لُقْيــةً	شفت كمَدَي والليــلُ فيــه قتيــلُ(١)
ويوماً كأنَّ الحُــسْنَ فيــه علامــةٌ	بعثتِ بها والشمسُ منكِ رســولُ(٢)
وما قبلَ سيفِ الدولةِ أثَّار عاشــقٌ	ولا طُلبت عنــد الظــلام ذُحُــولُ(٣)
ولكنــــه يــــأتي بكــــلّ غريبــــةٍ	تروقُ علــى اســتغرابها وتَهُــولُ
رمى الدربَ بالجُرد الجيادِ إلى العدا	ومــا علمــوا أن الــسهامَ خيــولُ

---

(١) القُلَّة: موضع وراء الفرات. والكمد: الحزن. يقول: بداله الفجر عند هذا المكان، فاشتفت كبده كما يشتفي العدو بنكبة عدوّه.

(٢) يقول: لقيت في ذلك الموضع بعد ذلك الليل الكريه يوماً حسناً جميلاً فذكرت به محاسنك، فكأن حسنه علامة صدقٍ بعثتِ بها، وكانت الشمس هي الرسول.

(٣) أثار: أدرك الثأر. والذحول: جمع ذحل، الثأر والعداوة. يقول: إنما حسن نهاري بما ناله سيف الدولة من ظفره بأعدائه: وبه اشتفيت من ليلي وما قاسيته فيه.

شَوائلَ تَشْوالَ العقاربِ بالقنا لها مَرَحٌ من تحته وصهيلُ[1]

وما هيَ إلاّ خَطْرةٌ عرضت له بحرَّانَ لَبَّتْهـا قنـاً ونُصولُ[2]

همامٌ إذا ما همَّ أمضى هُمومَهُ بأَرعنَ وطءُ الموتِ فيه ثقيلُ[3]

وخيلٍ براها الركضُ في كلِّ بلدةٍ إذا عرَّستْ فيها فليس تَقِيلَ[4]

فلمَّا تجلَّى من دُلُوكٍ وصَنْجةٍ علت كلَّ طودٍ رايةٌ ورعيلُ[5]

على طُرُقٍ فيها على الطُّرْقِ رفعةٌ وفي ذكرها عند الأنيس خُمولُ[6]

فما شعروا حتى رأوْها مُغِيرةً قِباحاً وأما خَلْقُها فجميلُ[7]

سحائبُ يُمْطِرْنَ الحديدَ عليهمُ فكلُّ مكانٍ بالسيوفِ غسيلُ[8]

وأمسى السبايا ينْتَحِبْنَ بِعَرْقةٍ كأنَّ جيوبَ الثاكلاتِ ذُيولُ[9]

وعادت فظنُّوها بموزارَ قُفَّلاً وليس لها إلاَّ الدخولَ قُفُولُ[10]

---

(١) شالت العقرب ذنبها: رفعته. شبه الرماح على الخيل بأذناب العقارب إذا رفعتها.

(٢) أي إن هذه الغزوة كانت - مع عظمتها وجلالها - من غير استعداد ولا احتفال.

(٣) الهمام: الملك العظيم الهمّة. والهموم: الهمم. والأرعن: الجيش الكثير المضطرب لكثرته.

(٤) براها: هزلها. التعريس: نزول الركب آخر الليل للاستراحة. تقيل: تنزل وقت الهاجرة للنوم.

(٥) تجلَّى: تكشَّف والمراد هنا: خرج. دلوك: موضع وراء الفرات. صنجة: نهر بين ديار مضر وديار بكر. الطود: الجبل العظيم. الرعيل: القطعة من الخيل.

(٦) الرفعة: الارتفاع، والخمول: خفاء الذكر. أي سارت خيله على طرق مرتفعة في الجبال مجهولة لم يسلكها أحد من قبل.

(٧) قباح: أي هي قبيحة في أعين الأعداء لسوء فعلها بهم مع أنها جميلة الخلق.

(٨) يصف خيله بالكثرة فهي كالسحائب تمطر الحديد عليهم، فتغسل كل مكان لهم بالسيوف.

(٩) عرقه: موضع ببلاد الروم. والجيب: ما انفتح من القميص على النحر. أي إن السبايا شققن جيوبهن على فقد قتلاهن، فصارت الجيوب كأنها ذيول.

(١٠) موزار: حصن ببلاد الروم. يقول: عادت خيل سيف الدولة، فظنها الروم راجعة، ولكنها دخلت عليهم من درب موزار.

فخاضت نجيعَ الجمعِ خوضاً كأنــه　　بكلّ نجيــعٍ لــم تَخُــضْه كفيــلُ[١]

تُسايرها النيرانُ فــي كــلّ مَــسْلَكٍ　　به القومُ صرعى والديار طلــولُ[٢]

وكرَّت فمرَّت فــي دمــاءِ مَلَطْيَــةٍ　　مَلَطْيَـــةُ أمٌّ للبنـــينَ ثَكُـــولُ[٣]

وأَضْعفْنَ مــا كُلِّفْنَــهُ مــن قُباقــبٍ　　فأَضحى كأنَّ المــاءَ فيــه عليــلُ[٤]

ورُعْنَ بنــا قلــبَ الفُــراتِ كأنَّمــا　　تَخِــرُّ عليــه بالرجــالِ ســيولُ[٥]

يُطــاردُ فيــه موجَــهُ كــلُّ ســابحٍ　　ســواءٌ عليــه غَمْــرةٌ ومَــسيلُ[٦]

تــراه كــأن المــاءَ مَــرَّ بجــسمه　　وأقبــل رأسٌ وحــده وتَليــلُ[٧]

وفي بطنِ هِنْزيطٍ وسِــمْنين للظُّبــى　　وصُمِّ القنــا ممَّــن أَبــدْنَ بــديلُ[٨]

طَلَعْــنَ علــيهم طَلْعــةً يعرفونهــا　　لها غُرَرٌ ما تنقــضي وحُجُــولُ[٩]

---

(١) النجيع: دم الجوف خاصة. والمراد أن خيله لا يتعذر عليها خوض كل دم لم تخضه بعد ذلك.

(٢) تسايرها النيران: أي تسير النيران مع الخيل أينما سلكت، فهم يحرقون كل موضع وطئوه من بلادهم، ويقتلون أهله؛ فتخرب ديارهم، وتبقى آثارهم.

(٣) كرّت: عطفت. ملطية: بلد من بلاد الروم. والمراد هنا أهل ملطية. أي أصبحت ملطية كالأم التي تبكي أبناءها القتلى.

(٤) قباقب: اسم نهر عبرته خيل سيف الدولة، وكُلّفنه: كُلّفن قطعه. يقول: إن خيله أضعفت هذا النهر عند عبوره لكثرتها؛ فأضحى ماؤه ضعيفاً.

(٥) يقول: لما عبرت الخيلُ بنا الفرات أفزعته كثرتها، فكأنما تنحدر عليه سيول من الرجال.

(٦) السابح: الفرس. والغمرة: معظم الماء. والمسيل: مجرى الماء. يقول: إن الموج كان يجري أمام الخيل وهي تتبعه غير مكترثة لغمرة الماء ومسيله.

(٧) التليل: العنق. يقول: إذا سبح الفرس في النهر لم يظهر منه إلاّ الرأس والعنق، لكثرة ماء النهر، وتعذر خوضه، فكأن الماء ذهب بجسمه وبقي الرأس والعنق.

(٨) هنــزيط وسمنين: موضعان ببلاد الروم. والظبى: جمع ظبة: حد السيف. صمّ القنا: الرماح الصلبة. يقول: لقد أفنت السيوف والرماح أهل هذين الموضعين فلما عاودتهما بعد مدة وجدت قوماً آخرين فأبادتهم، فإغارة هذه الخيل متتابعة.

(٩) الغرر: جمع غرة: البياض في جبين الفرس. والحجول: بياض يكون في قوائمها. يقول: طلعت الخيل على أهل هذين الموضعين طلعة قد عرفوها لها شهرة كغرر الخيل وحجولها.

تَمَلُّ الحصونُ الشُمُّ طولَ نِزالنا فَتُلقي إلينا أَهلَها وتزولُ

وبِتْنَ بحصنِ الرانِ رزْحى من الوجى وكلُّ عزيزٍ للأمير ذليلُ[١]

وفي كلّ نفسٍ ما خلاه مَلالةٌ وفي كلّ سيفٍ ما خلاه فُلولُ

ودونَ سُمَيْساطَ المطاميرُ والملا وأَوديَةٌ مجهولةٌ وهُجُولُ[٢]

لَبِسْنَ الدُّجى فيها إلى أرض مرعشٍ وللروم خطبٌ في البلاد جليلُ[٣]

فلمَّا رَأَوْهُ وحْدَهُ دونَ جيشه دَرَوا أنّ كلَّ العالمينَ فُضولُ

وأنّ رماحَ الخطّ عنه قصيرةٌ وأنَّ حديدَ الهندِ عنه كليلُ

فأوردهم صدرَ الحصانِ وسيفَه فتىً بأْسُه مثلُ العطاءِ جزيلُ

جوادٌ على العِلاَّت بالمالِ كلِّه ولكنّه بالدارعينَ بخيلُ[٤]

فودَّع قتلاهم وشيَّع فَلَّهُم بضربٍ حُزونُ البَيضِ فيه سهولُ[٥]

على قلب قُسْطَنطينَ منه تعجّبٌ وإن كان في ساقيه منه كُبولُ[٦]

---

(١) حصن الران: من حصون الروم. رزحى: ساقطة هزالاً وإعياءً. والوجى: الحفا. يقول: باتت الخيل في هذه المواضع في حالة إعياء مما أصابها في حوافرها من الحفا، وذلك ليس لضعفها ولكن لما كلفها الأمير من همته صعباً.

(٢) سميساط: بلد بشاطئ الفرات. المطامير: جمع مطمورة: حفرة غائرة في الأرض يخبأ فيها الطعام والشراب. والملا: جمع ملاة وهي الفلاة ذات الحر والسَّراب. والهجول: جمع هجل: المطمئن من الأرض.

(٣) مرعش: بلد بالثغور. يقول: سارت الخيل ليلاً إلى أرض مرعش فكأنها تتخذ من الليل لباساً. وكان الروم قد تسللوا إلى بلاد المسلمين يعيثون ويقتلون، فرجع إليهم سيف الدولة مسرعاً، وقتل منهم خلقاً كثيراً.

(٤) على العلات: على كل حال. بالدراعين بخيل: أي بخيل برجاله.

(٥) الفل: المنهزمون. والحزون: ما غلظ من الأرض. والبيض: جمع بيضة ما يلبس على الرأس من حديد.

(٦) يقول: يتعجب قسطنطين الأسير من شجاعة سيف الدولة ومروءته على الرغم من القيود الثقيلة التي يرسف بها. وقسطنطين: ابن الدمستق.

لعلَّكَ يوماً يا دُمُستُقُ عائدٌ ... فكم هاربٍ ممَّا إليه يؤولُ[1]

نجوتَ بإحدى مهجتيكَ جريحةً ... وخلَّفتَ إحدى مهجتيكَ تسيلُ[2]

أَتُسلِمُ للخَطِّيَّةِ ابنَكَ هارباً ... ويسكُنُ في الدنيا إليكَ خليلُ

بوَجْهِكَ ما أَنساكَهُ من مُرِشَّةٍ ... نَصيرُك منها رَنَّةٌ وعويلُ[3]

أَغرّكُمُ طولُ الجيوشِ وعَرْضُها ... عليٌّ شَروبٌ للجيوشِ أَكولُ

فإن تكن الأيامُ أبصرنَ صَولَهُ ... فقد عَلَّم الأيامَ كيف تصولُ[4]

فدتكَ ملوكٌ لم تُسمَّ مواضياً ... فإنكَ ماضي الشفرتين صقيلُ[5]

إذا كان بعضُ الناسِ سيفاً لدولةٍ ... ففي الناس بُوقاتٌ لها وطبولُ[6]

أنا السابقُ الهادي إلى ما أقولُه ... إذِ القولُ قبلَ القائلين مَقُولُ

وما لكلام الناس فيما يُرِيبُني ... أصولٌ ولا للقائليه أصولُ

أُعادَى على ما يوجِبُ الحُبَّ للفتى ... وأَهدأُ والأفكارُ فيّ تجولُ

سوى وَجَعِ الحُسَّادِ داوِ فإنَّه ... إذا حلّ في قلبٍ فليس يحولُ

ولا تَطمَعَنْ من حاسدٍ في مودَّةٍ ... وإن كنت تُبديها له وتُنيلُ

وإنا لنلقى الحادثاتِ بأَنفسٍ ... كثيرُ الرزايا عندهنَّ قليلُ

يهونُ علينا أن تُصاب جسومُنا ... وتَسلَمَ أَعراضٌ لنا وعقولُ

---

(١) يقول: لعلك تعود يوماً إلينا فيحيق به الهلاك الذي فررتَ منه.

(٢) المهجة: الروح. فالمهجة الأولى: نفس الدمستق الذي فر جريحاً في وجهه. والثانية: ولده الأسير.

(٣) المرشَّة: الطعنة ترش الدم. والرنة: الصياح.

(٤) الصول: الاستطالة والبطش. أي إن الأيام تتعلّم منه البطش.

(٥) مواضياً: سيوفاً. يقول: فدتك ملوك تسعى إلى مشابهتك، ولم تسمَّ سيوفاً، فهي ليست أهلاً لهذه التسمية لأنك أنت السيف اسماً ومضاءً.

(٦) بوقات: جمع بوق. يقول: إذا كنت سيف الدولة فإن غيرك من الملوك بالإضافة إليك بمنـــزلة البوق والطبل، لا يقومون مقامك.

كان لهذه القصيدة أَثرُها العميق في نفس الأمير وفي نفوس سامعيها؛ إذْ كانت جديرةً بالإعجاب، فهي تصف جهادَ سيف الدولة ضدَّ الروم، وبلاءه في هذه الحرب الطاحنة. وقد نسجها أبو الطيب على غرار لامية السموءل التي مطلعها:

إذا المرءُ يَدْنَسْ من اللؤم عِرضُـه فكـــلُّ رداءٍ يرتديــــه جميـــلُ

فاحتذاها في الوزن والقافية، واستعار بعضاً من ألفاظها ومعانيها. وشحنها بحزنه الشَّفيف، وكآبته الآسرة مثلما شحنها بالحماسة، إذْ وصف الحربَ وصفاً حيّاً ودقيقاً، وتتبَّع حركةَ الجيش، واندفاعه من موقع إلى آخر اندفاعَ السيل الذي لا يحول دونه حائل. لقد انقضَّ سيفُ الدولة بجيشه من حَرَّان انقضاضَ النسور القشاعم، فاقتحم مَلَطْية، وفي طريق عودته أَخذ عليه العدوُّ دَرْبَ أَرمينية، فكرَّ راجعاً ليقتحمَ مَلَطْيَةَ مرةً أخرى، ثم ينتهي إلى مخرجٍ من بلاد الروم، فظنَّ أَعداؤه أنه انهزم، ولكنه لم يلبث أن أعاد الهجوم مرةً أخرى، فدمَّر وخرَّب وسبى وغنم الغنائم، ثم مضى في طريقه حتى عبر الفرات إلى آمد ليهاجم الروم عند مَرْعش فيمزق صفوفهم شرّ ممزّق ويأسر ابنَ الدُمُسْتق، ثم يجرح الدمستق نفسه في وجهه، ويحقِّق في نهاية الأمر نصراً مؤزَّراً. لقد جمع أبو الطيب في هذه القصيدة الغناء الشجيّ إلى الوصف الدقيق، والمدح الرائع والفخر والحماسة، والهجاء المؤلم للحسَّاد والمبغضين والمتخاذلين لذلك عُدّت من أروع القصائد التي قيلت في سيف الدولة. إن عودة المياه إلى مجاريها بين الأمير وشاعره جعلت الأخير شديدَ الحرص على استعادة الثّقة، ونيل الرضا، لذلك نجده يعتذر إلى سيِّده إذا تأخّر في مدحه؛ ليبرأ من عتبه فيقول:

بأدنى ابتسامٍ منـــك تحيـــا القـــرائحُ وتَقْوى من الجسمِ الضعيفِ الجوارحُ

ومن ذا الذي يَقْضي حقوقَكَ كلَّهـــا ومن ذا الذي يُرضِي سوى مَنْ تُسامحُ

وقد تَقْبَــلُ العــذرَ الخفــيَّ تكرُّمـــاً فما بالُ عذري واقفاً وهو واضِــح

وإنّ مُحالاً - إذْ بك العيش - أَنْ أُرى وجسمُك معتــلٌّ وجــسميَ صــالحُ

وما كان تَرْكــي الــشّعرَ إلاَّ لأنَّـــه تُقصِّرُ عن وصف الأَميــر المــدائحُ

ثم يُبادر إلى مواساته إن أَلَمَّ به مرض، ثم يهنئه بإبلاله منه، ولا يفوته أن يتحيَّن الفرص الملائمة ليُبديَ اهتمامه بكلِّ ما يَعرض للأمير من العوارض اليومية. وممَّا قاله لمَّا مرض سيفُ الدولة:

إذا اعتلَّ سيفُ الدولةِ اعتلَّت الأرضُ ... ومَنْ فوقَها والبأْسُ والكَرَمُ المحضُ

وكيف انتفاعي بالرُّقادِ وإنما ... بعلَّته يعتلُّ في الأعينِ الغُمضُ

شَفاك الذي يَشْفي بجودك خَلْقَه ... لأَنَّك بحرٌ كلُّ بحرٍ له بَعْضُ

وتَشَكَّى سيفُ الدولة من دُمّل فقال فيه:

أَيدري ما أرابك مَنْ يريبُ ... وهل تَرقى إلى الفَلَكِ الخطوبُ

وجسمُك فوق همَّةِ كلِّ داءٍ ... فَقُربُ أَقلِّها منه عجيبُ

يَجمِّشُكَ الزمانُ هوىً وحُبًّا ... وقد يؤذَى من المِقَةِ الحبيبُ(١)

وكيف تُعِلُّك الدنيا بشيءٍ ... وأنت لِعلَّةِ الدنيا طبيبُ

وكيف تنوبُكَ الشكوى بداءٍ ... وأنتَ المستَغَاثُ لما ينوبُ

مَلِلْتَ مُقامَ يومٍ ليس فيه ... طِعانٌ صادقٌ ودمٌّ صبيبُ

وأَنت المَلْكُ تُمرضُه الحشايا ... لهمَّته وتَشْفيه الحروبُ(٢)

إلى أن يقول:

بسيف الدولةِ الوُضَّاءِ تُمسي ... جفوني تحت شمسٍ ما تغيبُ(٣)

فأَغزو مَنْ غزا وبه اقتداري ... وأرمي مَنْ رمى وبه أُصيبُ

وللحُسَّاد عُذْرٌ أن يَشِحُّوا ... على نظري إليه وأَنْ يذوبوا

فإني قد وَصَلتُ إلى مكانٍ ... عليه تَحسُدُ الحدقَ القلوبُ

---

(١) التجميش: المغازلة والملاعبة. المقة: المحبة.

(٢) الحشايا: الفرش المحشوّة.

(٣) الوضاء: بضم الواو: الشديد الوضاءة أي الحسن.

إن القصائد التي قالها أبو الطيب عقب الميميَّة التي أَقامت الدنيا ولم تقعدها تُحاول في جملتها أن تُعيدَ العلاقةَ بين الشاعر والأَمير إلى سابق عهدها من المودّة والثقة؛ لذا فإن محورَ اهتمام أبي الطيب في هذه الفترة لا يتعدَّى ذلك، فهو يكررِّ تأكيده بأَنه الشاعرُ الوحيدُ الذي يَليق بملك عظيم مثل سيف الدولة، وعليه فإن خصومَهُ معذورون إن حسدوه على هذه المكانة التي يحتلُّها في نفس سَيِّده الذي يتنافس في القرب منه المتنافسون. وإذا عُوفي سيفُ الدولة ممَّا كان به قال شاعِرُهُ:

المجدُ عُوفيَ إذْ عُوفيتَ والكَرمُ — وزال عنك إلى أعدائكَ الألمُ

صَحَّت بصحَّتك الغاراتُ وابتهجت — بها المكارمُ وانهلَّت بها الديَمُ

وراجَعَ الشمسَ نورٌ كان فارقَها — كأنما فَقْدُهُ في جسمها سَقَمُ

ولاح برقُك لي من عارضَي مَلِكٍ — ما يسقطُ الغيث إلاَّ حيثُ يبتسمِ

يَسْمَى الحُسامَ وليست من مُشابَهَةٍ — وكيف يشتبه المخدُومُ والخَدمُ

تفرَّد العُرْبُ في الدنيا بمَحْتِده — وشارك العُربَ في إحسانِه العَجَمُ

وأَخلص اللهُ للإسلامِ نُصْرتَهُ — وإن تقلَّب في آلائه الأُممُ

وما أَخُصُّك في بُرْءٍ بتهنئةٍ — إذا سلمتَ فكلُّ الناس قد سَلموا

وفي آخر رمضان من سنة ٣٤٢هـ هنأه بعيد الفطر ببضعة أبيات حيث قال:

الصومُ والفِطْرُ والأَعيادُ والعُصُرُ — مُنيرةٌ بك حتى الشمسُ والقَمرُ

تُري الأَهلَّةَ وَجْهاً عَمَّ نائلُهُ — فما يُخَصُّ به من دونها البَشَرُ

ما الدهرُ عندك إلاَّ روضةٌ أُنُفٌ — يا مَنْ شَمائلُهُ في دهرِه زَهَرُ

ما ينتهي لك في أيامه كَرَمٌ — فلا انتهى لكَ في أعوامه عُمُرُ

فإنَّ حظَّكَ من تَكرارها شَرَفٌ — وحظَّ غيرِك منها الشيبُ والكِبَرُ

وفي ذي الحجة سنة ٣٤٢هـ قال يمدح سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى، وأَنشده إياها في ميدانه بحلب وهما على فرسيهما عند عرضه للجيش، وفيها يهاجم الخليفة تَصْريحاً لا تلميحاً، ويُنذره بسوء العاقبة، في حين يُهنِّئُ الأَميرَ بالعيد على نحوٍ عَرَضي، ويُزجي إليه المدح ممزوجاً بالحكمة، ويُنْهي القصيدةَ بتأكيد جدارته بأن يكون شاعر الأمير بلا منازع، حيث يقول:

لكلّ امرىءٍ من دهره ما تعوَّدا وعاداتُ سيف الدولةِ الطعنُ في العدا

وأَنْ يُكذِبَ الإرجافَ عنه بضدّه ويُمسي بما تنوي أَعاديه أَسْعَدا[١]

وربّ مُريدٍ ضَرَّهُ ضَرَّ نفسَهُ وهادٍ إليه الجيشَ أهدى وما هَدَى[٢]

ومُستكبرٍ لم يعرفِ اللهَ ساعةً رأَى سيفَهُ في كفِّه فتَشهَّدا

هو البحرُ غُصْ فيه إذا كان ساكناً على الدُّرّ واحذره إذا كان مُزبِدا

فإني رأيتُ البحرَ يَعْثُر بالفتى وهذا الذي يأتي الفتى متعمِّدا[٣]

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً له تفارقُه هَلْكى وتلقاه سُجَّدا

ذكيٌّ تَظنِّيه طليعةُ عينه يرى قلبُه في يومه ما ترى غدا[٤]

وَصُولٌ إلى المُستصْعَباتِ بخيله فلو كانَ قَرْنُ الشمسِ ماءً لأَوردا

لذلك سَمَّى ابنُ الدمستُق يومَهُ مماتاً وسماه الدمستُقُ مَوْلدا[٥]

---

(١) الإرجاف: توليد الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب في الناس.

(٢) يقول: ربّ عدوّ أراد أن يضرّه فضرّ نفسه بتحرشه به، فكأنه أهدى إليه هدية، وضلّ بذلك عن القصد.

(٣) يعثر بالفتى: ينكبه. يقول: إن البحر يهلك راكبه عن غير قصد، أما الممدوح فإنه يهلك أعداءه متعمّداً.

(٤) تظنّيه: ظنُّه. يقول: هو لصحة ذكائه وصحة ظنه إذا ظن شيئاً رآه بعينيه لا محالة.

(٥) أي كان ذلك اليوم مماتاً للابن الأسير وحياة للأب الجريح.

سَرَيْتَ إلى جَيْحانَ من أرضِ آمـدٍ ... ثلاثاً لقد أدنــاكَ ركــضٌ وأَبْعــدا[1]

فــولَّى وأعطــاكَ ابنَــهُ وجيوشَــهُ ... جميعاً ولم يُعــطِ الجميــعَ ليُحمَــدا

عرضتَ لــه دون الحيــاةِ وطَرْفِــه ... وأَبصر سيفَ اللهِ منــكَ مُجــرَّدا[2]

وما طلبــت زُرقُ الأَســنَّةِ غيــرَهُ ... ولكنَّ قُــسطنطينَ كــان لــه الفِــدا

فأصبح يَجتــابُ المُــسوحَ مخافــةً ... وقد كان يجتاب الدِّلاصَ المسرَّدا[3]

ويمشي به العُكَّازُ في الــدير تائبــاً ... وما كان يَرضى مشيَ أَشْقرَ أَجْــردا

وما تاب حتى غادرَ الكَــرُّ وَجْهَــهُ ... جريحاً وخَلَّى جَفْنَهُ النقــعُ أَرْمَــدا

فلو كان يُنجي مــن علــيٍّ تَرهُّــبٌ ... ترهَّبتِ الأَمــلاكُ مثنــى ومَوْحَــدا

وكلُّ امرىءٍ في الشرقِ والغربِ بعدها ... يُعِدُّ له ثوباً مــن الــشَّعْرِ أســودا

هنيئاً لك العيدُ الــذي أنــت عيــدُه ... وعيدٌ لمن سمَّى وضــحَّى وعيَّــدا

ولا زالــت الأعيــادُ لُبْــسَك بعــده ... تُــسلِّمُ مخروقــاً وتُعطَــى مجــدَّداً

فذا اليومُ في الأيامِ مثلُك في الورى ... كما كنت فيهم أوحداً كــان أوحــدا

فيا عَجباً مــن دائــلٍ أنــت ســيفُه ... أمَا يتــوقَّى شَــفْرَتَيْ مــا تقلَّــدا[4]

ومَنْ يجعلِ الضِّرغامَ بــازاً لــصيدهِ ... تصيَّده الــضرغامُ فيمــا تــصيَّدا[5]

---

(١) يقول: بلغت جيحان من آمد في ثلاث ليالٍ فأدناك الركض من جيحان على بعده من محل قيامك وأبعدك عن آمد على قرب عهدك بمغادرتها.

(٢) عرضت: ظهرت. والطرف: العين. يقول: لما رآك حالت رؤيته بينه وبين الحياة فصار في حكم الميت لأنه أيقن هلاكه، ورأى منك سيف الله مشهوراً.

(٣) المسوح: ثياب من شعر. يجتاب: يرتدي. الدلاص: الدرع البراقة. المسرّد: المنظوم. يقول: إنه ترك الحرب خوفاً منك ولبس المسوح وترهب بعد أن كان يرتدي الدروع.

(٤) دائل: صاحب دولة. يريد به الخليفة. يقول: أما يخشى الخليفة - وقد تقلّدك سيفاً - أن تكون سيفاً عليه؟

(٥) يقول: من اتخذ الأسد بازاً يصيد به أتى عليه الأسد فصاده.

رأيتُك محضَ الحِلمِ في مَحْضِ قُدْرةٍ ولو شئتَ كان الحِلْمُ منك المهنَّدا[1]

وما قَتَل الأحــرارَ كــالعفوِ عَــنْهُم ومن لك بالحُرّ الذي يحفظُ اليــدا[2]

إذا أنــت أكرمــتَ الكــريمَ ملكتَــهُ وإن أنــت أكرمــتَ اللئــيمَ تمَّــردا

ووضعُ الندى في مَوْضعِ السيف بالعُلا مُضِرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ولكن تفوقُ الناسَ رأْيــاً وحكمــةً كما فُقْتَهم حــالاً ونفــساً ومَحْتِــدَا

يَدِقُّ على الأَفكار مــا أنــت فاعِــلٌ فيُتْرَكُ ما يَخْفى ويُؤْخَــذُ مــا بــدا

أَزِلْ حَسَدَ الحُــسَّادِ عَنِّــي بكبــتهم فأنت الذي صَــيَّرتهم لــيَ حُــسَّدا

ومــا أنــا إلاَّ ســمهريٌّ حَمَلْتَــهُ فَــزَيَّن معروضــاً وراعَ مُــسَدَّدا

وما الــدهرُ إلاَّ مــن رُواةِ قلائــدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنــشِدا

فسار بــه مَــنْ لا يَــسيرُ مُــشمِّراً وغنَّى بــه مــن لا يُغنِّــي مُغــرِّدا

أَجِزْني إذا أُنــشِدتَ شــعراً فإنمــا بشعري أَتــاك المــادحونَ مُــردَّدا

وَدَعْ كلَّ صوتٍ غيرَ صوتي فــإنني أنا الصائحُ المحكيُّ والآخرُ الصدى

تركتُ السُّرى خلفي لمن قَلَّ مالُــهُ وأَنعلتُ أَفراسي بنُعمــاك عَــسْجَدا

وقَيَّدْتُ نفــسي فــي ذَراكَ محبَّــةً ومن وَجَد الإحــسانَ قيــداً تَقيَّــدا

إذا ســأل الإنــسانُ أيامَــه الغنــى وكُنْتَ على بُعْــدٍ جَعَلْنَــك مَوْعِــدا

وتحيَّن أبو الطيب فرصة وصول رسول ملك الروم بولس مونوماك إلى حلب في صفر سنة ٣٤٣هـ لينظم قصيدة في مدح الأمير الذي أمر بعرض كبير للجيش يُدخل الرعبَ في قلب هذا الرسول. ولكن أبا الطيب لم يتمكن من

---

(١) يقول: رأيتك خالص الحلم في قدرة خالصة لا يشوبها عجز ولا تقصير، ولو شئت لجعلت القتل بالسيف مكان الحلم.

(٢) يقول: إن العفو عن الكريم قتل له، فمن صفح عن حُرّ استرقّه، ولكن من يتكفّل لك بالكريم الذي يحفظ النعمة ويراعي حقها؟

الوصول إلى سيف الدولة في مجلسه لزحام الناس في ذلك اليوم؛ فعاتبه سيف الدولة على تأخّره وانقطاعه، فقال ارتجالاً:

ظُلمٌ لذا اليوم وَصْفٌ قبل رؤيته ... لا يَصْدُقُ الوصفُ حتى يَصْدُقَ النظرُ

تزاحم الجيشُ حتى لم يجد سبباً ... إلى بساطك لي سمعٌ ولا بَصَرُ

فكنتُ أَشْهَدَ مختصٍّ وأَغْيَبَهُ ... معايناً وعِياني كلُّه خَبَرُ

اليومَ يرفعُ ملكُ الروم ناظِرَهُ ... لأَن عَفْوَكَ عنه عنده ظَفَرُ

وإن أجبتَ بشيءٍ عن رسائله ... فما يزال على الأَملاك يفتخرُ

قد استراحت إلى وقتٍ رقابُهُمُ ... من السيوف وباقي القوم ينتظرُ

وقد تُبدِّلُها بالقوم غيرَهُم ... لكي تَجِمَّ رؤوسَ القومِ والقَصَرُ

تشبيهُ جودِك بالأَمطار غاديةً ... جودٌ لكفِّك ثانٍ نَالَه المطرُ

تَكَسَّبُ الشمسُ منك النورَ طالعةً ... كما تكسَّبُ منها نورَه القمرُ

ويبدو أَن هذه الأبيات لم تنقع غُلَّةَ الشاعر والأمير، فاضطُرَّ أبو الطيب إلى أن يوفّيَ هذا الحدثَ حَقَّهُ من الإشادة فنظم القصيدة التالية:

دروعٌ لِمَلْكِ الرومِ هذي الرسائلُ ... يَرُدُّ بها عن نفسه ويُشاغِلُ(١)

هي الزَّردُ الضافي عليه ولفظُها ... عليك ثناءٌ سابغٌ وفضائلُ(٢)

وأَنَّى اهتدى هذا الرسولُ بأرضه ... وما سكنت مُذْ سِرْتَ فيها القساطِلُ(٣)

ومن أَيِّ ماءٍ كان يَسقي جيادَهُ ... ولم تَصْفُ من مَزْجِ الدماءِ المناهِلُ

---

(١) يقول: إن هذه الرسائل التي أرسلها ملك الروم هي بمنزلة الدروع التي يردّك بها عن نفسه، ويشغلك عن قتاله.

(٢) الزرد الضافي: الدروع السابغة التي يحتمي بها. ولكن ألفاظها ثناء عليك.

(٣) القساطل: جمع قسطل وهو غبار المعركة. يقول: كيف اهتدى هذا الرسول إلى الطريق وغبار جيشك لا يزال يحجب الأنظار؟

أَتاكَ يكــادُ الــرأسُ يَجْحــدُ عُنْقَــهُ	وتَنقدُّ تحت الذُّعْرِ منه المفاصِــلُ[1]
يُقَــوِّمُ تقــويمُ الــسِّماطين مَــشْيَهُ	إليــكَ إذا مــا عوَّجَتْــهُ الأفاكِــلُ[2]
فَقَاسَــمَكَ العينــين منــه ولحظَــهُ	سَمِيُّك والخِــلُّ الــذي لا يُزايِــلُ[3]
وأبصر منكَ الرزقَ والرزقُ مُطْمِــعٌ	وأبصر منه الموتَ والموتُ هائلُ[4]
وقبَّــل كُمَّــا قبَّــل التــربَ قبلَــهُ	وكــلُّ كَمِــيٍّ واقــفٌ مُتــضائلُ
مكــانٌ تمنَّــاه الــشِّفاهُ ودونَــهُ	صدورُ المذاكي والرماحُ الــذوابلُ[5]
فمــا بلَّغَتْــه مــا أَرادَ كرامــةٌ	عليك ولكنْ لم يَخِبْ لــك ســائلُ[6]
وأَكبــرَ منــه همَّــةً بعثْــت بــه	إليك العِدى واستنظرتْهُ الجحافِــلُ[7]
إذا عاينتْكَ الرسلُ هانــت نفوسُــها	عليها وما جاءت به والمُراسِــلُ[8]
رَجَا الرومُ مَنْ تُرْجَى النوافِلُ كلُّهــا	لديه ولا تُرجــى لديــه الطوائــلُ[9]

---

(١) يجحد: ينكر. يقول: أتاك هذا الرسول وقد ساوره الخوف حتى يكاد رأسه ينكر عنقه، وتكاد مفاصله تنقطع هيبةً لك، وفرقاً منك.

(٢) السماطان: الصفَّان. أراد الصفين من الجند. والأفاكل: جمع أَفْكَل: الرِّعدة من خوف أو برد. يقول: إذا اضطرب الرسول من الفرنج في مشيه بين يديك قوّمه تقويم السماطين عن جانبيه فمر مستقيماً.

(٣) يعني بسميه: السيف الذي لا يفارقه. يقول: إن سيفك قاسمك عيني الرسول، فكان ينظر بإحدى عينيه إليك وبالأخرى إلى السيف.

(٤) الهائل: المخيف. يقول: أبصر منك الجود، كما أبصر من سيفك الموت المخيف.

(٥) المذاكي من الخيل: التي كملت أسنانها. والذوابل: الرماح. يقول: تتمنى الشفاه تقبيل كمك، لكن الوصول إليه متعذر لكثرة ما يحول دونه من الخيل والرماح.

(٦) يقول: لم يتمكن من تقبيل كمّك بسبب منــزلته الرفيعة لديك بل لأنه سألك ذلك وسائلك لا يخيب.

(٧) أكبر منه همةً: أي أكبر العدا همة هذا الرسول الذي تجرأ على الوصول إليك، لذا فإن جحافلهم تنتظر جوابك.

(٨) يقول: إذا شاهدتك رسل الروم، ورأوا ما أنت فيه من المهابة تصاغرت عندهم نفوسهم، وما أتوا به من الهدايا، مثلما تصاغر لديهم مرسلوهم من الملوك.

(٩) النوافل: جمع نافلة وهي العطية من حيث لا تجب. الطوائل: الأحقاد. يقول: رجا الروم عفو من ترجى كل الهبات عنده، ولا يُرجى أن يُدرك لديه ثأر.

فإن كان خوفُ القتلِ والأَسْرِ ساقهم فقد فعلوا ما القتلُ والأسرُ فاعــلُ[1]

فخافوك حتـــى مـــا لقتـــلٍ زيـــادةٌ وجاؤوك حتَّى ما تُرادُ الــسلاسِلُ[2]

أرى كلَّ ذي مُلْـكٍ إليـكَ مـصيرُهُ كأنـــك بحـــرٌ والملـــوكُ جـــداوِلُ

إذا مَطرت مـــنهم ومنـــكَ ســحائبٌ فـــوابلُهم طـــلٌّ وطلُّـــك وابـــلُ[3]

أَذا الجودِ أَعطِ الناسَ ما أنت مالــكٌ ولا تُعطينَّ الناسَ ما أنـــا قائـــلُ[4]

أفي كلّ يومٍ تحتَ ضِــبْني شُــوَيْعرٌ ضعيفٌ يُقــاويني قــصيرٌ يُطــاوِلُ

لساني بنُطْقي صامتٌ عنـــه عـــادلٌ وقلبي بصمتي ضاحكٌ منـــه هـــازِلُ

وأَتعبُ من نـــاداكَ مَـــنْ لا تُجيبُـــه وأَغْيَظُ من عاداك مَـــنْ لا تُـــشاكِلُ

وما التِّيهُ طِبِّي فـــيهم غيـــرَ أنَّنـــي بغيضٌ إلـــيَّ الجاهـــلُ المتعاقِـــلُ[5]

وأكبـــرُ تيهـــي أَنَّنـــي بـــك واثـــقٌ وأكثـــرُ مـــالي أَنَّنـــي لـــكَ آمِـــلُ

رميـــتُ عِـــداهُ بـــالقوافي وفـــضلِهِ وهنَّ الغوازي السالباتُ القواتِـــلُ[6]

وقـــد زعمـــوا أن النجـــومَ خوالِـــدٌ ولو حاربَتْـــهُ نـــاح فيهـــا الثواكـــلُ

قريبٌ عليه كلُّ ناءٍ علـــى الـــورى إذا لثَّمتْـــه بالغبـــارِ القنابـــلُ[7]

---

(١) يقول: إن كان الذي ساقهم إليك هو خوفهم من القتل والأسر، فقد فعلوا بأنفسهم من الذلة والانقياد ما لا يفعل الأسر والقتل أكثر منه.

(٢) يقول: خافوك خوفاً لوقتلتهم لم يزد خوفهم على ذلك، وجاؤوك طائعين حتى لا تحتاج في أسرهم إلى السلاسل.

(٣) الطل: المطر الضعيف. الوابل: المطر الغزير.

(٤) يقول: أعطِ الناسَ أموالك، ولا تعطهم شعري ، أي لا تحوجني إلى مدح غيرك.

(٥) التيه: الكبر، والطب العادة والديدن.

(٦) القوافي: القصائد. الغوازي: من الغزو. يقول: مدحته بإذاعة فضائله، فكأني رميت بقصائدي التي تذكر فضائله أعداءه فقتلتهم غيظاً وحسداً.

(٧) القنابل: الجماعات من الخيل. يقول: قريب عليه كل بعيد من المطالب إذا حاوله بجيشه، فانعقد عليه الغبار من كثرة الخيل حتى يصير كاللثام.

تُدبِّر شرقَ الأرضِ والغـربَ كَفُّـه   وليس لها وقتاً عن الجودِ شاغِلُ(١)

إذا العربُ العَرْباءُ رازت نفوسَـها   فأَنت فتاهـا والمليـكُ الحُلاحِـلُ(٢)

أطاعتكَ فـي أرواحهـا وتـصرَّفت   بـأمرِكَ والتفَّـتْ عليـكَ القبائـلُ

رأَيتُكَ لو لم يَقْتضِ الطعنُ في الـوغى   إليك انقياداً لاقتـضتْهُ الـشمائلُ(٣)

ومَنْ لم تُعلِّمْـه لـك الـذلَّ نفـسُهُ   من الناس طُرًّا علَّمتْه المناصِـلُ(٤)

وفي السنة نفسها ٣٤٣هـ وبعد عدة أشهر من وصول رسول الروم إلى حلب ثار البدو من بني كلاب الضَّاربين في منطقة الفرات الأَوسط بنواحي بالس وهي بَلْدة بين حلب والرَّقَّة على ضفَّة الفرات الغربيَّة. وكان سيفُ الدولة قد أوكل مهمَّةَ قمع المتمرِّدين إلى أَبي فراس المقيم بمنبج، ولكن هذا الحدث كان من الخطورة بحيث استدعى تدخُّلَ سيف الدولة شخصياً لإنهاء هذا التمرد، فالتقى جيشُ سيف الدولة بجيش أبي فراس على الفرات، واتَّحد الجيشان، ثم سار سيف الدولة خلف الثائرين ومعه أبو الطيب، فأدركهم بين ماءين يُعرفان بالغُبارات والخرَّارات، فأوقع بهم وغنم الغنائم وملك الحريم، فأَبقى عليه، ولكنه أعاد الغنائم إلى أصحابها، وأرجع السبايا محمَّلاتٍ بالهدايا ليؤلِّفَ قلوبَ بني كلاب، ويُخمِدَ ما يُمكن أن تُثيرَه مثلُ هذه الحروبِ من أحقاد يتعذَّر إطفاؤها. وبعد عودة الجيش إلى حلب في جُمادى الآخرة سنة ٣٤٣هـ أنشد أبو الطيب سيفَ الدولة قصيدةً بائية يصف فيها هذه المعركة التي تمكَّن فيها سيف الدولة من أَخْذ المتمردين

---

(١) أراد أنه لا يغفل عن الجود وإن عظم شغله. ونصب وقتاً لأنه ظرف لشاغل أي ليس لها شيء يشغلها وقتاً عن الجود.

(٢) العرب العرباء: الخالصة التي لم تشبها هجنة. رازت: اختبرت. فتاها: كريمها وسخيها. الحلاحل: السيِّد.

(٣) يقول: إن لم يُطِعْك الناسُ خوفاً من طعنك أطاعوك حباً لشمائلك.

(٤) المناصل: جمع منصل وهو السيف. يقول: من لم تعلِّمه نفسه الخضوع لك أجبرته سيوفك على ذلك.

بهجوم صاعق، فاندفع نحوهم اندفاعَ السيل، فظفر بهم بسهولةٍ ويُسر. فأَسر الرجال منهم وسبى النساء، ولكنه بدلاً من أن يبطش بهم عفا عنهم وردَّ إليهم حريتهم وحياتهم. فقال أبو الطيب:

**بغيرِك راعياً عبثَ الذئابُ		وغيرَك صارماً ثَلَم الضِّرابُ**
**وتملِكُ أَنْفُسَ الثِّقَلين طُرًّا		فكيف تحوزُ أَنْفُسَها كلابُ**
**وما تركوكَ معصيةً ولكن		يُعافُ الورْدُ والموتُ الشرابُ[1]**
**طَلَبْتَهُمُ على الأَمواهِ حتَّى		تَخوَّفَ أن تُفَتِّشَهُ السحابُ[2]**
**فبِتَّ لياليًا لا نومَ فيها		تَخُبُّ بكَ المسوَّمةُ العِرابُ**
**يَهزُّ الجيشُ حولَكَ جانبيهِ		كما نفَضَتْ جناحيها العُقابُ**
**وتسألُ عنهم الفَلَواتِ حتى		أَجابَكَ بعضُها وَهُمُ الجوابُ**
**فَقَاتَلَ عن حريمهمُ وفَرُّوا		ندى كفِّيكَ والنسَبُ القُرابُ**
**وحِفْظُكَ فيهمُ سَلَفَيْ معدٍّ		وأنَّهمُ العشائرُ والصِّحابُ[3]**
**تُكَفْكِفُ عنهمُ صُمَّ العوالي		وقد شَرِقَتْ بظُعْنِهِمُ الشِّعابُ[4]**
**إذا ما سِرْتَ في آثار قومٍ		تَخاذلتِ الجماجمُ والرقابُ[5]**
**فَعُدْنَ كما أُخِذْنَ مُكرَّماتٍ		عليهنَّ القلائدُ والمَلابُ[6]**

---

(١) يقول: إنما تركوك وانهزموا خوفاً منك لا عصياناً لأنهم إذا ثبتوا أوردوا أنفسهم موردَ التلف والهلاك.

(٢) يقول: تتبعت أمواه البادية في طلبهم حتى خشيَ السحابُ من أن تفتشه بحثاً عنهم.

(٣) سلفا معدّ: هما ربيعة ومضر لأن سيف الدولة ينتهي إلى ربيعة، وبنو كلاب ينتهون إلى مضر.

(٤) تكفكف: تكف. صُمّ العوالي: الرماح الصلبة. شرقت: غصَّت. الظعن: جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج.

(٥) تخاذلت: تأخرت. كأن المراد أنها ارتدت إلى الوراء خوفاً من أن تضرب.

(٦) الملاب: ضرب من الطيب.

يُثِبْنَكَ بالذي أوليتَ شكراً   وأين من الذي تُولي الثوابُ[1]
ترفَّقْ أيُّها المولى عليهم   فإنَّ الرفقَ بالجاني عِتابُ
وإنَّهمُ عبيدُك حيثُ كانوا   إذا تدعو لحادثةٍ أَجابوا
وعَينُ المخطئين هُمُ وليسوا   بأول معشرٍ خَطِئوا فتَابُوا
وما جهِلت أَياديك البوادي   ولكن ربَّما خفي الصوابُ
ولو غيرُ الأَمير غزا كلاباً   ثَناهُ عن شموسهم ضَبابُ[2]
ولاقى دون ثايهمُ طِعاناً   يلاقي عنده الذئبَ الغرابُ[3]
وخيلاً تغتذي ريحَ المَوامي   ويكفيها من الماء السرابُ[4]
ولكنْ ربُّهم أسرى إليهم   فما نَفَعَ الوقوفُ ولا الذهابُ[5]
رَمَيْتَهُمُ ببحرٍ من حديدٍ   له في البَرِّ خَلْفَهمُ عُبابُ
فمسَّاهم وبُسْطُهُمُ حريرٌ   وصبَّحهم وبُسطهُمُ تُرابُ
ومَنْ في كفِّه منهم قناةٌ   كمَنْ في كفِّه منهم خضابُ
كذا فَلْيَسرِ مَنْ طلبَ الأَعادي   ومثلَ سُراكَ فليكُنِ الطِّلابُ

وفي السنة نفسها ٣٤٣هـ وعقب إخماد تمرُّد بني كلاب، سار سيفُ الدولة نحو قلعة الحدث لإعادة بنائها، وكان الدمستُقُ بَرْدَس فُقَّاس قد دمَّرها وأَحرقها سنة ٣٣٧هـ فدخلها سيفُ الدولة فجأةً في السابع عشر من جمادى

(١) أثابه: كافأه. أوليت: أنعمت.
(٢) يذكر قوتهم وشوكتهم، وأن غير سيف الدولة لو أتاهم لما ظفر بهم.
(٣) الثاي: جمع ثاية وهي حجارة تجعل حول البيت يأوي إليها الراعي ليلاً يقول: لو غزاهم سواه لثناه عنهم طعان يكثر فيها القتلى حتى يجتمع عليهم الذئب والغراب.
(٤) الموامي: جمع موماة: المفازة.
(٥) ربّهم: مالكهم. أسرى: سرى ليلاً. يقول إنك سرت إليهم فما نفعهم الوقوف في ديارهم للذود عنها ولا الهرب.

الثانية سنة ٣٤٣هـ ليُعيدَ بناءَها من جديد رغم أنف الروم. والحدث قلعة حصينة بين مَلَطْية وسُمَيْساط ومرعش من الثغور، ويقال لها: الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء، وقلعتُها على جبل يقال له الأُحيدب. وجاء في أخبار الفتوحات أن حصنَ الحدث فُتح في أَيام عمر بن الخطاب فتحه حبيبُ بن مَسْلَمة الفِهْريّ من قِبَل عِياض بن غَنْم، وكان معاوية يتعاهده بعد ذلك. وفي فتنة مروان بن محمد خرجت الروم، فقدمت مدينةَ الحدث وأَجلت أَهلها عنها كما فعلت بملطية، ولكن المهديَّ العباسي أَعادَ بناءها. ولما ولي الرشيد دفع عنها الروم، وأعاد عمارتها وأَسكنها الجُنْدَ. وبقيت بأيدي المسلمين إلى أن أخربها الروم وأَجلَوا أَهلها عنها. ولما علم الدمستُق بَرْدَس فقَّاس بدخول سيف الدولة إلى الحدث ضرب الحصار على المدينة في نحو خمسين ألف مقاتل بين فارس وراجل، ومعه ابنه نقفور وعددٌ من رؤوس البطارقة، وبدأت المواجهة بين الفريقين يوم الإثنين في نهاية شهر جمادى الثانية إزاء حصن الأُحَيْدب، ودارت بينهما معركة عنيفة يوماً كاملاً إلى أن حمل سيفُ الدولة بنفسه على العدو بخمس مئة من غلمانه، فظفر بالدمستق، وقتل ثلاثة آلاف من رجاله، وأَسَر خلقاً كثيراً، فقتل بعضهم وأقام حتى بنى الحدث. ولم يَنْجُ الدمستق بَرْدس فُقَّاس من المذبحة إلاَّ بالاختباء في سرداب في حين قُتِلَ ابنُه الشاب، وأُسر صهرُهُ وابنُ عمّه وزوجُ أختِه فذُبِح هؤلاءِ الأَسرى جميعاً. وبعد أن أتم سيفُ الدولة بناءَ الحدث في الثالث عشر من رجب سنة ٣٤٣هـ أَنشده المتنبي قصيدته الميمية الشهيرة:

على قَدْرِ أَهلِ العزم تــأْتي العــزائمُ ... وتأْتي على قَــدْرِ الكــرام المكــارمُ

وتَعظُمُ في عين الصغير صــغارُها ... وتصغُر في عين العظـيم العظــائمُ

يكلِّف سيفُ الدولة الجـيشَ همَّــه ... وقد عَجَزتْ عنــه الجيـوشُ الخَـضارِمُ[1]

ويطلبُ عند الناسِ ما عنــدَ نَفْسه ... وذلــك مــالا تدَّعيــه الــضراغمُ

---

(١) الخضارم: جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شيء.

هل الحدثُ الحمراءُ تعـرف لونَهـا وتعلـــمُ أَيُّ الـــسَّاقِيَيْنِ الغمـــائمُ
سَقَتْها الغَمـامُ الغُـرُّ قبـل نزولـهِ فلمَّا دنـا منهـا سـقتها الجمـاجمُ
بناها فأَعلى والقنـا تقـرعُ القنـا ومـوجُ المنايـا حَوْلَهـا مُـتلاطِمُ
أَتَـوك يجـرُّون الحديـدَ كـأَنهم سَـرَوْا بجيـادٍ مـا لهـنَّ قـوائمُ
إذا بَرِقَوا لم تُعْرَفِ البـيضُ مـنهُمُ ثيـابُهُمُ مـن مثلهـا والعمـائمُ[(١)]
خميسٌ بشرق الأرضِ والغربِ زَحْفُـه وفي أُذنِ الجوزاء منـه زَمـازمُ[(٢)]
تَجمَّـعَ فيـه كـلُّ لِـسْنٍ وأُمَّـةٍ فما تُفْهِـمُ الحُـدَّاثَ إلاَّ التـراجمُ[(٣)]
فلِلَّـه وقـتٌ ذوَّب الغِـشَّ نـارُه فلم يبقَ إلاَّ صـارمٌ أو ضُـبارمُ[(٤)]
تَقطَّعَ مالا يَقْطَـعُ الـدرعَ والقنـا وفرَّ من الأبطـال مَـنْ لا يُـصادمُ
وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقـفٍ كأنَّك في جَفْن الردى وهـو نـائمُ
تَمرُّ بـكَ الأبطـالُ كَلْمَـى هزيمـةً ووَجْهُـك وَضَّـاحٌ وثغـرُك باسـمُ
تَجاوَزْتَ مقدارَ الـشجاعةِ والنُّهـى إلى قول قومٍ أَنـت بالغيـب عـالِمُ
ضَمَمْتَ جناحَيْهم على القلب ضـمَّةً تموتُ الخـوافي تحتَهـا والقـوادمُ
بضربٍ أَتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وصار إلى اللَّبَّات والنصرُ قـادمُ[(٥)]
حقَرْتَ الرُّدينيَّـاتِ حتـى طرحتَهـا وحتى كأَنّ السيفَ للرمح شـاتمُ[(٦)]

---

(١) البرق: اللمعان. أي إن عمائهم الخوذ وثيابهم الدروع.
(٢) الخميس: الجيش العظيم. والزمازم: الأصوات. يقول: إن هذا الجيش لكثرته طبّق الأرض، وبلغت أصواته السماء.
(٣) اللّسن: اللّسان واللغة. والحدَّاث: المتحدثون.
(٤) الغِش: عنى به الضعاف من الرجال والأسلحة. الصارم: السيف القاطع والضبارم: الشجاع الجريء.
(٥) الهامات: الرؤوس. واللبَّات: النحور.
(٦) الردينيات: الرماح. أراد أنه طرح الرماح واستقلّ فعلها، وعدل عنها إلى السيوف عالماً بفضلها، فكأنما تشتم الرماح لأنها سلاح الجبناء.

ومَنْ طلــب الفــتحَ الجليــلَ فإنَّمــا   مفاتيحُه البيضُ الخِفافُ الــصوارمُ
نَثَــرتَهُمُ فــوق الأُحيــدبِ نَثْــرةً   كما نُثِرت فوقَ العــروسِ الــدراهمُ
تدوسُ بك الخيلُ الوكورَ على الذُّرا   وقد كثرت حول الوكــورِ المطــاعمُ
تظنُّ فــراخُ الفُــتْخِ أَنَّــكَ زرتَهــا   بأُمَّاتِها وهي العتــاق الــصلادمُ[(١)]
إذا زَلِقــتْ مــشَّيتَها ببطونهـــا   كما تتمشَّى في الصعيدِ الأراقــمُ[(٢)]
أَفي كلّ يــومٍ ذا الدمــستُقُ مُقــدِمٌ   قفاه على الإقــدامِ للوجــهِ لائــمُ[(٣)]
وقد فَجَعَتْهُ بابنــه وابــن صِــهره   وبالصِّهر حَمْلاتُ الأَمير الغواشِمُ[(٤)]
مضى يشكرُ الأَصحابَ في فَوْتِه الظُّبى   بما شَغَلَتْها هــامُهم والمعاصِــمُ[(٥)]
ولــستَ مليكــاً هازمــاً لنظيــرِه   ولكنَّــكَ التوحيــدُ للــشِّركِ هــازمُ
لكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي لــيَ لفظُــه   فإنَّـــك مُعْطيـــه وإنِّـــيَ نـــاظِمُ
وإنّي لَتَعْدو بي عَطاياك في الــوغى   فلا أَنا مــذمومٌ ولا أنــت نــادِمُ[(٦)]
أَلاّ أيُّها السيفُ الذي لــيس مُغْمَــداً   ولا فيه مُرتــابٌ ولا منــه عاصِــمُ
هنيئاً لضربِ الهام والمجدِ والعُــلا   وراجيــك والإســلامِ أَنَّــك ســالِمُ
ولِمْ لا يَقي الرحمنُ حَدَّيْكَ ما وَقَــى   وتفليقُــهُ هــامَ العِــدا بِــكَ دائــمُ

---

(١) الفتخ: جمع فتخاء: إناث العقبان. والعتاق: كرام الخيل. والصلادم: الشديدة الصلبة.

(٢) الصعيد: وجه الأرض. والأراقم: الحيَّات فيها سواد وبياض.

(٣) يقول: أفي كل يوم يقدم عليك الدمستق ثم يفر فيلوم قفاه وجهه على إقدامه، قائلاً له: لم أقدمت حتى عرّضتني للضرب بهزيمتك؟

(٤) الغواشم: التي لا تبالي من أخذت.

(٥) يقول: انهزم وهو يشكر أصحابه لأن السيوف اشتغلت بهم عنه.

(٦) يقول: إني أمتطي في الغزو خيلك التي أعطيتَنِيها فلستُ مذموماً في أخذها، ولست أنت نادماً على عطائك لقيامي بحق ما أوليتني.

ولاذ أبو الطيب بالصمت نحو ستَّة أَشْهر بعد أن أنشد ميميّته الرائعة التي تناقلتها الأَلسُن، ليخرجَ عن صمته في السابع عشر من محرم سنة ٣٤٤هـ عندما قَدِم فرسانُ الثغور إلى حلب ومعهم رسولُ ملك الروم يطلب الهُدْنَةَ، فأَنشد الأمير قصيدته التالية بحضورهم:

أَراعَ كـذا كـلَّ الملـوكِ هُمـامُ ... وسحَّ له رُسُلَ الملوكِ غَمـامُ؟[١]

ودانتْ له الـدنيا فأَصـبح جالـساً ... وأَيامُهـا فيمـا يريـدُ قيـامُ[٢]

إذا زار سيفُ الدولةِ الرومَ غازيـاً ... كفاهـا لِمـامٌ لـو كفـاهُ لِمَـامُ[٣]

فتىً تتبعُ الأزمانُ في الناس خَطْـوَهُ ... لِكـلِّ زمـامٍ فـي يَدَيْـهِ زمـامُ[٤]

تنامُ لـديكَ الرسْـلُ أَمْنـاً وغبطـةً ... وأَجفانُ ربِّ الرسْلِ لـيس تنـامُ[٥]

وما تنفع الخيلُ الكـرامُ ولا القنـا ... إذا لم يكـن فـوقَ الكـرامِ كـرامُ

إلى كم تردُّ الرسلَ عمَّا أَتَـوا بـه ... كـأنَّهمُ فيمـا وهبـتَ مَـلامُ[٦]

وإنْ كنتَ لا تُعطي الذِّمامَ طَواعـةً ... فَعَوذُ الأَعـادي بـالكريم ذمـامُ[٧]

---

(١) أراع: أفزع. الهمام: الملك العظيم الهمة. يقول: هل راع ملك جميع الخلق كما رعتهم، وهل تقاطرت رسل الملوك على ملك كما تقاطرت عليك؟

(٢) دانت: أطاعت. قيام: قائمه. يقول: هل أطاعت الدنيا أحداً كما أطاعته وخضعت له جالساً، وقامت الأيام تسعى في تحصيل ما يريد.

(٣) اللمام: الزيارة القليلة. يقول: إذا غزا الرم كفاهم أدنى نزول بأرضهم لو اكتفى هو بذلك، لكنه لا يكتفي حتى يبلغ أقصى بلادهم.

(٤) يقول: إن الزمان تابع له فيجري في الناس على مراده.

(٥) يقول: إنك تحسن إلى الرسل فهم آمنون ما كانوا عندك، والذين أرسلوهم إليك لا يغمض لهم جفن خوفاً منك.

(٦) يقول: إنك ترد الرسلَ عمَّا يطلبون من الهدنة ردّك لوم اللائمين في العطاء.

(٧) الذمام: العهد. طواعة: طائعاً. وعاذ به: لجأ. يقول: إن كنت لا تعطي الروم عهداً طواعيةً، فلياذهم بك يوجب لهم الذمام لأنّ من لاذ بالكريم وجبت له الذمة وإن كان عدوّاً.

وإنَّ نفوســـاً أَمَّمتْــكَ منيعــةٌ وإنَّ دمـــاءً أمّلّتْــك حــرامُ[١]

إذا خاف مَلْكٌ مـن مَليـكٍ أَجَرْتَـه وسيفَكَ خـافوا والجـوارَ تُـسامُ[٢]

كتائبُ جـاؤوا خاضـعين فأَقـدموا ولو لم يكونوا خاضعين لخـاموا[٣]

وعزَّت قـديماً فـي ذَرَاك خيـولُهم وعزُّوا وعامت في نداكَ وعاموا[٤]

على وجهك الميمونِ في كلِّ غـارةٍ صـلاةٌ تَـوالى مـنهمُ وسـلامُ

وكـلُّ أُنـاسٍ يتبعـون إمـامَهم وأنـت لأهـل المَكْرُمـاتِ إمـامُ

وربَّ جَـوابٍ عـن كتـابٍ بَعثْتَـه وعنوانُـه للنـاظرين قَتَـامُ[٥]

تضيقُ به البيداءُ من قبـل نَـشْرِه وما فُـضَّ بالبيـداء عنـه خِتـامُ

حروفُ هجاءِ النـاسِ فيـه ثلاثـةٌ جـوادٌ ورمـحٌ ذابـلٌ وحُـسامُ

أخا الحربِ قد أتعبتَها فالْـهُ سـاعةً ليُغمـدَ نـصلٌ أو يُحَـلَّ حِـزامُ

جرى معكَ الجارون حتى إذا انتهوا إلى الغايةِ القصوى جريتَ وقـاموا

فليس لـشمسٍ مُـذْ أَنـرتَ إنـارةٌ ولـيس لبـدرٍ مُـذْ تَمَمْـتَ تَمـامُ

وفي الوقت الذي كان فيه سيف الدولة يستقبل رسولَ ملك الروم وردْته أخبارُ المتمردين من قبائل بني كلاب، وقُشَيْر وعُقَيل وبني العجلان فعاثوا في البلاد فساداً وخراباً. وكان زعماؤهم قد عقدوا اجتماعاً بالقرب من بلدة خُناصرة

(١) أممتك: قصدتك. يقول: إن من قصدك راجياً صار منيعاً بقصدك، وحرمت إراقة دمه لأنه دخل في حرمته.

(٢) يقول: إذا خاف ملك من ملك أجرت الخائف، وهم أي الروم إنما خافوا سيفك، وسألوك أن تجيرهم منه، وإذا كنت تجير من غيرك فأنت بأن تجير من نفسك أولى.

(٣) خام: جبن. يقول: هؤلاء الفرسان جاؤوك خاضعين فاجترؤوا عليك بقدومهم ولو لم يكونوا كذلك لم يجسروا على لقائك.

(٤) يقول: والمراد فرسان الثغور الذين وسطهم الروم لدى سيف الدولة في طلب الهدنة: إنهم تعوّدوا إحسانك قديماً إذ كانوا في كنفك تحسن إليهم حتى غرقوا في برّك.

(٥) القتام: غبار الحرب.

المحاذية لقِنَّسْرين من جهة البادية وهي من أعمال حلب. أَعلنوا فيه تحالفهم وعزمهم على التمرد ضدّ سلطة سيف الدولة وعُمَّاله؛ فهاجموا قِنَّسْرِين وقتلوا قائدَ حاميتها من قِبَل سيف الدولة؛ فأرسل الأخير عدداً من جنوده لإعادة الهدوء والأمن إلى المدينة وذلك في مطلع شهر صفر سنة ٣٤٤هـ ولكنهم أخفقوا في مهمَّتهم؛ فاضطر سيفَ الدولة إلى التوجه بجيشه في الحادي عشر من صفر لإخماد الفتنة. ولم يكن أبو الطيب في صُحبته هذه المرَّة. وعندما وصل سيفُ الدولة إلى حِيار بني القعقاع - وهي صُقْع من بريّة قِنَّسرين بينه وبين حلب يومان، كان الوليد بن عبد الملك أقطعه القعقاع بن خُليد - انضمّ إليه بنو كلاب الذين تخلَّفوا عن بقيَّة القبائل، ثم هاجم المتمردين في بادية سَلَمْيَة؛ فانهزموا أمامه، وأسر العديدَ منهم واستولى على مواشيهم. ثم تابع زحفه نحو تدمر حيث تجمَّعوا فيها ظنًّا منهم أنهم أصبحوا في مأمن. وفي صباح السابع عشر من شهر صفر داهمتهم طلائعُ الجيش الحمداني، فلاذوا بالفرار. ولما وصل سيفُ الدولة في منتصف النهار أَسر عدداً منهم في حين هلك الكثير منهم قتلاً وعطشاً ولا سيما أولئك الذين هاموا على وجوههم في تلك الصحراء الموحشة. وعاد الأمير بعد يومين محمَّلا بالغنائم. فمرَّ بِبُليدة عُرْض، وهي بين تدمر ورصافة هشام. ثم مرّ بالرصافة وهي غربي الرقّة بينهما أربعة فراسخ على طرف البريّة، بناها هشام بن عبد الملك لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف. ثم توجه سيف الدولة من الرصافة إلى الرقَّة حيث أعلن آخرُ المتمردين استسلامَهُم وخضوعَهم لأمير حلب. وفي السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٤٤هـ وصل سيف الدولة إلى حلب، فقال أبو الطيب يمدحه، ويذكر إيقاعه بتلك القبائل المتمرِّدة:

تذكَّرتُ ما بينَ العُذيبِ وبارقِ ... مَجرَّ عوالينا ومجرى السوابقِ(١)

وصُحبةَ قومٍ يذبحون قنيصَهم ... بفَضْلَةِ ما قد كسَّروا في المفارقِ(٢)

---

(١) العذيب وبارق: موضعان بظاهر الكوفة. العوالي: الرماح. السوابق: الخيل. والمراد أنه تذكر أرضه ومنشأه ومطاردة الفرسان وإجراء الخيل.

(٢) القنيص: الصيد. يقول: تذكرت صحبة هؤلاء الصعاليك الذين لا يكسرون سيوفهم إلاّ في جماجم الأبطال، فيذبحون ما يصيدون بفضول ما بقي من سيوفهم المحطمة.

ولـــيلاً توسَّـــدنا الثويَّـــةَ تَحْتَـــهُ … كأن ثراها عنبرٌ فـــي المرافِــقِ[1]

بـــلادٌ إذا زار الحـــسانَ بغيرهـــا … حَصَا تُربِها ثَقَّبْنَه فـــي المخـــانقِ[2]

ســـقتني بهـــا القُطْرُبُّلـــيَّ مليحـــةٌ … على كاذبٍ من وعدها ضَـوءُ صـادقِ[3]

سُـــهادٌ لأجفـــانٍ وشـــمسٌ لنـــاظرٍ … وسُـــقمٌ لأَبـــدانٍ ومِـــسْكٌ لناشـــقِ

إلى أن يقول:

برأيِ مَنِ انقادت عُقَيلٌ إلى الـــردى … وإشمات مَخْلوقٍ وإســـخاطِ خـــالقِ

أَرادوا عليًّا بالذي يُعجِـــزُ الـــورى … ويُوسِعُ قتـــلَ الجَحْفَـــلِ المتـــضايقِ

فما بسطوا كفًّا إلـــى غيـــر قـــاطعٍ … ولا حملوا رأساً إلـــى غيـــرِ فـــالقِ

لقد أقدموا لو صادفوا غيـــرَ آخـــذٍ … وقد هربوا لو صادفوا غيرَ لاحقِ[4]

ولمَّا كسا كعباً ثيابـــاً طَغَـــوا بهـــا … رمى كلَّ ثوبٍ من سِنانٍ بخـــارقِ[5]

ولمَّا سقى الغيثَ الذي كفـــروا بـــه … سقى غيرَهُ في غيرِ تلك البوارقِ[6]

أتاهم بها حَـــشْوَ العجاجـــةِ والقنـــا … سنابكُها تحشو بطـــونَ الحمـــالقِ[7]

---

(١) الثويّة: موضع بقرب الكوفة.

(٢) المخانق: القلائد.

(٣) قُطْرُبُّل: ضيعة من أعمال بغداد.

(٤) يقول: لقد أقدموا على الحرب ولكنهم وجدوا من أخذهم عند الإقدام، ولحقهم عند الهرب.

(٥) يقول: لما أنعم عليهم فألبسهم ثياب نعمته طغوا وتمرّدوا ولم يشكروا نعمته فسلبهم النعمة بالإغارة عليهم وتقتيلهم.

(٦) أراد بالغيث: إنعامه عليهم. والمعنى: لما أمطر عليهم الخير والجود وكفروا به أمطر عليهم العذاب لأنه أتاهم من عسكره في مثل السحائب البارقة.

(٧) أتاهم بها: أي بالخيل... يقول: أتاهم بالخيل وقد أحاطت بها الرماح والغبار فهي حشو هذين، وحوافرها تحشو العيون بما تثير من الغبار. وقال العروضي: إن الخيل تطأ رؤوس القتلى فتحشو حماليقها بسنابكها.

عوابسَ حَلَّى يابسُ الماء حُزْمَهـا | فهنَّ على أوسـاطها كالمنـاطقِ[١]
فليتَ أَبا الهيجا يرى خَلْـفَ تـدمرٍ | طِوالَ العوالي في طِوالِ السَّمالِقِ[٢]
وسَوْقَ عليٍّ مـن مَعـدٍّ وغيرهـا | قبائـلَ لا تُعطـي القُفـيَّ لِـسائقِ
قُـشَيرٌ وبَلْعجـلان فِيهـا خَفيَّـةٌ | كَراءَيْنِ في ألفاظِ أَلْثَـغَ نـاطقِ[٣]
تُخلِّـيهمُ النـسوانُ غيـرَ فـواركٍ | وهم خَلَّوُا النِّسوانَ غيرَ طوالـقِ[٤]
يُفَـرِّقُ مـا بـين الكُمـاةِ وبينَهـا | بضربٍ يُسلِّي حَرُّه كـلَّ عاشـقِ[٥]
بِكلِّ فـلاةٍ تُنكِـرُ الإنـسَ أرضُـها | ظعائنُ حُمْرُ الحَلْي حُمْرُ الأيـانقِ[٦]
توهَّمها   الأعرابُ سَـورةَ مُتْـرفٍ | تُذكِّرُهُ البَيْـداءُ ظِـلَّ الـسُّرادقِ[٧]
فـذكّرتَهم بالمـاءِ سـاعةَ غَبَّـرت | سَماوةُ كَلْبٍ في أُنوفِ الحزائـقِ[٨]
وكانوا يَرُوعونَ الملوكَ بأَن بَـدَوْا | وأَنْ نبتت في الماء نَبْتَ الغلافقِ[٩]

---

(١) عوابسَ: كالحة. ويابس الماء: ما جفّ من العرق. يقول: أتتهم الخيل كالحة وقد جفّ العرق على حزمها فابيض فأصبحت الحزم كأنها المناطق المحلاّة بالفضة.

(٢) أبو الهيجا: والد سيف الدولة. السمالق: جمع سملق: المفازة المترامية الأطراف.

(٣) بلعجلان: بني العجلان. أراد تبدّد شمل هاتين القبيلتين بين ما تبدّد من القبائل، واختفاؤهما اختفاء راءين في لفظ ألثغ.

(٤) فوارك: مبغضات.

(٥) يقول: يفرق سيف الدولة بين الأبطال وبين نسائهم بضرب يُنسي العاشق معشوقه.

(٦) الظعائن: النساء المحمولات في الهوادج. الأيانق: النوق. يقول: إنهم أبعدوا في الهرب حتى انتشر نساؤهم في كل فلاةٍ منقطعة لا عهد لها بالأنس.

(٧) السورة: الوثبة. يقول: توهّم الأعراب أن إن حربك سورة متنعم إذا صار في البيداء تذكر ما كان فيه من الظل والنعيم، فانصرف عنهم.

(٨) غبّرت: أثارت الغبار. سماوة كلب: سماوة بني كلب. الحزائق: الجماعات.

(٩) يروعون: يخيفون. بأن بدوا: أقاموا في البادية. الغلافق: جمع غلفق وهو الطحلب. يقول: إن هؤلاء القبائل كانوا يخيفون الملوك بأنهم نشؤوا في البادية فلا يكترثون للحر والعطش، وأن الملوك لا صبر لهم عن الماء؛ لأنهم نشؤوا في جواره كما ينشأ الطحلب في الماء.

فهاجوكَ أهدى في الفلا من نجومه وأبدى بيوتاً من أداحي النقـــانقِ[١]

وأصبرَ عن أَمواهــه مــن ضِـبابه وآلَـفَ منهــا مُقْلــةً للودائــقِ[٢]

ألم يحذروا مَسْخَ الذي يمسخُ العــدا ويجعلُ أيدي الأُسْدِ أيدي الخرانقِ[٣]

وقد عاينوه فـي سـواهم وربَّمــا أرى مارقاً في الحرب مصرعَ مارقِ[٤]

لَوَفْـدُ نُميــرٍ كــان أَرشــدَ مِـنهُمُ وقد طَرَدُوا الأظْعانَ طردَ الوسائقِ[٥]

أَعدُّوا رماحاً من خضوعٍ فطــاعنوا بها الجيشَ حتى ردَّ غَرْبَ الفيالقِ[٦]

فلم أَرَ أَرمـــى منـــه غيــرَ مُخاتــلٍ وأَسرى إلى الأعداء غيرَ مُسَارقِ[٧]

ولما فرغ أبو الطيب من إنشاد هذه القصيدة لم يَلْقَ من سيِّده ما تعوَّدَ أَنْ يلقاه من رضاً واستحسان. لافتقارها إلى الدقة، وعدم ارتقائها إلى مستوى الحدث، فطلب الأميرُ من شاعره قصيدةً أُخرى تُوفِّي هذه الحملةَ حقَّها من الوصف الذي يَلَيق بها. فنظم أَبو الطيب قصيدتَه التي يقول فيها:

---

(١) أهدى: من الهداية. أبدى: أظهر. وأداحي: جمع أُدحيّ ككرسي: موضع بيض النعام من الرمل. يقول: أثاروك بعصيانهم فكنت أهدى إليهم في الفلوات من النجم، وأظهر بيوتاً من مبيض النعام.

(٢) الودائق: جمع وديقة: شدة الحرّ.

(٣) المسخ: قلب الخلقة. والخرانق جمع خرنق: الأنثى من ولد الأرنب.

(٤) المارق هنا الخارج عن الطاعة.

(٥) نمير: قبيلة منهم استسلمت لسيف الدولة. الوسائق: جمع وسيقة: الطريدة من الغنم أو الإبل. يقول: إن بني نمير أتوك خاشعين فكانوا أرشد ممن هربوا عاصين، وطردوا نساءَهم كما تطرد الوسائق.

(٦) غرب كل شيء: حدّه. يقول كان خضوع بني نمير بمنــزلة الرماح التي دافعوا بها عن أنفسهم.

(٧) المخاتل: المخادع. والمسارق: الذي يترقب غفلة. أي إنه لا يحتاج إلى المخاتلة والمسارقة للظفر بعدوّه.

طِــوالُ قَنــاً تُطاعِنُهــا قِــصارُ وقَطْرُكَ في نَدىً ووغَــىً بحــارُ[١]

وفيــك إذا جنــى الجــاني أَنــاةٌ تُظَــنُّ كرامــةً وهــي احتقــارُ

وأَخْـــذٌ للحواضـــر والبـــوادي بــضبطٍ لــم تُعــوَّدْهُ نــزارُ[٢]

تَــشمَّمُه شــميمَ الــوحشِ إنــساً وتُنكــره فيعروهــا نِفــارُ[٣]

وما انقــادت لغيــرك فــي زمــانٍ فتدري مــا المقــادةُ والــصَّغارُ[٤]

وأَطمــعَ عــامرَ البُقيــا عليهــا ونَزَّقهــا احتمالُــك والوقــارُ[٥]

وكنــتَ الــسيفَ قائمُــهُ إلــيهم وفي الأَعــداء حَــدُّك والغِــرارُ[٦]

فأمـــست بالبَدِيَّـــة شـــفرتاه وأمــسى خلــفَ قائمــه الحِيــارُ[٧]

وكــان بنــو كــلابٍ حيــثُ كعــبٌ فخافوا أن يصيروا حيثُ صــاروا[٨]

تلقَّـــوا عِـــزَّ مـــولاهم بـــذُلٍّ وسار إلى بني كعــبٍ وســاروا[٩]

---

(١) يقول: إن الرماح الطوال التي تطاعنها قصار في حقك لأنها لا تنالك، والقليل منك في الجود والحرب كثير. فالقطرة بمنــزلة البحر.

(٢) نزار: المراد بها العرب.

(٣) تشمَّمه: تتشمّمه. يقول: إن العرب تدنو من طاعتك، فإذا أحست ما عندك من السياسة أنكرت ذلك إنكار الوحش إذا شمت ريح الإنس.

(٤) المقادة: الانقياد. الصغار: الذل.

(٥) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة. البقيا: الإبقاء. والنــزق: الخفة والطيش يقول: أطمعهم في العصيان إبقاؤك عليهم وعدولك عن الإيقاع بهم، وحملهم عن الطيش أناتك وحلمك.

(٦) قائم السيف: مقبضة. وغراره: حدّه. والبَدِيّة والحيار: ماءان بأرضهم كانوا ينــزلون عليهما. يقول: كنت سيفاً لهم مقبضه في أيديهم وحدّه في أعدائهم، فلما عصوك صارت شفرتاه حيث هم.

(٧) قائم السيف: مقبضة. وغراره: حدّه. والبَدِيّة والحيار: ماءان بأرضهم كانوا ينــزلون عليهما. يقول: كنت سيفاً لهم مقبضه في أيديهم وحدّه في أعدائهم، فلما عصوك صارت شفرتاه حيث هم.

(٨) أي كان بنو كلب حيث كان بنو كعب في العصيان فلما رأوا ما نزل بهؤلاء من القتل والهوان خافوا أن ينزل بهم ما نزل بكعب من القتل والسبي.

(٩) يقول: استقبلوا سيف الدولة بالخضوع وساروا معه وراء كعب.

فأَقبلَهـــا المـــروجَ مُـــسوَّماتٍ ضـــوامرَ لا هُـــزالَ ولا شِـــيارُ[1]
تُثيـــرُ علـــى سَـــلَمْيَةَ مُـــسْبَطِرّاً تَنَـــاكَرُ تَحْتَـــه لـــولا الـــشِّعارُ[2]
عَجاجـــاً تعثُـــرُ العِقْبـــانُ فيـــه كـــأَنَّ الجـــوَّ وَعْـــثٌ أَو خَبَـــارُ[3]
وظلَّ الطعنُ فـــي الخيلـــين خَلْـــساً كأنَّ المـــوتَ بينهمـــا اختـــصارُ[4]
فلـــزَّهُمُ الطِّـــرادُ إلـــى قتـــالٍ أَحَـــدُّ ســـلاحِهم فيـــه الفِـــرارُ[5]
غطـــا بـــالعِثْيَرِ البيـــداءَ حتَّـــى تحيَّـــرتِ المتـــالي والعِـــشارُ[6]
وجاؤوا الصَّحْصَحانَ بـــلا سُـــروجٍ وقـــد سَـــقَط العِمامـــةُ والخِمـــارُ[7]
وأُرهقـــتِ العـــذارى مُرْدَفـــاتٍ وأُوطِئـــتِ الأُصَـــيْبِيةُ الـــصّغارُ
وقـــد نُـــزِحَ الغُـــويرُ فـــلا غُـــويرٌ ونِهْيـــا والبُيَيْـــضَةُ والجِفـــارُ[8]
ولـــيس بغيـــر تـــدْمُرَ مـــستَغَاثٌ وتـــدمُرُ كاســـمها لَهُـــمُ دمـــارُ
أَرادوا أن يُـــديروا الـــرأْيَ فيهـــا فـــصبَّحهم بـــرأيٍ لا يُـــدارُ[9]

---

(١) المروج: أراد مروج سلمية. يقول: وجّه خيله إلى المروج ضامرة وهي ليست بالهزيلة ولا بالسمينة. والشيار: السمان الحسنة المناظر.

(٢) المسبطر: الغبار الممتد. الشعار: العلامة. يقول: تثير خيلك على هذا المكان غباراً منتشراً لا تعرف الخيل بعضها بعضاً.

(٣) الوعث: السهل الكثير الرمل. والخبار: الأرض اللينة الرخوة. يقول: إن العقبان التي تسير مع الجيش تعثر في ذلك الغبار وكثافته. فكأن الجو أرض لينة ليست تغوص فيها أرجل الطير.

(٤) خلساً: اختلاساً أو سريعاً. يقول: ظلوا يتخالسون الطعن؛ فيسرع فيهم الموت حتى كأنه اختصر الطريق إليهم.

(٥) لزّهم الطراد: أحوجهم.

(٦) غطا: غطّى. العثير: الغبار. المتالي: جمع متلية وهي الناقة يتلوها ولدها. والعِشار: التي قربت ولادتها.

(٧) الصحصحان: صحراء بعينها.

(٨) الغوير ونهيا، والبييضة والجفار: مياه معروفة لما بلغوها نزحوها لما لحقهم من العطش والجهد.

(٩) لا يدار: لا سبيل إلى تقليبه.

وجـــيشٍ كلَّمـــا حـــاروا بـــأرضٍ وأَقبـــل أَقبلـــتْ فيـــه تحـــارُ
يَحُـــفُّ أَغـــرَّ لاقَـــوَدٌ عليـــه ولا ديَـــةٌ تُـــساق ولا اعتـــذارُ[١]
تُريـــقُ ســيوفُه مُهَـجَ الأَعـــادي وكـــلُّ دمٍ أراقتـــه جُبـــارُ[٢]
إذا فـــاتوا الرمـــاحَ تنـــاولتْهم بأَرمـــاحٍ مـــن العطـــشِ القِفـــارُ
يَـــرَوْنَ المـــوتَ قُـــدَّاماً وخلْفـــاً فيختـــارون والمـــوتُ اضـــطرارُ
إذا ســلك الــسماوةَ غيـــرُ هـــادٍ فقـــتلاهم لعينيـــه منـــارُ[٣]
ومـــالَ بهـــا علـــى أَركٍ وعُـــرْضٍ وأهـــلُ الـــرَّقتَين لهـــا مـــزارُ[٤]
وأَجفـــل بـــالفُراتِ بنـــو نُميـــرٍ وزأْرُهُـــم الـــذي زأروا خُـــوارُ[٥]
فلم يَسْرَحْ لهم فـــي الـــصبحِ مـــالٌ ولـــم تُوقَـــد لهـــم بالليـــلِ نـــارُ[٦]
حِـــذارَ فتـــىً لـــم يـــرضَ عـــنهم فلـــيس بنـــافع لهـــمُ الحِـــذارُ
فأصـــبح بالعواصـــمِ مـــستقِرًّا ولـــيس لبحـــرِ نائلِـــهِ قَـــرارُ[٧]
وأضـــحى ذكـــرُه فـــي كـــلِّ أرضٍ تُـــدارُ علـــى الغنـــاءِ بـــه العُقـــارُ
تَخِـــرُّ لـــــه القبائـــلُ ســـاجداتٍ وتَحمَـــدُهُ الأَســـنَّةُ والـــشِّفارُ
كأَنَّ شـــعاعَ عـــينِ الـــشمسِ فيـــهِ ففـــي أَبـــصارنا منـــه انكـــسارُ
يراهُ النـــاسُ حيـــث رأتـــه كعـــبٌ بـــأرضٍ مـــا لِنازِلهـــا اســـتتارُ

---

(١) يحيط هذا الجيش بأغر – سيد شريف – إذا قتل عدوه لم يكن عليه قَوَدٌ ولا ديَة ولا يعتذر عن فعله.
(٢) جُبار: لا قود فيه ولا ديَة.
(٣) يقول: إذ ضل أحد بهذه الصحراء كانت جثث قتلاهم مناراً يُهتدى بها.
(٤) أرك وعرض: بلدان قرب تدمر. والرقَّتان بلدان على الفرات وهما: الرقة والرافقة.
(٥) الزئير: صوت الأسد، والخوار للبقر. أي انهزموا بالفرات فصار زئيرهم خواراً.
(٦) المال: الماشية.
(٧) العواصم: بلاد حاضرتها أنطاكية.

وفي مطلع شهر جُمادى الأولى سنة ٣٤٤هـ ورد على سيف الدولة أَنَّ الدمستق فَرْدَس فُقَّاس وجيوش الروم قد نزلوا على حصن الحدث، وأحكموا عليه الحصار، وقدَّروا أن الفرصةَ مواتيةٌ لاستعادته من أَيدي المسلمين. وكان مَلِكُهم ألزمهم قصده، وأَنجدهم بأصناف من البلغر والروس والصقالبة، وأَنفذ معهم العَدَدَ الكثير والعُدد. فركب سيف الدولة وسار عن حلب في جُمادى الأُولى فنـزل رَعْبان وهي مدينة بالثغور بين حلب وسُمَيْساط قرب الفرات معدودة في العواصم. وهي قلعة تحت جبل خَرَّبَتْها الزلزلة في سنة ٣٤٠هـ فأنفذ سيفُ الدولة أَبا فراس بن حمدان في قطعة من الجيش، فأعاد عمارتها في سبعةٍ وثلاثين يوماً.

وفي أثناء إقامة سيف الدولة في رَعْبان كانت أخبار الحدث مستعجمة عليه؛ لأن الروم ضبطوا الطرق ليخفى عليه خبرهم! فلمَّا ضجر من الانتظار سار زَحْفاً، فلمَّا اقترب من الحدث عادت الجواسيسُ تُعلمه أَنّ العدوّ لما أَشرفت عليه خيولُ المسلمين من عقبة يقال لها العبرى رحل، ولم تستقر به دار، وامتنع أَهْلُ الحدث من البِدار بالخبر خوفاً من كمين يعترض الرسل. فنزل سيفُ الدولة بظاهر الحصن. وأتت طلائعهم تخبر سيف الدولة بانصراف الروم إلى حصن رَعْبان. فقال أبو الطيب يذكر نهوض سيف الدولة إلى ثغر الحدث، وما جرى في هذه الحادثة:

ذي المعالي فليعلُوَنْ مَنْ تعالى ... هكذا هكذا وإلاَّ فلا لا

شَرَفٌ يَنْطِحُ النجومَ بِرَوْقيهِ ... وعزٌّ يُقَلْقِلُ الأَجبالا[١]

حالُ أَعدائنا عظيمٌ وسيفُ الدّ ... وْلَة ابنُ السيوف أعظمُ حالا

كُلَّما أَعجلوا النذيرَ مسيراً ... أَعجلته جيادُهُ الإعجالا[٢]

فأتتهم خوارقَ الأرضِ ما تحملُ إلاَّ الحديدَ والأبطالا[٣]

---

(١) الروق: القرن. يقلقل: يحرك.

(٢) يقول: كلما عاد إليهم نذيرهم سبقوه بالهرب قبل وصوله إليهم، ثم تلتهم جياد سيف الدولة فلحقتهم وجاوزتهم.

(٣) خوارق الأرض: تقطع الأرض بسرعة. وهي خيل سيف الدولة.

خافيـــاتِ الألـــوانِ قـــد نـــسج النقـــعُ عليهـــا براقعـــاً وجِـــلالا[١]

حالفَتْـــهُ صـــدورُها والعـــوالي | لَتَخوضَـــنَّ دونَـــه الأَهـــوالا

لا ألـــومُ ابـــنَ لاوُنٍ مَلِـــكَ الـــرو | مِ وإن كـــان مـــا تمنَّـــى مُحـــالا

أقلقتـــه بَنِيَّـــةٌ بـــين أُذْنَيـــهِ | وبـــانٍ بغـــى الـــسماءَ فنـــالا[٢]

كُلَّمـــا رامَ حَطَّهـــا اتَّـــسَع البَنْـــيُ | فغطَّـــى جبينَـــه والقَـــذالا[٣]

يَجمُع الـــرومَ والـــصَّقالبَ والبُلْغَـــرَ | فيهـــا وتَجْمَـــعُ الآجـــالا

قـــصدوا هـــدمَ سُـــورها فبنَـــوهُ | وأَتـــوا كـــي يُقـــصِّروه فطـــالا[٤]

واستجرُّوا مكايـــدَ الحـــرب حتَّـــى | تركوهـــا لهـــا علـــيهم وبـــالا[٥]

رُبَّ أمـــرٍ أَتـــاك لا تَحْمَـــدُ الفُعَّـــالَ | فيـــه وتَحْمَـــدُ الأَفعـــالا[٦]

أخذوا الطُّرقَ يقطعون بها الرُّسْـــلَ | فكـــان انقطاعُهـــا إرســـالا[٧]

وهـــمُ البحـــرُ ذو الغـــواربِ إلاَّ | أنـــه صـــار عنـــد بحـــرك آلا[٨]

مامَـــضَوا لـــم يقـــاتلوك ولكـــنَّ | القتـــالَ الـــذي كفـــاكَ القتـــالا[٩]

---

(١) خافيات الألوان: قد خفي لونها لما علاها من الغبار. يقول: أتتهم خيله، وقد تكاثف الغبار عليها حتى صار على وجوهها كالبراقع، وعلى متونها كالجلال.

(٢) البنية: القلعة. بين أذنيه: كأن يحملها على رأسه لثقلها عليه. والباني: سيف الدولة.

(٣) حطَّها: إنزالها. البني: البناء. القذال: مؤخر الرأس.

(٤) يقول: لما قصد الروم هدمها بعثوا سيف الدولة على إتمام بنائها وإطالته.

(٥) مكايد الحرب: آلاتها. والوبال: الشدّة: يقول: جرُّوا آلات الحرب إلى القلعة، ثم انهزموا عنها وتركوا آلاتهم فكانت وبالاً عليهم لأن أصحاب القلعة حاربوهم بسلاحهم بعدما تركوه.

(٦) الفعّال هنا: هم الروم. والأفعال: جلبهم أدوات الحرب التي ظفر بها المسلمون.

(٧) يقول: حالوا دون وصول الرسل إلى سيف الدولة، فكان انقطاعهم عنه بمنزلة الإرسال والإخبار.

(٨) الغوارب: أعالي الأمواج: جمع غارب. والآل: السراب. أي تلاشت جيوشهم أمام جيوش سيف الدولة.

(٩) يقول: ما انهزموا عنك غير مقاتلين إلاّ لأنهم بلَوك قبل هذا، فأدخلت الرعب في قلوبهم.

والذي قَطَّع الرقابَ من الضَّرْ ... بِ بكفّيك قطَّع الآمالا[1]
نزلوا في مصارعٍ عرفوها ... يندبون الأعمامَ والأَخْوالا[2]
أَبصروا الطعنَ في القلوبِ دِراكاً ... قبل أن يُبصروا الرماحَ خيالاً[3]
وإذا حاولتْ طِعانَكَ خيلٌ ... أَبصرت أَذرعَ القنا أَميالا[4]
بسط الرعبُ في اليمين يميناً ... فتولَّوا وفي الشِّمال شِمالا[5]
ينفضُ الرَّوْعُ أيدياً ليس تدري ... أسيوفاً حملْنَ أم أغلالا[6]
وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ ... طلب الطعنَ وحدَهُ والنزالا
ما يَشُكُّ اللَّعينُ في أخذِكَ الجيشَ ... فهل يبعث الجيوشَ نوالا[7]
ما لِمنْ ينصِبُ الحبائلَ في الأَرْ ... ضِ ومَرْجاه أن يصيدَ الهلالا
إنّ دون التي على الدرب والأَحدبِ ... والنهرِ مِخلَطاً مِزْيالا[8]
غصبَ الدهرَ والملوكَ عليها ... فبناها في وجنةِ الدهرِ خالا
فهي تمشي مَشْيَ العروسِ اختيالاً ... وتَثَنَّى على الزمانِ دلالا

---

(١) إن السيف الذي قطع رقاب إخوانهم سابقاً قطع آمال هؤلاء بالنصر فهربوا.

(٢) يقول: نزلوا في الأماكن التي قتل فيها أقرباؤهم؛ فذكروهم وبكوا عليهم.

(٣) دراكا: متتابعاً. خيالاً: متخيلاً. يقول: اعتبر المتأخرون من الروم بالمتقدّمين، فكأنهم تخيلوا الطعن دراكاً ففرّوا قبل أن ينظروا إلى خيال الرماح.

(٤) الخيل: الفرسان. يقول: إذا أرادت جيوش الأعداء طعانك خيّل إليهم من الرعب والخوف أن الذراع من رماحك ميل.

(٥) يقول: شاع فيهم الخوف حتى كأنه بسط يمينه في ميمنة جيشهم وشماله في ميسرته؛ فتولّوا هاربين.

(٦) الروع: الفزع. يقول: أثر فيهم الفزع حتى ارتعدت أيديهم فلا تقدر على الضرب، فكأن سيوفهم أغلال لها.

(٧) أي كل جيش يبعثه إليك تغنمه، فكأنه يبعث الجيوش إليك لتكون عطاء لك.

(٨) الدرب: المدخل إلى بلاد الروم. والأحدب: جبل قرب الحدث. والنهر: موضع قرب الحدث. ورجل مخلاط مزيال: يخالط الأمور ثم يزايلها أي يفارقها إلى غيرها، ويوصف بذلك الشجاع الداهية والمراد سيف الدولة حامي هذه القلعة.

وَحَماهــــا بكـــلِّ مطَّـــرِدِ الأَكعُـــبِ جـــورَ الزمـــانِ والأَوجـــالا

في خمــيسٍ مــن الأُســود بئــيس يفترسْـــنَ النفــوسَ والأَمــوالا[١]

من أطاق التمــاسَ شــيءٍ غِلابــاً واغتــصاباً لــم يلتمــسْهُ ســؤالا

كـــلُّ غـــادٍ لحاجـــةٍ يتمنَّـــى أن يكـــونَ الغـــضنفَرَ الرئبـــالا

وبعد هذه القصيدة صمت أبو الطيب نحوَ أَربعة أَشهر ففي شهر رمضان من السنة نفسها ٣٤٤هـ تُوفيت الأُخت الصغرى لسيف الدولة فقال يعزيه بوفاتها ويسلِّيه بالكبرى:

إن يكن صبرُ ذي الرزيّــة فَــضْلا تَكُـــنِ الأَفــضلَ الأَعــزَّ الأجــلاَّ

أنـــتَ يـــا فــوقَ أن تُعــزَّى عــن الأحبــابِ فــوقَ الــذي يُعزِّيــكَ عَقْــلا

وبألفاظـــكَ اهتـــدى فـــإذا عَـــزَّ اكَ قـــال الـــذي لـــه قُلْـــتَ قَـــبْلا

قد بلوتَ الخطــوبَ مُــرًّا وحُلْــواً وســلكتَ الأَيــامَ حَزْنــاً وسَــهْلا

وقَتَلْـــتَ الزمـــانَ عِلْمـــاً فمـــا يُغْـــرِبُ قـــولاً ولا يُجـــدِّدُ فِعْـــلاً

أَجِدُ الحُــزْنَ فيــك حِفْظــاً وعقــلاً وأراه في الخَلْق ذُعــراً وَجَهْــلاً[٢]

إنّ خيــرَ الــدموع عَونــاً لَــدَمْعٌ بعثتـــهُ رعايـــةٌ فاســـتهلاَّ[٣]

أيــنَ ذي الرقَّــةُ التـــي لــك فـــي الحـــربِ إذا اســتُكْرِه الحديــدُ وصــلاَّ[٤]

أيـــن خلَّفتَهـــا غـــداةَ لقيـــتَ الـــرومَ والهـــامُ بالـــصوارمِ تُفْلَـــى[٥]

---

(١) البئيس: الشديد البأس.

(٢) الحفظ: الحفاظ على الود والوفاء له. والعقل: الاعتبار بمن مضى.

(٣) الرعاية: حسن المحافظة. والاستهلال: الانسكاب. يقول: إن خير الدمع عوناً على الحزن هو الذي سببه رعاية العهد.

(٤) استكره الحديد: أُكره على الضرب. وصل الحديد: صوّت. يقول: هذه الرقة والرحمة التي نشاهدها منك الآن أين هي في وقت الحرب حين يكره الحديد على الضرب عند تجالد الأبطال.

(٥) الهام: الرؤوس. تُفلى: تفصل عن أجسادها.

قاسمتْكَ المنونُ شخـصين جـوراً جعل القِسْمُ نفـسَهُ فيـك عَـدْلا[١]
فـإذا قِـسْتَ مـا أخـذنَ بمـا أغْـدرْنَ سَـرَّى عـن الفـؤادِ وسـلّى[٢]
وتيقَّنْـتَ أن حظَّـك أوفـى وتبيَّنْـتَ أن جَـدَّك أعلـى
ولَعمـري لقـد شـغلتَ المنايـا بالأعادي فكيـف يَطْلـبنَ شُـغْلا[٣]
وكـم انْتَـشْتَ بالـسيوف مـن الـدهر أسـيراً وبـالنَّوالِ مُقِـلاَّ[٤]
عَـدَّها نُـصْرةً عليـه فلمَّـا صـال خـتلا رآه أدرك تَـبْلا[٥]
كَذَبتْـهُ ظُنونُـهُ أنـت تُبليـ ـه وتبقى في نعمـةٍ لـيس تَبْلى
خِطْبـةٌ لِلحِمـامِ لـيس لهـا رَدْ دٌ وإن كانـتِ المُـسمَّاةَ ثُكْـلا[٦]
وإذا لم تَجِـدْ مـن النـاسِ كُفْـواً ذاتُ خِـدْرٍ أرادتِ المـوتَ بعـلا
ولذيذُ الحيـاةِ أَنْفـسُ فـي النَّفْـ ـسِ وأَشْهى من أن يُمـلَّ وأَحْلـى
وإذا الـشيخُ قـال أُفٍّ فمـا ملَّـ ـلَ حيـاةً وإنَّمـا الـضعفَ مَـلاَّ
آلـةُ العـيشِ صِـحَّةٌ وشـبابٌ فـإذا ولَّيـا عـن المـرء ولَّـى
أبـداً تَـسْتردُّ مـا تَهَـبُ الدُّنْـ ـيا فياليـتَ جودَهـا كـان بُخْـلا
فكَفَـتْ كَـوْنَ فرحـةٍ تُـورثُ الغمْـمَّ وخِـلٍّ يُغـادرُ الوجْـدَ خِـلاَّ[٧]

---

(١) شخصين: يعني أختيه، ذهب بالصغرى وترك الكبرى، وكانت هذه القسمة جائرة. ولكن بقاءك حياً هو العدل.

(٢) أغدرن: غادرن، تركن، سرّى عنه: فرَّج. سلّى: عزّى. يقول: إذا قست الصغرى التي أخذتها المنية بالكبرى التي بقيت لك وجدت في ذلك عزاءً لأنها أبقت لك أحبهما إليك.

(٣) أي شغلت المنايا بما تعمله من القتل في الأعداء فكيف تطلب المنايا شغلاً بغيرهم؟

(٤) انتاش: تناول، وانتشل.

(٥) الختل: الغدر. والتبل: الثأر.

(٦) الخطبة: طلب المرأة للزواج. والحمام: الموت. وهنا جعل الثكل خطبة لها لأنها كانت بكراً. أي لما استأثر بها الموت صار كأنه خاطب لها وإن كانت هذه الخطبة هي المسماة بالموت.

(٧) يقول: لو بخلت الدنيا ولم تجُد لأغنت عن حصول فرحة تعقب بزوالها الغم، وعن وجود صاحب يموت فيصير الحزن بعده صاحباً لمن فقده.

وهــي معــشوقةٌ علــى الغــدْرِ لا تَحفَــظُ عهــداً ولا تُــتَمِّمُ وَصْــلا

أَيُّهــا البــاهرُ العقــولَ فمــا تُــدرَكُ وصفاً أتعبــتَ فِكْــري فَمهــلا

مَــنْ تعَــاطى تــشبُّهاً بــك أعيــاهُ ومــن دلَّ فــي طريقــك ضَــلاَّ

فــإذا مــا اشــتهى خلــودكَ داعٍ قالَ لا زُلْتَ أو تــرى لــك مِــثْلا[1]

إن هذه المرثيَّة لا تختلف كثيراً عن المراثي التي وجّهها أَبو الطيب إلى سيف الدولة يُعزِّيه فيها عمَّن فقده من أهل بيته؛ إذْ أُخِذَ عليه فيها غلبةُ الطابَع العقلي الفلسفي على الشعور الإنساني النابع من القلب. فهي مراث أَملاها على الشاعر واجبُه تُجاه سيّده ووليّ نعمته لذلك اتخذ الرثاء وسيلةً إلى المدح ليُخفيَ عجزه عن الوفاء بحقّ المرثي. فتملُّق الأمير قد يصرفه عمّا يكون في رثائه من القصور أو التقصير[2].

وأَعقب هذه المرثية سكوتُ الشاعر نحو ستة أشهر. ولم يخرج عن صمته إلاّ في شهر صَفَر من سنة ٣٤٥هـ حين اصطحبه سيفُ الدولة في حملته على الروم الذين هدَّدوا منطقة آمد في أَوائل سنة ٣٤٥هـ وكان على رأسهم يوحنا شُمُشْقيق. فغادر على إثرها سيفُ الدولة حلبَ في الرابع عشر من محرم مُتَّجهاً إلى الرَّقَّة وحرَّان، وهما مدينتان من مدن الجزيرة سبق ذكرهما، ثم إلى الران وهو حصن ببلاد الروم في الثغر قرب مَلَطْيَةَ، ومنه إلى أَرْقَنين وهو بلد بالروم. ولما بلغ هِنْزِيطَ أَحَدَ الثغور الرومية، انهزم الروم فتعقَّبهم سيفُ الدولة إلى أن وصل إلى حِصْن زياد بأرض أرمينية، وهو بين آمد ومَلَطْية، وهو إلى ملطية أقرب، وذلك في السابع والعشرين من محرم. فأرسل جنوداً لاستطلاع نهر أَرْسَنَاس وهو من أنهار بلاد الروم يوصف ببرودة مائه. وفي اليوم التالي سار بمحاذاة ضفته اليسرى حتى وصل إلى

---

(١) زلت: من الزوال. يقول: إذا اشتهى أحد أن يدعو لك بالخلود فدعاؤه هو أن يقول لك: لا زلت أي لامُتَّ حتى ترى لك مثيلاً. وإن كان ذلك كذلك بقيت إلى الأبد لأنه لن يكون لك مثيل.

(٢) انظر مع المتنبي ص ٢٠٤-٢٠٥.

أَرشوان على الضفّة الشمالية من نهر أَرْسناس بالقرب من ملتقى الفرات الغربي، فعبر النهر بجيشه وقضى على شُمُشْقِيق بِطْرِيق الروم في تل البطريق على الضفّة اليمنى للفرات الغربي وخرَّب حِصْنَه، ثم عبر نهرَ أَرْسنَاس مثقلاً بالغنائم.

وفي يوم السبت الحادي عشر من شهر صفر حدثت معركة حامية الوطيس بين جيش سيف الدولة وجيش الروم، فهزمهم سيف الدولة هزيمةً ساحقة تاركين خلفهم نحوَ سبعة آلاف قتيل، وعدداً كبيراً من الأسرى. وفي صبيحة اليوم التالي دخل سيفُ الدولة مدينةَ آمد مكلَّلاً بالنصر فأنشده أبو الطيب قصيدتهُ الأولى في أَعقاب هذه المعركة:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ	**هو أَوّلٌ وهي المحلُّ الثاني**
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مِرَّةٍ	**بلغت من العلياءِ كلَّ مكانِ**(١)
ولربَّما طعنَ الفتى أَقْرانَهُ	**بالرأي قبلَ تطَاعُنِ الأَقْرانِ**
لولا العقولُ لكان أَدنى ضيغمٍ	**أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ**
ولَماَ تفاضلتِ النفوسُ ودبَّرت	**أَيدي الكُماةِ عواليَ المُرَّانِ**(٢)
قاد الجيادَ إلى الطِّعان ولم يَقُد	**إلاَّ إلى العادات والأوطانِ**(٣)
في جحفلٍ ستر العيونَ غُبارُهُ	**فكأنَّما يُبصِرْنَ في الآذانِ**(٤)
يرمي بها البلدَ البعيدَ مُظفَّرٌ	**كلُّ البعيد له قريبٌ دانِ**
فكأنَّ أرجُلَها بتُربةِ منبجٍ	**يطرحْنَ أَيديَها بحصنِ الرانِ**(٥)

---

(١) المرة: القوة والشدة، والمراد: الإباء وعزة النفس.

(٢) عوالي المران: الرماح اللينة.

(٣) يقول: قاد خيله إلى طعان الأبطال في الحرب، وذلك عادة له وإلى وطنه لأنه من المعركة في وطن.

(٤) الجحفل: الجيش العظيم. لقد تكاثف غبار هذا الجيش حتى ستر العيون فلا تبصر فيه الخيل طريقها لذلك تنصب آذانها إذا أحست بشيء وكأنها تبصر بها.

(٥) يريد سعة خطوها في العدو كأن أرجلها بالشام وأيديها بالروم لبعد مواقع أيديها من أرجلها.

حتى عَبَرنَ بأرْسَناسَ سوابحاً ينشرن فيه عمائمَ الفُرسانِ[1]

يقمُصْنَ في مثلِ المُدى من باردٍ يَذَرُ الفحولَ وهُنَّ كالخصيانِ[2]

ركض الأميرُ وكاللُّجينِ حَبَابُه وثنى الأَعنَّةَ وهو كالعقيانِ[3]

خضعت لِمُنْصُلِكَ المناصِلُ عَنْوةً وأَذلَّ دِينُكَ سائرَ الأديانِ

ما زِلْتَ تَضْرِبُهم دِراكاً في الذُّرا ضرباً كأنَّ السيفَ فيه اثنانِ

خصَّ الجماجمَ والوجوهَ كأنما جاءت إليكَ جسومُهم بأمانِ

قد سَوَّدت شَجَر الجبالِ شعورُهم فكأن فيه مُسِفَّةَ الغِربانِ[4]

وجرى على الوَرَقِ النجيعُ القاني فكأَنَّه النارنجُ في الأغصانِ[5]

رفعت بكَ العربُ العمادَ وصيَّرت قممَ الملوكِ مواقدَ النيرانِ[6]

أَنسابُ فخرهم إليك وإنَّما أَنسابُ أَصلِهم إلى عدنانِ

يا من يُقتِّل مَنْ أراد بسيفهِ أَصبحتُ من قتلاكَ بالإحسانِ

فإذا رأيتُك حار دونَك ناظري وإذا مدحتُك حار فيك لساني

---

(١) أرسناس: نهر بالروم بارد الماء جداً.

(٢) يقمصن: يثبن. المدى: السكاكين. يقول: إن الخيل تثب في هذا النهر الذي هو كالمدى لتجمد مائه، حيث يدع الفحل كالخصي لتقلص خصيتيه.

(٣) اللجين: الفضة. الحباب: الفقاقيع التي تعلو الماء. العقيان: الذهب. يقول: عبر سيف الدولة هذا النهر وماؤه أبيض كالفضة فلما قتلهم وجرت فيه دماؤهم عاد أحمر كالذهب.

(٤) المسفّة: القريبة من الأرض.

(٥) يقول: لما بعثر شعورهم على الأشجار اسودّت، ولما جرت دماؤهم على ورق الشجر أحمرّ فصار كأنه النارنج في الأغصان.

(٦) العماد: الأبنية الرفيعة. يقول: ارتفعت بك العرب وشرفت، وقاتلوا الملوك فأوقدوا على رؤوسهم نار الحرب، أو جعلوا جماجمهم أثافيّ احتقاراً لهم.

وبعد عودة سيف الدولة مظفَّراً إلى حلب، نُمي إليه أن البطريق أَقسم أمام مَلِكِه بأَنه سوف يتصدَّى له في الدرب، وسأَله أَن يُنْجِدَه ببطارقته وعَدَده وعُدَده؛ ففعل؛ فخاب ظنُّه. وعلى إثر ذلك نظم المتنبي قصيدةً أُخرى أَنشدها سيفَ الدولة سنةَ خمسٍ وأربعين وثلاثِ مئة، وهي آخرُ ما أَنشده بحلب حيث قال:

عُقبى اليمينِ على عُقْبَى الوغى نَدَمُ ... ماذا يَزيدُك في إقدامِكَ القَسَمُ[1]

وفي اليمينِ على ما أنتَ واعِدُه ... مادلَّ أنك في الميعادِ مُتَّهمُ[2]

آلى الفتى ابنُ شُمُشْقِيقٍ فأَحنثَه ... فتىً من الضرب تُنسَى عنده الكَلِمُ[3]

وفاعلٌ ما اشتهى يُغنيه عن حَلِفٍ ... على الفِعال حضورُ الفعلِ والكَرَمُ[4]

كلُّ السيوفِ إذا طال الضرابُ بها ... يَمَسُّها غيرَ سيفِ الدولةِ السأَمُ

لوكَلَّتِ الخيلُ حتى لا تَحَمَّلُهُ ... تحمَّلَتْه إلى أعدائه الهِمَمُ

أين البطاريقُ والحَلْفُ الذي حَلَفُوا ... بِمَفْرِقِ المَلْكِ والزعمُ الذي زعموا

ولَّى صوارمَهُ إكذابَ قولِهم ... فَهُنَّ أَلسِنةٌ أفواهُها القِمَمُ

نواطقٌ مُخبِراتٌ في جماجمهم ... عنه بما جهلوا منه وما عَلِموا

الراجعُ الخيلَ مُحفاةً مُقوَّدةً ... من كلّ مثلِ وَبارِ أهلُها، إرَمُ[5]

كَتَلِّ بطريقٍ المغرورِ ساكنُها ... بأنَّ دارَكَ قِنَّسرينُ والأَجَمُ[6]

---

(١) العقبى: العاقبة. يشير إلى تكذيب البطريق الذي حلف لملك الروم بأنه سيظفر بسيف الدولة ولكن عاقبة قسمه الندم، لأن الله خيّب ظنه.

(٢) يقول: لو كنت ممن إذا قال وفى لم تحتج إلى اليمين.

(٣) آلى: حلف. ابن شُمُشْقيق: بطريق الروم. أحنثه: نقض يمينه. يقول: أقسم البطريق أنه سيظفر بسيف الدولة، فاضطره إلى نقض يمينه. فتىً - يعني سيف الدولة - أراه من شدّة الضرب ما أنساه كلامه ووعده.

(٤) الفاعل: سيف الدولة.

(٥) وبار: مدينة قديمة الخراب قيل كانت مساكن عاد. وإرم: جيل من الناس هلكوا في قديم الدهر يقال: إنهم من عاد.

(٦) تل بطريق: بلد بالروم. وقنّسرين كورة بالشام بالقرب من حلب. والأجم: مكان بقرب الفراديس.

وظنّهم أنَّكَ المصباحُ في حلَبٍ — إذا قصدتَ سواها عادها الظُلَمُ[١]
فلم تُتِمَّ سَروجٌ فتحَ ناظرها — إلاَّ وجيشُكَ في جَفْنيه مُزْدحمُ
والنقعُ يأخذ حَرَّاناً وبَقْعَتَها — والشمسُ تَسْفِرُ أحياناً وتلتثمُ
سُحْبٌ تمرُّ بِحصْنِ الرانِ مُمسِكةً — وما بها البُخْلُ لولا أنَّها نِقَمُ[٢]
وشُزَّبٌ أَحْمتِ الشِّعْرى شكائمَها — ووسَّمَتَها على آنافها الحَكَمُ[٣]
حتى وَرَدْنَ بِسِمْنينٍ بُحيرتَها — تَنِشُّ بالماءِ في أَشداقها اللُّجُمُ[٤]
وأصبحت بقُرى هِنْزيطَ جائلةً — ترعى الظُّبى في خصيبٍ نبتُه اللِّمَمُ[٥]
فما تركنَ بها خُلْداً له بَصَرٌ — تحت الترابِ ولا بازاً له قَدَمُ[٦]
ولا هِزبْراً له من دِرْعه لِبَدٌ — ولا مهاةً لها من شِبْهها حَشَمُ[٧]
وجاوزوا أَرْسَنَاساً مُعصِمين به — وكيف يعْصِمُهُم ما ليسَ ينْعَصِمُ[٨]
وما يصدُّكَ عن بحرٍ لهم سَعةٌ — وما يردُّك عن طَوْدٍ لهم شَمَمُ

---

(١) سَروج: بلد قرب حرّان: الناظر: العين. البقعة: مكان كالبطحاء يعرف ببقعة حرّان.

(٢) سحب: المراد بها جيش سيف الدولة. وحصن الران: موضع. ممسكة: بخيلة بالمطر.

(٣) شزَّب: جمع شازب: الفرس الضامر. الشِّعرى: نجم: يطلع في فصل الصيف. الشكائم: جمع شكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس. والحكم: جمع حكمة ما أحاط من اللجام بالحنك.

(٤) سمنين: موضع. والنشيش: صوت الماء إذا غلا. يقول: حينما وردت هذه الخيل تلك البحيرة سُمع لِلُجمها نشيش في أشداقها لشدّة حرارة الحديد.

(٥) هنزيط: موضع ببلاد الروم. والظبى: جمع ظبة، حد السيف. يقول: أصبحت خيل سيف الدولة جائلة بقرى هنزيط والسيوف ترعى في شعور الأعداء يعني رؤوسهم.

(٦) يقول: ما تركت السيوف من اختبأ منهم تحت الأرض، ولا من تعلّق برؤوس الجبال كالبازي.

(٧) أراد: لم تترك السيوف منهم بطلاً كالهربر ولا امرأة حسناء كالمهاة.

(٨) أَرْسَناس: نهر معروف ببلادهم. معصمين: ممتنعين.

صَـدَمْتَهم بخمـيسٍ أَنـت غُرّتُـه وسمهريَّتُهُ فـي وجهـه غَمَـمُ[1]
وكان أَثبتَ مـا فـيهم جُـسومُهُمُ يَـسقُطْنَ حولـك والأرواحُ تنهـزمُ
وأَسْـلَم ابـنُ شمُـشْقيقٍ أَليَّتَـهُ أَلاَّ انْثَنى فهو ينأَى وهي تبتـسمُ[2]
تردُّ عنـه قنـا الفرسـان سـابغةٌ صَوْبُ الأَسنَّةِ في أثنائهـا دِيَـمُ[3]
تَخُطُّ فيها العـوالي لـيس تَنْفُـذها كـأنّ كـلَّ سـنانٍ فوقهـا قَلَـمُ
أَلهى الممالكَ عن فخرٍ قفلـتَ بـه شُربُ المُدامةِ والأَوتـارُ والـنَّغَمُ[4]
مُقلَّداً فـوقَ شـكر اللهِ ذا شُـطَبٍ لا تُستدامُ بأمضى منهمـا الـنِّعَمُ[5]
أَلقتْ إليكَ دِمـاءُ الـروم طاعتهـا فلو دعوتَ بـلا ضـربٍ أجـابَ دَمُ
نفت رُقـادَ علـيٍّ عـن محـاجره نفسٌ يُفرِّجُ نفساً غيرَهـا الحُلُـمُ[6]
القائمُ المَلِكُ الهادي الـذي شَـهِدتْ قيامَـه وهُـداهُ العُـرْبُ والعجـمُ
ابنُ المُعَفِّـرِ فـي نجـدٍ فوارسَـها بـسيفه ولـه كُوفـانُ والحـرَمُ[7]
لا تَطْلُـبنَّ كريمـاً بعـد رؤيتـه إن الكرامَ بأَسْـخاهم يـداً خُتِمـوا
ولا تُبـالِ بـشعرٍ بعـدَ شـاعرِهِ قد أُفْسِدَ القولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ[8]

---

(١) الخميس: الجيش. والغرة هنا: شريف القوم. والسمهرية: الرماح. والغمم: كثرة الشعر وإسباله على الوجه.

(٢) أسلم: ترك. الألية: القسم. وهي تبتسم: أي إن أليته تسخر منه.

(٣) أي إن وقع الأسنة في هذه الدرع كديمة المطر تتابعاً.

(٤) الممالك: يعني أصحاب الممالك.

(٥) ذا شطب: أي سيفاً في متنه طرائق.

(٦) يقول: نفى الرقاد عن عينيه نفس كبيرة لا تسكن إلى الأحلام، ولا لما تزينه من بلوغ الآمال.

(٧) كوفان: اسم للكوفة. والحرم: مكة. يعني: حرب أبيه أبي الهيجاء للقرامطة وإفنائه إياهم، وولايته الكوفة وطريق مكة.

(٨) يريد بشاعره: نفسه. ثم قال: فسد قول الشعر فخليق به ألا يسمع شعراً سوى شعره. فالصمم محمود حتى يتفادى سماع مثل هذا الشعر.

قال ابنُ جِنِّي: «قلتُ لأبي الطيِّب وقتَ قراءتي هذه القصيدة عليه: إنه ليس في جميع شِعْرك أعلى كلاماً من هذه القصيدة، فاعترف بذلك وقال: كانتْ وداعاً»(١) ذلك يَعْني أن أبا الطيب كان قد عَقَد العزم على الرحيل بعد أن تيقَّن من عدم قدرته على الاستمرار في خِدْمة الأمير الحمداني. وفي قصيدته الميمية التي أنشدها سيفَ الدولة سنة ٣٤١هـ ومطلعها:

واحـــرَّ قلبـــاه ممّـــن قلبُـــه شَـبِمُ ومن بجسمي وحالي عنـــده سَـــقَمُ

إشارةٌ بيِّنة إلى أنهُ قد ضاق ذرعاً بمقامه في بلاط الأمير، لذا فهو يتهدَّده بالرحيل إلى مصر. وقد عبَّر في أكثر من مناسبة عن بَرَمِه واستيائه من الحسَّاد والمبغضين الذين جعلوا دَيْدَنَهم وشُغْلَهم الشاغلَ الكيدَ له، وتأْليبَ الأمير عليه، وفي مقدمة هؤلاء أبو فراس. ولكن تأخُّرَ الشاعرِ في مدح حاميه شقَّ عليه، فأكثر أذاه، وسمح لحاسديه ومُبغضيه بالتطاول عليه في مجلسه. يُضاف إلى ذلك ما عُرِف به أبو الطيِّب من حدِّة المزاج، والتعاظُم المُفْرِط؛ ممَّا عمَّق الشُقَّة بينهما. أمَّا القشَّة التي قصمت ظهر البعير كما يُقال فهي ما حدث في الشهور الأولى من سنة ٣٤٦هـ بين ابنِ خالوية وأبي الطيب في مجلس سيف الدولة. قال عبدُ المحسن بن علي بن كوجك: إن أَباه حدَّثه قال: كنتُ بحضرة سيف الدولة أنا وأبو الطيب اللغوي، وأَبو عبدالله بنُ خالويه النحويّ. وقد جرت مسأَلةٌ في اللغة تكلَّم فيها ابنُ خالويه مع أَبي الطيّب الُّلغويّ والمتنبِّي ساكت. فقال له سيفُ الدولة: أَلا تتكلَّم يا أبا الطيّب؟ فتكلَّم فيها بما قوَّى حُجَّة أَبي الطيب الُّلغويّ، وضَعَّف قولَ ابنِ خالويه. فأخرج من كُمِّه مفتاحاً حديداً ليلكُمَ به المتنبي. فقال له المتنبيِّ: اسكُتْ ويحك، فإنك أَعجميّ، وأَصلُكَ خُوزيٌّ، فما لك وللعربيَّة؟! فضرب وَجْهَ المتنبيِّ بذلك المفتاح فأَسال دمه على وجهه وثيابه؛ فغضب المتنبِّي لذلك، إذْ لم ينتصر له سيفُ الدولةِ لا قَوْلاً ولا فعلاً؛ فكان ذلك أَحدَ أسباب فراقِه سيفَ الدولةِ(٢)» وعلى إثر هذه

(١) ذكرى أبي الطيب - ص ١٠٤ عن شرح المعري

(٢) الصبح المنبي ص٨٧.

الحادثة انسحب المتنبيِّ من المجلس مُوقناً باستحالة البقاء في حلب؛ فأخذ يُعِدُّ العُدَّةَ للرحيل. ولكيلا يُثيرَ شكوكَ سيف الدولة استأذنه في المسير إلى إقطاعه في ضيعة الصفِّ من معرَّة النعمان، فأَذِن له بذلك. وفي صبيحة يوم من أيام أوائل سنة ٣٤٦هـ غادر المتنبي مدينةَ حلب إلى غير رجعة «فلم يجد بلداً يأوي إليه أَوْلى من دمشق؛ لأَن حمصَ من عمل سيف الدولة[١]» ثم أرسل إلى الأمير هذه الأبيات زيادةً في التلطُّف والحيطة:

أيا رامياً يُصمي فؤادَ مَرامِه — تُربّي عِداهُ ريشَها لِسهامِه[٢]

أَسيرُ إلى إقطاعه في ثيابه — على طِرْفِه من دارِه بِحُسامِه[٣]

وما مَطَرتْنِيه من البيضِ والقنا — وروم العِبِدَّى هاطلاتُ غَمامِه[٤]

فتىً يَهَبُ الإقليمَ بالمالِ والقُرى — ومَنْ فيه من فُرسانه وكِرامِه

ويجعلُ ما خُوِّلْتُهُ من نوالِه — جَزاءً لما خُوِّلتُه من كلامِه[٥]

فلا زالت الشمسُ التي في سمائه — مطالعةَ الشمسِ التي في لِثامِه[٦]

ولا زال تَجْتازُ البدورُ بوجهه — فتَعْجبُ من نُقصانها وتمامِه[٧]

---

(١) ذكرى أبي الطيب ص١٠٤ عن شرح المعري.

(٢) الإصماء: إصابة المقتل في الرمي. المرام: المطلب. يريد أنه لا يُخطئ هدفاً فهو بصير بمواضع الظفر به كما أن أعداءه يربون الريش ليزود به سهامه، وكأنهم يعينونه على أنفسهم.

(٣) الطرف: الفرس الكريم. الحسام، السيف القاطع. يقول: إن جميع ما أملكه، واتصرف به من نعمته وعطاياه.

(٤) العبدّى: العبيد. الغمام السحاب. أي أسير فيما أمطرني به سحاب جوده من السيوف والرماح يحملها العبيد الرومية.

(٥) خوّله كذا: ملّكه إياه. النوال: العطاء. أي إنه يجازيني بنواله إذا مدحته بما أستمدّه من كلامه الذي يلهمني الشعر.

(٦) الشمس التي في لثامه: وجهه. أي لا زال باقياً بقاء الشمس.

(٧) البدور: أراد بدر كل شهر. أي تعجب البدور من نقصانها في حين يبقى هو بدراً تاماً.

في الطريق إلى مصر

انتقل أبو الطيب من مملكة سيف الدولة إلى مملكة كافور الإخشيدي. وبذلك يكون قد ختم فصلاً مهمّاً من فصول حياته ذاق فيه حلاوة النعيم مثلما ذاق فيه مرارة الكيد والحسد، بيد أنه بلغ قمة مجده الفَنيِّ بلا منازع. وكان بدمشق حاكمٌ يهودي من أهل تدمر يُعرف بابن مَلَك من قبل كافور الإخشيدي. فطلب من أبي الطيب أن يمدَحَهُ؛ فَثَقُلَ عليه ذلك، فغضب عليه، وكتب إلى سيِّده بمصر: أنَّ أَبا الطيب في دمشق؛ فأرسل كافور في طلبه. فأجابه حاكم دمشق بخبث بأنه قال: لم أقصد العبدَ (كافور) وإنما قصدي ابنُ سيّده. يعني أنوجور بن محمد الإخشيد الذي سبق للمتنبّي أن تقَّرب إليه في دمشق عَقِبَ موت والده الإخشيد سنة ٣٣٤هـ ولكنه كان ولداً عاجزاً لا يمكن التعويلُ عليه. وهو الآن أَعجز من ذي قبل حيث ترك تدبير الأُمور للوصيّ عَقِبَ مؤامرةٍ دبَّرها رجالُ حاشيته لاستعادة سلطته المفقودة، ولكن المؤامرة باءت بالفشل وعاد أَنُوجور إلى عُزْلته وخموله؛ لذلك لم يجد أبو الطيب أمامه إلاَّ خياراً واحداً ألا وهو التوجُّه إلى الحاكم الفعلي لمصر أبي المسك كافور.

«ونَبَتْ دمشقُ بأَبي الطيب فسار منها إلى الرملة؛ فَحَمل إليه أَميرُها الحسنُ بنُ عُبيد الله بن طُغْج (حاميه من قبل) هدايا وخَلَع عليه، وحمله على فرس جواد بمركب ثقيل، وقلَّده سيفاً مُحلًّى[1]» وسأله المدحَ، فاعتذر وذلك إشفاقاً منه أَن يمدح أحداً قبل كافور فيُغضبَهُ، ولولا هذا ما ضَنَّ بمدحه على ابن طغج، وهو الذي أَغدق عليه العطاءَ سابقاً ولاحقاً.

---

(١) الصبح المنبي ص ١١٠.

«وكان كافور الإخشيدي يقول لأصحابه: أَتَرَونه يبلغ الرملةَ ولا يأتينا؟ وأُخبِر المتنبي أَنه واجدٌ عليه. ثم كتب كافورٌ يطلبه من أمير الرملة فسار إليه[1]» وقيل: إن أبا الطيب كان متردِّداً بعض الشيء في الذهاب إلى مصر والارتهان لكافور، ولكن رغبته في إغاظة سيف الدولة ومَنْ حوله من الحسَّاد والمبغضين، وطمعه في الولاية التي طالما طمح إليها، وجاهد في سبيلها، واحتمل لأجلها ألواناً من الأذى والعذاب كانا من أهم الحوافز له على التوجُّه إلى عدوّه اللَّدود الذي يرجو أن يَلقى في كنفه الأمنَ والرضا، وربما الولاية. ذلك على الرغم من معرفته بأن ذلك الوصيَّ القائم على شؤون الدولة الإخشيديَّة عبدٌ أَسْود من أصل حبشي، أَو نوبي، جُلِب إلى الفُسطاط طفلاً في العاشرة من عمره، وسُمّي كافوراً لسواده الشديد «اشتراه سيِّدهُ محمد الإخشيد بثمانية عشر ديناراً من بعض رؤساء مصر، وأَعتقه، ثم رقَّاه حتى جعله من كبار القواد؛ لَمــَّا رأى منه الحزمَ والعقلَ وحُسْنَ التدبير[2]» ثم لم يلبث أن قاد الجيوش لحرب ابن رائق، كما هزم سيفَ الدولة في قِنَّسرين. ولمَّا مات الإخشيدُ ظنَّ سيفُ الدولة أَنَّ بوسعه الاستيلاءَ على جنوب الشام فزحف نحو دمشق واستولى عليها ثم تقدَّم إلى الرملة، فسار إليه كافور فهزمه وأخرجه من دمشق، ومن حلب، ثم اصطلحا على أن تكون حلب لسيف الدولة ودمشق وما والاها لابن الإخشيد أنوجور الذي أخذ له كافور البيعة بعد وفاة والده وعاد به من دمشق إلى مصر، فأصبح أبو المسك وصيَّاً وحاكماً فعلياً لدولة مترامية الأطراف تشمل مصر والحجاز والقسم الجنوبي من الشام حتى دمشق.

---

(١) الصبح المنبي ص ١١٠.

(٢) ذكرى أبي الطيب ص ١٠٨ نقلاً عن الذهبي.

من الرملة إلى الفسطاط

توّجه أبو الطيب من الرملة إلى مدينة الفُسطاط التي تبعد عنها نحو إحدى عشرة مرحلة[1] سالكاً الطريق التي تصل الشام بمصر فخرج من الرملة إلى أُبْنَى ومنهم من يقول يُبْنَى وهي بُلَيْدة على نصف مرحلة من الرملة فيها قبر صحابي، يقول بعضهم هو قبر أبي هريرة راوي الحديث المعروف، وآخرون يقولون: قبر عبدالله بن أبي سرح. ومنها إلى يَزْدود أو أَزْدود وهي مدينة صغيرة قريبة من يُبنى. ومن يزدود إلى غزة وهي مدينة حسنة كثيرة الخير ولها رَبَضٌ، قال أبو ذؤيب الهذلي:

فما فَضْلةٌ من أذرعاتٍ هــوتْ بهــا ... مُذَكَّرةٌ عَــنْسٌ كهاديــةِ الــضَّحْلِ[2]

سُــــــلافةُ راحٍ ضُــــــمِّنَتْها إداوةٌ ... مُقيَّــرةٌ رِدْفٌ لمُــؤخِرةِ الرَحْــلِ[3]

تَزوّدها من أَهْــلِ بُــصرى وغَــزَّةٍ ... على جَسْرةٍ مرفوعةِ الذيلِ والكِفْلِ[4]

بأطيبَ مِنْ فيها إذا جئــتُ طارقــاً ... ولم يتبيَّن صادقُ الأُفُق المُجلــي[5]

وفي غزَّة مات هاشم بن عبد مناف جدّ رسول الله (ص) وبها قبرُهُ؛ لذلك يُقال لها: غَزَّةُ هاشم. وبها وُلد أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي[6]، وانتقل إلى الحجاز طفلاً، فأقام وتعلَّم العلمَ هناك ويُروى له يذكرها:

---

(١) المرحلة: المسافة يقطعها السائر في نحو يوم، أو ما بين المنــزلين.
(٢) الفَضْلَة: ما بقي من الشيء. هادية الضحل: الصخرة الملساء في فم البئر.
(٣) مقيرة: مطلية بالقار.
(٤) جسرة: جسيمة. مرفوعة الذيل: مشمِّرة.
(٥) صادق الأفق المجلي: البياض المعترض في الأفق، وقبله الفجر الكاذب.
(٦) الإمام الشافعي: (١٥٠-٢٠٤هـ = ٧٦٧-٨٢٠م) ولد في غزة، ونشأ في مكة، ولازم الإمام مالك في المدينة ودرس عليه. توفي بمصر، وقبره معروف في القاهرة بسفح جبل المقَّطم. له تصانيف كثيرة منها كتاب الأم في الفروع.

وإني لَمــشتاقٌ إلـــى أرض غَــزَّةٍ وإن خانني بعــد التفــرُّق كتمـــاني

سقى الله أرضاً لو ظَفِــرتُ بتُربهـــا كَحَلْتُ به من شدَّةِ الوجــد أجفـــاني

ومن غزَّة إلى رفح مرحلة وهي مدينة عامرة وفيها سوق، وجامع ومنبر وفنادق وأهلُها من لَخْم وجُذام، وفيهم لُصوصيَّة وإغارة على أَمتعة الناس. حتى إن كلابَهم أَضرى كلابٍ بِسَرِقة ما يَسْرِق مثلَه الكلابُ. ومن رفح إلى العريش مرحلة وهي مدينة ذات جامعين مفترقة المباني. والغالبُ عليها الرمل، وهي قريبة من الساحل. وبها فواكه، وثمار حسنة، وهواؤها صحيح طيِّب، وماؤها حلو عذب، وبها نخل كثير، وفيها صنوف من التمور، ورُمَّان يُحْمل إلى كلّ بلد، وأَهلُها من جُذام. ومنها إلى الورَّادة مرحلة، وهي منــــزل في وسط الرمل والماء الملح من أعمال الجفار. فيها سوق للمتعيِّشين ومنازل لهم ومسجد، ومَبْرجَةٌ للحَمَام، يُكتب ويعلَّق على أَجنحتها، ويُرسلُ إلى مصر بالوارد والصادر. ومن الورَّادة إلى البقَّارة مرحلة وهي قرية صغيرة، ومنها إلى الفَرَما مرحلة. والفَرَما مدينة صالحة على نحر بحر الروم كثيرة النخيل، والرُّطَب، والسمك، غير طيبة الماء، يَرِدُها التُّجَّار في البر والبحر ليلاً ونهاراً من الفُسطاط والشام لأنها على الطريق، وسابلتُها غير منقطعين. ومن الفَرَما إلى الهامة موضع بتيه مصر وهي كورة واسعة فيها جبل أُلاق. ومنها إلى بِلْبِيس وهي مدينة صالحة تبعد عن الفُسطاط مرحلة، تليها مدينة الفُسطاط التي وصل إليها أبو الطيب في أَواخر جُمادى الأولى من سنة ٣٤٦هـ والفُسطاط مدينة مصر العظمى، وهي على شمال النيل لأنه يجري في نحرها بين المشرق والجنوب، وهي مدينة حسنة، ينقسم لديها النيل قسمين، فيُعَدَّى من الفُسطاط إلى عَدْوة أُولى فيها أبنية حسنة، ومساكن جليلة تُعرف بالجزيرة، ويُعبَر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة، ويُعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثاني كالجسر الأَول إلى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تُعرف بالجيزة. والفُسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد،ومقدارها نحو فرسخ على غاية

العِمارة والخصب والطيبة واللّذة، ذات رحاب في محالّها وأسواقٌ عِظام، ومتاجر فِخام، وممالك[1] جسام، إلى ظاهر أنيق، وهواء رقيق، وبساتين نَضِرة، ومتنــزَّهات على مرّ الأيام خَضِرة.

وبالفُسطاط قبائل وخِطط للعرب تُنسب إليها محالُّهم كالكوفة والبصرة، إلاَّ أَنها أَقلُّ من ذلك حين وصول أبي الطيب إليها. والدار تكون بها طَبَقاتٍ سبعاً وستَّاً وخمس طبقات، وربما سكن في الدار المئتان من الناس. وبالفسطاط دار تُعرف بدار عبد العزيز بن مروان، وكان يسكنها، ويصبُّ فيها لمن فيها في كل يوم أربع مئة راوية ماء. وفيها خمسة مساجد، وحمَّامان، وغير فرن لخبز عجين أَهلها. ومعظم بُنيانهم بالطوب، وأكثر سِفْل دورهم غير مسكون. وبها مسجدان لصلاة الجمعة. بنى أَحَدَهُما عمرو بن العاص في وسط الأَسواق، والآخر بأعلى الموقف بناه أبو العباس أحمد بن طولون[2]. ولم يلبث أبو الطيب منذ وصوله إلى عاصمة الإخشيديين أن سحره البذخ والترف والرخاء البادية آثارها في دورها وقصور المتنفّذين من حُكَّامها، وذلك عائد إلى أن أولياء الأمور من الإخشيديين حرصوا على استغلال خيراتها لا استنفادها. فواردات مصر من الخراج في عهد محمد الإخشيد بلغت نحو ألفي ألف دينار، يضاف إلى ذلك واردات أملاك التاج والمصادرات. فكان الإخشيد يعيش عيشة الملوك. ولما تولَّى كافور شؤون مصر سار سيرته في البذخ والأُبَّهة فأَحاط نفسه بالعبيد الأَحباش والمماليك البيض، والغِلْمان والحُجَّاب والبطانة. وقيل: إن تكاليف قصره بلغت نحو مئة ألف دينار سنوياً باستثناء مرتبَّات الجند والموظفين وأموال الصلات التي تُمنح لكبار

---

(١) مملكة الطريق: معظمه ووسطه.

(٢) ما ورد من وصف البلدان مستمد من ياقوت وابن حوقل بتصرف.

رجال الدولة. ولم يكن هذا الترف مقصوراً على كافور وحده بل تعدَّاه إلى كبار الضباط الإخشيدين، وكبار الموظفين من الوزراء وأمثالهم. ولم تكن الفسطاط زمن كافور بعيدةً عن الاهتمام برعاية الأدب والفن، بل كان الوصيُّ حريصاً على حماية الفنون والآداب. وكذلك كبار ضباطه ورجال دولته، كابن حنــزابه الذي كان يلتقي في مجلسه الشعراءُ والعلماءُ والمحدّثون، ومثله مجلس صالح بن رِشدين أحد كتّاب ديوان الرسائل، وكذلك والي دمشق القديم علي بن صالح الروذباري الذي مدحه المتنبي فيما مضى. لا بل ربَّما ترامى إلى سمعه أن البيئة المصريّة لم تكن "أقل من البيئة الحلبية خصباً ولا نشاطاً ولا ثروة من العلم والفلسفة والأدب حين وفد المتنبي على الفُسطاط. بل زعم بعضهم أنه "من الخطأ أن نسوّيَ بين البيئتين في ذلك، فقد كانت البيئة المصرية قديمة العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها، أقدم عهداً بها من دار الخلافة نفسها. والناس جميعاً يعلمون أن علوم الدين وفنون الأدب ازدهرت في الفسطاط قبل وجود بغداد. ازدهرت فيها منذ أواخر القرن الأول للهجرة، ثم سلكت سبيلها إلى الرقي هادئة مطمئنَّة طوال القرن الثاني والثالث لم تضعف ولم تفتر، ولم يدركها الخمود. ولعلها كانت تقوى حتى تتجاوز المألوف من النشاط أحياناً في بعض فروع العلم، أو في بعض فروع الفن، كالذي كان حين وفد الإمام الشافعي على مصر، وأنشأ بها مدرسته آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث، فقد كان لهذا الحادث أثر عظيم في تنشيط الحياة العقلية في مصر.

وقد أتاح الإخشيديون لهذه الحياة العقلية التي كانت ترقى في هدوء وتنشط في اطرّاد ما مكّنها من المضيِّ في طريقها إلى القوّة والرقي، والتزيُّد من العمق والاتساع..... وقد كان العلماءُ ينشئون في مصر، وكان العلماء

يَفِدون عليها من الأَقطار الإسلامية فيعملون فيها ويتعلَّمون. ولم يكن هناك فرعٌ من فروع العلم والفنّ والفلسفة يزدهر في بغداد إلاّ وله حظٌّ من الازدهار في مدارس الفسطاط ومساجدها، وأندية السادة والقادة من أهلها[١]".

ولما قدم المتنبي على كافور، أَمر له بمنـــزلٍ فخم، ووكَّل به الخدم وذلك من قبيل الاعتراف بعلّو مقامه، وطلب إليه أن يمدحه. ولكن أبا الطيب تردَّد في ذلك على الرغم من تلك العروض المغرية التي تلّقاها من أبي المسك. فأحجم عن مدحه؛ لعجزه - ربّما - عن كبح أنفته، أو لعلَّه كان ينوي التوجُّهَ بالمدح إلى الوزير المثقف ابن حنـــزابة الذي رآه أكثر جدارةً بمدحه من كافور؛ فنظم قصيدة رائيَّة مدحه فيها، ولكنه - لسبب ما - لم يُنشده إياها[٢]. ولكن كافوراً الذي عرف ابتلاءَ المتنبي بجنون العظمة، وعده بأن يولِّيه صيداء من بلاد الشام، أو غيرها من بلاد الصعيد، وهو ما جعله يربط مصيره بكافور. فمثل في جمادى الثانية من سنة ٣٤٦هـ أمام حاميه الجديد ليمدحه بقصيدته التي مطلعها:

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شـــافيا   وحَـــسْبُ المنايـــا أَنْ يَكُـــنَّ أمانيـــا

وأصبحت حياة أبي الطيب في كنف كافور أكثر تفاؤلاً وإشراقاً من قبل، وأكثر أُبَّهةً ممَّا كانت عليه في حلب. وعلى الرغم من كثرة الشعراء والنُقّاد وأهل العلم في بلاط كافور، فقد ظلَّ المتنبي الشاعرَ الأبرز الذي لا يجرؤ أحد منهم على إنكار تفوُّقه ونبوغه. وقد التفَّ حول الشاعر جمهرةٌ من الكُتَّاب، وهواةِ الأدب، وأقبل الطلبةُ على دراسة شعره على يديه من داخل مصر ومن قاصديها. ولكن ما أَحرزه أبو الطيب في مصر لم يَحُل دون إحساسه بالأَلم والذلّ من وجوده في خدمة عبدٍ زنجي طالما عرَّض

---

(١) مع المتنبي - ص ٢٨٨.

(٢) سوف نعرض هذه القصيدة لاحقاً في مدح ابن العميد.

بأمثاله من الحكام العبيد والأعاجم. لذلك لم تَغِبْ عن خياله شخصيَّةُ سيف الدولة الذي ربطته به علاقة حميمة؛ «إذْ كانت حياةُ سيف الدولة حياةَ بطولةٍ كلّها، وكان المتنبي يشاركه في هذه الحياة مشاركةً عملية؛ فيغزو الرومَ معه إذا غزاهم ويستمتع بالنصر إذا أُتيح النصر للأمير، ويشقى بالهزيمة إذا كُتبت عليه الهزيمة. فكان اللِّسانَ الرسميَّ لهذا الجهاد العظيم، وكان في الوقت نفسه اللِّسانَ الصادقَ المعبِّر عمَّا يثورُ في قلبه من عواطف ومشاعر[١]». وعليه فهو لم يستطع إخفاء مشاعر الحزن التي كانت تملأ نفسه لأن سيف الدولة لم يفهمه حقَّ الفهم، فأطاع فيه حاسديه، ولم يكن حريصاً على الاحتفاظ به صوتاً مدوياً بفضائله وإنجازاته الحربية التي ذاعت أخبارها في الآفاق. إلاَّ أنه وقد أصبح الآن في كنف حاميه الجديد فلا بد له من السعي إلى تحقيق ذلك الحلم الذي داعبه طويلاً ألا وهو إنجاز ما وعده به كافور من الولاية، فألمح إليه في شعره خَجِلاً تارةً، وصريحاً تارةً أخرى، ولولا ما أمّله منه في هذا الشأن لما أَقدم على مدح هذا العبد الدَّميم المثير للسخرية[٢]. وكان يقف بين يدي كافور وفي رجليه خُفَّان. وفي وسطه سيفٌ ومنطقة، ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، وكان لا يجلس في مجلس كافور؛ فأرسل إليه مَنْ قال له: قد طال قيامُك يا أبا الطيب في مجلسه، يريد أن يعلم ما في نفسه؛ فقال ارتجالاً:

يقلُّ لـه القيـامُ علـى الـرؤوسِ ... وبـذلُ المُكْرَمـاتِ مـن النفـوسِ

إذا خانتـه فـي يـومٍ ضَحـوكٍ ... فكيف تكون فـي يـومٍ عَبـوسِ[٣]

---

(١) مع المتنبي - ص ٢٧٩ بتصرف.

(٢) انظر بلا شير ص ٣٤٧ وما بعدها.

(٣) الصبح المنبي ص ١١٢. المكرمات: النفوس الكريمة. والضمير في خانته يعود على النفوس، والمعنى: إذا لم تحفظ النفوس حقه، ولم تقم بخدمته في السلم، فكيف تخدمه في الحرب؟

بين يدي كافور

«أَقام أَبو الطيب بمصر أربعَ سنين وستَّةَ أَشهر. من جُمادى الثانية سنة ستٍ وأربعين إلى تاسع ذي الحجّة سنة خمسين وثلاث مئة. ومدح كافوراً حين قَدِم عليه، وختم مدائحه بقصيدةٍ أنشده إياها في شوَّال سنة تسعٍ وأربعين وثلاث مئة. وبقي بعد ذلك سنةً وشهرين لم يُنشِدْ كافوراً شيئاً من شعره. وبين القصيدتين الأولى والآخرة ثلاث سنين وأربعة أشهر مدح فيها أبو الطيب كافوراً بتسع قصائد وقطعتين، فيها كلّها ثلاثة وسبعون وثلاث مئة بيت، ذلكم ربع ما مدح به سيفَ الدولة[(١)]».

إن أول قصيدة نظمها المتنبي في مدح كافور تلك التي أنشده إياها في شهر جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلاث مئة فعبّر فيها عن تذّمره وشكواه من وفاء الأصدقاء وغدرهم به، وهو ما جعله يتمنَّى الموت للخلاص مما آلت إليه حالُه. كما عبَّر فيها عن آماله العراض في أميره الثاني الذي رجا عنده بلوغ غايته، والتعويض عمَّا افتقده في كنف سيف الدولة فقال:

كفى بِكَ داءً أَنْ ترى الموتَ شافيا ... وحَسْبُ المنايا أَن يكنَّ أمانيا

تمنَّيْتَها لما تَمنَّيتَ أَنْ ترى ... صديقاً فأَعْيا أَو عدوًّا مُداجيا

إذا كنتَ ترضى أن تعيشَ بِذِلَّةٍ ... فلا تَستعِدَّنَّ الحُسامَ اليمانيا

ولا تَستْطيلنَّ الرماحَ لِغارةٍ ... ولا تَستْجيدَنَّ العِتاقَ المذاكيا

فما ينفعُ الأُسْدَ الحياءُ من الطَّوى ... ولا تُتَّقى حتى تكون ضواريا

---

(١) ذكرى أبي الطيب - ص ١١٥.

ثم يعرّض بسيف الدولة موجهاً اللومَ إلى قلبه على تعلُّقه بِمن لا يبادلُه ودّاً بودٍّ، بل يقابل المودَّة بالغدرْ ونكران الجميل، فيقول:

حَبَبْتُك قلبي قبل حُبِّكَ مَن نأى ... وقد كانَ غَدَّاراً فكن أَنت وافيا
وأَعلَم أَنَّ البينَ يُشكيكَ بَعْدَه ... فلستَ فؤادي إن رأَيتك شاكيا
فإنَّ دُموعَ العين غُدْرٌ بربِّها ... إذا كُنَّ إِثْرَ الغادرينَ جواريا
إذا الجودُ لم يُرزَقْ خلاصاً من الأَذى ... فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقيا[١]
وللنَّفْسِ أَخلاقٌ تَدُلُّ على الفتى ... أَكانَ سَخاءً ما أَتى أَمْ تَساخيا
أَقِلَّ اشتياقاً أَيُّها القلبُ رُبَّما ... رأَيتُك تُصْفِي الودَّ مَنْ ليس صافيا
خُلِقتُ أَلُوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا ... لفارقتُ شيبي مُوجعَ القلبِ باكيا

ثم يتخلَّص إلى مدح كافور فيقول:

ولكنَّ بالفُسطاط بحراً أَزرتُه ... حياتي ونُصحِي والهوى والقوافيا
وَجُرْداً مَدَدْنا بين آذانها القنا ... فبتْنَ خِفافاً يتَّبِعْنَ العواليا
قواصدَ كافورٍ توارِكَ غَيْرِهِ ... ومن قصد البحرَ استقلَّ السواقيا
فجاءَت بنا إنسانَ عينِ زمانهِ ... وخلَّت بياضاً خلفَها ومآقيا
فتىً ما سرينا في ظهور جُدودنا ... إلى عصره إلاَّ نُرجِّي التلاقيا
أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً ... إليه وذا الوقتُ الذي كنتُ راجيا
أَبا كلِّ طِيبٍ لا أَبا المسكِ وَحْدَه ... وكلَّ سحابٍ لا أَخصُّ الغواديا
يُدِلُّ بمعنىً واحدٍ كلُّ فاخرٍ ... وقد جمع الرحمنُ فيك المعانيا
إذا كسَبَ الناسُ المعاليَ بالندى ... فإنَّك تُعطي في نداكَ المعاليا

---

(١) يقول: إذا لم يتخلّص الجود من المنّ به. لم يحصل الحمد، ولم يبق المال، لأن المال يذهب مع الجود، والمن يبطل الحمد، فالمانُّ بما يعطي غير محمود ولا مأجور.

ثم يذكّر حاميه الجديد بما وعده بتوليته مدينة شامية أو مصرية فيقول:

وغيــرُ كثيــر أنْ يــزورَك راجــلٌ	فيرجــعَ مَلْكــاً للعــراقينِ واليــا
فقد تَهَبُ الجيشَ الذي جاءَ غازيــاً	لِسائلِك الفردِ الــذي جــاء عافيــا
وتَحْتقــرُ الــدُّنيا احتقــار مُجــرِّبٍ	يرى كلَّ ما فيهــا وحاشــاكَ فانيــا
وما كنتَ مِمَّنْ أَدرك المُلْكَ بــالمُنى	ولكــن بأيــامٍ أَشَــبْنَ النواصــيا

لم يستطع أبو الطيب في هذه القصيدة الذائعة الصيت أن يُخفِيَ خيبةَ أَمله في سيف الدولة، فهو في صراعٍ مرير مع قلبه الذي ينازعه الشوق إلى من لا يستحقُّ الشوق، ويمنح الودَّ لمن خان المودَّة وتنكرَّ لها، ويُنحي باللائمة على دموعه التي تجري في إثر من غدروا به وجحدوا فضله.

ثم ينتقل إلى مدح كافور الذي توجَّه إليه بما بقي من حياته، وبما يحمله في قلبه من المحبة والنصح، وما تجود به قريحته من الشعر ليذيع في الناس فضله ومزاياه الفريدة. ولا ينسى أن يعرِّض بحاجته، فممدوحه قادر على أَنْ يَهَبَ الممالكَ والجيوش لمن يراه أهلاً لها؛ فَلِمَ لا يكون واحداً من هؤلاء؟

وفي الشهر التالي كان كافور قد سكن داراً جديدة بناها في الشمال الشرقي من حيّ العسكر، فنظم أبو الطيب قصيدةً يومَ افتتاحها في رجب من سنة ٣٤٦ هــ وذلك بطلبٍ من حاميه الجديد.

«فقد كانتِ الدارُ على غايةٍ من الروعةِ، تقع في موضعٍ مُثيرٍ للإعجاب، فهي من ناحية الشمال محاطة بشاطئٍ رمليٍّ خالٍ من الناس، وتمتدُّ أَمامها بركةُ الفيل التي تتألَّق صفحتها السيّالة (وكان النيل يومئذٍ في موسم الفيضان) تحت أشعَّة الشمس الساطعة، وانتصبت في الشرق قممُ جبلٍ يَشْكُر، ومسجد ابن طولون الذي يشبه بحرمه المزدوج حصناً من بعيد. وفي الغرب بدت - فيما وراء البساتين - بركةُ قارون، وحيُّ العسكر، والكنائسُ القبطيَّة. كما بدت بعيداً الفسطاطُ ذاتُها، ثم النيل المحيط بجزيرة الروضة التي حُوِّلت بأَمرٍ من محمد الإخشيد إلى حديقة، وفي أسفل المنظر ظهرت الجزيرة، والأَهرامات،

والصحراء الليبيَّة»[1]. وعلى الرغم من جمال هذه الدار، وروعة المنظر المحيط بها، فإن أبا الطيب كان في شُغُلٍ عن ذلك كلِّه بكيل المديح للوصيّ. فهو أعلى منـــزلة من أن يُهنَّأَ بدارٍ، والبلادُ كلُّها والناسُ وكلُّ ما بين السماء والأرض ملكٌ له. وليس فخره بما يبتني من الدور والقصور، وإنما فخرُهُ بما يبتني من الأَمجاد. ولم يَنْسَ في نهاية القصيدة أن يذكِّر كافوراً بما وعدَهُ به لأنه يمتلِكُ من الصفات ما يؤهِّله للقيام بأي عمل جليل.

قال أبو الطيب:

إنَّمـــا التهنئـــاتُ للأَكفـــاءِ ... ولمـــنْ يـــدَّني مـــن البُعَـــداءِ[2]

وأَنـــا منْـــكَ لا يُهنِّـــئ عُـــضْوٌ ... بالمـــسرَّات ســـائرَ الأَعـــضاءِ[3]

مُـــستقِلٌّ لـــكَ الـــديارَ ولـــو كـــا ... نَ نجومـــاً آجُـــرُّ هـــذا البنـــاءِ

ولـــو انَّ الـــذي يخِـــرُّ مـــن الأمْـــواهِ فيهـــا مـــن فِـــضَّةٍ بيـــضاءِ

أنْـــتَ أَعلـــى محلَّـــةً أن تُهنَّـــى ... بمكانٍ في الأرضِ أو فـــي الـــسماءِ

ولـــك النـــاسُ والـــبلادُ ومـــا يَـــسْرَحُ بـــين الغبـــراءِ والخـــضراءِ

وبـــساتينُك الجيـــادُ ومـــا تحمِـــ ... ـــلُ مـــن سَـــمْهرِيَّةٍ ســـمراءِ

إنَّمـــا يفخـــرُ الكـــريمُ أبـــو المـــسك بمـــا يَبْتَنـــي مـــن العَلْيـــاءِ

وبأَيامـــه التـــي انْـــسلَخت عنـــه ومـــا دارُه ســـوى الهيجـــاءِ

وبمـــا أَثَّـــرت صـــوارمُه البـــيضُ لـــه فـــي جمـــاجِمِ الأَعـــداءِ

وبمـــسكٍ يُكْنَـــى بـــه لـــيس بالمِـــسْكِ ولكنَّـــهُ أريـــجُ الثنـــاءِ

---

(١) انظر بلاشير ص ٣٥٦.

(٢)(٣) يقول: إنما يهنئ الرَجُلَ نظراؤه والذين يتقربون إليه من الأجانب، وأنا منك، أي أنا وأنت كإنسانٍ واحد وإذا فرح الإنسان اشتركت في ذلك جميع أعضائه؛ فلم يهنئ بعضها بعضاً.

لا بما يبتني الحواضرُ فــي الرّيـــ ـــفِ وما يطَّبي قلــوبَ النــساءِ[١]

تفضحُ الشمسَ كلّما ذَرَّت الــشّمــ ـــسُ بــشمسٍ مُنيــرةٍ سَــوْداءِ

إنَّ في ثوبــكَ الــذي المجــدُ فيــه لَـــضياءٌ يُــزْرِي بكــلِّ ضـــياءِ

إنَّما الجِلْـدُ مَلْـبَسٌ وابيــضاضُ الــنفسِ خيــرٌ مــن ابيــضاضِ القبــاءِ[٢]

كَـــرمٌ فـــي شـــجاعةٍ وذكـــاءٌ فـــي بهـــاءٍ وقـــدرةٌ فـــي وفـــاءِ

مَنْ لِبيضِ الملوكِ أن تُبـدِلَ اللّـو نَ بلـــونِ الأُســـتاذِ والـــسَّحْناءِ

يا رجاءَ العيــونِ فــي كــلّ أرضٍ لــم يكـــن غيـــرَ أَنْ أَراكَ رجـــائي

ولقـــد أَفنـــتِ المفـــاوزُ خيلـــي قبــلَ أَنْ نلتقــي وزادي ومـــائي[٣]

فارمِ بـــي مـــا أَردْتَ منّـــي فـــإنّي أَســـدُ القلـــبِ آدمـــيُّ الـــرُّواءِ[٤]

وفـــؤادي مـــن الملـــوكِ وإن كـــا ن لساني يُــرى مــن الــشُّعراءِ[٥]

ولما فرغ أبو الطيب من إنشاد قصيدته «حلف - كافور - لَيُبلِّغنه جميعَ ما في نفسه. وإنهَ لأكذب ما يكون إذا حلف[٦]».

أَما ابنُ حنـــزابة وزيرُ كافور فقال: «إنه هَزِىءَ بكافور في هذه الأَبيات. ويُسهِّلُ على الناس أَمْرَ لونه، ويُحسِّنُه له» وقال آخر: كان المتنبي يعلم أَنَّ ذكرَ السواد على مسامع كافور أَمَرُّ من الموت، فإذا ذكر لونه بعد ذلك، فقد أَساء إلى نفسه، وعرَّضها للقتل والحرمان. وكان من إحسان الصنعة، وإجمال الطلب أَلاَّ يذكرَ لونَهُ، وله عنه مَنْدُوحَةٌ. ولكنَّ الرجلَ كان سيِّئ الرأي، وسوءُ رأْيه أَخرجه

---

(١) يطّبي: يستميل.

(٢) القباء: الثوب.

(٣) المفاوز: الصحروات المهلكة.

(٤) الرواء المنظر.

(٥) يقول: إن فؤادي فؤاد الملوك عزماً ورأياً ودهاءً، وإن كان لساني لسان شاعر.

(٦) ذكرى أبي الطيب ص ١٩ نقلاً عن شرح المعرّي.

من حضرة سيف الدولة، وشدَّةُ تعرُّضه لعداوة الناس. وقد ذكرَ سوادَ كافور في عدَّة مواضع، وكان من اللائق ألاَّ يذكره[١]».

وفي أَول شوَّال سنة ٣٤٦هـ أنشده قصيدةً أُخرى يومَ عيد الفطر افتتحها بالنسيب على طريقة القدماء، ثم انتقل إلى مدح كافور، حيث يقول:

مَنِ الجـآذرُ فـي زِيِّ الأَعاريـبِ ... حُمْرَ الحُلَى والمطايا والجلابيـبِ[٢]
إن كنتَ تسألُ شَكَّاً فـي معارفهـا ... فَمَـنْ بَـلاكَ بتـسهيدٍ وتعـذيبِ[٣]
سـوائرٌ ربمـا سـارت هوادجُهـا ... منيعةً بين مطعـونٍ ومـضروبِ[٤]
وربَّما وخدت أيـدي المطـيِّ بهـا ... على نجيعٍ من الفرسانِ مصبوبِ[٥]
كم زَوْرَةٍ لكَ في الأَعـرابِ خافيـةٍ ... أدهى وقد رقدوا من زَوْرَةِ الـذيبِ
أزورُهم وسوادُ الليـلِ يـشفعُ لـي ... وأنثني وبياضُ الصبحِ يُغْـري بـي
ما أوجُهُ الحَضَرِ المستحسناتُ بـه ... كأوجـهِ البـدويَّات الرعابيـبِ[٦]
حُسْنُ الحضارةِ مجلـوبٌ بتطريـةٍ ... وفي البداوةِ حُسْنٌ غيـرُ مَجْلُـوبِ
ومن هوى كلِّ مَنْ ليـست مموَّهـةً ... تَركْتُ لونَ مشيبي غيرَ مخـضوبِ
ومن هوى الصدقِ في قولي وعادتهِ ... رَغِبتُ عن شَعَرٍ في الرأسِ مكذوبِ

---

(١) الصبح المنبي ص ١١٥-١١٦.

(٢) الجآذر: هو جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية. تشبَّه به النساء في جمال العيون. الأعاريب: جمع أعراب، وهم سكان الخيام والوبر. يقول: إن هؤلاء النسوة الشبيهات بالجآذر، وهن في زيّ الأعاريب، ومتحلِّيات بالذهب الأحمر، وممتطيات النياق الحمر، ومشتملات في ثياب حمراء وذلك يعني أنهن من نساء الأشراف.

(٣) إن كنت تسأل عنهن لشكٍّ بدا لك في معرفتهن، فمن الذي امتحنك بالسهر والعذاب؟

(٤) سوائر: هن سوائر. يقول: إنهن من قومهن في عزّ ومنعة، فمن تصدّى لهنّ طُعِن أو ضُرِب.

(٥) الوخد: ضرب من سير الإبل وهو سعة الخطو في المشي. النجيع: الدم. يقول: ربما سارت بهن مطاياهن على دمٍ مصبوبٍ من الفرسان.

(٦) الرعابيب: جمع رعبوبة وهي المرأة السمينة.

لَيتَ الحوادثَ باعتني الذي أَخَــذت	منّي بحلمي الذي أعطت وتجريبـــي
فما الحداثـــةُ عـــن حِلْـــمٍ بمانعـــةٍ	قد يوجَدُ الحِلمُ في الشُّبَّانِ والـــشِّيبِ

ثم يشرع في مدح كافور فيقول:

ترعـــرع الملـــكُ الأُســـتاذُ مكـــتهلاً	قبـــلَ اكتهـــالٍ أديبـــاً قبـــلَ تأديـــبِ
مُجَرَّبـــاً فَهَمـــاً مـــن قبـــلِ تجربـــةٍ	مُهذَّباً كَرَمـــاً مـــن غيـــرِ تهـــذيبِ
حتى أَصاب مـــن الـــدنيا نهايتَهـــا	وَهَمُّهُ فـــي ابتـــداءَاتٍ وتـــشبيبِ[١]
يدبِّر المُلْكَ من مـــصرٍ إلـــى عَـــدَنٍ	إلى العراقِ فأرضِ الـــروم فـــالنُّوبِ

ثم يُعرّض بسيف الدولة فيقول:

قالوا هجرتَ إليه الغيثَ قلـــتُ لهـــم	إلـــى غُيـــوثِ يديـــهِ والـــشآبيبِ[٢]
إلى الذي تَهَـــبُ الـــدَّولاتِ راحتُـــهُ	ولا يَمُـــنُّ علـــى آثـــارِ موهـــوبِ
ولا يَـــروعُ بمغـــدورٍ بـــهِ أَحـــداً	ولا يُفـــزِّعُ موفـــوراً بمنكـــوبِ[٣]

ويذكر فضل الخيل التي أَخْرجتْهُ من دائرة الخطر الذي كان يُحيق به فيقول:

وَجَدْتُ أَنفـــعَ مـــالٍ كنـــتُ أَذخُـــرُهُ	ما في السوابقِ من جَرْيٍ وتقريبِ[٤]
لما رأينَ صروفَ الدهر تغدِرُ بـــي	وفَيْنَ لي ووفت صُـــمُّ الأَنابيـــبِ[٥]
فُتْنَ المهالـــكَ حتـــى قـــال قائلُهـــا	ماذا لقينا من الجُرْدِ الـــسراحيبِ[٦]

---

(١) التشبيب: ذكر أيام الشباب، ثم سُمّي ابتداء كل أمر تشبيباً. ويريد بنهاية الدنيا: الملك. يقول: إن كافوراً أصاب الغاية القصوى من دنياه وهو الملك، ومع ذلك لا تزال همَّتُه في بداية أمرها.

(٢) الشآبيب: جمع شؤبوب: الدفعة الشديدة من المطر. أي إن الشاعر فارق غيث سيف الدولة إلى غيوث كافور.

(٣) يقول: إنه لا يغدر بأحد كي يروع به غيره، ولا ينكب أحداً، فيخيفه، أو يسلب ماله ليفزغ به الموفور الذي لم ينكب.

(٤) التقريب: ضرب من العدو. والسوابق: الخيل.

(٥) صم الأنابيب. الرماح: الصُمّ.

(٦) الجرد: القصيرة الشعر. السراحيب: ج سُرْحوب وهو الفرس الطويل.

ثم يفخر بنفسه، ويُفصح عمَّا يعتمل في أعماقها من توقٍ إلى المعالي فيقول:

تَهــوي بمنجــردٍ ليــست مذاهبُــه	للُبْسِ ثَوبٍ ومــأْكولٍ ومَــشْروبِ[١]
يرى النجومَ بعينَيْ مَــنْ يُحاولُهــا	كأنها سَلَبٌ في عــينِ مــسلوبِ[٢]

ثم يختم قصيدته بالقول:

فالحمدُ قبلُ له والحمــدُ بعــدُ لهــا	وللقنــا ولإدلاجــي وتــأويبي[٣]
وكيــف أكفــرُ ياكــافورُ نعمتَهــا	وقد بَلَغْنَك بــي يــا كُــلَّ مطلــوبي
يا أَيُّهــا المَلِــكُ الغــاني بتــسميةٍ	في الشرقِ والغرب عن وَصْفٍ وتلْقيــبِ[٤]
أَنْتَ الحبيــبُ ولكنّــي أَعــوذُ بــه	مِنْ أَنْ أَكونَ مُحِبّاً غيــرَ محبــوبِ

لقد عادت الذكرى بالشاعر إلى تلك الأيام التي عاشها في بوادي العراق والشام، فشبَّب بالأعرابيات اللواتي لا يعرفن التكلُّف والحسنَ المجلوب بالاحتيال، وفضَّلهن على الحضريَّات اللواتي يتكلَّفن الحسنَ بالحيلة والعلاج، فبدا وكأنه قد ضاق بهذه الحياة الناعمة الهادئة في كنف حاميه الجديد. وتاقت نفسُهُ إلى سَماع صليل السيوف، وحَمْحمَة الجياد في سوح المعارك. إن تفضيله للحُسن غير المتكلَّف جاء مناسباً إيثاره الشيبَ الذي لا يستره خضاب؛ لأنه يهوى الصراحةَ والصدق، ويكره الكذب والزيف، كما يتمنَّى أَنْ ترُدَّ عليه

---

(١) المنجرد: الجادّ في الأمور (يعني نفسه). تهوي: تُسرع. أي إن هذه الخيل تسرع برجل جادّ في الأمور لا يرتحل في البلاد من أجل لباس أو طعام. وإنما يطلب المعالي.

(٢) يقول: إنه لبعد همته يطمح إلى إدراك النجوم، فهو ينظر إليها بعين من يحاول تناولها حتى لكأنها شيء قد سلب منه، فهو يريد استرداده.

(٣) له: أي لكافور، ولها: للخيل. والإدلاج: سير أول الليل. والتأويب: سير عامة النهار. يقول: إني أحمدك، وأحمد خيلي ورماحي وإدلاجي وتأويبي، إذ أبلغتني إليك.

(٤) الغاني: المستغني.

حوادثُ الدهر وصروفه ما أَخذته من شبابه. وتستردّ ما أَعطتْهُ من الحِلْم. مع أَنَّ حداثةَ السِّنِ لا تحول دون الحلم، فربما كان المرء حليماً في شبابه، كما يمكن أَنْ يكون حليماً في مشيبه. أَمَّا القسم الثاني من القصيدة المتعلِّق بمدح كافور، فقد جنح فيه أبو الطيب إلى المبالغة في تصوير نبوغ الممدوح، وتفوُّقه على نظرائه من الملوك بالفطرة، إذ نشأ مجرِّباً دون تجريب لما جُبل عليه من الفهم، مهذباً دون تهذيب بما طُبع عليه من كرم الأخلاق؛ فأَصاب الغايةَ القصوى من دنياه، وامتدَّت رقعةُ مُلكه إلى عدن والعراق والروم والنوب. ولم يفته في القسم الأخير من القصيدة أن يعرِّض بسيف الدولة وبحاجته معاً، فإذا كان سيفُ الدولة يهب المالَ، فإن كافوراً يمكنُه أَنْ يَهَبَ المال والدُّول ولا يتبع هبتَهُ بالمنّ. ولكن حرصه الشديد في نهاية القصيدة على الفوز برضا سيده الجديد لم يُخفِ خوفَهُ من أن يكون ولاؤه في غير مكانه؛ فإنه من نكد الدنيا على المرء أن يُحِبَّ مَنْ لا يُحبُّه، وأَن يثق بمن لا يثق به. وفي عيد الأضحى من السنة نفسها في ذي الحجة ٣٤٦هـ أَنْشده القصيدة الرابعة حيث قال:

أَوَدُّ مـــن الأيـــام مـــا لا تَـــوَدُّه　　　وأشكو إليها بَيْنَنَا وهـــي جُنْـــدُهُ(١)

يُباعِـــدن حِبًّـــا يَجْـــتمِعْن ووصـــلُه　　　فكيف بِحِـــبٍّ يَجْـــتمِعنَ وصَـــدُّه(٢)

أبـــى خُلُـــقُ الـــدنيا حبيبـــاً تُديمُـــهُ　　　فما طلبـــي منهـــا حبيبـــاً تـــردُّهُ(٣)

وأســـرعُ مفعـــولٍ فعلـــتَ تغيُّـــراً　　　تكلُّفُ شيءٍ في طباعـــك ضـــدُّهُ(٤)

---

(١) البين: الفراق. يقول: أحبّ أن تنصفني الأيام، وأن تجمع بيني وبين أحبتي، وذلك ما لا تودّه الأيام، وأشكو إليها الفراق وإنما هي جند الفراق.

(٢) الحبّ: المحبوب. يقول: إن كانت تبعد عنا الحبيب المواصل لنا، فكيف تقرب الحبيب المقاطع.

(٣) يقول: لقد أبت الدنيا أن تُديم لنا حبيباً على الوصال، فكيف أطلب منها أن تردّه إلى الوصل بعد إعراضه وهجره؟!.

(٤) يقول: إن الدنيا لو أسعدتنا بقرب أَحبتنا لما دام لنا ذلك؟ لأن الدنيا بنيت على التغيّر والتنقّل، فإذا فعلت غير ذلك كانت كمن تكلّف شيئاً ضد طباعه.

ثم يقول:

وأتعبُ خلْــقِ الله مــن زاد همُّــه ... وقصَّر عمَّا تشتهي النفسُ وُجْدُهُ[(١)]

فلا ينحلِلْ في المجــد مالُــك كُلُّــه ... فينحلَّ مجدٌ كــان بالمــالِ عَقْــدُهُ[(٢)]

ودبِّرْهُ تــدبيرَ الــذي المجــدُ كفُّــه ... إذا حاربَ الأَعداءَ والمالُ زَنْــدُهُ[(٣)]

فلا مجدَ في الدنيا لمن قــلَّ مالُــه ... ولا مالَ في الدنيا لمن قــلَّ مجــدُهُ

وفي الناس من يرضى بميسور عَيْشه ... ومركوبُــهُ نعــلاه والثــوبُ جِلْــدُهُ

ولكــنّ قلبــاً بــين جنبــيّ مالَــهُ ... مدىً ينتهي بي فــي مُــرادٍ أَحُــدُّهُ

يرى جِسْمَهُ يُكــسى شــفوفاً تَرُبُّــه ... فيختارُ أن يُكسى دروعــاً تهــدُّهُ[(٤)]

يكلّفني التهجيرُ فــي كــلّ مَهْمــهٍ ... عليقــي مراعيــه وزاديَ رُبــدُهُ[(٥)]

وأمضى سلاحٍ قلَّد المــرءُ نفــسَه ... رجاءُ أبي المسْكِ الكــريم وقــصدُهُ

أنا اليومَ من غلمانه فــي عــشيرةٍ ... لنــا والــدٌ منــه يُفدِّيــه وُلْــدُهُ

---

(١) الهمّ: الهمّة. الوجد: السعة. أي إن الشاعر أتعب خلق الله لزيادة همته وقصور طاقته من الغنى. وهذا في رأي الواحدي مأخوذ من الحديث الذي يقول: إن بعض العقلاء سئل عن أسوأ الناس حالاً فقال: من قويت شهوته، وبعدت همّتُه، واتسعت معرفته، وضاقت مقدرته.

(٢) ينهى عن تبذير المال، والإسراف في إنفاقه فيقول: لا يذهبنّ مالك كله في طلب المجد، لأن من المجد ما لا ينعقد إلاّ بالمال، فإذا ذهب مالك كله انحلّ ذلك المجد الذي كان ينعقد بالمال.

(٣) يقول: دبرّ مالك تدبير من إذا خاض الوغى للطعان، جعل المجدَ الساعد الذي تعتمد عليه الكف بالضرب، أي بالمجد تُقاد الجيوش، وبالمال يُنفق عليها.

(٤) الشفوف: ج شَفّ وهو الثوب الرقيق. تربّه: تنميّه، وتنعمه. يقول: إنه يؤثر الدروع التي تهدد الجسم بثقلها على لبس الشفوف والتنعّم بلبس الثياب الرقيقة. لأنه طالب مجد وسيادة.

(٥) التهجير: السير وقت الهاجرة. المهمه: الفلاة الواسعة. والربد: النعام. يقول: إن قلبي يكلّفني التهجير والسير في الفلوات، فلا عليق لفرسي إلاّ أن يرتع في مراعيها، ولا زاد لي إلاَّ ما أصطاده من النعام.

فَمِنْ مالِــهِ مــالُ الكبيــرِ ونفــسُه ومن مالهِ درٌّ الــصغيرِ وَمَهْــدُهُ[1]

نجرُّ القنــا الخَطــيَّ حــول قبابــه وتَرْدي بنا قُبُّ الرِّبــاط وجُــرْدُهُ[2]

ونمتحنُ النُــشَّابَ فــي كــلّ وابــلٍ دَوِيُّ القِــسيِّ الفارســيّةِ رَعْــدُهُ[3]

فإلاَّ تكن مصرُ الــشرى أو عرينَــهُ فإن الذي فيها مــن النــاس أُسْــدُهُ

تولَّى الصِّبا عنِّي فأخلفــتَ طيبَــهُ وما ضرَّني لمَّــا رأيتُــك فَقْــدُهُ[4]

لقد شبَّ في هذا الزمــانِ كُهولُــه لديك وشابت عنــد غيــرك مُــرْدُهُ

وليتك ترعاني وحيــرانُ مُعــرِضٌ فتعلمَ أني مــن حُــسامِك حَــدُّهُ[5]

وأنــي إذا باشــرتُ أمــراً أُريــدُهُ تــدانت أَقاصــيه وهــان أَشَــدُّهُ[6]

فإن نلتُ مــا أمَّلْــتُ منــك فربَّمــا شربتُ بماءٍ يُعجِــزُ الطيــرَ وِرْدُهُ[7]

ووعــدُك فِعْــلٌ قبــلَ وعــدٍ لأنــه نظيرُ فَعالِ الصادقِ القولِ وَعْــدُهُ[8]

---

(١) الدّر: الحليب. يقول: إن برّه عمّ الكبير والصغير على السواء.

(٢) القنا: الرماح. والخطّي: نسبة إلى الخط موضع باليمامة تقوّم فيه الرماح. القباب: الخيام. تردي: من الرديان وهو ضربٌ من العدو. والقب: الضامرة البطون. والرباط: اسم لجماعة الخيل. والجرد: القصار الشعر. يقول نقوم في خدمته أينما نزل ونصبت خيامه، وتعدو بنا الخيل في صحبته أينما سار.

(٣) نمتحن: نختبر. النشّاب: السهام. الوابل: المطر الغزير. يقول نمتحن بين يديه الترامي بالسهام، فهي كالوابل في كثرتها، وأصواتها كالرعد.

(٤) تولّى: ذهب. أي ولّى صباي فأخلفت عليّ طيبه، أي جعلت له خَلَفاً بما أجد من طيب أيامي عندك.

(٥) حيران: ماء بالشام على يوم من سلمية، معرض: ظاهر أي ليتك تراني وأنا عند ذلك الماء فترى جلدي، ومضائي في الأمور مضاء حد سيفك.

(٦) يقول: إنه إذا حاول أمراً تدانت أباعده، وهان أصعبه لعزمه وبُعد همته.

(٧) بماء: أي من ماء. يقول: إن بلغت أملي فيك فلا عجب فكم بلغت الممتنع الذي لا يدرك من الأمور.

(٨) أي إذا وعد فكأنه قد فعل لأنه من كان صادق القول لا يرجع عن وعده.

فكُنْ في اصطناعي مُحسِناً كمجرِّبٍ	**يَبِنْ لكَ تقريبُ الجوادِ وشَدُّهُ[١]**
إذا كنت في شكٍّ من السيف فابلُهُ	**فإما تُنفِّيهِ وإما تُعِدُّهُ[٢]**
وما الصارمُ الهنديُّ إلاَّ كغيرهِ	**إذا لم يفارقْهُ النِّجادُ وغِمْدُهُ[٣]**
وإنك لَلْمشكورُ في كلّ حالةٍ	**ولو لم يكن إلاَّ البشاشةُ رِفْدُهُ[٤]**
فكلُّ نوالٍ كان أو هو كائنٌ	**فلحظةُ طَرْفٍ منكَ عنديَ نِدُّهُ**
وإني لفي بحرٍ من الخير أصلُه	**عطاياكَ أرجو مَدَّها وهي مَدُّهُ**
وما رغبتي في عَسْجَدٍ أَستفيدُهُ	**ولكنها في مَفْخَرٍ أَسْتجِدُّهُ**
يجودُ به من يَفْضحُ الجودَ جُودُهُ	**ويَحمَدُهُ من يفضحُ الحمدَ حَمْدُهُ**
فإنَّك ما مرَّ النحوسُ بكوكبٍ	**وقابلتَهُ إلاَّ ووجهُكَ سَعْدُهُ[٥]**

إن مطلع هذه القصيدة يفيض بالألم والحسرة، فمن عادة الأيام أن تنغِّص على المرء عيشه، فتفرّق بينه وبين من يُحبّ. فهذه الدنيا قضت بألاَّ تُديمَ حبيباً على الوصال، فكيف يُطلَبُ منها أن تَردَّ حبيباً بعد أن أعرض وهجر؛ وهي لو أسعدتنا حيناً بقرب أَحبّتنا لما دام لنا ذلك لأنها مبنيّة على التبّدل والتغيُّر، وإن فعلت غيرَ ذلك كانت كمن تكلَّف شيئاً ضدَّ ما جُبِلَ عليه من الطباع. وممَّا يبعث على الأسى، ويعمق الشعورَ بالخيبة أن الشاعر طالما طوَّف في الآفاق يبتغي مجداً، فحال المالُ دون تحقيق بُغيته، والمجدُ مقترن بالمال، وكلاهما متوقِّفٌ على الآخر.

---

(١) اصطنعه: اختاره موضعاً لصنيعته أي برّه ومعروفه. والتقريب، والشدّ: ضربان من جري الخيل. قال الواحدي: جرّبني في اصطناعك إياي ليتبين لك أني موضع للصنيعة، فبالتجربة يُعرف الفرس وأنواع جريه من التقريب والشدّ.

(٢) ابلُهُ: اختبره. أي جرّبني فإن وجدتني أهلاً لما شئت فاصطنعني وإلاّ فارفضني.

(٣) أي لا يظهر فضل السيف إلاَّ بالتجربة.

(٤) أي أنت مشكور على كل حال، ولو لم أتلق منك إلا طلاقة وجهك.

(٥) يقول إنك تُسْعِد المنحوس، وتطرد البؤس.

فأبو الطيب ليس كغيره من الناس يَرضى من هذه الحياة بالغذاء والكساء، ويستكين إلى الحياة الليّنة، بل هو رجل يشغله ويؤرِّقه طلبُ المجد والسيادة، وليس شاعراً تُرضيه الصلات والعطايا النفيسة؛ لذلك هو يُلحف في الطلب، ويرجو ممدوحه أن يصطنعه ويجرّبه، ويُنجزَ ما وعده به. فهو طالب مجد وليس طالبَ مال، وذلك ما يدعو كافوراً إلى الرِّيبة والحذر من ملكٍ، أو أمير في ثوب شاعر! وهو ما يؤكِّد قولَهُ لأبي الطيب حينما سأله أن يولِّيه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد فقال كافور:

«أَنْتَ في حال الفقر وسوء الحال، وعدم المُعين سمت نفسُك إلى النبوَّة، فإن أَصبتَ ولايةً، وصار لك أتباع، فمن يُطيقُك[١]؟ وبعد انتقال كافور من داره في بركة قارون التي مات له فيها خمسون غلاماً؛ ففزع من ذلك، وخرج منها إلى دار المرصدي في المحرم من سنة ٣٤٧هـ أَنْشده أبو الطيب القطعة التالية:

أَحــقُّ دارٍ بــأَنْ تُــسْمَى مباركــةً	**دارٌ مباركــةُ المَلْــكِ الــذي فيهــا**
وأَجدرُ الدورِ أَنْ تُــسقى بــساكنها	**دارٌ غدا الناسُ يَسْتَــسقُون أهليهــا**
هــذي منازلُــكَ الأُخــرى نُهنّئُهــا	**فمن يمــرُّ علــى الأولــى يُــسلِّيها**
إذا حَلَلْــتَ مكانــاً بعــد صــاحبه	**جعلتَ فيه علــى مــا قبلَــهُ تيهــا**
لا يُنكَرُ العقلُ من دارٍ تكــونُ بهــا	**فــإنَّ ريحَــكَ رُوْحٌ فــي مغانيهــا**
أَتَــمَّ سَــعْدَكَ مَــنْ لقَّــاكَ أَوَّلَــهُ	**ولا اســتردَّ حيــاةً منــكَ معطيهــا**

لا يخفى ما تنطوي عليه هذه الأبيات من مدحٍ متكلِّف أملاه على الشاعر واجب ثقيل على نفسه؛ لذلك بدت أَبياتُه خاليةً من الحرارة والجِدَّة، فكافور مَلِكٌ مبارك، وداره أَحقُّ الدور بأَن تكونَ مباركة. أما داره التي فارقها فإنها تستحق التعزية لخلائها منه.

---

(١) الصبح المنبي - ١١٢.

وبعد ثلاثة أشهر من القصيدة السابقة وذلك في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة سبع وأربعين وثلاث مئة أنشده القصيدة الخامسة وكان فرسُ أبي الطيب جُرِح فحزن عليه، فرأى كافور الحزنَ في وجهه، فأَرسل خلفه من يسأله، فلما عرف بعث إليه فرساً أدهم فقال:

فراقٌ ومَــنْ فارقــتُ غيــرُ مُــذَمَّمِ　　وأَمٌّ ومــن يَمّمــتُ خيــرُ مُــيمَّمِ[1]

وما منــزل اللذَّات عندي بمنـــزلٍ　　إذا لــم أُبجَّــل عنــده وأُكــرَّمِ[2]

سَــجيَّةُ نفــسٍ مــا تــزالُ مُليحــةً　　من الضيمِ مرمياً بها كلَّ مَخْــرمِ[3]

رحلتُ فكم بــاكٍ بأَجفــان شــادنٍ　　عليَّ وكم بــاكٍ بأَجفــانِ ضــيغمِ[4]

وما ربَّــةُ القُــرطِ الملــيحِ مكانُــه　　بأَجزعَ من ربِّ الحُسامِ المــصمِّمِ[5]

فلو كان ما بي من حبيــبٍ مُقنَّــعٍ　　عذرتُ ولكنْ من حبيــبٍ مُعمَّــمِ[6]

رمى واتقى رَمْيي ومن دونِ ما اتَّقــى　　هوىً كاسرٌ كفّي وقوسي وأَســهُمي[7]

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءت ظنونُــه　　وصدَّق ما يعتــادُه مــن تــوهُّمِ[8]

---

(١) يقول: فارقت شخصاً غير مذموم - يعني سيف الدولة - وقصدتُ شخصاً آخر وهو خير مقصود.

(٢) أي لا أقيم في مكان للذة العيش وطيب الحياة إذا لم أكن مكرَّماً معظَّماً.

(٣) مليحة: مشفقة خائفة. المَخرم: الطريق في الجبل. يقول: إن رفضي للضيم سجية نفسي التي تخشى أن تُبخس حقها في الإكرام.

(٤) الشادن: ولد الغزال. والضيغم: الأسد.

(٥) المصمم: الذي يطبق المفصل. يقول: لم تكن المرأة بأجزع من الرجل على فراقي.

(٦) يقول: لو كان الذي أشكوه من الغدر بي صادراً عن امرأة عذرتها، ولكنه من رجل فلا أعذره وهذا تعريض بسيف الدولة.

(٧) يقول: إن حبي إياه منعني عن مكافأته بالإساءة.

(٨) يقول: إذا كان فعلُ المرء سيئاً ساء ظنُّه بالناس لسوء ما انطوى عليه. وإذا توهّم في أحدٍ ريبةً أسرع إلى تصديق ما توهّمه لما يجد من مثل ذلك في نفسه.

إنه في هذا القسم من القصيدة يمدحُ سيف الدولة، كما يُشيد بذكر كافور، ويذكر أَنَّ الحمدانيين بَكوا لفراقه رجالاً ونساءً، ولكنَّ سيفَ الدولة هو الذي غدر به على الرغم مما يُكنُّه له من الحبّ لذلك فهو يربأ بنفسه عن معاملته بالمثل. ثم يذكر موقفه من الصداقة والصديق فيقول:

أصادقُ نفسَ المرءِ من قبلِ جِسْمه ... وأَعرفُها في فعلِه والتكلُّمِ

وأَحلُمُ عن خِلِّي وأعلمُ أنّه ... متى أَجْزِه حِلْماً على الجهلِ يَنْدمِ

وأهوى من الفتيان كُلَّ سَمَيْدَعٍ ... نجيبٍ كصدرِ السمهريّ المقوَّمِ[1]

خطت تحته العيسُ الفلاةَ وخالطت ... به الخيلُ كبَّاتِ الخميسِ العرمرمِ[2]

ولا عفَّةٌ في سيفه وسِنانه ... ولكنها في الكفّ والفرجِ والفمِ

وما كلُّ هاوٍ للجميلِ بفاعلٍ ... ولا كلُّ فَعَّالٍ له بِمُتمِّمِ

ثم ينتقل إلى مدح كافور فهو إمامُ الكرماء وسيِّدهم، ومعلِّمُ السياسة والسعي في سبيل المجد، وهو الشجاع الذي يثبت في المعركة لا يُحجم ولا يتسرَّب إليه الوهنُ والفزع.

وفي القسم الأخير من القصيدة يستنجز كافوراً وَعْدَه مذكراً إياه بالأخطار التي تعرِّض لها وهو في طريقه إلى الفسطاط، فيقول:

أَبا المسكِ أرجو منك نصراً على العِدا ... وآملُ عِزّاً يَخْضِبُ البيضَ بالدمِ

ويوماً يُغيظُ الحاسدينَ وحالةً ... أُقيمُ الشقَّا فيها مقامَ التنعُّم

ولم أَرجُ إلاَّ أَهلَ ذاكَ ومَنْ يُرِدْ ... مواطرَ من غير السحائبِ يَظْلِمِ[3]

---

(١) السميدع: السيد الكريم الجميل الجسم الموطّأ الأكناف. السمهري: الرمح القوي الصلب.

(٢) خطت: جابت وقطعت. والعيس: الإبل البيض. والكبة: الحملة في الحرب. يقول: قد سافر كثيراً، وقطعت به الإبل الفلوات، وشهد الحروب وألفها، فخالطت به الخيل الجيوش وحملاتها.

(٣) يقول: أنت أهل لأن يُرجى لديك ما رجوته، ولم أضع الرجاء منك في غير موضعه كمن يرجو مطراً من غير سحاب، فيقال له ظلمت.

فلو لم تَكُنْ في مِصْرَ ما سِرْتُ نحوهــا   بقلبِ المَــشُوقِ المــستهامِ المتــيَّم
ولا نَبَحــت خيلـــي كـــلابُ قبائـــلٍ   كأنَّ بها في الليلِ حَمْــلات دَيلَــمِ[1]
ولا اتَّبعــت آثارَنـــا عـــينُ قـــائفٍ   فلم ترَ إلاَّ حــافراً فــوقَ مَنْــسِمِ[2]
وسَمْنا بها البيـــداءَ حتـــى تغمَّــرت   من النيل واستَذْرتْ بظلّ المُقطَّــمِ[3]
وأَبْلَخَ يَعْصِي باختصاصِي مُــشِيرَهُ   عَصَيْتُ بِقَصْدِيه مُشيري ولُــوَّمي[4]
قد اخترتُكَ الأَمْلاكَ فاختر لهــم بنــا   حديثاً وقد حكَّمتُ رأْيَــك فــاحكُمِ[5]
فأحسنُ وجهٍ في الورى وجْهُ محسنٍ   وأَيمــنُ كــفٍّ فــيهم كــفُّ مُــنْعِمِ
وأَشرفُهم من كــان أشــرفَ همَّــةً   وأكبرَ إقــداماً علـــى كــل مُعْظَــمِ
لمن تَطلبُ الدنيا إذا لم تُــرِدْ بهــا   سرورَ مُحــبٍّ أو إســاءَةَ مُجــرمِ

وفي آخر القصيدة يُفصِحُ عن رغبته، و يَسْتَبْطِىءُ ممدوحه في إنجاز وعده فيقول:

ولو كنتُ أَدري كم حياتي قــسمتُها   وصيَّرتُ ثُلْثيهــا انتظــارَكَ فــاعلمِ
ولكنّ ما يمضِي من العمــرِ فائــتٌ   فجُدْ لي بحــظّ البــادرِ المُتغَــنِّمِ[6]
رضيتُ بما ترضى به لـــي محبَّــةً   وقُدْتُ إليكَ الــنفسَ قَــوْدَ المــسلِّمِ
ومثلُك من كــان الوســيطَ فــؤادُه   فَكلَّمَـــــهُ عنِّـــــي ولـــــم أَتكلَّــــمِ

---

(١) الديلم: جيل من الترك كانت بينهم وبين العرب عداوة.
(٢) القائف: الذي يقفو الآثار. المنسم: خف البعير. يقول إن الذي تتبع آثارنا ليردنا عن المسير إليك، لم يرَ إلاّ آثار الإبل والخيل.
(٣) تغمَّرت: شربت قليلاً من الغمر وهو القدح الصغير. واستذرت: نزلت في ذراه. ووسمنا: تركنا فيها أثراً.
(٤) الأبلخ: العظيم في نفسه. يقول: استذرت ركابي بظل ملك عظيم يعصي من يشير عليه بتركي، بأن يختصَّني دون غيري.
(٥) اخترتُك الأَملاك: اخترتُك من الأملاك أي الملوك. يقول اخترتك من بين ملوك الدنيا وآثرتك دونهم فاختر لهم بنا حديثاً من مدح وهجاء فالأمر لك.
(٦) البادر: المسرع. المتغنِّم: الذي يغنم الشيء.

وفي شهر شعبان من سنة ٣٤٧هـ نظم أبو الطيب قصيدتَهُ السادسة في مدح كافور إثر خلاف وقع بينه وبين سيِّده أُنوجور لأَنَّ جماعةً من الجند المستائين من تسلُّط الوصيِّ على شؤون الدولة، اتصلوا بالأمير الإخشيدي ولكن المؤامرة فشلت؛ فوقعت الوحشة بينهما. ولإبرام الصلح اشترط كافور تسليمَ المتآمرين، فلم يجد الأمير بُدًّا من تسليمهم، فأُغرقوا في النيل، واصطلح الطرفان ثم طولب أبو الطيب بذكر الصلح فمدح كافوراً، وأشاد بانتصاره على المتآمرين وبالمصالحة التي وضعت حدّاً للخلاف بين المتخاصمَيْن فقال:

حَسَم الصلحُ ما اشتهتْه الأَعادي ... وأَذاعتْه أَلْسنُ الحُسَّادِ

وأرادتْه أَنفسٌ حال تَدْبيرُ ... كَ ما بينها وبين المُرادِ

صار ما أوضعَ المخبُّونَ فيه ... من عتابٍ زيادةً في الوداد[1]

وكلامُ الوشاة ليس على الأَحبابِ سلطانُه على الأضداد

إنما تُنْجِحُ المقالةُ في المرءِ إذا صادفت هوىً في الفؤاد[2]

ولَعمري لقد هُزِزْتَ بما قيـ ... ـلَ فأُلْفيتَ أَوثقَ الأَطواد[3]

نِلتَ ما لا يُنال بالبِيض والسُّمْرِ وصُنْتَ الأَرواحَ في الأَجْسادِ

وإذا الحِلْمُ لم يكن في طباعٍ ... لم يُحلِّمْ تقادُمُ الميلادِ

فبهذا ومثله سُدْتَ يا كا ... فورُ واقْتَدْتَ كلَّ صعبِ القيادِ

ثم يُشيد بالطرفين المتصالحين فيقول:

لا عدا الشرُّ مَنْ بغا لَكُما الشرَّ ... وخصَّ الفسادُ أَهلَ الفسادِ

أَنتما ما اتفقتما الجسمُ والرُّو ... حُ فلا احتجتُما إلى العُوّادِ[4]

---

(١) المخبُّون: الذين يحملون مطيّهم على الخبب وهو ضربٌ من العدو.

(٢) يقول: إنما يبلغ القول النجاح إذا سمعه من يوافق هواه ذلك القول، وكأن هذا تبرئة لابن مولاه من موافقة قلبه كلام الوشاة.

(٣) هزِزت: حُرِّكت إلى الشرّ بما نقل إليك من الوشايات. فكنت كأقوى الجبال.

(٤) ما اتفقتُما: مدة اتفاقكما. يقول مثلكما في اتفاقكما مثل الروح والجسد، إذا اتفقا صلح البدن، ولم يعد به حاجة إلى الطبيب والعوّاد، وإذا تنافرا فسد البدن.

بكما بتُّ عائذاً فيكما منه ومن كيدِ كلِّ باغٍ وعادِ[1]
منع الودُّ والرعايةُ والسؤْدُدُ أَنْ تبلُغا إلى الأَحقادِ

فالقصيدة تشيد بالوفاق والصلح بين الطرفين، وتبتعد عن التعريض والسخرية، حيث يعتصم الشاعر بالصبر، ويؤجِّل مطالبة كافور بالوفاء بما وعد إلى حين.

وفي عيد الفطر سنة سبع وأربعين وثلاث مئة أنشد أبو الطيب قصيدته السابعة التي يُهنِّىء بها كافوراً بعيد الفطر، ويُعلن ندمه على ترك سيف الدولة، ويُصرِّح بما يعتمل في نفسه تصريحاً لا لبس فيه ولا غموض، كما يُلحف في مطالبة كافور بتحقيق أمله. وجاء في التعليق على هذه القصيدة: «أَن كافوراً قد تقدَّم إلى الحُجَّاب وأَصحاب الأَخبار، فكانوا كلَّ يومٍ يُرجِفون بأنه قد ولَّى أبا الطيب ناحيةً من الصعيد. وينفذ إليه قوماً يعرفونه بذلك، فلما كثر ذلك، وعلم أن المتنبي لا يثق بكلامٍ سمعه حمل إليه ست مئة دينار ذهباً؛ فقال أبو الطيب هذه القصيدة يمدحه بها[2]»:

أغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأَعجبُ من ذا الهجرِ والوصلُ أَعجَبُ[3]
أَما تغلَطُ الأَيامُ فيَّ بأَنْ أَرى بَغيضاً تُنائي أَوْ حبيباً تُقرِّبُ
وللَّه سيري ما أَقلَّ تَئيَّةً عَشيَّةَ شرقيَّ الحدالَى وغُرَّبُ[4]
عشيَّةَ أَحفى الناسِ بي مَنْ جَفَوْتُه وأَهدى الطريقين التي أَتجنَّبُ[5]

---

(١) بكما: لأجلكما. ومنه: أي من الخُلْف. العادي: الظالم. يقول: أعوذ بكما من وقوع الخلف بينكما ومن كيد أهل البغي والعدوان الذين يريدون بكما السوء.

(٢) انظر ديوان المتنبي ج ١ ص ١٠٣ بشرح البرقوقي.

(٣) يقول: بيني وبين الشوق مغالبة لأجلك، والغلبة للشوق؛ إذ هو يغلب صبري وإني أعجب من هذا الهجر لطوله، ولكن الوصل أعجب منه لأن من شيم الأيام التفريق.

(٤) التئيَّة: التلبُّث والتمكُّث. الحدالى وغُرَّب موضعان بالشام. يتعجب من سرعة سيره. يقول ما كان أسرع سيري وأقل تلبُّثي عشية كان هذان المكانان على جانبي الشرقي وذلك عند رحيله من حلب.

(٥) يريد بأحفى الناس: سيف الدولة. أحفى من الحفاوة أي المبالغة في الإكرام. يقول: إن سيف الدولة أحفى الناس بي فجفوته وغادرته، وكانت أهدى الطرق هي الطريق التي أعود فيها إليه، فعدلت عنها إلى مصر.

ثم يعلن برمه وشكواه فيقول:

لحا الله ذي الدنيا مُناخاً لراكبٍ ... فكلُّ بعيدِ الهمِّ فيها مُعذَّبُ

أَلا ليتَ شعري هل أقولُ قصيدةً ... فلا أشتكي فيها ولا أَتعتَّبُ

وبي ما يذودُ الشعرَ عنِّي أَقَلُّه ... ولكنَّ قلبي يا ابنةَ القومِ قُلَّبُ(١)

ثم يشيد بأخلاق كافور وحكمته، وينتقل إلى التصريح بحاجته فيقول:

أبا المسك هل في الكأسِ فضلٌ أنالُه ... فإني أُغنِّي منذُ حينٍ وتَشْربُ

وهبتَ على مقدار كفَّي زماننا ... ونفسي على مقدارِ كفَّيكَ تطْلُبُ

إذا لم تَنُطْ بي ضيعةً أو ولايةً ... فجودُكَ يكسوني وشُغْلُك يسلُبُ

يُضاحِكَ في ذا العيد كلٌّ حبيبَهُ ... حِذائي وأبكي مَنْ أُحِبُّ وأَندُبُ

أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المُشتاقِ عنقاءُ مُغْرِبُ(٢)

وإن لم يكن إلاَّ أبو المسك أوهُمُ ... فإنَّكَ أَحلَى في فؤادي وأَعذَبُ

وكلُّ امرىءٍ يُولي الجميلَ محبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ يُنبِتُ العِزَّ طيِّبُ

ففي هذه الأبيات ما يُشير إلى أنَّ أبا الطيب يخيِّر ممدوحه في أن يستبقيه في كنفه بتنفيذ وعده، أو يُخلِّي سبيله للِّحاق بأهله. أما الأبيات الأخيرة الباقية من القصيدة فليست سوى محاولة لتهدئة وتلطيف ما يمكن أن تجنبه عليه هذه الصراحة من عواقب سيئة؛ لذلك عاد إلى كيل المديح لسيِّده بلا تحفُّظ.

وأحجم أبو الطيب بعد هذه القصيدة عن مدح كافور نحو ثمانية أشهر. وما كان يتوقَّف عن مدحه أكثر من ثلاثة أشهر، وهو ما يُشير إلى عدم

---

(١) يذود: يدفع ويطرد. يقول: إن بي من هموم الدهر ما يمنعني من قول الشعر، ولكن قلبي كثير التقلُّب.

(٢) يذكر تشوقه إلى أهله، وبُعْد ما بينه وبينهم بحيث لا يرجو لقاءهم. والمغرِب من أغرب في البلاد: ذهب وأبعد. والعنقاء: طائر خرافي سُميّت عنقاء مغرباً لأنها تُغرب بكل ما أخذته.

ارتياحه لموقف الوصيّ منه، وتجاهله ما وعده به. وخلال هذه الأَشهر الثمانية نظم قصيدتين. أولاهما حين بلغه أن جماعةً نَعَوه في مجلس سيف الدولة، فعبّر فيها عمَّا يعتمل في نفسه من الحزن والأسى لبعده عن الأهل والوطن، وسخطه على ما آلت إليه حالُه من الخيبة والإخفاق فيقول:

بِـــمَ التعلُّـــلُ لا أَهـــلٌ ولا وَطَـــنُ ... ولا نـــديمٌ ولا كـــأسٌ ولا سَـــكَنُ

أُريـــدُ مـــن زمنـــي ذا أن يبلِّغنـــي ... ما ليس يبلُغُه من نفسه الـــزمنُ(١)

لا تَلْقَ دهـــرَكَ إلاّ غيـــرَ مكتـــرثٍ ... ما دام يصحَبُ فيه روحَـكَ البَـدنُ

فما يدومُ سرورٌ مـــا سُـــرِرْتَ بـــه ... ولا يـــردُّ عليـــكَ الفائـــتَ الحَـــزَنُ

ثم يخاطب سيفَ الدولة قائلاً:

يا مَنْ نُعيتُ علـــى بُعـــدٍ بمجلـــسهِ ... كلٌّ بما زعم النـــاعونَ مُـــرْتَهَنُ(٢)

كم قد قُتِلْتُ وكم قـــد مُـــتُّ عنـــدكُمُ ... ثم انتفضتُ فزال القبرُ والكفـــنُ(٣)

قد كان شاهدَ دفنـــي قبـــلَ قـــولهِمُ ... جماعةٌ ثم ماتوا قبلَ مَـــنْ دَفَنُـــوا(٤)

ما كلُّ ما يتمنـــى المـــرءُ يُدركُـــهُ ... تجري الرياحُ بما لا تَشْتهي الـــسفُنُ

رأيتُكُم لا يَصُونُ العِـــرضَ جـــارُكُمُ ... ولا يَدِرُّ علـــى مرعـــاكُمُ اللَّـــبَنُ(٥)

---

(١) يقول: إن مرادي الذي أرجو من زمني مساعدتي على تحقيقه ليس بوسع الزمان نفسه بلوغه.

(٢) يخاطب سيف الدولة فيقول: إني قد نُعيت بمجلسكم على البعد، وكل أحد مرتهن بالموت لا بد له منه، فلا يفرح أحد بنعي أحد.

(٣) يقول: كم قد أُخبرتم بموتي وتحقّق ذلك عندكم، ثم بان الأمر بخلاف ذلك، فكأني كنت ميتاً ثم خرجتُ من القبر.

(٤) يريد أن قوماً نعوه قبل هؤلاء، وأخبروا أنهم شاهدوا دفنه ماتوا قبل المتنبي، فبان كذبهم فيما ادَّعوا.

(٥) العرض: الشرف، وقيل الحسب. أو ما يمدح به الرجل ويُذمّ. يقول معرّضاً بسيف الدولة: من جاوركم لا يقدر على صون عرضه لأنه يُشتم عندكم فلا تكترثون لشتمه، ولا تحامون عنه، وإذا رعت النعم في أرضكم لم يدرّ لبنها على مرعاكم لوخامته. لأن نعمتكم مشوبة بالأذى.

جـــزاءُ كـــلِّ قريـــبٍ مـــنكمُ مَلَـــلٌ وحظُّ كلّ مُحِـــبٍّ مـــنكُم ضَـــغَنُ(١)

وتغضبون على مـــن نـــال رِفْـــدَكُمُ حتى يُعاقِبَهُ التنغـــيصُ والمِـــنَنُ(٢)

ثم يُعرِب عن وحشته لفراق سيف الدولة، ويصف بني حمدان بأنهم لا يحفظون الودَّ فيقول:

سَهِرتُ بعدَ رحيلـــي وحـــشةً لكُـــمُ ثم استمرَّ مريري وارعوى الوسَـــنُ(٣)

وإن بُليـــت بـــودٍّ مثـــلِ ودِّكُـــمُ فـــإنني بفـــراقٍ مثلِـــه قَمِـــنُ(٤)

وختم قصيدته بأبياتٍ في مدح كافور رغم أنه لم يُنشِده إياها فقال:

أَبلى الأَجِلَّةَ مُهـــري عنـــد غيـــرِكُمُ وبُدِّلَ العُذْرُ بالفُـــسطاطِ والرَّسَـــنُ(٥)

عند الهُمامِ أبي المسكِ الذي غَرِقت في جودِه مُضَرُ الحمـــراءِ والـــيمنُ

وإن تأخّر عنِّـــي بعـــضُ مَوْعِـــده فمـــا تـــأَخَّرُ آمـــالي ولا تَهِـــنُ

هـــو الـــوفيُّ ولكنـــي ذكـــرتُ لـــه مـــودَّةً فهـــو يبلوهـــا ويمـــتحِنُ

ويبدو من هذه القصيدة نفادُ صبر المتنبّي، ويأسه من الحصول على مبتغاه. ويروى أَن بعضهم توسَّط له لدى كافور فكان ردُّه الرفض. وجاء في «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد ٢٠٠ أن كافوراً قال: «يا قوم! رجل

---

(١) أي لستم تجاوزون المحب ولا القريب بما يستحقَّانه.

(٢) أي لا يخلو عطاؤكم من المن والأذى حتى يصير آخذُهُ معاقباً بتنغيص ما أخذه.

(٣) المرير: الحبل الشديد الفتل. واستمر مريره على كذا: ألفه واعتاده. ارعوى: ارتدع. الوسن: النعاس. يقول: استوحشت لفراقكم حتى امتنع رقادي، ثم تصبّرت وعاد إليَّ النوم بعد السلوّ.

(٤) بفراق مثله: أي مثل فراقكم. قمن: جدير. أي إذا عاملني آخر مثلما عاملتموني فارقته كما فارقتكم، وهذا تعريض بكافور.

(٥) الأجلّة: جمع جلال، مفردها جلّ وهو ما يُجَلَّل به الفرس. والعُذر: جمع عذار وهو ما كان على خد الفرس من اللجام. والمراد: أن مقامه طال بمصر لإكرام مثواه فيها حتى بليت جلال فرسه وعذره ورسنه.

ادّعى النبوّة مع خير البشر محمد (ص) كيف يولّيه كافور فيأمنه؟» وفي «حسن المحاضرة» للسيوطي ٢٦٨/١: «هذا رجل أراد أن يكون نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم، فهلاّ يروم أن يكون ملكاً بديار مصر؟».

كانت خيبة أمل الشاعر بحاميه كبيرة فقد تبيَّن له بما لا يقبل الشك أن كافوراً رجل مخادع لا يمكن تصديقهُ أو الركونُ إليه.

والقصيدة الثانية التي نظمها في هذه الفترة، ولم يُنشِدها كافوراً هي قصيدة تفيض باليأس والتشاؤم، فصحبةُ هذا الزمان لا خير فيها، ولا ينبغي التعويلُ عليها. فربُّما عرضت اللَّذات للناس في حياتهم بين حينٍ وآخر ولكنها لَذَّاتٌ عابرة سرعان ما تزول. يقول أبو الطيب:

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولَّوا بغُصَّةٍ كُلُّهم منْهُ ... وإن سَرَّ بعضَهم أحيانا

ربّما تُحسِنُ الصَّنيعَ لياليه ... ولكِنْ تُكدِّرُ الإحسانا

ويرى أن الناسَ شركاءُ الزمان في الشّر، وهم أعوانه على السوء، حيث يقول:

وكأنَّا لم يَرْضَ فينا بريبِ الدْهرِ ... حتى أَعانه مَنْ أَعانا[١]

كلَّما أَنبت الزمانُ قناةً ... ركَّبَ المرءُ في القناةِ سِنانا[٢]

ومُرادُ النفوسِ أَصغرُ من أنْ ... نتَعادى فيه وأَنْ نتفانى[٣]

---

(١) ريب الدهر: حوادثه وصروفه. يقول: إن الذي أعان عليّ الدهر لم يُرضه ما نالني منه حتى أعانه عليّ.

(٢) يقول: إذا انتُدب الزمانُ للإساءة بما جُبل عليه صارت عداوة العادي مدداً لقصده نحوك.

(٣) يقول: إن ما تريده النفوس من جاه الدنيا وحطامها أقل وأحقر من أن يُعادي بعضُنا بعضاً لأجله.

وإذا كان الزمان والناس على هذه الشاكلة من السوء، فعلى الرجل الحكيم أَنْ يواجهَ الحياة بشجاعة فلا يَرْضى بالذل، ولا يستكين للهوان. فإذا كان الموتُ حقيقة لا ينجو منها شجاع ولا جبان، ولا قوي ولا ضعيف فإن احتمال الضيم عجزٌ وجبن.

غيرَ أَنَّ الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يُلاقي الهوانا

ولو انَّ الحياةَ تبقى لحيٍّ لَعَدَدْنا أَضلَّنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموتِ بُدٌّ فمن العجزِ أَنْ تموتَ جبانا

كلُّ ما لم يكن من الصعب في الأَنفس سهلٌ فيها إذا هو كانا[١]

إن هذه الأبيات الأخيرة توحي بأن أبا الطيب قد ضاق ذرعاً بمقامه في كنف كافور؛ فأخذ اليأسُ يتسّرب إلى نفسه، وهو ما حفزه على التفكير الجادّ بالهرب من مصر. وممَّا عزَّز عزمه على الهرب استئذانهُ كافوراً في الذهاب إلى الرملة لتحصيل مالٍ كَتَب له به، فلم يأْذَنْ له بالسفر، وأَقسم عليه أَلاَّ يرحلَ، وتعهَّد بأن يُكلِّف من يقوم بذلك، وهو ما جعله يقطع الشكَّ باليقين وأن عليه أن يفكِّرَ جديَّاً بالإفلات مما يدبِّره له كافور. ثم خرج أبو الطيب عن صمته خلال سنة ٣٤٨هـ عندما تمّرد على كافور بالشام شبيب بن جرير العقيلي وهو زعيم بدويّ كان والياً على معرة النعمان، ثم اصطنعه كافور، وولاَّه عمَّان والبلقاء وما يليهما، فعظم أمره، واجتمع إليه جماعةٌ من العرب فوق عشرة آلاف، وقصد دمشق للاستيلاء عليها، غير أنه مات فجأةً أَثناء هجومه على المدينة، وقالوا: إنَّ امرأةً ألقت عليه رحىً؛ فصرعته، فانهزم أَصحابُه. ويقال: سقطت رِجْلُ فرسه في قناة فسقط عنها، وقيل شرب سَوِيقاً مسموماً، وقيل: أصابه صرعٌ كان يعتريه....... الخ. وأُخبر كافور بمصرعه يوم الجمعة ثاني جمادى الثانية

(١) يقول: إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه، فإذا وقع سهل وهان.

سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة، فطلب من أبي الطيب أن يذكر هذه الواقعة في شعره فقال:

عَـدُوُّك مـذمومٌ بكـلّ لـسانِ ... ولو كان مـن أَعـدائكَ القمـرانِ

ولله سـرٌّ فـي عُـلاك وإنمـا ... كلامُ العدا ضَـرْبٌ مـن الهـذيانِ

أَتلْتَمِسُ الأَعـداءُ بعـد الـذي رأت ... قيـامَ دليـلٍ أو وضـوحَ بيـانِ

رأت كلَّ مـن ينـوي لـكَ الغـدرَ ... يُبتَلى بغدرِ حياةٍ أو بغـدرِ زمـانِ

برغم شبيبٍ فـارقَ الـسيفُ كفَّـه ... وكانـا علـى العِـلاّتِ يـصطحبانِ

بدا أبو الطيب في مطلع هذه القصيدة وكأنه يتعمَّد إغاظة كافور لا مدحه حيث قال ابنُ جني في شرح البيت الأول: هذا المدح ينعكس هجاءً، يقول: أنت رذل ساقط، والساقط لا يُضاهيه إلاَّ مِثْله، وإذا كان مُعاديك مثلك فهو مذموم بكل لسان، كما أنك كذلك ولو عاداك القمران. ويقول الواحدي في شرح البيت الثاني: وهذا إلى الهجاء أقرب؛ لأنه نسب عُلوَّهُ على الناس إلى قَدَرٍ جرى به من غير استحقاق، والقدر قد يوافق بعضَ الناس فيعلو ويرتفع على الأَقران وإن كان ساقطاً؛ باتفاق من القضاء. فلم يستطع إخفاء إعجابه بشبيب بوصفه رجلاً شجاعاً خانه القدر فخرَّ صريعاً، لذلك بدا وكأنه يرثيه ولا يهنىء كافوراً بقتله حيث قال:

فإن يـكُ إنـساناً مـضى لـسبيله ... فـإنَّ المنايـا غايـةُ الحيَـوانِ[(١)]

وما كان إلاَّ النارَ في كـلِّ موضـعٍ ... تُثيرُ غباراً فـي مكـانِ دُخـانِ[(٢)]

فنـال حيـاةً يـشتهيها عـدوُّه ... وموتاً يُشهِّي الموتَ كـلَّ جبـانِ[(٣)]

---

(١) يقول: إن يك شبيب قد هلك ومات فإن الموت غاية كل حيّ فلا عار عليه بذلك.

(٢) كان شبيب كالنار في إيقاد الفتنة والشرّ، غير أنه يثير غبار الحرب بدل الدخان.

(٣) يقول: عاش حياة طيبة يشتهي عدوّه مثلها أي عاش في عزّ ومنعة، ثم مات موتاً يشهّي الموت إلى الجبناء لأنه موت لم يتقدَّمه مرض ولا ألم.

نفى وقْعَ أَطرافِ الرمـــاح برمحـــه ولم يخشَ وَقْعَ النجمِ والـــدَّبَرانِ[١]

ولم يَدْرِ أن الموتَ فـــوقَ شَـــواتِه مُعارُ جَنـــاحٍ مُحـــسنِ الطيـــرانِ[٢]

وقـــد قتـــل الأقـــرانَ حتـــى قتلتَـــهُ بأضعفِ قِـــرنٍ فـــي أَذلِّ مكـــانِ[٣]

أَتَتْه المنايـــا فـــي طريـــقٍ خَفَيَّـــةٍ على كل ســـمعٍ حولَـــهُ وعِيـــانِ[٤]

ولو سلكتْ طُرقَ الـــسلاحِ لردَّهـــا بطـــولِ يمـــينٍ واتّـــساعِ جَنـــانِ[٥]

تَقَـــصَّده المقـــدارُ بـــين صِـــحابهِ على ثِقَـــةٍ مـــن دهـــره وأَمـــانِ[٦]

وهل يَنْفعُ الجيشُ الكثيـــرُ التفافُـــه على غيرِ منصورٍ وغيرِ مُعـــانِ[٧]

وكأنَّ أبا الطيب يُريد أن يقول لكافور: لم يكن بوسعك أن تهزم شبيباً في حرب، وإنَّما هزمته غِيلةً، أو هزمه القدر. ثم يحاول في الأبيات الأخيرة من القصيدة استدراكَ الأمر بإرضاء كافور، فيُنكر على شبيب كفرانَ النعمة، وقتال من أَنعم بها عليه، فيقول:

---

(١) أراد بالنجم: الثريا. والدبران خمسة كواكب من برج الثور. وسمي الدبران لأنه يدبر الثريا أن يتبعه. يقول: كان شجاعاً يقي نفسه برمحه، ولكنه لم يجرِ في حسبانه مناحس النجوم التي قضت بحلول أجله.

(٢) الشواة: جلدة الرأس. أي لم يكن يدري أن الموت فوق رأسه كيفما توجه لكأنه أُعير جناحاً يحوم به فوقه ليقع عليه.

(٣) الأقران: ج قِرن وهو الكفء في الحرب. يعني أنه لم يمت في ميدان القتال، بل سقط ميتاً دون أن يصيبه شيء.

(٤) يقول: إنه مات فجأة من غير أن يُستَدَلّ على موته بمرئي أو مسموع.

(٥) سلكت: أي المنايا. والجنان القلب. أي لو أتته المنايا عن طريق السلاح لدفعها عن نفسه لأنه بطل لا يُغالَب.

(٦) تقصَّده: قصده. المقدار: القدر. يقول: جاءه القضاء فأهلكه وهو بين أصحابه واثق بالحياة، آمن من الموت.

(٧) يقول: لم ينفعه الجيش الكثير لأن الله تعالى لم يكن ناصراً ومعيناً له.

أتُمــسِكُ مــا أَوليتَــهُ يــدُ عاقــلٍ | وتُمــسِكُ فـــي كُفرانــه بعِنــانِ[١]
ويَركبُ مــا أَركبتَــهُ مــن كرامــةٍ | ويركبُ للعصيانِ ظهــرَ حــصانِ[٢]
ثنى يَــدَهُ الإحــسانُ حتــى كأنَّهــا | وقد قُبِضَتْ كانــت بغيــرِ بَنــانِ[٣]
وعندَ مَنِ اليومَ الوفــاءُ لــصاحبٍ | شبيبٌ وأوفى مَنْ تــرى أخــوانِ[٤]
قــضى اللهُ يــا كــافورُ أَنَّــكَ أوَّلٌ | وليس بقاضٍ أَنْ يُــرى لَــكَ ثــانِ
أَرِدْ لي جميلاً جُدْتَ أَو لم تَجُدْ بــه | فإنَّــك مــا أَحببــتَ فـــيَّ أتـــاني
لَوِ الفَلَكَ الــدوَّارَ أبغــضتَ سَــعيه | لَعوَّقَـــه شـــيءٌ عـــن الـــدوَرَانِ

إن ما أَنكره أَبو الطيب على شبيب من كفران النعمة بعد أَن هَوَّن من الانتصار عليه، وأَشاد بشجاعته، لم يكن ليطمئنَ كافوراً، فأَوعز إلى جواسيسه بمراقبته لئلاَّ يهربَ على حين غِرَّة؛ فيهجوه هجاءً مُرًّا وهو ما يُقلِقهُ ويُقِضُّ مضجَعَهُ، وكافور من الذكاء والدهاء ممَّن لا يخدعهم التملُّق والكلام المعسول الذي خُتِمت به القصيدة.

اتصالُه بفاتك الرومي

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٤٨هـ دخل إلى الفسطاط الأمير الإخشيدي الشاب أبو شجاع فاتك الرومي وهو من غلمان محمد الإخشيد - قادماً من الفيَّوم يحفُّ به موكبٌ ملكي؛ حيث اقتيد بين يديه أربعة آلاف جَنِيبَة مُنْعَلَة بالذهب.

---

(١) أَوليته: أعطيته والضمير لشبيب. يقول: هل يُمسك عاقل من النعمة التي أنعمت بها على شبيب، ثم يمسك عنان فرسه لقتال من أنعم بها عليه؟

(٢) وهل يركب عاقل مثل الكرامة التي أركبتها شبيباً، ثم يركب حصانه لعصيان من أكرمه؟

(٣) ثنى يده: ردَّها. يقول: ملئت يده بإحسان كافور حتى ثناها إلى ورائها كأنها لما قبضت ما وهبت لم يكن لها بنان يطبقها على الموهوب فأرسلته.

(٤) يقول: لا وفاء اليوم عند أحد، فإن أوفى من ترى من الناس غادر كشبيب فهما في ذلك إخوان في الغدر.

وكان فاتك روميًّا أُسِر وربِّي في فلسطين، ثم أَخذه الإخشيد من سيِّده في الرملة بلا ثمن، فأَعتقه، وانخرط في الجيش، فأبدى من البسالة والنكاء ما يثير الإِعجاب. وتلافياً لخطره أقطعه كافور الفيّوم؛ فصار من كبار الملاَّك في مصر. ولمَّا دخل الفسطاط كان مريضاً يطلب الاستشفاء. ولم يتمكَّنْ أبو الطيب من عيادته خوفاً من كافور، ولكن فاتكاً كان يسأل عنه ويراسله بالسلام، ثم التقيا خارج المدينة فأُعجب كلٌّ منهما بالآخر، وبعث فاتك إلى أبي الطيب ألف دينار ذهباً، ثم أتبعها هدايا أخرى بعدها. وعلى إثر ذلك طلب أبو الطيب من كافور أن يأذن له بمدح فاتك؛ فأذن له مصانعةً لفاتك. وفي التاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٤٨هـ أنشده لاميته المشهورة التي يقول فيها:

لا خيلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ ... فليُسعِدِ النُّطْقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ(١)

واجْزِ الأميرَ الذي نُعماه فاجئةٌ ... بغير قولٍ ونُعمى الناسِ أقوالُ(٢)

وإن تكن مُحكَمَاتُ الشُّكْلِ تمنعني ... ظهورَ جَرْيٍ فلي فيهنّ تَصهالُ

وما شكرتُ لأَنَّ المالَ فرَّحني ... سيَّانِ عنديَ إكثارٌ وإقلالُ

لكنْ رأيتُ قبيحاً أن يُجادَ لنا ... وأننا بقضاءِ الحقِّ بُخَّالُ(٣)

لا يُدرِكُ المجدَ إلاَّ سيِّدٌ فَطِنٌ ... لِما يشُقُّ على السَّادات فَعَّالُ

كفاتِكٍ ودخولُ الكافِ مَنْقَصةٌ ... كالشمسِ قلتُ وما للشَّمس أمثالُ(٤)

---

(١) الإسعاد: الإعانة. يقول الشاعر مخاطباً نفسه: ليس عندك من الخيل والمال ما تهديه إلى الممدوح جزاءً على إحسانه فلْيسعدك النطق، أي جازه بالمدح إذا لم تعنك الحال على مجازاته بالمال.

(٢) النعمى: المال والصنيعة. فاجئة: لا يتقدمها سؤال أو انتظار.

(٣) بُخَّال: جمع باخل. وقضاء الحق: الحمد والشكر.

(٤) أراد بالكاف في (كفاتك) كاف التشبيه. المنقصة: النقص. يقول: لا يدرك المجد إلاَّ سيد صفاته هذه التي ذكرت، ثم استدرك فقال: دخول الكاف عليه تنقص من قدرة الظاهر لأنه يوهم أن له شبيهاً.

القائـــدِ الأُسْـــدَ غـــذَّتها براثنُـــهُ بمثلها من عِـــداهُ وهـــي أَشْـــبالُ[(١)]
يُريـــك مَخْبَـــرُهُ أَضـــعافَ منظـــرِه بين الرجال وفيهـــا المـــاءُ والآلُ[(٢)]
إذا الملـــوكُ تحلَّـــت كـــان حِلْيَتَـــهُ مهنَّـــدٌ وأصـــمُّ الكعـــبِ عَـــسَّالُ[(٣)]
أبو شُجاعٍ أبـــو الـــشجعانِ قاطبـــةً هَوْلٌ نَمَتْهُ من الهيجـــاءِ أَهـــوالُ[(٤)]
تملَّك الحمـــدَ حتـــى مـــا لِمُفْتَخِـــرٍ في الحمدِ حـــاءٌ ولا مـــيمٌ ولا دالُ
لولا المـــشقَّةُ ســـاد النـــاسُ كُلُّهُـــم الجـــودُ يُفْقِـــرُ والإقـــدامُ قَتَّـــالُ
وإنمـــا يبلـــغُ الإنـــسانُ طاقَتَـــهُ ما كلُّ ماشـــيةٍ بالرَّحْـــلِ شِـــمْلالُ[(٥)]
إنا لَفي زمـــنٍ تـــركُ القبـــيحِ بـــه من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمـــالُ[(٦)]
ذِكْرُ الفتى عمرُهُ الثـــاني وحاجتُـــهُ ما قاتَهُ وفضولُ العـــيشِ أشـــغالُ[(٧)]

لم يستطع أبو الطيب أَن يتجنَّبَ التعريضَ بكافور في مطلع هذه القصيدة، ولم يكن بوسعه أنْ يكتمَ غيظَهُ مما آلت إليه حالهُ في الفسطاط، فهو كالفرَس الذي أُحكِمَ شكالُهُ فعجز عن الجري لكنَّه قادرٌ على الصهيل حيث قال:

وإن تكن مُحكَمَاتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُنـــي ظهورَ جَرْيٍ فلـــي فـــيهنَّ تَـــصْهالُ

---

(١) يشير إلى غلمانه الذين ربَّاهم وضرَّاهم بأسلاب أعدائه منذ كانوا أشبالاً إلى أن صاروا أُسْداً.
(٢) الآل: السراب. يقول: إذا اختبرته رأيته يُربي على أضعاف ما أراك منظره. ثم قال وفي الرجال الماءُ والآل: يعني في الرجال من هو كالماء أي رجل على حق الرجال وفيهم من هو كالآل: أي يشبه الرجال بصورته، وليس عنده ما عندهم من المعاني، كالآل يشبه الماء وليس بماء.
(٣) المهند: السيف الهندي القاطع. أصم الكعب: الرمح. العسال: المهتز المضطرب.
(٤) أبو شجاع: كنية الممدوح. الهول: ما أخاف وأفزع. نمته: غذته وربَّتهُ. والهيجاء: الحرب. أي هو أبو الشجعان كلهم، وهو هول في أعين الأعداء، ونمته أهوال الحرب لأنه نشأ فيها فصارت له كالغذاء.
(٥) الطاقة: القدرة. والشملال: الناقة القوية الخفيفة المشي.
(٦) الإجمال: فعل الجميل.
(٧) يقول: إذا ذكر الإنسان بعد موته كان ذلك حياةً ثانية له، وما يحتاج إليه في دنياه مقدار قوته اليومي، وما فضل عن القوت فهو شغل له لا غناء فيه.

إن ظهور فاتك المفاجئ في حياة المتنبي جعله يفكّر جديّاً بقطع الصلة بكافور، والارتباط بفاتك الذي أجزلَ له الصلات، ولكنه كان مضطراً إلى مداراة كافور إلى أن تواتيه الفرصة للخروج من هذا السجن الذي وجد نفسه فيه. وفي هذه الفترة أصابته حُمَّى شديدة ألزمته الفراش طويلاً فقال قصيدةً يشكو فيها حاله ويعرّض ببُخْل كافور، ويتمنّى الرحيلَ عن مصر. وأنشده إياها في الرابع من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة فقال:

مَلُومُكما يَجِلُّ عن المَلامِ ... وَوَقْعُ فَعالِه فوقَ الكَلامِ[١]

ذَراني والفَلاةَ بلا دليلٍ ... ووجهي والهجيرَ بلا لِثامِ[٢]

فإنّي أستريحُ بذي وهذا ... وأتعبُ بالإناخةِ والمُقامِ

ولا أُمسي لأهلِ البُخلِ ضيفاً ... وليس قِرىً سوى مُخِّ النّعامِ[٣]

فلمَّا صار وُدُّ الناسِ خِبَّاً ... جَزَيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ[٤]

وصرتُ أَشُكُّ فيمن أَصطفيه ... لعلمي أنَّه بعضُ الأَنامِ

يُحِبُّ العاقلون على التصافي ... وحبُّ الجاهلين على الوَسامِ[٥]

ولستُ بقانعٍ من كلّ فضلٍ ... بأَنْ أُعزى إلى جَدٍّ هُمامِ[٦]

---

(١) الفَعال: الفعل. يقول لصاحبيه اللذين يلومانه على تجشُّم الأسفار: إن من تلوماه أجلّ من أن يلام لأن ما يطلبه لا يدرك بالوصف والقول.

(٢) ذراني: دعاني واتركاني. الهجير: نصف النهار. أي اتركاني والفلاة اسلكها بلا دليل لاهتدائي فيها، ودعاني مع الهجير أسير فيه بلا لثام لأني اعتدت ذلك.

(٣) لا أمسي ضيفاً للبخيل وإن لم يكن لي طعام البته، والنعام لا مخّ له.

(٤) الخبّ: الخداع. يقول: لما فسد ودّ الناس وصار خداعاً عاملتهم بمثل ما يعاملونني به أي ابتسمت إليهم كما يبتسمون إليّ.

(٥) الوَسام والوَسامة: حسن الصورة. يقول العاقل يحب من يحبه لأجل صفاء الودّ بينهما أما الجاهل الأحمق فإنه يحب على جمال الصورة.

(٦) أُعزى: أُنسب. الهمام: السيد الشجاع، السخي. يقول: لا أقتنع من الفضل بأن أنسب إلى جدّ فاضل، فإذا لم أكن فاضلاً بنفسي لم يُغن عني فضل جدّي.

ولم أرَ في عيــوب النــاس شـيئاً ... كنقصِ القــادرين علــى التمــام[1]

أَقمتُ بأرضِ مِــصْرَ فــلا ورائــي ... تَخُبُّ بــيَ المطــيُّ ولا أمــامي[2]

ومَلّنــيَ الفِــراشُ وكــان جنبــي ... يَمَــلُّ لقــاءَه فــي كــلِّ عــامِ[3]

قليــلٌ عائــدي سَــقِمٌ فــؤادي ... كثيرٌ حاســدي صــعبٌ مَرَامــي[4]

عليــلُ الجــسمِ مُمتَنِــعُ القيــامِ ... شديدُ الــسُّكْرِ مــن غيــرِ المُــدام

ثم ينتقل إلى وصف الحُمّى:

وزائرتــي كــأنَّ بهــا حيــاءً ... فلــيس تــزورُ إلاَّ فــي الظــلامِ[5]

بــذلتُ لهــا المطــارفَ والحــشايا ... فعافتهــا وباتــت فــي عِظــامي[6]

يضيقُ الجلدُ عــن نَفْــسي وعنهــا ... فَتُوسِــعُهُ بــأنواعِ الــسَّقامِ

إذا مــا فــارقتني غــسَّلَتْني ... كأنَّــا عاكفــانِ علــى حــرامِ

كــأنّ الــصبحَ يطردُهــا فتجــري ... مــدامعُها بأَربعــةٍ سِــجامِ

أُراقبُ وقتَهــا مــن غيــرِ شــوقٍ ... مراقبــةَ المــشوقِ المــستهامِ

ويصدقُ وَعْـدُها والــصدقُ شــرٌّ ... إذا أَلقــاكَ فــي الكُــرَبِ العظــامِ

---

(١) يقول: لا عيب أبلغ من عيب من قدر أن يكون كاملاً في الفضل، فلم يكمل أي لا عذر له في ترك الكمال إذا قدر على ذلك ثم تركه والعيب ألزم له من الناقص الذي لا يقدر على الكمال.

(٢) يقول: أقمت بمصر لا تسير بي الإبل إلى خلف ولا إلى قدّام، يعني أنه لزم الإقامة بها.

(٣) يقول: إن مرضه قد طال حتى ملّه الفراش، وكان هو يملّ الفراش وإن لاقاه جنبه في العام مرة واحدة لأنه مسافر أبداً.

(٤) يقول: قليل عُوّاده لأنه غريب، وفؤاده سقيم لتراكم الأحزان عليه، وحساده كثر، ومطلبه صعب.

(٥) زائرته: هي الحمّى وكانت تأتيه ليلاً.

(٦) المطارف: جمع مطرف وهو رداء من الخز. والحشايا: جمع حشيّة وهي ما حُشي من الفراش مما يُجلس عليه.

أَبِنْـتَ الـدهرِ عنـدي كـلُّ بنـتٍ فكيف وصلتِ أنـتِ مـن الزِّحـامِ
جرحـتِ مجرَّحـاً لـم يبـقَ فيـه مكـانٌ للسـيوفِ ولا السـِّهامِ

ثم يذكر رغبته في الانعتاق من هذه الحياة الراكدة فيقول:

يقول لـيَ الطبيـبُ أَكلـتَ شـيئاً وداؤك فـي شـرابكَ والطعـامِ
ومـا فـي طبِّـه أنـي جـوادٌ أضـرَّ بجسمه طـولُ الجِمـام[(١)]
تعـوَّد أن يُغبِّـرَ فـي السـرايا ويـدخلَ مـن قَتـامٍ فـي قَتـامِ
فأُمسِـكَ لا يُطـالُ لـه فيَرعـى ولا هـو فـي العليـقِ ولا اللِّجـامِ
فإنْ أَمرضْ فما مَرِضَ اصـطباري وإن أُحمَـمْ فمـا حُـمَّ اعتزامـي
وإنْ أَسـلَمْ فمـا أَبقـى ولكـن سَلِمتُ من الحِمـامِ إلـى الحِمـامِ
تمتَّـعْ مـن سُـهادٍ أورُقـادٍ ولا تأمُـل كـرىً تحـت الرِّجـامِ
فـإن لِثالـثِ الحـالين معنـىً سوى معنـى انتباهِـك والمنـام[(٢)]

لقد شُغِفَ المصريون بهذه القصيدة في حين أَزعجت كافوراً وساءته «وحُكي عن المتنبي أنه قال: كنت إذا دخلتُ على كافور وأُنْشِده يضحك إليَّ ويبشّ في وجهي إلى أن أنشدته: ولما صار ودَّ الناس...البيتين قال: فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا؛ فعجبتُ من فطنته وذكائه[(٣)]».

لا شك أن قصيدة المتنبي في وصف الحُمّى من قصائده الخليقةِ بالإعجاب؛ لأنها تُعَدّ من أرقّ الشعر العربي كلّه، وأَعذبه وأَرقاه، وأشدّه

(١) الجمام: الراحة.

(٢) ثالث الحالين: الموت. يقول: إن الموت حال غير حالي السهر والنوم، فلا يُتَمتَّع فيه بشيء.

(٣) هامش بلا شير ص ٣٧٣ عن وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٢ وفي نسخة الديوان التي نشرها عبد الوهاب عزام: «ولما مدح أبو الطيب أبا شجاع فاتكاً شقَّ على الأسود، وشقّت عليه قصيدة الحُمّى» ذكرى أبي الطيب ١٦٣.

استثارة للحزن وتحريقاً للقلوب الحسّاسة الشاعرة، وقد أُعجب القدماء بهذه القصيدة لأن الشاعر برع في وصف الحُمَّى براعةً لا مزيد عليها، كما تجاوز حُزْنُه الفَنَّ، وصار أَعظم منه وأبعد مدى، وأَنفذ إلى القلوب والنفوس[1] ولكن هذه القصيدة لا تخلُو من كلمات لاذعة لم تخفَ على كافور، حيث اتَّهمه بالخداع والخبث، والوّد الكاذب، لذلك فهو لا يرى جدوى من إقامته بمصر؛ فقد طال مرضه حتَّى ملَّهُ الفراشُ، وقلَّ عُوَّادُه[2] وسَقِم فؤادُه لتراكم الأَحزان والآلام عليه، وكَثُر حُسَّاده لوفور فضله، وبُعد الغاية التي يسعى إليها فهو كالجواد الذي أضرَّ به الرِّباط بعد أن اعتاد خوضَ الغَمَرات، فما إن يخرج من حربٍ حتى يدخُل في غيرها. تلك إشارة واضحة إلى أَنَّ الرجلَ أصبح أسيراً يؤرّقه التفكير بالإفلات من قبضة الرقيب.

آخر المدائح[3]

أنشد أبو الطيب كافوراً آخِرَ مدائحه في شهر شوَّال سنة ٣٤٩هـ بعد انقطاع دام سنة وأربعة أشهر، تلبيةً لطلب كافور الذي لم يَرَ الشاعرُ بُدَّاً من مداراته ما دام في كَنَفِهِ. ولعله أَراد بهذا المدح أن يُبعِدَ الشَّكَّ عمَّا يُضمِره من العزم على الهروب من مصر. لقد بدأ قصيدته بالحديث عن نفسه والفخر بها، ثم مدح كافوراً ببضعة أبيات، واستنجزه الوعدَ. فقال:

---

(١) انظر مع المتنبي ص ٣١٩.

(٢) جاء في وفيات الأعيان: ٣٦/١/ «لمَّا كان أبو الطيب بمصر مرض، وكان له صديق يغشاه في علَّته، فلَّما أَبلّ انقطع عنه، فكتب إليه: «وصلتني وصلك الله معتلاًّ، وقطعتني مُبِلاًّ، فإن رأيت أن لا تحبِّبَ العلَّة إليّ، ولا تكدّر الصحة عليَّ فعلت إن شاء الله تعالى». (انظر حاشية بلاشير ص ٣٧٢).

(٣) ذكر بلاشير أن تاريخ هذه القصيدة شهر شوال ٣٤٧هـ معتمداً على ما ذكره الواحدي. وفي شرح اليازجي ووفيات الأعيان، وشرح البرقوقي أن القصيدة قيلت سنة ٣٤٩هـ وقد أيد هذا التاريخ كلّ من طه حسين وعبد الوهاب عزام، وهو ما أخذنا به، واعتمدناه في تسلسل مدائح كافور (انظر بلاشير ص ٣٦٤).

مُنىً كُنَّ لي أَنَّ البيــاضَ خِــضابُ فَيَخْفى بتبييضِ القــرون شَــبابُ[1]
ليالِيَ عند البــيضِ فَــوْداي فتنــةٌ وفخرٌ وذاك الفخرُ عنديَ عَــابُ[2]
فكيف أَذُمُّ اليومَ ما كنــتُ أَشْــتهي وأدعو بما أَشكوه حــين أُجــابُ[3]
جلا اللونُ عن لونٍ هدى كلَّ مسلكٍ كما انجاب عن ضوء النهار ضَــبابُ[4]
وفي الجسم نفسٌ لا تَشيبُ بــشيبهِ ولو أَنَّ ما في الوجهِ منــه حِــرابُ
يُغيِّر منِّي الدهرُ ما شــاء غيرَهــا وأَبلُغُ أَقصى العمرِ وهي كَعــابُ[5]
وإني لَنجمٌ تهتــدي صُــحْبتي بــه إذا حال من دون النجــوم سَــحابُ
غَنِيٌّ عــن الأَوطــان لا يــسْتفزُّني إلــى بلــدٍ ســافرتُ عنــه إيــابُ
وأَصدى فلا أُبدي إلى الماء حاجــةً وللشمسِ فوق الــيَعْمُلاتِ لُعــابُ[6]
وللــسرّ منـــي موضـــعٌ لا ينالُـــه نـــديمٌ ولا يُفــضي إليـــه شـــرابُ
وللخَــودِ منــي ســاعةٌ ثــمّ بيننــا فلاةٌ إلــى غيــرِ اللقــاء تُجــابُ[7]
ومــا العــشقُ إلاَّ غِــرَّةٌ وطَماعــةٌ يُعــرِّض قلــبٌ نَفْــسَهُ فيُــصابُ[8]

---

(١) يعني أنه كان يتمنّى الشيب من قديم ليخفي شبابه بابيضاض شعره لأنه أوقر وأجل في العين.

(٢) العاب: العيب. والبيض: النساء. يقول: إنني تمنيت المشيب في الوقت الذي كان فيه شعر رأسي فتنة للنساء، وكنَّ يفخرن بوصلي بيد أني كنت أعدّ ذلك الفخر عيباً لأنني ممن يعف عن النساء.

(٣) يقول: كيف أذم المشيب اليوم وقد كنت أتمناه وأشتهيه، وكيف أدعو لنفسي وأطلب لها ما إذا أُجبتُ إليه شكوته.

(٤) يقول: إن بياض الشيب كان كأنه كامن في السواد، فلّما زال السواد عنه بدا وانكشف؛ فاهتدى صاحبه إلى كل طريق من الرشد والخير.

(٥) الكعاب: الجارية التي نهد ثدياها.

(٦) اليعملات: النياق النجيبة. ولعاب الشمس: ما يراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلّى فوق رأسه. وأصدى: أعطش.

(٧) الخود من النساء: الشابة الناعمة. تجاب: تقطع.

(٨) الغرّة: الغرور. يقول: إن عشق النساء غرور بهنَّ، وطمع في وصلهنّ، إذا وقعا في قلبِ العاشق عرّض نفسه للعشق فيصاب به.

وغيـــرُ فـــؤادي للغـــواني رَميَّـــةٌ   وغيـــرُ بَنَـــاني للزّجـــاجِ رِكـــابُ[١]
تركنا لأَطرافِ القنــا كُــلَّ شــهوةٍ   فلــــيس لنــــا إِلاَّ بِهـــنَّ لِعـــابُ
أَعزُّ مكانٍ في الدُّنى ســرجٌ ســابحٍ   وخيرُ جليسٍ فــي الزمــانِ كتــابُ

ثم خلص إلى مدح كافور فقال:

وبحرٌ أبو المسكِ الخِضَمُّ الذي لــه   على كل بحــرٍ زَخْــرةٌ وعُبــابُ[٢]
تجاوز قَــدْرَ المــدحِ حتــى كأنَّــه   بأَحسنِ ما يُثنــى عليــه يُعــابُ[٣]
وغالَبَهُ الأَعــداءُ ثــمّ عَنَــوا بــه   كما غالبَتْ بيضَ السيوف رقــابُ[٤]
يقودُ إليــه طاعــةَ النــاسِ فــضلُهُ   ولو لــم يَقُــدها نائــلٌ وعِقــابُ[٥]
أَيا أَسَداً في جــسمه روحُ ضــيغمٍ   وكــم أُسُــدٍ أَرواحُهـــنَّ كـــلابُ
ويا آخِذاً من دهــره حــقَّ نفــسهِ   ومثلُــكَ يُعطَــى حقَّــه ويُهــابُ[٦]

ثم يُفصح عن مطلوبه فيقول:

لنا عندَ هــذا الــدهر حــقٌّ يَلُطُّــهُ   وقد قلَّ إعتــابٌ وطــال عِتــابُ[٧]

---

(١) الغواني: الحسان. والرميّة: الطريدة التي ترمى. يقول: إن قلبي لا تصيبه النساء بسهام ألحاظهن، وبناني ليست مطايا لكؤوس الخمرة.

(٢) الخضمّ: الكثير الماء. زخر البحر: طمى وامتدّ. والعباب: كثرة الموج وارتفاعه. يقول: وأبو المسك الخضم بحرٌ يربو على كل بحرٍ جوداً وعطاء.

(٣) يقول: هو فوق كل مدح يُثنى عليه به، فإذا بالغت في الثناء عليه استحق قدره فوق ذلك، فيصير ذلك الثناء كأنه عيب لقصوره عن استحقاقه.

(٤) عَنَوا: خضعوا وذلُّوا. يقول: حاول الأعداء غلابه، ثم عجزوا عن غلبته، فخضعوا له وانقادوا كالرقاب إذا غالبت السيوف غُلبت.

(٥) النائل: العطاء. يقول: لو لم يطعه الناس رغبة في عطائه ولا رهبة لعقابه لأطاعوه محبةً وإجلالاً لما اختصّه الله به من الفضل.

(٦) يقول: إن الدهر يخشاك ويهابك، ولا يجترئ على أن ينقصك حقَّك.

(٧) يلطُّه: يجحُده ويمطل به. أعتبه: أزال عتبه، أي أرضاه. يقول: لنا عند الدهر حق يجحده، ويماطل في قضائه وقد طال عتابنا له فلم يُرضنا بقضاء الحق.

وقد تُحدِثُ الأيـامُ عنـدك شـيمةً   وتنعمرُ الأَوقـاتُ وهـي يَبـابُ(١)

ولا مُلْكَ إلاَّ أنـتَ والمُلْـكُ فَـضْلَةٌ   كأنَّكَ سيفٌ فيـه وهـو قِـرابُ(٢)

أَرى لي بقربي منكَ عينـاً قريـرةً   وإن كان قُربـاً بالبِعـادِ يُـشابُ(٣)

وهل نافعي أَنْ تُرفعَ الحُجْبُ بيننـا   ودونَ الذي أَمَّلتُ منـكَ حِجـابُ(٤)

أُقِلُّ سلامي حُبَّ مـا خـفَّ عـنكُمُ   وأَسكتُ كيمـا لا يكـونَ جـوابُ(٥)

وفي النفسِ حاجاتٌ وفيـك فَطانـةٌ   سـكوتي بيـانٌ عنـدها وخِطـابُ

وما أَنا بالباغي على الحُبّ رِشْـوةً   ضعيفُ هوىً يُبغَى عليه ثـوابُ(٦)

ومـا شِـئتُ إلاَّ أَنْ أَدُلَّ عـواذلي   على أنَّ رأيي في هـواكَ صـوابُ

وأُعلِـمَ قومـاً خـالفوني فـشرَّقوا   وغَرَّبتُ أَنِّي قـد ظَفِـرتُ وخـابوا

ثم يستعطفه في آخر القصيدة معلِّقا عليه ما بقي في نفسه من آمال فيقول:

إذا نلتُ منكَ الـودَّ فالمـالُ هَـيِّنٌ   وكلُّ الـذي فـوقَ التـرابِ تُـرابُ

وما كنتُ لـولا أَنْـتَ إلاَّ مهـاجراً   لـه كـلَّ يـومٍ بلـدةٌ وصِـحابُ

ولكنَّـك الـدنيا إلـيَّ حبيبـةً   فما عنكَ لـي إلاَّ إليـكَ ذهـابُ(٧)

---

(١) الشيمة: العادة والخلق. تنعمر: تصير عامرة. اليباب: الخالي ليس به أحد. يقول ربما أظفرتني الأيام بمطلوبي لديك على غير عادتها مهابةً لك وإجلالاً.

(٢) قراب السيف: غمده. يقول: إنما المُلْك في الحقيقة هو أنت لا ذلك السؤدد الذي أنت فيه، والذي نلته ببعد همتك وسداد رأيك، فهو بالقياس إليك نافلة وفضلة، وكأنه قراب وأنت فيه السيف.

(٣) يقول: إن عيني قريرة بقربك، وأنا مبتهج بذلك لأني لقيتك، وإن كان هذا القرب مشوباً بالبعاد، لأني لم أنل منك ما كنت أرجوه من الصنيعة إليّ.

(٤) وهل ينفعني أن لا حجاب بيننا، وما أرجّيه منك محجوبٌ عني.

(٥) يقول: لإيثاري التخفيف عنكم أقلّل التسليم عليكم، وأسكت عن الكلام كي لا أحوجكم إلى الإجابة.

(٦) يقول: أنا لا أطلب ما طلبته منك رشوة على حبي إياك، لأن الحب الذي يطلب عليه ثواب ضعيف.

(٧) يقول: إنك الدنيا بأسرها والتي انصبت عليها آمالي، فإن حاولتُ الذهابَ عنك كان ذلك ذهاباً إليك.

لقد حاول أبو الطيب في القسم الأول من هذه القصيدة أن يُظهِرَ ما في نفسه من التماسك والثبات في مواجهة الشامتين الذين يسعدون بخيبته وشقائه. فهمَّتُه لم ينل منها الضعفُ على الرغم من ظهور تلك الشعرات البيض التي تُؤذِنُ بالهرم والعجز. فنفسُهُ شابَّةٌ أبداً وإنْ تقدَّم به العمر، وهو النجم الهادي الذي يُرشِدُ أَصحابه إلى سواء السبيل. ثم يقول لأولئك الخانعين القابعين في أوطانهم بأنه غيرُ مُولَعٍ بالأوطان، فجميع البلاد عنده سواء، وإذا غادر وطناً لا يستخفّه حبٌّ الرجوع إليه.

إنه الرجلُ الجَلْدُ الحازم الحافظ للسرّ، الذي لا تطَّبيه النساء؛ فيأسرن قلبه، وإنما هو رجل حرب وليس رجل قصفٍ ولهو.

أما الأبيات التي يمدح بها كافوراً فلا تختلف في معانيها عن مدائحه السابقة التي ترمي في جملتها إلى استدرار عطفه، واستنجاز وعده فهو البحر الخضمّ الذي لا يدانيه بحرٌ في الجود، وهو فوق كل مدحٍ أو ثناء.

إنه الملكُ الشجاعُ الذي يَعْجِزُ أعداؤه عن قهره، وهو كالأَسَدِ قوةً وبطشاً. والدهر يخشاه ولا يجترىء عليه، لذلك يمكنه أَنْ ينتصفَ للشاعر من هذا الدهر الذي يجحده حقَّه ويُنكره عليه.

إنه الملك الحقيقي الذي تَقَرُّ به عينُه على الرغم من أَنه لم يُبلِّغهُ مطلوبَهُ، وهو من الفَطانة والذكاء بحيث يُدرِكُ حاجةَ شاعره دون أن يُفصِحَ عنها. فقهرُ عواذله الذين لاموه على توجُّهه إلى مصر لا يتمُّ إلاَّ بتحقيق الغاية التي جاء من أجلها.

ولكن مدائح أَبي الطيِّب لكافور لم تؤتِ أُكُلَها لأن الممدوح رجلٌ داهية لا متَّسعَ لديه للعواطف، ولا يستميله الكلام المعسول. والمتنبي في نظره يمكنه التربُّع على قمة الشعر في زمانه، ولكن لا يُمكن الركون إليه في السياسة.

بقي أبو الطيب بمصر بعد هذه القصيدة نحو سنة ونيّف لا يمدح كافوراً ولا يلقاه «إلاَّ أَنْ يركبَ فيسير معه في الطريق[١]» لِئَلاَّ يوحِشَهُ. ولما خاب

---

(١) الصبح المنبي ص ١٢٤.

أمله في كافور وأشرف على اليأس نظم بعض الأهاجي سراً منها اليائية التي يقول فيها[١]:

أُريكَ الرضا لو أَخفتِ النفسُ خافيـاً	وما أَنا عن نفسي ولا عَنْكَ راضـيا[٢]
أَمَينــاً وإخلافــاً وغــدراً وخِـسَّةً	وجُبناً أشخصاً لُحتَ لي أم مخازيا[٣]
تظنُّ ابتــساماتي رجــاءً وغِبطــةً	وما أَنا إلاَّ ضــاحكٌ مــن رجائيــا
وتُعجبني رجلاك في النعـل إنني	رأَيتُــك ذا نعـلٍ إذا كنــتَ حافيــا
وإنــك لا تــدري أَلَوْنُــكَ أَســودٌ	من الجهلِ أَمْ قد صار أَبيضَ صـافيا[٤]
ويُــذكِرُني تخيــيطُ كعبِــكَ شَــقَّهُ	ومَشيَك في ثوبٍ من الزيت عاريا[٥]
ولولا فضولُ الناس جئتُــك مادحــاً	كما كنتُ في سِرِّي به لكَ هاجيــا[٦]
فأَصبحتُ مسروراً بما أَنــا مُنــشِدٌ	وإن كان بالإنشاد هَجْوُكَ غاليــا[٧]

(١) جاء في الديوان أن المتنبي دخل على كافور بعد إنشاده أول قصيدة مدح فابتسم إليه الأسود ونهض فلبس نعلاً، فرأى أبو الطيب شقوقاً برجليه وقبحاً، فقال يهجوه. ولا نرى مسوّغاً لذلك لأنه ما زال في بداية الطريق، ولم ير من كافور شيئاً من المين والإخلاف والغدر والخسة كما ورد في الأبيات.

(٢) يقول: لو قدرت على إخفاء ما في نفسي من البغض لك والكراهة لقصدك لكنت أريك الرضا، ولكني لستُ براضٍ عن نفسي في قصدي إليك، ولا عنك أيضاً لتقصيرك في حقّي.

(٣) المَين: الكذب. الإخلاف: خلف الوعد.

(٤) يقول: بعد أن أحرزت الملك لا تدري لجهلك هل لونُك أسود كما كنت تعرف، أو صار أبيض كما تتوهّم.

(٥) يقول: كلّما رأيت تخييطك لكعبك ذكّرتني الشقوق التي كانت به عندما كنت مجلوباً، حيث كنت تمشي عارياً في ثوب من الزيت لأن مولاه كان زيّاتاً، وكان الأسود يحمل الزيت عارياً.

(٦) يقول: أنا أهجوك في سري وإن مدحتك ظاهراً، فلولا ما طبع عليه الناس من الفضول لأظهرت هجاءك. وقلت إني أمدحك إذ لا تفرق بين المدح والهجاء.

(٧) كنت ستُسرّ بإنشادي هجاءك إذ تظنه مديحاً، وإن هجوك يغلو بالإنشاد لأن الإنشاد كثير عليك.

فإن كنتَ لا خيراً أفدتَ فإنني | أفدتُ بلحظي مِشْفَريك الملاهيا[١]
ومثلُك يؤتَى من بلادٍ بعيدةٍ | ليُضحِكَ رَبَّاتِ الحدادِ البواكيا

ومما قاله في هجائه سراً بعد سنة ٣٤٨ هـ القطعة التالية:

أَنوَكُ من عبدٍ ومن عِرْسِهِ | مَنْ حكَّم العَبْدَ على نفسهِ[٢]
وإنّما يُظهِرُ تحكيمُهُ | تحكُّمَ الإفسادِ في حِسِّه[٣]
ما مَنْ يرى أَنَّك في وعدهِ | كمن يرى أَنَّك في حبسه[٤]
العبدُ لا تفضُلُ أخلاقُه | عن فَرْجه المُنْتِنِ أو ضِرْسِه[٥]
لا يُنْجِزُ الميعادَ في يومهِ | ولا يَعي ما قالَ في أَمسهِ
وإنمَّا تحتالُ في جذبهِ | كأنك الملاَّحُ في قَلْسِه[٦]
فلا تُرجِّ الخيرَ عندَ امرىءٍ | مرَّت يدُ النَّخَّاسِ في رأسه[٧]

---

(١) مشفريك: شفتيك الشبيهتين بمشفري البعير. يقول: إن لم أستفد خيراً من مقامي عندك، فقد استفدت الملاهي برؤيتي شفتيك.

(٢) النوك: الحمق. الأنوك: الأحمق. والعرس: الزوجة يريد بها الأمة. أي إن من يجعل العبد حاكماً على نفسه أحمق من العبد ومن عرس العبد.

(٣) يقول: إن من حكّم العبد على نفسه يدل تحكيمه على سوء اختياره. وسوء الاختيار يدل على تحكم الفساد في الحِس.

(٤) يريد أنه رهين مواعيد كافور، ولكن كافوراً يعامله معاملة المحبوس عنده فلا هو يفيه ما وعده ولا هو يؤيسه فيحمله على الرحيل.

(٥) يقول: إن همة العبد مقصورة على فرجه وبطنه، فلا فضل فيها عن هذين لمكرمة وبرّ وإحسان.

(٦) القَلْس: حبل السفينة. يعني أنه يجرّ إلى فعل الخير بقوة وصعوبة كما تجرّ السفينة من الانحدار إلى الإصعاد.

(٧) في رأسه: على رأسه. أي لا تأمل خيراً من عبد رأى الهوان والذلة، وسيق للبيع كما تساق الدواب.

وإنْ عَـراكَ الـشكُّ فـي نفـسهِ بحالــه فــانظر إلــى جِنْـسِه[1]
فقلَّمـــا يَلْـــؤمُ فـــي ثوبـــهِ إلاَّ الـــذي يلـــؤم فـــي غِرْسِـــه[2]
مـن وجـد المَـذْهبَ عـن قـدره لم يجـدِ المـذهبَ عـن قَنـسِهِ[3]

والقطعة التي نُظمت بعد موت فاتك في شوال سنة ٣٥٠هـ والتي يقول فيها:

وأسود أمـا القلـبُ منـه فـضيّقٌ نَخيـبٌ وأمـا بطنـهُ فرحيـبُ[4]
يموتُ به غيظاً على الـدهر أهلُـهُ كما مـات غيظـاً فاتـكٌ وشَـبيبُ

وقال لمَّا هم بالرحيل عن مصر:

لـــو كـــان ذا الآكـــلُ أَزْوادَنـــا ضَـــيفاً لأَوســـعناه إحـــسانا[5]
لكنَّنـــا فـــي العـــينِ أضـــيافُه يوسِـــعُنا زُوراً وبُهتانـــا[6]
فليتَـــه خلّـــى لنـــا طُرْقَنـــا أعانـــــه اللهُ وإيَّانـــــا

ومما عَجَّل في رحيل أبي الطيب عن مصر موتُ أبي شجاع فاتك الرومي فجأةً، وذلك في الحادي عشر من شوّال سنة ٣٥٠هـ وهو الرجل

---

(١) عراك: اعتراك. يقول: إن شككت في حاله فقسه بغيره من العبيد، فإنك لا ترى أحداً منهم له مروءة وكرم.
(٢) الغِرس: جلده رقيقة تخرج على رأس الولد عند الولادة. يقول: إن اللؤم طبيعة طُبع عليها اللئيم في غرسه. فمن كان لئيماً في كبره فإنما كان مولوداً على اللؤم.
(٣) القَنْس: الأصل. أي من نال شيئاً لا يستحقه في الدنيا كالملك أو الولاية أو الغنى لا يمكنه التخلص من اللؤم لأن الأشياء تعود إلى أصولها.
(٤) النخيب: الفاسد.
(٥) الأزواد: جمع زاد وهو طعام المسافر. يقول: لو كان الذي يأكل زادي ضيفاً لأحسنت إليه.
(٦) أي نحن أضيافه في الظاهر غير أنه قَرانا البهتان والمواعيد الكاذبة.

الذي علَّق عليه بعض آماله، فجزع لوفاته جزعاً شديداً، ورثاه أبلغ رثاء، ولكنه لم يُذِعْه إلاَّ بعد رحيله عن مصر حيث قال[١]:

الحـــزنُ يُقلِـــقُ والتجمُّـــلُ يَـــرْدَعُ والـــدمعُ بينهمـــا عَـــصِيٌّ طَيِّـــعُ[٢]

يتنازعـــانِ دمـــوعَ عـــينِ مُـــسهَّدٍ هذا يجيء بهـــا وهـــذا يَرجِـــعُ[٣]

النـــومُ بعـــد أبـــي شُـــجاعٍ نـــافرٌ والليلُ مُعْـــيٍ والكواكـــبُ ظُلَّـــعُ[٤]

إني لأَجْـــبُنُ مـــن فـــراق أحبَّتـــي وتُحسُّ نفسي بالحِمـــامِ فأشْـــجُعُ[٥]

تـــصفو الحيـــاةُ لجاهـــلٍ أو غافـــلٍ عمَّا مضى فيهـــا ومـــا يُتوقَّـــعُ[٦]

ولمن يُغالِطُ فـــي الحقـــائق نفـــسَهُ ويسومُها طلبَ المُحـــالِ فتطمـــعُ[٧]

ثم يُشيد بصفات المرثي:

لم يُرضِ قلبَ أبـــي شـــجاعٍ مَبْلَـــغٌ قبلَ المماتِ ولم يَـــسْعْهُ موضِـــعُ[٨]

---

(١) جاء في مقدمة القصيدة: وكانت هذه المرثية بعد خروجه من مصر، لكن من المرجح أنه قالها بمصر وأذاعها بعد خروجه منها، وذلك بعد مضي شهرين على وفاة فاتك.

(٢) التجمُّل: تكلّف الصبر. يقول: إن الحزن يقلقني، والتصبُّر يمنعني عن الجزع، والدمع بين الحالين محتبس تارةً ومنسكب تارة أخرى.

(٣) أي إن الحزن والصبر يتنازعان دموع عيني، فالحزن يُجريها والتجمل يحبسها.

(٤) مُعي: من العيّ، أي تَعِب. ظُلَّع: جمع ظالع وهو الذي يعرج في مشيه. أي لا تنام العيون بعده حزناً عليه، والليل يطول فلا ينقضي كأنه كلّ من التعب. والكواكب تظلع في سيرها.

(٥) الحمام: الموت. يقول: إنني أجبن عند فراق الأحبّه، أخاف الموت خوف الجبناء، ولكنني أشجع عند الموت في ميدان الوغى فلا أهابه.

(٦) يقول: تصفو الحياة للجاهل الذي لا يدرك أحوالها ومصائرها، أما العاقل الفطن الذي ينظر إلى الدنيا بعين المعرفة والدراية فإنها لا تصفو له.

(٧) يسومها : يكلّفها. أي من يغالط في فهم حقائق الحياة، يمكن أن يصفو عيشه، فيطمع في البقاء دون أن يفكر في العواقب.

(٨) يقول: إن المرثي - لبعد همته - لم يكن يرضى بمبلغ يبلغه في العلا حتى يطلب ما فوقه، ولم يكن ليسعه موضع من الأرض لأنه لا يشبع طموحه.

كنـــا نظـــنُّ ديـــارَهُ مملـــوءةً ... ذهبـــاً فمـــات وكـــلُّ دارٍ بَلْقَـــعُ(١)

ولقـــد أراكَ ومـــا تُلِـــمُّ مُلمـــةٌ ... إلاَّ نفاهـــا عنـــك قلـــبٌ أصـــمعُ(٢)

مازلـــتَ تـــدفعُ كـــلَّ أمـــرٍ فـــادحٍ ... حتى لَبِستَ اليـومَ مـا لا يُـدْفعُ(٣)

فَظَلِلـــتَ تنظـــرُ لا رماحُـــك شُـــرَّعٌ ... فيما عـراك ولا سـيوفُك قُطَّـعُ(٤)

مَنْ للمحافِلِ والجحافـلِ والسـرُّى ... فقـدتْ بِفَقْـدِك نَيِّـراً لا يَطْلُـعُ(٥)

ثم يُعرِّضُ بكافور فيقول:

أيموتُ مثـلُ أبـي شـجاعٍ فاتـكٌ ... ويعيشُ حاسدُهُ الخَصِيُّ الأَوكـعُ(٦)

أَيـــدٍ مقطَّعـــةٌ حَـــوالَي رأســـهِ ... وَقَفَاً يَصيحُ بها أَلا مَـنْ يَـصْفَعُ(٧)

أبْقَيـــتَ أكْـــذَبَ كـــاذبٍ أبقيتـــهُ ... وأخذتَ أصدقَ من يقولُ ويَـسمعُ(٨)

وتركـــتَ أَنْـــتَنَ ريحـــةٍ مذمومـــةٍ ... وسـلبت أطيـبَ ريحـةٍ تتـضوَّعُ

---

(١) البلقع: الخالي. يقول: كنا نظنه صاحب ذخائر وأموال، فلما مات لم يخلّف مالاً لأنه كان جواداً متلافاً.

(٢) الأصمع: الذكي الحادّ. أي ما نزلت بك نازلة من نوازل الدهر إلاّ دفعها عنك قلب ذكي.

(٣) الفادح: الذي يثقل حمله. والأمر الذي لا يُدفع: هو الموت.

(٤) عراك: أصابك. شرع الرمح: بسط اليد به وسدّده يقول: ظللت تنظر إلى الموت نظر العاجز، فلم تعمل رماحك ولا سيوفك في دفعه.

(٥) النيّر: الكوكب الكثير النور.

(٦) الأوكع: الذي أقبلت إبهام رجله على السبَّابة حتى يرى أصلها خارجاً كالعقدة.

(٧) إن قفا كافور يطلب الصفع، ولكن الأيدي التي حوله مقطّعة لا تقدر على صفعه، أي ليس عنده من فيه خير.

(٨) أبقيت: الضمير عائد على الزمان.

خروج أبي الطيب من مصر

بقيَ أبو الطيب بمصر نحوَ شهرين بعد وفاة فاتك، أَنجز خلالهما عُدَّةَ السفر «وقد أَعَدَّ كلَّ ما يحتاج إليه على مَرّ الأَيام بلُطْفٍ ورفق، ولا يعلم به أحدٌ من غلمانه، وهو يظهر الرغبةَ في المقام، وطال عليه التحفُّظُ؛ فخرج ودفن الرماحَ في الرمال، وحمل الماء على الإبل لعشر ليالٍ وتزوَّد لعشرين(١).....

وكان خروجُه من الفُسطاط في التاسع من ذي الحجة سنة ٣٥٠هـ وبَلاطُ الإخشيديِّين مُنْهمِكٌ باحتفالات عيد الأضحى التي يحتشد فيها عدد كبير من الناس. في حين تقدَّمته الإبلُ المحمَّلةُ بالسلاح والأَمتعة وسواها. وقبل مسيره بيوم قال قصيدته في هجاء كافور:

عيدٌ بأيـــةِ حـــالٍ عُـــدتَ يـــا عيـــدُ بما مـــضى أَمْ لأَمْـــرٍ فيـــكَ تجديـــدُ

حيث أرسلها إليه بعد أن أصبح بعيداً عن متناوله. ويُقال: إن كافوراً شكَّ في محتواها؛ فأَمر بإحراقها دون أن يقف على ما فيها.

أَغذَّ أبو الطيّب السير من الفُسطاط إلى بِلْبيس التي كان ينتظره فيها صديقُه عبد العزيز بن يوسف الخُزاعي وكان قد كتب إليه يطلبُ منه دليلاً فأَنفذه إليه، فأَثنى عليه بالأبيات التالية:

جَزى عَرَباً أمستِ بِبِلْبِـيْسَ ربُّهـا بِمَسْعاتها تَقْـرَرْ بـذاك عيونُهـا(٢)

كَراكرَ من قيسِ بن عَيلانَ سـاهراً جُفونُ ظُباهـا للعُـلا وجُفونُهـا(٣)

---

(١) الصبح المنبي ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) المسعاة: المكرمة. يقول جزى ربُّ العرب التي أمست بهذه البقعة جزاء يقابل مسعاتها لتقرّ عيونها بذلك الجزاء.

(٣) الكراكر: الجماعات. واحدها كِرْكِرة. يقول: هؤلاء العرب جماعات من قيس بن عيلان لا تزال جفونهم ساهرة في طلب العلى، وجفون سيوفهم خالية من نصالها لأن سيوفهم مسلولة على الدوام.

وخصَّ به عبدَ العزيزِ بنَ يوسفٍ فما هو إلاَّ غيثُها ومَعِيْنُها[١]

فتىً زانَ في عينيَّ أَقصى قبيلِهِ وكم سيِّدٍ في حِلَّةٍ لا يَزِيْنُها[٢]

ومكث أَبو الطيب في بِلْبيس سوادَ اللَّيل، ثم توجَّه شرقاً فاجتاز برزخَ السويس، ثم توغَّل رَكْبُهُ في صحراء التيه إلى أن وصل إلى نَخْل، وهو موضع في شمال سيناء، فوجد خيلاً صادرة عن الماء؛ فخاف أن يكونوا عيوناً عليه، فقاتلهم وغلبهم، ثم واصل سيره إلى النّقاب وهو موضع على الجانب الغربي من وادي عَرَبة يتفرَّع عنه طريقان: الأول نحو وادي المياه، والثاني نحو الجنوب والمدينة المنورة. وكان أبو الطيب شديدَ الحرص على تجنُّب الطرق المأهولة، ومراكز المدن التي لا تخلو من حاميات مصرية مثل أَيلة (العقبة) ومَعَان. ورأى قربَ النّقاب رجلين على قَلُوصين؛ فطردهما وأخذهما، فأَخبراه أنهما رائدان من بني سُلَيم؛ فخلاَّهما، واستبقاهما وردَّ عليهما القلوصين وسلاحَهما. وسارا معه حتى توسَّط بيوتَ بني سُلَيم آخِرَ الليل، فَضَرب له مُلاعبُ بنُ أبي النجم خيمةً بيضاء وذبح له.

ثم غدا فسار إلى النقيع، ونزل ببادية من معن وسُنْبُس، فذبح له عفيفٌ المعني غَنَماً وأكرمه، فخرج من عنده ومعه لِصَّان من جُذام يدلاَّنه على الطريق، ثم توجَّه إلى الجنوب الشرقي فوصل إلى تُربان على الجانب الشرقي من وادي عَرَبَة، ثم الغوير (وتسمى اليوم الكويرة أو القويرة) في الجانب الشمالي من هضبة حِسْمى التي تمتدّ من الشمال الغربي من تبوك إلى الجنوب من وادي عَرَبَة. ولما بلغ حِسْمى وجد بني فَزارة شاتين بها. فنـزل بقومٍ من عديّ فَزارة وكان بينه وبين أمير فزارة حسان بن حكمة مودّة، وأراد أَلاَّ يُعلَمَ ما بينه وبينهم من ودّ فنـزل بجارٍ لهم من طيّئ. وطابت حِسْمى لأَبي الطيب

---

(١) الغيث: المطر. والمعين الماء الجاري.

(٢) القبيل: الجماعة. والحِلّة: الجماعة يحلّون بالمكان.

فأقام بها شهراً. وحِسْمى أرضٌ كثيرة النخل، تُنبت جميعَ النبات، مملوءة جبالاً في كبد السماء، متناوحةً (متقابلة) مُلْسَ الجوانب، إذا أراد الناظرُ النظرَ إلى قُلَّةِ أَحدها فتل عنقه حتى يراها بشدَّة. ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده، ولا يكاد القتامُ يفارقُهُ يَعرفها من رآها من حيث يراها لأنها لا مثل لها في الدنيا. ومن جبال حِسمى جبل يُعرف بإرَم[1] (رَمّ) عظيم العلو تزعُم أَهلُ البادية أن فيه كروماً وصنوبراً (ياقوت)[2].

أقام أبو الطيب في حِسْمى عند وَرْدان بن ربيعة الطائي، فاستغوى عبيدَهُ، وأَجْلَسَهَم مع امرأته. فكانوا يسرقون له الشيءَ بعد الشيء من رحله. وكاتَبَ الأَسودُ قبائلَ العرب في طلبه، وظهر لأبي الطيِّب فسادُ عبيده. وكان وردان الطائي يرى عند أبي الطيب سيفاً مستوراً؛ فسأله أن ينظره، فأبى لأنه كان على قائمته مئة مثقال من الذهب، وكان السيفُ ثميناً. فجعل الطائي يحتال على العبيد بامرأَتِه طمعاً في السيف، لأن بعضهم أعطاه خبره، فلمَّا أنكر أبو الطيِّب أمرَ العبيد، ووقف على مكاتبة الأَسْوَد، ترك عَبيدَهُ نياماً، وتقدَّم إلى الجمال، فشدَّ عليها أَسْبابَهُ، وسار والقوم لا يعلمون برحيله. وطرح عبيده على الإبل وهم لا يعلمون. وأخذ في المسير، وأخذ بعضُ العبيد السيفَ في الليل، فدفعه إلى عبد آخر مع فرسه، وجاء ليأخذَ فرسَ أبي الطيب فتَنبَّهَ له. فقال الغلام: أَخذ العبدُ الفرسَ يغالطُهُ، وعدا نحو الفرس ليقعد في ظهره فالتقى هو وأبو الطيب عند الحصان، وسلَّ العبدُ السيفَ فضرب رسنَهُ، وضرب أبو الطيب وجهَ العبد، وأمر الغلمانَ بقتله. وكان هذا العبد أَشدَّ مَنْ معه وأفرس. فقال أبو الطيب القطعة التي أوَّلها:

أَعْـــدَدْتُ للغـــادرين أَســـيافا   أجـــدعُ مـــنهم بهـــنَّ آنافـــا

---

(١) تربان، والغوير (القويرة) والجزء الشمالي من هضبة حسمى بما فيه من الجبال، لا سيما جبل إرم تقع كلها اليوم ضمن حدود المملكة الأردنية.

(٢) انظر معجم البلدان - ج٢ ص ٢٥٨ وما بعدها.

وقال يهجو وردان:

لــئن تَــكُ طيِّــئٌ كانــت لئامــاً ... فألأَمُهـــا ربيعـــةُ أو بنـــوهُ

وإن تــكُ طيِّــئٌ كانــت كرامــاً ... فــوردانٌ لغيـــرهمُ أَبـــوه

مررنــا منــه فــي حِــسْمى بعبــدٍ ... يمــجُّ اللــؤمَ مَنْخِــرُهُ وفــوهُ

أشــذَّ بعِرسِــهِ عنّــي عبيــدي ... فــأَتلفهم ومــاليَ أَتْلفــوهُ

فــإن شَــقِيَتْ بأَيــديهم جيــادي ... لقد شَـقِيتْ بمُنْـصليَ الوجـوهُ[١]

وقال فيه أيضاً:

لحا اللهُ وَرْدَانــاً وأُمَّــا أَتَــتْ بــه ... له كَسْبُ خِنْــزيرٍ وخُرطومُ ثعلــبِ

فمــا كــان فيــه الغَــدْرُ إلاَّ دَلالــةً ... علــى أنــه فيــه مــن الأُمّ والأبِ

إذا كَسِبَ الإنسانُ من هَنِ عِرْسِــه ... فيا لؤمَ إنسانٍ ويــا لــؤمَ مكــسبِ

أهــذا اللَّــذيَّا بنــتُ وردانَ بنتُــه ... هما الطالبانِ الرزقَ من شرّ مطلبِ

لقد كنتُ أنفي الغدرَ عن تُوسِ طيّئٍ ... فلا تَعْذِلاني رُبَّ صــدقٍ مكــذَّبِ[٢]

وخاف أبو الطيب أَنْ تكونَ عليه عيونٌ بحِسمى قد علمت أنه يريدُ البياضَ، وهي أرْضٌ بنجد لبني كعب من بني عامر بن صعصعة. (ياقوت) فسار حتى انحدر إلى الكفاف (هي اليوم الكفوف) والكَبْد (هو اليوم مشاش الكبد) موضع في سماوة كلب (ويقع شرقي السكة الحديد الحالية نحو الدرجة ثلاثين من خط العرض[٣]). ثم ورد البُويرة بعد ثلاث ليالٍ وهي موضع قرب وادي القرى. ثم توسَّط بُسَيْطة وهي أرض في البادية بين الشام والعراق، حدُّها من جهة الشام ماء يُقال له: أَمَرٌّ، ومن جهة القِبْلة موضع يُقال له: قَعْبةُ

(١) الصبح المنبي ص ١٢٥-١٢٩.

(٢) التوس: الأصل.

(٣) انظر بلاشير ص ٣٨٤.

العَلَم. وهي أرضٌ مستوية فيها حصىً منقوش أحسن ما يكون، وليس بها ماء ولا مرعى، أبعد أرض الله من السكان (ياقوت) فلما توسَّطها قال بعضُ عبيده: - وقد رأى ثوراً وحشيًّا - هذه منارةُ الجامع، وقال آخر منهم وقد رأى نعامة: وهذه نخلة، فضحكوا فقال أبو الطيّب:

بُسَيطةُ مهلاً سُقيتِ القِطارا تركتِ عيونَ عبيدي حيارى[1]

فظنُّوا النعامَ عليكِ النخيلَ وظنُّوا الصِّوارَ عليكِ المنارا[2]

فأمسك صحبي بأكوارهم وقد قصد الضِّحْكُ فيهم وجارا[3]

ثم ورد عُقْدَةَ الجوف بعد عدَّة ليال (دومة الجندل) وهي موضع في سماوة كلب بين الشام والعراق. وسقى بالجَراويّ وهو ماء في وادي السرحان في الشمال الغربي من الجوف. ومنه إلى صَوَر أو صَوَرى وهو ماء في الطريق، ثم اجتاز بالشَّغور[4] وهو ماء ببادية ماء كلب على حدود العراق. تقول العرب: إذا وَرَدْتَ شَغُوراً فقد أَعْرَقْتَ (أي بلغت العراق) ثم سار إلى الجُميعي[5] فالأَضارع وهي بركة من حفر الأعراب في طريق الحاج من الكوفة، ومنها إلى الدّنا (موضع) فأَعكُش وهو موضع قريب من الكوفة، ومنه إلى الرُّهَيمة وهي عين ماء قريبة منها. ثم دخل الكوفة في شهر ربيع الأول سنة ٣٥١هـ بعد ثلاثة أشهر من مغادرة الفسطاط، فعاد إلى مسقط رأسه بعد غياب دام أربعاً وثلاثين سنة، وكانت أحوال الكوفة أسوأ مما كانت عليه يوم فارقها؛ فقد تخرَّبت دورُها، وتهدَّمت أَحياؤها لما لحقها من أعمال السلب والنهب على أيدي القرامطة والأعراب[6]. فنظم

---

(١) القِطار: المطر.

(٢) الصوار: قطيع بقر الوحش. المنار: المئذنة.

(٣) الأكوار: جمع كور وهو الرحل.

(٤) ذكر بلاشير أنه الشوار وليس الشغور وهو اليوم الشوير عن موسيل ص ١٩٩.

(٥) هو اليوم مشاش الجميعي: انظر بلاشير ص ٣٨٥ عن موسيل.

(٦) انظر بلاشير ص ٣٨٥.

قصيدة يذكر فيها المواضعَ التي اجتازها في مسيره وعددها واحد وعشرون موضعاً فقال:

ألا كـــــلُّ ماشـــــيةِ الخيزلـــــى	فِـــدى كـــلِّ ماشـــيةِ الهيـــذَبى[(١)]
وكـــــلِّ نَجـــــاةٍ بَجاويَّـــــةٍ	خَنُوفٍ وما بيَ حُـسْنُ المـشَى[(٢)]
ولكــــنَّهنَّ حبـــالُ الحيـــاةِ	وكيـــدُ العُـــداةِ ومَـــيْطُ الأذى[(٣)]
ضربتُ بها التّيـهَ ضـربَ القِمـا	رِ إمَّـــا لهـــذا وإمَّـــا لِـــذا[(٤)]
إذا فَزِعـــتْ قـــدَّمتْها الجيـــادُ	وبيضُ الـسيوفِ وسُـمْرُ القنـا[(٥)]
فمــــرَّت بِنَخْـــلٍ وفـــي رَكْبهـــا	عـــن العـــالمينَ وعنـــه غِنـــى[(٦)]
وأَمْــــسَت تُخيِّرنــــا بالنِّقــــا	بِ ووادي المياهِ ووادي القُـرى[(٧)]
وقُلْنـــا لهـــا أيـــن أَرضُ العــراقِ	فقالـــت ونحـــنُ بتُربـــان هـــا[(٨)]
وهبَّـــت بحِـــسمى هُبـــوبَ الـــدَّبو	رِ مُـــستقبِلاتٍ مهـــبَّ الـــصَّبا[(٩)]
روامـــي الكِفـــافِ وكَبْـــدِ الوهـــادِ	وجـــارِ البُـــويرةِ وادي الغـــضا[(١٠)]

---

(١) الخيزلى: مشية للنساء فيها استرخاء وتثاقل وتفكك. والهيذبى: ضرب من مشي الخيل فيه جد وسرعة. يقول: فدت كلُّ امرأةٍ تمشي الخيزلى كلَّ فرسٍ تمشي الهيذبى.

(٢) النجاة: الناقة السريعة تنجو بمن ركبها. بجاويّة: منسوبة إلى بجاوة وهي أرض بالنوبة تعرف نوقها بالسرعة. والخنوف: اللينة اليدين في السير والمشي. أي لا أنظر إلى حسن مشي النساء، إنما ميلي إلى كل ناقة خفيفة المشي.

(٣) العداة: الأعداء. والميط: الدفع. يقول: إن ولوعي بالإبل لأنها حبال الحياة يُتسبّب بها إلى الرزق والخروج من المهالك، وبها تكاد الأعداء ويُدفع الأذى.

(٤) التيه: تيه بني إسرائيل. ضرب القمار: كما يضرب المقامر بالسهام وهو لا يدري ما يقسم له من غُنْم أو غُرْم. أي ألقى بنفسه بين الفوز والهلاك، فالعاقبة إما هذا وإما هذا.

(٥) قدّمتها: تقدّمتها.

(٦) نخل: ماء معروف في سيناء.

(٧) النقاب: موضع يتشعب منه طريقان، طريق إلى وادي المياه، وآخر إلى وادي القرى.

(٨) تربان: على الجانب الشرقي من وادي عربة. ها: للتنبيه.

(٩) هبّت: أي الإبل يريد نشطت في سيرها كأنها الريح.

(١٠) روامي: قواصد. الأمكنة المار ذكرها.

وجابــت بُــسَيطةَ جــوبَ الــردا ءِ بــين النَّعـــام وبـــين المهـــا[١]
إلى عُقْــدةِ الجــوفِ حتــى شَــفَتْ بماء الجُراويِّ بعـضَ الـصدى[٢]
ولاح لهـــا صَـــوَرٌ والـــصَّباحَ ولاح الـــشَّغورُ لهـــا والـــضُّحا[٣]
ومـــسَّى الجُميعـــيَّ دِئْـــداؤها وغــادى الأضــارعَ ثــمَّ الــدَّنَا[٤]
فيـــا لـــك لـــيلاً علـــى أَعكُـــشٍ أَحـــمَّ الـــبلادِ خفـــيَّ الـــصُّوى[٥]
وردنـــا الرُّهيمـــةَ فـــي جَـــوْزِهِ وباقيـــه أَكْثَـــرُ ممَّـــا مـــضى[٦]
فلمـــا أنخنـــا ركزنـــا الرمـــا حَ فـــوقَ مكارمنـــا والعُـــلا[٧]
وبتنـــا نُقبّـــلُ أَســـيافَنا ونمـــسحُها مـــن دمـــاءِ العـــدا[٨]
لِـــتعلَمَ مـــصرُ ومَـــنْ بـــالعراقِ ومَـــنْ بالعواصـــمِ أنّـــي الفتـــى[٩]
وأَنِّـــي وفَيْـــتُ وأَنـــي أَبَيْـــتُ وأَني عتوتُ علـى مـن عتـا[١٠]
وما كــلُّ مــن قــال قــولاً وَفَــى ولا كلُّ من سِـيمَ خَـسْفاً أبـى[١١]

---

(١) جابت: قطعت. المها: بقر الوحش. أي قطعت هذه الأرض كما يقطع الرداء.
(٢) عقدة الجوف، والجراوي سبق ذكرهما. الصدى: العطش.
(٣) صَوَر أو صَوَرَى: اسم ماء، والشغور: موضع بالسماوة. تقول العرب: إذا وردت شغوراً فقد أعرقت.
(٤) الجميعي، والأضارع، والدنا: مواضع. والدئداء: سير سريع. أي بلغ سيرها الجميعي مساء، وفي الغداة بلغت الأضارع والدنا.
(٥) أعكش: موضع قرب الكوفة. أحَمّ: شديد السواد. الصُّوى: أعلام من حجارة تنصب في الطريق ليهتدى بها.
(٦) الرهيمة: موضع قرب الكوفة. والجوز: الوسط، والمراد به صدر الليل.
(٧) أي لما ألقينا عصا التسيار، واستقرّ بنا النوى في الكوفة ركزنا رماحنا عقب هذه المغامرة الخطرة حيث فارقنا كافوراً وقاتلنا من قاتلنا في الطريق، واجتزنا المخاوف للوصول إلى الكوفة.
(٨) أي بتنا نقبل سيوفنا لأنها نجتنا من المهالك.
(٩) مصر: أي أهل مصر. والعواصم: الثغور وقصبتها أنطاكية.
(١٠) وفيت: أي وفيت بما قلته من ترك مصر على الرغم كافور، وأبيت ضيم كافور وسواه، وعتوت: تجبرت على من تجبّر عليّ.
(١١) سامه الأمر: كلّفه إياه. الخسف: الضيم والذل.

ثم يسخر من كافور ويهجوه:

ونـــام الخُويـــدمُ عـــن ليلنـــا وقد نـــام قبـلُ عَمـــىً لا كـــرى[١]

وكـــان علـــى قُرْبنـــا بيننـــا مَهامِـــهُ مـــن جهلـــهِ والعمـــى[٢]

لقـــد كنـــتُ أَحـــسِبُ قبـــل الخَـــصِيِّ أن الـــرؤوسَ مقـــرُّ النُّهـــى[٣]

فلَّمـــا نظـــرتُ إلـــى عقلِـــه رأيتُ النُّهى كلَّها فـي الخُـصَى[٤]

ومـــاذا بمـــصرَ مـــن المـــضحكاتِ ولكنـــــه ضـــــحِكٌ كالبُكـــــا[٥]

ثم يُعرّض بالوزير ابن حِنـــزابة:

بهـــا نبطـــيٌّ مـــن اهـــلِ الـــسوادِ يُـــدرِّسُ أَنـــسابَ أهـــلِ الفـــلا[٦]

ثم يعود إلى هجاء كافور:

وأســـــودُ مِـــــشْفَرُهُ نِـــــصْفُهُ يُقـــال لـــه أنـــتَ بـــدرُ الـــدُّجى[٧]

وشِـــعْرٍ مـــدحتُ بـــه الكَرْكَـــدَنَّ بـــين القـــريضِ وبـــين الرُّقـــى[٨]

فمـــا كـــان ذلـــك مـــدحاً لـــه ولكنَّـــه كـــانَ هجـــوَ الـــورى[٩]

---

(١) الخويدم: كافور. الكرى: النوم.

(٢) كان بيني وبينه صحارى من جهله وعماه، وكأني كنت بعيداً عنه.

(٣) النهى: العقل. يقول: كنت أظن قبل رؤية كافور أن الرؤوس مقر العقول، فلما رأيت ما فيه من حماقة قلت إن العقول في الخصى، لأنه لما خصي ذهب عقله.

(٤) النهى: العقل. يقول: كنت أظن قبل رؤية كافور أن الرؤوس مقر العقول، فلما رأيت ما فيه من حماقة قلت إن العقول في الخصى، لأنه لما خصي ذهب عقله.

(٥) يتعجب مما في مصر من الأمور المضحكة، وشر البلية ما يُضحك.

(٦) أراد بالنبطي: ابن حنـــزابه. والنبط: جيل من العجم ينـــزلون البطائح بين العراقين. والمضحك أن هذا الرجل يعلّم أنساب العرب.

(٧) المشفر: شفة البعير، والمراد عظيم المشفر، ومع ذلك يشبهونه بالبدر.

(٨) المراد بالكركدن: كافور لأنه كان عظيم الجثة وكنت أرقيه بالشعر لآخذ ماله.

(٩) أي لم يكن ذلك الشعر مدحاً لكافور، ولكنه هجاء للخلق كلّهم لأنهم أحوجوني إلى مثله.

«إن هذه المقصورة من أجود ما قال المتنبي من شعر، وقد أحبها الناسُ في عصره واستنشدوه إياها، وأُعجبوا بها إعجاباً شديداً، وهي خليقةٌ بهذا الإعجاب لأنها تلائم نفس الشاعر أَصْدقَ ملاءمة، وتلائم المعاني التي أَراد الشاعر أَنْ يُذيعَها في الناس.... فاصطنع لهذا كله البحر الذي يصور السرعة في العدو، وهذه القافية المقصورة التي ينطلق فيها حرف اللين إلى غير حدّ، وما أسرع ما سارت القصيدة وطارت حتى ملأت الآفاق، وانطلقت بها الألسنة في كل مكان[١]».

أما القصيدة التي بعث بها إلى كافور عقب مغادرته مصر فهي تفيض بالشكوى والتذمُّر ممَّا آلت إليه حاله آنذاك. إنه شديدُ الأَسف والحزن على بُعْد الأحبة عنه؛ لذا نراه يتمنَّى أن يكون العيدُ بعيداً عنه؛ فلا مكان في قلبه للفرح والسرور. لقد فارق الأحبة طلَباً للمعالي، واختار صُحْبَةَ السيف على صُحبة الغِيد الأَماليد لأن الدهر بأحداثه ونوائبه حال بينه وبين الهيام بمفاتن النساء ومحاسنهن؛ إذْ لا وقتَ لديه للَّهو والغزل، كما أن الخمرة لا تزيده إلاَّ همًّا وسهراً لأن قلبه مفعم بالهموم والأحزان.

ثم ينتقل إلى هجاء كافور وحاشية السوء فينعتهم بالكذب والغدر وإخلاف الوعد، والجشع الذي لا حدود له، إنهم ثعالب مصر الذين ينعُمون بخيراتها، وقادتُها ورجالُها يَغُطُّون في نومٍ عميق؛ لذا فهو يستثيرهم لاسترداد أموالهم وخيرات بلدهم المستباحة.

يقول أبو الطيب:

عيدٌ بأيــةِ حــالٍ عُـدْتَ يــا عيــدُ ... بما مضى أم لأمرٍ فيــك تجديــدُ[٢]

أمــا الأحبَّــةُ فالبيـــداءُ دونَهُـــمُ ... فليــت دونــك بيــداً دونهـــا بِيْـــدُ

لولا العُلا لم تَجُب بي ما أجوبُ بها ... وجناءُ حَرْفٌ ولا جَرْداءُ قَيْــدودُ[٣]

---

(١) مع المتنبي ص ٣٤٠.

(٢) أي مع أي حالٍ عُدْت أيها العيد، وهل جئت بجديد؟

(٣) جاب المكان: قطعه. الوجناء: الناقة الصلبة الشديدة. الحرف: الضامرة. الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. والقيدود: الطويلة.

وكان أَطيبَ من سـيفي مـضاجعةً أَشــباهُ رونقــه الغيــدُ الأماليــدُ[1]
لم يتركِ الدهرُ من قلبي ولا كبــدي شــيئاً تتيِّمــه عــينٌ ولا جِيــدُ[2]
يا ساقييَّ أخمــرٌ فــي كؤوســكما أم في كؤوسـكما هــمٌّ وتــسهيدُ[3]
أصــخرةٌ أنــا مــالي لا تحرّكنــي هذي الــمُدامُ ولا هــذي الأغاريــدُ
إذا أردتُ كُميــتَ اللــونِ صــافيةً وجدتُها وحبيبُ الــنفسِ مفقــودُ[4]
ماذا لقيــت مــن الــدنيا وأعجبــه أني بما أنا بــاكٍ منــه محــسودُ[5]

ثم ينتقل إلى الهجاء فيقول:

إنــــي نزلـــتُ بكـــذَّابين ضـــيفُهمُ عن القِرى وعن الترحالِ محدودُ[6]
جودُ الرجالِ من الأيــدي وجــودُهُمُ من اللِّسان فلا كانوا ولا الجــودُ[7]
ما يقبِضُ الموتُ نفساً من نفوسهمُ إلاَّ وفــي يــدهِ مــن نَتْنِهــا عــودُ
أَكُلَّما اغتال عبــدُ الــسوءِ ســيِّدَهُ أو خانه فله في مــصرَ تمهيــدُ[8]
نامت نواطيرُ مصرٍ عــن ثعالبهــا فقد بَشِمْنَ ومــا تفنــى العناقيــدُ[9]

---

(١) الغيداء: المتثّية ليناً. الأماليد الناعمات المستويات القامات. أي لو لا العلا لم اختر مضاجعة السيف بدلاً من الحسان الأماليد اللواتي يشبهن رونق السيف في نقاء بشرتهن.

(٢) يقول: إن الدهر بأحداثه ونوائبه جرّد قلبي من هوى العيون والأعناق.

(٣) يقول: لساقييه: إن ما أشربه لا يزيدني إلاَّ همَّاً وسهراً. لأن قلبي مفعم بالهموم والأحزان.

(٤) يقول: إن الخمرة لا تطيب إلاّ مع الحبيب، وحبيبي بعيد عنّي، فلا معنى إذن للشرب.

(٥) يقول: إن أعجب ما لقيته أني محسود بما أشكوه وما أنا باكٍ منه.

(٦) يقول: إنني نزلت بهؤلاء الكذابين، فلاهم يقرونني ولاهم يتركونني أرحل عنهم. ومحدود: ممنوع.

(٧) إن جودهم مواعيد، وأقوال بلا أفعال، فلا كانوا ولا كان جودهم.

(٨) يشير إلى ما فعله كافور بالإخشيد وقتله إياه واستقلاله بملك مصر، حيث مهد أمره فيها وملكوه أهلوها عليهم.

(٩) المراد بنواطير مصر: ساداتُها وأشرافها. وثعالبها: العبيد والأراذل. بشمن: أصبن بالتخمة.

لا تشترِ العبدَ إلاَّ والعصا معه — إنّ العبيدَ لَأَنجاسٌ مناكيدُ
ما كنتُ أحسَبُني أحيا إلى زمنٍ — يُسيءُ بي فيه كلبٌ وهو محمودُ
جَوْعانُ يأكلُ من زادي ويُمسكني — لكي يُقالَ عظيمُ القدر مقصودُ[(١)]
مَنْ علَّم الأسودَ المخصيَّ مَكرُمَةً — أَقومُه البيضُ أم آباؤه الصِّيدُ[(٢)]
أم أُذنُه في يدِ النخَّاسِ داميةً — أم قدرُهُ وهو بالفَلسينِ مردودُ

في الكوفة

حاول أبو الطيب بعد عودته إلى الكوفة أن يُلقيَ عصا الترحال، وأَنْ يَخْلُدَ إلى الراحة، ويستعيدَ بعضاً من ذكريات الماضي البعيد، ويَنْعُمَ بعيشٍ هادىء بعد أن جمع مقداراً من المال يمكِّنه من أن يحيا حياة المنعَّمين من أصحاب الثراء والجاه، وهو الشاعر المُفْلِق الذي طار صيتهُ في الآفاق فملأَ الدنيا وشغل الناس. ولكنه بعد أشهرٍ من وصوله إلى الكوفة ضاق بالعيش فيها، إذِ اعتاد مخالطةَ الملوك والأُمراء، وليس في الكوفة "أميرٌ يُمدح ولا قائد يُتَقرَّبُ إليه، ولا غَنيٌّ يُطمع في ماله[(٣)]".

وعلى الرغم مما أُحيط به من الإعجاب والحفاوة في مسقط رأسه، فقد ظل أسيراً لذكرياتِ الماضي، وأحلام المستقبل، إذْ خسر منذ سنة تقريباً صديقَهُ فاتكاً الرومي الذي كان بوسعه استبقاءه في مصر عزيزاً مكرَّماً، مثلما خَسِرَ صحبة صديقه القديم سيف الدولة منذ سنوات خلت، يُضاف إلى ذلك ما

---

(١) وصفه بالجوع للؤمه وشُحِّه. أما قوله يأكل من زادي فقد قال الواحدي: لها وجهان: أحدهما أن المتنبي أتاه بهدايا وألطاف ولم يكافئه عنها، والآخر أن المتنبي كان يأكل من خاص ماله عنده، وينفق على نفسه مما حمله، وهو يمنعه من الارتحال؛ فكأنه يأكل زاده. ولعل المراد - في نظري - أن جوع كافور - يراد به حرصه على مدائح المتنبي التي تشيد بذكره في الآفاق وكأنه بذلك يأكل من زاد الشاعر.

(٢) الصيد: الملوك.

(٣) مع المتنبي ص ٣٤٧.

مُني به من الخيبة المريرة على يد كافور، وتمكّنه من تحدّي سلطانه باجتياز تلك الصحراء الموحشة الذي عبَّر عنه بمقصورته السالفة الذكر.

ويُرجِّح بعضُ دارسي شعر أبي الطيب أنه نظم في الكوفة قصيدتين في هجاء كافور، ومَدْح سيف الدولة. والقصيدتان لم تُدرَجا في أية نسخةٍ من نُسخ الديوان، وإنما أوردهما صاحب كتاب الصبح المنبي، وقال إنّهما وُجِدتَا في رَحْله لَمَّا قُتل، وعملهما بواسط[1]. يقول في الأولى:

أَفيقا خُمارُ الهمِّ نَغَّصني الخمرا ... وسُكْري من الأَيام جَنَّبني السُّكْرا

تَسُرُّ خليليَّ المُدامةُ والذي ... بقلبيَ يأْبى أَنْ أُسَرَّ كما سُرَّا

لَبِسْتُ صروفَ الدهرِ أَخشنَ مَلْبَسٍ ... فعَرَّقني ناباً ومزَّقني ظُفراً[2]

وفي كلّ لحظٍ لي ومَسْمَعِ نغمةٍ ... يُلاحظني شَزْراً ويُسمِعُني هُجْراً[3]

سَدِكْتُ بَصرْفِ الدهرِ طفلاً ويافعاً ... فأفنيتُه عزماً ولم يُفْنِني صبرا[4]

أُريدُ من الأيامِ ما لا يُريدُه ... سوايَ ولا يجري بخاطره فكرا

وأَسألُه ما أستحقُّ قضاءه ... وما أنا ممَّن رام حاجتَهُ بَسْرا[5]

ولي همَّةٌ من رأي همتها النوى ... فتُركِبني من عزمها المركبَ الوعرا[6]

---

(١) في تاريخ هاتين القصيدتين اختلاف. فبعضهم يرى أن المتنبي نظمهما سنة ٣٥٤هـ وآخرون يرون أنه نظمهما سنة ٣٥٠هـ في الكوفة. ويرى بلاشير أن المتنبي كتب مسوَّدتيهما في الكوفة سنة ٣٥٠هـ ثم نقح الأولى بتاريخ تالٍ لعله سنة ٣٥٤هـ وأرسلها إلى سيف الدولة، أما القصيدة الثانية فقد بقيت مسوّدة - انظر بلاشير ص ٣٨٨ (الهامش).

(٢) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم، والتشديد للمبالغة ونابًا وظفراً منصوبان على نزع الخافض، أي بناب وبظفر.

(٣) الضمير في يلاحظني عائد على الدهر.

(٤) سدكت بصرف الدهر: لزمته. وصرف الدهر نوائبه وحدثانه.

(٥) بسرا: قبل أن يحين أوانها. وفي رواية: قسرا.

(٦) الهمة الأولى: القدرة إلى الوصول إلى عظائم الأمور، والثانية: العزيمة.

تَروقُ بني الـدنيا عجائبُهـا ولَـي   فؤادٌ ببيض الهندِ لا بيضها مُغْرى(١)
أخو همَـمٍ رَحَّالـةٌ لا تـزالُ بـي   نَوىً تقطعُ البيداءَ أو أَقْطعَ العُمْـرا
ومن كان عزمي بين جَنْبَيـهِ حثَّـه   وصيَّر طولَ الأرضِ في عينهِ شِبْرا

ثم يعبّر عن خيبة أمله فيمن صحبهم من الملوك والأمراء:

صحِبتُ ملوكَ الأرضِ مُغْتبطاً بهـم   وفارقتُهم ملآنَ من حَنَـقٍ صَـدْرا
ولما رأيـتُ العبـدَ للحُـرِّ مالكـاً   أَبَيْتُ إباءَ الحُـرِّ مُـسْترزِقاً حُـرَّا

ويشرع في هجاء كافور:

ومِصرٌ لَعَمْري أهـلُ كـلِّ عجيبـةٍ   ولا مثْلَ ذا المخصيّ أُعجوبةً نَكْـرا
يُعَـدُّ إذا عُـدَّ العجائـبُ أولاً   كما يُبتدا في العدّ بالإصبعِ الصُغرى
فيا هرَمَ الدنيا ويا عِبـرةَ الـورى   ويا أَيُّها المخصيُّ مَنْ أُمُّك البظرا(٢)
لُوَيبيَّـةٌ لـم تَـدرِ أن بُنَيَّهـا الـ   ـلويبـيَّ دون الله يُعبَدُ في مـصرا(٣)
ويستخدم البيضَ الكواعبَ كالـدمى   وروم العِبِدَّى والغطارفَـةَ الغُـرَّا(٤)
قـضاءٌ مـن الله العلـيّ أَراده   ألا ربَّمـا كانـت إرادتُـهُ شَـرَّا(٥)
ولله آيـاتٌ ولـيس كهـذهِ   أَظنُّك يـا كـافورُ آيتَـهُ الكبـرى
لَعَمْرُكَ ما دهـرٌ بـه أَنْـتَ طيِّـبٌ   أَيَحسبُني ذا الدهرُ أحـسبُه دهـرا
وأكفرُ يا كافورُ حـين تلـوحُ لـي   ففارقتُ مُذْ فارقتُكَ الشِّرْكَ والكُفـرا

---

(١) بيض الهند: السيوف. والبيض الثانية: النساء.

(٢) البظرا: التي لم تختتن.

(٣) لويبية: أي نوبية. وقيل هي منسوبة إلى اللوب الذي هو جيل من السودان. وفي رواية نويبية مصغر نوبية.

(٤) العِبدّى: جمع عبد. الغطارفة: جمع غطريف وهو السيد. الغر: جمع أغر وهو أبيض الوجه.

(٥) في راوية: سِرًّا.

ثم يلوم نفسه على مفارقته سيف الدولة والتوجه إلى كافور:

وفارقتُ خيرَ الناس قاصــدَ شــرِّهم … وأكــرمَهُم طُــرًّا لألأَمِهــم طُــرًّا[١]

فعاقبني المخــصيُّ بالغــدْرِ جازيــاً … لأَنَّ رحيلي كان عن حلــبٍ غَــدْرا

وما كنتُ إلاَّ فائلَ الرأي لــم أُعَــنْ … بحزمٍ ولا استصحبتُ في وُجهتي حِجْــرا[٢]

وقــد أُرِيَ الخِنْزيــرُ أنــي مدحتُــه … ولو علموا قد كان يُهجى بما يُطرى[٣]

جَسَرتُ على دَهْياءِ مــصرَ فَفُتُّهــا … ولمَ يكنِ الدهياءُ إلاَّ من اســتجرا[٤]

ثم يتهدَّد كافوراً فيقول:

سأَجْلِبُها أشــباهَ مــا حَمَلَتْــهُ مــن … أَسنَّتها خُــزْراً مُقَــسْطَلَةً غُبْــرا[٥]

وأُطلِعُ بِيْــضاً كالــشموسِ مُطِلَّــةً … إذا طَلَعت بيضاً وإن غَرُبت حُمْرا[٦]

فإن بلغت نفسي المنــى فبعزمهــا … وإلاَّ فقد أُبْلِغْتُ في حرصها عُذرا[٧]

أما القصيدة الأُخرى فقد عبَّر فيها عن مغامرته في اجتياز الصحراء، وسخطه على كافور الكذاب المنافق، وحسرته على فراق سيف الدولة، فقال:

قطعتُ بسَيْري كُلَّ يَهمــاءَ مَفْــزَعٍ … وجُبْتُ بخيلي كلَّ صَرْماءَ بَلْقَــعِ[٨]

وثلَّمتُ ســيفي فــي رؤوسٍ وأَذْرُعٍ … وحطَّمتُ رمحي في نُحورٍ وأَضْــلُعِ

---

(١) يريد بخير الناس: سيف الدولة. وبشر الناس وألأمهم: كافوراً.

(٢) فائل الرأي: ضعيفه. الحجر: العقل.

(٣) قد أُري الخنــزير: أي أُوهمه بأنني أمدحه. يُطرى: يُمدح.

(٤) يقول: تجرأت على اقتحام الداهية بمصر، يعني ما حاق به من خطر التهلكة، ثم نجوت منه فكنت أنا الداهية لا هي.

(٥) خزر: ضيقة العيون. مقسطلة: يعلوها الغبار. إنه يتهدد كافوراً فيقول: سأجلب الخيل على مصر كأنها الأسنة التي عليها في الحدّة والمضاء.

(٦) أراد بالبيض السيوف التي تخرج من أغمادها بيضاً كالشموس لتعود مضرجة بالدماء.

(٧) أي: إذا نلت ما أتمناه من أخذ مصر وقتل كافور، فقد بلغت ذلك بعزمي، وإن لم أبلغه فقد حرصت على الفوز، ومن حرم بعد الحرص فهو معذور.

(٨) اليهماء: المفازة لا يهتدى فيها. مفزع: مخيفة.

وصيَّرتُ رأيي بعد عزمــيَ رائــدي وخالفــتُ آراءً توالــت بمـــسمَعي

ولم أتَّــرِكْ أَمْــراً أخــافُ اغتيالَــهُ ولا طَمَحت نفسي إلى غيرِ مَطْمَــعِ

وفارقتُ مــصراً والأُســيودُ عينُــه حِــذارَ مــسيري تــستهلُّ بــأدمُعِ

ألمْ يفهمِ الخُنثــى مقــالي وأنَّنــي أُفارقُ مَنْ أقلِــي بقلــبٍ مُــشيَّعِ(١)

ولا أَرعوي إلاَّ إلــى مَــنْ يَــوَدُّني ولا يَطَّبيني منــزلٌ غيرُ مُمْــرِعِ(٢)

أبا النَّــتْنِ كــم قيَّــدتَني بمواعــدٍ مخافــةَ نظــمٍ للفــؤاد مُــروِّعِ

وقدَّرتَ من فَــرْطِ الجهالــةِ أنَنــي أُقيمُ على كِــذْبٍ رصــيفٍ مُــصنَّعِ

أُقيمُ علــى عبــدٍ خَــصِيٍّ منــافقٍ لئيمِ رديءِ الفعــلِ للجــودِ مُــدَّعي

وأتركُ سيفَ الدولةِ المَلِــكَ الرضــا كريمَ المحيَّا أَروعاً وابــنَ أَرْوَعِ(٣)

فتىً بحرُهُ عَــذبٌ ومَقْــصِدُهُ غِنــىً ومَرتعُ مرعى جوده خيــرُ مَرْتَــعِ

تظــلُّ إذا ماجئتَــه الــدهرَ آمنــاً بخيرِ مكانٍ بــل بأَشْــرفِ موضــعِ

ولما علم سيف الدولة برحيله عن مصر، واجتيازه صحراء شبه الجزيرة العربية هرباً من كافور أنفذ إليه «ابنَهُ من حلب إلى الكوفة ومعه هديّة» وعرَّض بالعوْد؛ فقال يمدحه، وكتب بها إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة(*):

مــا لنــا كلُّنــا جَــوٍ يــا رسـولُ أنــا أَهْــوى وقلْبُــكَ المَتْبــولُ(٤)

كلَّمــا عــاد مَــنْ بعثــتُ إليهــا غار منِّــي وخــان فيمــا يقــولُ(٥)

---

(١) مشيّع: جريء.

(٢) ارعوى: كفّ وارتدع. يطبيني: يستهويني.

(٣) الأروع: الذكي الفؤاد.

(*) يرجّح طه حسين أن المتنبي قال هذه القصيدة بعد رجوعه من بغداد لأنه عرّض بأصحاب السلطان فيها؛ لذا يستبعد هجاء أولي الأمر في هذه المدينة وهو يهمّ بالرحيل إليهم (ص ٣٤٨) مع المتنبي.

(٤) الجوى الحرقة في القلب من حزن أو عشق. المتبول: الذي تيمه الحب وأسقمه. يتهم رسوله الذي بعث به إلى الحبيبة بمشاركته إياها في الحبّ.

(٥) كلما عاد الرسول من عندها غار مني عليها لأنه افتتن بحبها.

أفْسدتْ بيننا الأَماناتِ عينا ... ها وخانت قلوبَهنَّ العقولُ[1]

تشتكي ما اشتكيتُ من أَلَمِ الشو ... قِ إليها والشوقُ حيثُ النحولُ[2]

وإذا خامر الهوى قلبَ صَبٍّ ... فعليه لكلِّ عينٍ دليلُ[3]

زَوِّدينا من حُسْنِ وجهكِ ما دا ... مَ فَحُسْنُ الوجوهِ حالٌ تَحولُ[4]

وصِلينا نَصِلْكِ في هذه الدُّنيا ... فإنّ المُقامَ فيها قليلُ

مَنْ رآها بعينها شاقه القُطَّا ... نُ فيها كما تَشُوقُ الحُمولُ[5]

إن تَرَيني أدِمْتُ بعد بياضٍ ... فحميدٌ من القناةِ الذُبولُ[6]

صَحِبَتْني على الفَلاة فَتاةٌ ... عادةُ اللَّونِ عندها التبديلُ[7]

سترتْكِ الحِجالُ عنها ولكن ... بِكِ منها من اللَّمى تقبيلُ[8]

مِثْلُها أنتِ لَوَّحتني وأسقمتِ ... وزادت أبْهاكُما العُطبولُ[9]

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ ... أقصيرٌ طريقُنا أم يطولُ

وكثيرٌ من السؤالِ اشتياقٌ ... وكثيرٌ من رَدِّهِ تعليلُ[10]

---

(١) يقول: أفسدت عيناها بسحرهما أمانة الرسول؛ فترك الأمانة، وفارقت العقول القلوب.

(٢) أي أرى بك أيها الرسول من الشوق إليها مثل ما بي لأنك ناحل والنحول يدل على الشوق.

(٣) خامر: خالط ولابس. الصبّ: العاشق.

(٤) تحول: تتبدل.

(٥) بعينها: أي بعين الدنيا. والقُطَّان: السكان المقيمون. والحمول: المرتحلون. يقول: من نظر إلى الدنيا بالعين التي ينبغي أن ينظر بها إليها رقّ للباقين لقلة مقامهم، ووشك فراقهم رقته للماضين الفانين.

(٦) أدمت: شحب لوني وتغيّر، ومال إلى السواد. القناة عود الرمح. والذبول: اليباس والدقّة.

(٧) أراد بالفتاة: الشمس. والشمس تبدل بضوئها الألوان فتحيل البياض إلى سواد.

(٨) الحجال: ج حجلة: الستر. واللمى: سمرة في الشفة. وهذه الشمس قبلتك فأورثتك هذا اللمى الذي في شفتيك.

(٩) يقول: أنت مثل الشمس في تغير جسمي فهي لوّحتني وغيرت لوني، وأنت أسقمت جسمي. وزادت تأثيراً فيّ أبهاكما التي هي العطبول وهي أنت. والعطبول: الطويلة العنق، التامة الجسم.

(١٠) علّله بالشيء: ألهاه به.

لا أَقَمنا على مكانٍ وإن طا   بَ ولا يُمكنُ المكانَ الرحيلُ(١)

كُلَّما رحَّبت بنا الروضُ قُلنا   حلبٌ قصدُنا وأنتِ السبيلُ

فيكِ مرعى جيادِنا والمطايا   وإليها وَجيفُنا والذَّميلُ(٢)

والمُسَمَّون بالأمير كثيرٌ   والأميرُ الذي بها المأمولُ

الذي زُلتُ عنه شرقاً وغرباً   ونداه مقابلي ما يزولُ

ومعي أينما سلكتُ كأني   كلُّ وَجْهٍ له بوجهي كفيلُ

إلى أن يقول:

ليس إلاَّكَ يا عليُّ هُمامٌ   سيفُهُ دون عِرضِه مَسلُولُ

كيف لا يأمنُ العراقُ ومصرٌ   وسراياك دونَها والخيولُ

لو تحرَّفْتَ عن طريق الأعادي   ربط السِّدْرُ خيلَهم والنخيلُ(٣)

ودَرَى من أعزَّهُ الدفعُ عنه   فيهما أنَّه الحقيرُ الذليلُ(٤)

أنت طولَ الحياةِ للرومِ غازٍ   فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفولُ

وسوى الرومِ خلفَ ظهركَ رومٌ   فعلى أيِّ جانبيكَ تميلُ

قعد الناسُ كُلُّهم عن مساعيك   وقامت بها القنا والنُّصولُ(٥)

ما الذي عنده تُدار المنايا   كالذي عنده تُدارُ الشَّمولُ(٦)

لستُ أرضى بأن تكونَ جواداً   وزماني بأن أَراك بخيلُ(٧)

---

(١) لا أقمنا: لم نُقم، أي لم نقم في الطريق إلى سيف الدولة بمكان، وإن طاب ذلك المكان لئلاّ يؤخرنا عن الوصول. كما أن المكان لا يمكن أن يرحل معنا لنتمتع بطيبه.

(٢) الوجيف: ضرب من سير الخيل سريع. والذميل: ضرب من سير الإبل.

(٣) السدر والنخيل: الأشجار التي بمصر والعراق.

(٤) يقول: لو تحرفت عن طريق الأعادي لعلم من أعزه دفعك عنه من ملوك العراق ومصر يعني كافوراً وآل بوية، أنه حقير ذليل بغلبة العدو إياه.

(٥) يقول: لم يبلغ أحد من الملوك مساعيك التي قامت بها رماحك وسيوفك.

(٦) الشمول: الخمرة.

(٧) يقول: لا أرضى بأن يصل إليّ عطاؤك وأنا بعيد عنك لا أراك.

نَغَّص البُعدُ عنــك قُــربَ العطايــا مرتعي مُخصِبٌ وجسمي هزيــلُ[1]

إنْ تبــوَّأتُ غيــرَ دنيــايَ داراً وأتــاني نَيْــلٌ فأنــت المُنيــلُ[2]

مِنْ عبيدي إن عِشْتَ لي ألفُ كــافو رٍ ولي من نــداك ريــفٌ ونيــلُ[3]

إن النسيب الذي بدأ به الشاعر قصيدته يفيض بالشجن والحزن العميق الذي يُفضي به إلى النظر بأحوال الدنيا التي لا يُؤمَنُ جانِبُها؛ وليس بين الراحل والمقيم فيها فرق، فالكلُّ راحل لا محالة. لذا على المرء أن يَسْتَرِقَ منها تلك اللحظات الجميلة العابرة التي سرعان ما تزول. ثم يذكر بعض ما عاناه في ارتحاله من مصر؛ لينتقل إلى مدح سيف الدولة الذي أمضى عمره في جهاد الروم مُشتغلاً بالذود عن حياض العروبة والإسلام، وغيره من الملوك لا شغل لهم إلاَّ اللَّهو وقرع الكؤوس، وهم على الرغم من ذلك يكيدون له ويناصبونه العداء.

إرجاء العودة إلى حلب:

أما ما ذكره صاحب «الصبح المنبي» من أن سيف الدولة لمّا كاتب المتنبي إلى الكوفة «عرَّض له بالعَوْد» إلى حلب، فمن غير المستبعد أن أبا الطيب قد ساورته الرغبة في استئناف علاقته بحاميه السابق والرجوع إلى حلب تلبيةً لطلبه. ولكن «حياء الشاعر من لقاء الأمير ومصاحبته بعدما فارقه مُراغماً، وعرّض به في القصائد المصريَّات[٤]» جعله يتردّد في قبول مثل هذه الدعوة، يُضاف إلى ذلك أنه «كان يعرف سلطانَ الحاشية، وكيدَ القصر، وضيقَ أُسرة الأمير نفسها به، وهو كان قد تعرَّض للموت مرة وأُفلِت منه بعد

(١) المرتع: المرعى. التنغيص: التكدير. يقول: أنا في قربي من عطائك، وبعدي عنك كمن يرتع في مكان مخصب وهو مع ذلك مهزول، فلست أهنأ به مع البعد عنك.

(٢) تبوأ المكان: نزل به. النيل: العطاء. يقول: إن عطايا سيف الدولة تتبعه حيث سار، فلو اتخذ داراً غير هذه الدنيا، ووصلت إليه عطية لكان سيف الدولة هو المعطي.

(٣) يقول: إن عشت وبقيت حياً كان لي من العبيد الذين تهبهم لي ألف عبد مثل كافور الذي رغبت عنه، وكان لي من جودك عوض من ريف مصر ونيلها.

(٤) ذكرى أبي الطيب ص ١٧٥.

جهد. وكانت أمور سيف الدولة قد أخذت تفسد ويسعى إليها الاضطراب والانحلال، فالروم يظهرون عليه من ناحية، والمرض يأكل صحته من ناحية أخرى، وإذن فأيسر الحزم كان يفرض على المتنبي ألاَّ يفكِّر في حلب[١]».

من الكوفة إلى بغداد

أقام أبو الطيب في الكوفة بعد عودته من مصر نحوَ سنةٍ تقريباً قبل أن يغادرها إلى بغداد في الأشهر الأولى من سنة ٣٥٢هـ على الأرجح. ولكن إقامته في عاصمة الخلافة الإسلامية لم تَطُلْ؛ إذْ عاد إلى مسقط رأسه في شهر شعبان من السنة نفسها.

واستُقبل في بغداد من قبل مُريديه والمعجبين بشعره استقبالاً حسناً.وممَّن أحسنوا استقبالَهُ والحفاوةَ به التاجر الأديب الحسن بن حامد[٢]، وعلي بن حمزة البصري[٣] الأديب واللغوي الذي روى ديوان أبي الطيب، واستضافه في داره في رَبَض حُميد أحد أحياء بغداد، وهو الحيُّ الذي لقي فيه أبو الطيب منذ عقودٍ خلت محمدَ بنَ عُبيد الله العلوي فمدحه بقصيدة سبقت الإشارةُ إليها. «فلما حصل المتنبي ببغداد نزل في رَبَضِ حُميد، فركب إلى

---

(١) مع المتنبي ص ٣٤٦ وذكر بلاشير في كتابه عن المتنبي: أنه في أواخر ذي القعدة سنة ٣٥١ هـ (آخر كانون الأول ٩٦٢م) هجم الدمستق نقفور فقَّاس على حلب قادماً من كيليكيا، فطرد سيف الدولة منها ونهب المدينة طوال سبعة أيام، ثم جلا عن الشام مُقسماً الإيمان بالعودة إليها قريباً، فلم يكن للمتنبي - إذا كانت نيته حقاً - إلا التصميم على إرجاء مصالحة أكثر كمالاً مع سيف الدولة إلى وقتٍ أكثر مواتاة. انظر بلاشير ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) هو أبو محمد الحسن بن حامد، الأديب والمحدّث والتاجر. توفي في بغداد سنة ٣٨٥ هـ أو في القاهرة سنة ٤٠٧.

(٣) علي بن حمزة البصري اللغوي النحوي، ولد في البصرة، وعاش في بغداد مدة طويلة، ومات في صقلّية سنة ٣٧٥هـ.

المهلَّبي[١]، فأَذِن له؛ فدخل وجلس إلى جنبه، وصاعدٌ خليفتُه دونَهُ، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، فأنشدوا هذا البيت:

سقى الله أمواهـا عرفـتُ مكانَهـا جُرامـاً ومَلْكومـاً وبـذَّر فـالغَمْرا

وقال المتنبي: جُراباً. وهذه أمكنةٌ قتلتها علْماً، وإنما الخطأ وقع من النَّقَلة؛ فأنكره أبو الفرج. قال الشيخ: هذا البيت أَنشده أبو الحسن الأخفش، وعليه علماء اللغة.

وتفرَّق المجلس على هذه الجملة ثم عادوا في اليوم الثاني، وانتظر المهلبي إنشادَهُ فلم يفعل؛ إنما صدَّه ما سمعه من تماديه في السُّخف، واستهتاره بالهزل، واستيلاء أَهْل الخلاعة والسخافة عليه، وكان المتنبي مُرَّ النفس، صعبَ الشكيمة،حاداً، مُجِدًّا؛ فخرج.

فلما كان اليومُ الثالث أغْرَوا به ابنَ الحجَّاج[٢] حتى علق بلجام دابَّته في صينيَّة الكرخ، وقد تكابس الناسُ عليه من الجوانب، وابتدأ يُنشِده:

يا شيخ أهـل العلـم فينـا ومـن يلـزم أهـل العلـم تـوقيره

فصبر عليه المتنبي ساكتاً ساكناً إلى أن نَجَّزها، ثم خلّى عنانَ دابته، وانصرف المتنبيِّ إلى منـزله[٣]".

وذكر صاحبُ اليتيمة أنَّ أبا الطيب ترفَّع عن مدح المهلَّبي ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك فشقَّ ذلك على الوزير، فحرَّض عليه شعراء بغداد؛ فتبارَوا في هجائه والنيل من عِرْضِه "وفيهم ابنُ حَجَّاج (المار ذكره) وابنُ

---

(١) أبو محمد الحسن بن محمد المهلّبي، ولد في البصرة سنة ٢٩١هـ. كان في أول أمره موظفاً صغيراً، ثم ارتقى حتى صار وزيراً لمعز الدولة. توفي في ٢٤ شعبان ٣٥٢ (١٧ أيلول ٩٦٣م).

(٢) هو الحسن أو الحسين بن أحمد بن محمد بن الحجاج. ولد وتوُفّي في بغداد سنة ٣٩١هـ أكثر قوله في الفحش والسخف. وقد أجمع أهل الأدب أنه مخترع طريقة في الخلاعة والمجون لم يسبقها إليها أحد.

(٣) الكلام لصاحب الإيضاح عن ذكرى أبي الطيب ص ١٦٨-١٦٩.

سَكْرة الهاشمي، والحاتمي، وأسمعوه ما يكره، وتماجنوا به، وتنادروا عليه، فلم يُجبْهم، ولم يفكِّر فيهم. وقيل له في ذلك؛ فقال: إني قد فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقةً منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غَرُوا بذمّي ... ومن ذا يَحْمَدُ الداءَ العُضالا

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلالا

وقولي:

أفي كلّ يومٍ تحت ضِبْني شُويعرٌ ... ضعيفٌ يُقاويني قصيرٌ يُطاولُ

لساني بِنُطْقي صامتٌ عنه عادِلٌ ... وقلبي بصمتي ضاحِكٌ منه هازِلُ

وأتعبُ مَنْ ناداك من لا تُجيبهُ ... وأغْيَظُ مَنْ عاداكَ مَنْ لا تُشاكِلُ

وما التِّيهُ طِبِّي فيهِمُ غيرَ أنني ... بَغيضٌ إليَّ الجاهلُ المتعاقِلُ

وقولي:

وإذا أتَتْك مذمَّتي من ناقصٍ ... فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

قال: وبلغ أبا الحسين بن لَنْكَك[1] بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء بغداد فيه، واستحقارهم له، وكان حاسداً له، طاعناً عليه، هاجياً إياه. زاعماً أن أباه كان سقَّاءً بالكوفة؛ فَشمِتَ به وقال:

قولا لأَهل زمانٍ لا خَلاقَ لهم ... ضلُّوا عن الرشدِ من جهلٍ بهم وعَمُوا

أَعطيتُم المتنبي فوقَ مُنْيته ... فزوِّجوه برغمٍ أمهاتِكُمُ

لكنَّ بغدادَ جاد الغيثُ ساكنَها ... نِعالُهم في قفا السقَّاءِ تزدحمُ[2]

وله فيه أهاجٍ أخرى.

---

(١) هو محمد بن محمد بن جعفر المعروف بابن لنكك، شاعر وأديب، ولد في البصرة، وتوفي فيها في أواخر القرن الرابع الهجري.

(٢) يتيمة الدهر - ج ١ - ص ١٢٠-١٢١.

إن ترفُّع أبي الطيب عن الردّ على مَنْ هجاه من الشعراء، ونال من أصله، الوضيع، وأبيه السَّقَّاء، لم يُعفِه من مواجهة نُقَّاد شعره، حيث تصدّى له أبو علي الحاتمي[1]، وهو من المعنيين بدراسة الشعر ونقده، وله معرفة سابقة بأبي الطيب في بلاط سيف الدولة، فكشف عن عيوب شعره، وأبان عن سرقاته، واقتباساته من الفلسفة اليونانية، وذلك على سبيل التقرّب من معز الدولة البويهي، ووزيره المهلبّي؛ فقصد المتنبي في مكان إقامته ببغداد، وجرت بينهما المناظرة التالية:

«قال أبو علي الحاتميّ: كان أبو الطيِّب عند وروده مدينةَ السلام قد التحف برِداء الكِبْر والعظمة، يُخيَّل له أن العلمَ مَقْصورٌ عليه، وأنَّ الشعر لا يَغْترف عَذبَهُ غيرُه، ولا يَقطف نُوَّارَهُ سواه، ولا يرى أحداً إلاَّ ويرى لنفسه مَزِيَّةً عليه، حتى إذا تخيَّل أنه نسيجُ وَحْدِه، وأنه مالكُ رِقّ العلم دون غيره، وثَقُلت وطأتُه على أهلِ الأدبِ بمدينة السلام، وطأطأ كثيرٌ منهم رأسه، وخفض جناحه، واطمأنَّ على التسليم جأشُهُ، وتخيَّل أبو محمد المهلّبي أنه لا يتمكَّن أحدٌ من مساجلته ومقارعته، ولا يقوم لمجادلته، والتعلُّق بشيء من مطاعنه. وساء مُعِزَّ الدولةِ أن يَرِدَ على حضرته رجلٌ صدر عن حضرة عدوِّه، ولم يكن بمملكته أحدٌ يماثلُه فيما هو فيه، ولا يُساويه في منــزلته يُبدي له عَوارَهُ، ويكفي آثاره، ويهتكُ أستاره، ويمزِّقُ جلابيبَ مساويه؛ فتوخَّيتُ أنْ يجمَعَنَا مجلسٌ أَجري أنا وإيَّاه في مضماره؛ ليُعرَفَ السابقُ من المسبوق. فلمَّا لم يتَّفق ذلك قصدتُ مجلسَهُ، فوافق مصيري إليه حضور جماعة يقرؤون عليه شيئاً من شعره. فحين استؤذن لي نهض من مجلسه، ودخل بيتاً إلى

---

(١) أبو علي الحاتمي: هو محمد بن الحسن بن المظفر. كان من المولعين بدرس الشعر ونقده، وله في ذلك عدة مؤلفات. وقد خدم سيف الدولة مدّةً، كان فيها مع أبي علي الفارسي وابن خالويه، وأبي الطيب اللغوي وأمثال هؤلاء، وكان معاصراً للمتنبي، وذا صلة بالوزير المهلَّبي، وكلاهما يضمر للمتنبي أشدّ العداوة. توفي الحاتمي سنة ٣٨٨هــ. وما أوردناه من المناظرة مختصر. ورسالة الحاتمي منشورة كاملة في كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي طبع دار المعارف (عن هامش الصبح المنبي).

جانبه. ونزلتُ عن بغلتي وهو يراني، ودخلتُ إلى مكانه. فلمَّا خرج إليَّ نهضتُ إليه فوفَّيته حقَّ السلام غيرَ مُشَاحٍّ[1] له في ذلك. وكان سبب قيامه من مجلسه لئلاَّ يقومَ لي عند الدخول إليه. ولبس سبعةَ أقبية ملوَّنة وكانِ الوقتُ أَحرَّ ما يكون من الصيف، وأَحقَّ بتخفيف اللِّبس. فجلس وأعرض عنِّي ساعةً لا يُعيرُني طَرْفاً، ولا يكلِّمني حَرْفاً؛ فكدتُ أَتميَّز غيظاً. وأقبلتُ أَستخفُّ رأيي في قصده، وأُعاتب نفسي في التوجُّه إلى مثله. وهو مُقبِلٌ على تكبُّره. مُلْتَفِتٌ إلى الجماعة الذين بين يديه، وكلُّ واحدٍ منهم يومُىءُ إليه، ويُوحي بطَرْفه، ويُشير إلى مكاني، ويوقظه من سِنة جهله؛ ويأبى إلاَّ ازوراراً ونِفاراً جرياً على شاكلة خُلُقِه، ثم توجَّه إليّ فوالله ما زادني على قوله: أيُّ شيءٍ خبرك؟ فقلت: ما جنيتهُ على نفسي من قَصْدك، وكلَّفتُ قَدَمَيَّ من السعي إلى مثلك. ثم انحدرتُ عليه انحدارَ السيل، وقلت: أَبِن لي عافاكَ اللهُ، ما الذي يُوجِبُ ما أنت عليه من العظمةِ والكبرياء؟ هل هنا نسبٌ يورثك الفخر؟ أو شَرَفٌ تُوِّجتَ بهِ دون أبناء الدهر؟ أو عِلْمٌ أصبتَ فيه عَلَماً يقع الإيماءُ عليه، أو مَوْرِدٌ تقف الهممُ عليه؟ وهل أنت إلاَّ وَتِدٌ بِقاعٍ في أشرِّ البقاع؟ وإني أسمع جَعْجعةً ولا طحنَ. فامتقع لونُه، وجعل يعتذرُ عن جنايته، وأقول له: يا هذا إذا أَتاك شريفٌ في نسبه تجاهلتَ عليه، أو عظيمٌ في أدبه صغَّرت قَدْرَهُ، أو مُقدَّم عند سلطانه لم تعرف موضعه! هل العزُّ تُراثٌ لك دون غيرك؟ كلاَّ والله، ولكنَّك مددتَ الكِبْرَ سِتْراً، وضربتَهُ رِواقاً دون جهلك. فعاد إلى الاعتذار، وأَخَذَتِ الجماعةُ في تَلْيين جانبي، والرغبة في قبول عذره، وإعمال مياسرته ومسامحته، ويحلف بالله أنه لم يعرفني؛ فأقول: يا هذا أَلم يُستأذَنْ عليك باسمي ونسبي؟ أما كان في هؤلاء الجماعة مَنْ يُعرِّفك بي إن كنت جهلتني؟ وهَبْ كان ذلك ألم ترَ تحتي بغلةً رائعة، يعلوها مركبٌ ثقيل، وبين يديّ عدَّةُ غِلْمان؟ أما شاهدتَ لباسي؟ أما شممْتَ نَشْري؟ أما راعكَ شيءٌ من أمْري أَتَمَيَّزُ به عن غيري؟ وهو خافض جناح الذلِّ. وقد زال ما كان فيه، وأقبل عليَّ،

---

(١) مُشاحّ: مخاصم، مماحك.

وأقبلتُ عليه[1]» ثم جرت المناظرة بينهما، فعمد الحاتمي إلى بعض أبياته محاولاً إظهار عيوبها، وبيان سرقاته واقتباساته، والمتنبي يحاول دفع حُجَجِهِ ولعل الحاتمي بالغ في رواية القصة إرضاءً للمهلَّبي الذي سرَّه هذا الخبر مثلما سُرَّ به مُعِزُّ الدولة نَفْسُهُ. وكان من المتوقَّع ألاَّ يرحَّبَ بالمتنبي في بغداد على الصعيد الرسمي؛ لأن السلطان مُعِزّ الدولة البويهي حاكم العراق الفعلي كان مستاءً منه لتعريضه به وبوزيره في مدائحه لسيف الدولة،حيث اتَّهمه بالتخاذل والانصراف إلى اللهو بدلاً من جهاد العدوّ، ودفع خطره المحدق بمملكة الإسلام، يُضاف إلى ذلك ما كان يُكِنُّهُ مُعِزُّ الدولة من العداء للحمدانيين عموماً، ولسيف الدولة على وجه الخصوص.

وتُشير الوقائع إلى أنه كان بوسع أبي الطيب الانضمامُ إلى حَلْقة المهلَّبي والفوز برعايته لولا نفورُه ممَّا شهِده في مجلسه من الاستهتار واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه.

وربَّما كان المهلَّبي بدوره قادراً على أن يقرِّب المتنبي من السلطان، ولكن مزاجَ أبي الطيب وحدَّةَ طبعه، وضيقه بكيد القصور والمؤامرات التي تُحاك في دهاليزها، كلُّ ذلك من الأسباب التي دعته إلى التحفُّظ في مدح المهلَّبي صاحب النفوذ الواسع في القصر البويهي ببغداد.

وممَّا عَزَّز هذا التحفُّظ في رأي بعضهم «انشغالُه بضمان المستقبل، وخوفُه من أَنْ يستجلبَ زوالَ محبَّةِ سيف الدولة الذي كان المتنبي يفكّرُ أكثرَ فأكثر - وقد أيّدَت الوقائع ذلك - بالعودة إلى كنفه؛ لذا كان من الخَطَلِ مدحُ المهلَّبي مستشار مُعزّ الدولة، وصاحب الحول والطَّوْل[2]» في بلاطه.

إن امتناع أبي الطيب عن حضور مجالس المهلَّبي لم يَحُل دون الترحيب به من جانب المريدين والمعجبين بشعره - كما أسلفنا - فقد تحوَّلت دار علي البصري إلى منتدىً أدبيٍّ متألِّق يجتذب إليه هواة الأدب،

---

(١) الصبح المنبي ص ١٢٩-١٣٠.

(٢) انظر «أبو الطيب المتنبي» بلاشير ص ٣٩٦.

ودارسيه، ولا سيما الشباب منهم، وفي مقدمة هؤلاء مُضيفُه البصري نفسُهُ، وابنُ جِنّي الذي عرفه المتنبي بحلب، وسواهما من الشباب من أمثال: كامل بن أحمد العظائمي، والحسن بن علي العلوي الكوفي، وأبي عبد الله بن باكويه الشيرازي، وعلي القُمِّي، وأبي بكر الشعراني خادم المتنبي وغيرهم.

وقد أسهمت هذه المجالس في ذيوع شهرة أبي الطيب في العالم الإسلامي؛ فأقبل المهتمّون بشعره على دراسته، والرجوع إليه لشرح مقاصده، وحلّ معضلاته التي قد تطرأ في أثناء الدرس. وممّن حرص على حضور هذه المجالس بعضُ خصوم المتنبي كالحاتمي الذي تراجع عن موقفه السابق، وابن البَّقال شاعر المهلّبي الذي كان معجباً بالمتنبي، والصابي الكاتب المترسِّل. وقد تطلَّع الرؤساء في بغداد إلى مدح أبي الطيب؛ ورُوِيَ عن المحسّن ابن إبراهيم بن هلال الصابي عن والده أبي إسحاق إبراهيم قال:

«راسلتُ أبا الطيب المتنبّي رحمه الله في أن يَمْدحَني بقصيدتين، وأُعطيه خمسةَ آلاف درهم، ووسَّطتُ بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار، فقال: قل له: والله ما رأيتُ بالعراق من يستحقُّ المدحَ غيرك، ولا أوجبَ عليّ في هذه البلاد أحدٌ من الحق ما أوجَبْتَ. وإن مدحتُك تنكَّر لك الوزير (يعني أبا محمد المهلّبي) وتغيَّر عليك لأني لم أمدَحْهُ، فإن كنتَ لا تبالي هذه الحال فأنا أُجيبُك إلى ما التمستَ. ولا أريدُ منك مالاً، ولا عن شعري عوَضاً. قال والدي: فتنبَّهتُ إلى موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح؛ فلم أُعاوده[١]».

ولهج الناسُ بذكره في بلاد فارس؛ فراسله الصاحبُ بن عباد يستزيرُهُ في الرَّيِّ (طهران اليوم) فلم يُجبْه. «وقال لأصحابه: إن غُلَيِّماً معطاءً بالريّ يريد أن أزورَهُ وأمدحَهُ، ولا سبيل إلى ذلك؛ فصيَّره الصاحبُ غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة، ويتتبَّع عليه سَقَطاته في شعره، وهَفَواته، وَيَنْعَى عليه سيِّئاته، وهو أعْرفُ الناس بحسناته وأحفظَهم وأكثرهم استعمالاً لها، وتمثُّلاً بها في محاضراته ومكاتباته[٢]».

---

(١) ذكرى أبي الطيب ص ١٦٩ عن ياقوت ج١ ص ٣٤٦.

(٢) الصبح المنبي ص ١٤٦.

لم يَطُل المقام بأبي الطيب في بغداد؛ فعاد إلى الكوفة في شهر شعبان سنة ٣٥٢ هـ ـ لِيُعّد العُدَّةَ لرحلةٍ أخرى سوف تبدأ بعد مضي سنة ونصف من تاريخ عودته إلى الكوفة[١].

العودة من بغداد إلى الكوفة

وصل أبو الطيب إلى الكوفة من جديد في أول شهر شعبان سنة ٣٥٢هـ ـ وكان قد عَلِمَ بوفاة ستّ الناس خولة الأُخت الكبرى لسيف الدولة التي توفيت بميافارقين في شهر جمادى الثانية من السنة نفسها؛ فكتب أبو الطيب بهذه المرثية إليه من الكوفة، فقال:

يا أختَ خير أخٍ يا بنــتَ خيــرِ أبِ ... كنايةً بهما عن أشــرف النَّــسَبِ[٢]
أُجِــلُّ قــدرَكِ أن تُــسمَى مُؤَبَّنَـــةً ... ومن يَصِفْكِ فقد ســمّاكِ للعــربِ[٣]
غدرتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عَـدَدٍ ... بمن أَصبتَ وكم أسْكتَّ من لَجِبِ[٤]
طوى الجزيرةَ حتى جــاءَني خبــرٌ ... فَزِعتُ فيه بآمالي إلـــى الكَــذِبِ[٥]
حتى إذا لم يَدَعْ لـــي صــدقُه أمــلاً ... شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يَشْرَقُ بي[٦]

---

(١) يرى بلاشير أن المتنبي كان عازماً على التوجه إلى حلب عقب مغادرته بغداد، ثم حالت دون ذلك حوائل منها: عدم وثوقه بمصير إمارة الحمدانيين التي أخذت تترنح تحت ضربات البيزنطيين، وتدهور صحة سيف الدولة الذي أرجف الناس بموته العاجل، فكان من المناسب أن يتريث أبو الطيب ريثما تنجلي الأمور. (انظر ٤٠٤).

(٢) كناية بهما: أي كنيت كنايةً والمعنى أن نسبها من أشرف الأنساب.

(٣) أي أنت أجلّ من أن أعرّفك باسمك، بل وصفك يعرفك بما فيك من المحاسن والمحامد التي ليست في غيرك، وهذا يغني عن تسميتك.

(٤) أي مات بموتها خلق كثير وسكت لجبهم وتردّدهم في خدمتها، أو أنهم سقطوا عن برّها وصلاتها، فكأنهم ماتوا.

(٥) فزعت فيه بآمالي إلى الكذب: أي رجوت أن يكون كاذباً، وتعللت بهذا الرجاء.

(٦) حتى إذا صح الخبر، ولم يبقَ رجاء في أن يكون كذباً غصصت بالدمع، فكاد الدمع لإحاطته بي أن يكون كأنه غصّ بي.

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مُذْ نُعيت فكيف ليلُ فتى الفتيانِ في حلبِ
يَظُنُّ أن فؤادي غيرُ ملتهبٍ وأنَّ دمعَ جفوني غيرُ مُنْسكِبِ[(١)]
بلى وحُرمةِ مَنْ كانت مراعيةً لِحُرمةِ المجدِ و القُصَّادِ و الأدبِ

ثم يوجه كلامه إلى سيف الدولة فيقول:

يا أَحسنَ الصبرِ زُرْ أَوْلَى القلوبِ بها وقل لصاحبه يا أنفعَ السُحبُ[(٢)]
وأَكرمَ الناسِ لا مُستثنياً أحداً من الكِرام سوى آبائك النُّجُبِ[(٣)]
قد كان قاسَمَك الشخصينِ دَهْرُهما وعاش دُرُّهُما المَفْديُّ بالذهبِ[(٤)]
وعاد في طلبِ المتروكِ تاركُهُ إنَّا لنغفُلُ والأيامُ في الطلبِ[(٥)]
جزاكَ ربُّك بالأَحزانِ مَغْفِرةً فحُزن ُكلِّ أخي حُزنٍ أخو الغضَبِ[(٦)]
وأنتمُ نَفَرٌ تَسخو نفوسُكُمُ بما يَهبْنَ ولا يسخونَ بالسَّلَبِ[(٧)]
حَلَلْتُمُ من ملوكِ الناسِ كُلِّهِمِ محلَّ سُمْرِ القنا من سائرِ القَصَبِ[(٨)]

---

(١) أيظنّ سيف الدولة أني غير حزين.

(٢) أولى القلوب بها: هو قلب أخيها سيف الدولة. الذي هو أولى القلوب بمودّتها والجزع عليها.

(٣) أي إن سيف الدولة أكرم الناس، باستثناء آبائه الكرام.

(٤) أراد بالشخصين: أختيه. ماتت إحداهما وهي الصغرى، وبقيت الكبرى فكانت كدرٍ فدِّي بذهب. جعل الكبرى كالدرّ والصغرى كالذهب.

(٥) المتروك: هو الدر، والتارك: الدهر. يقول: وبعد ذلك عاد الدهر يطلب الكبرى وأخذها لأن الأيام لا تغفل عن طلب ما تركته.

(٦) يقول: غفر الله لك أحزانك؛ لأن الحزن للمصيبة أخو الغضب على القَدَر حيث لم يجرِ بمراد الإنسان.

(٧) السَّلَب: ما يؤخذ من القتيل من ثياب وسلاح. يقول: إنما تحزن لأن الدهر سلبك المرثية، وأنتم قوم أهل عزّة تجودون بما تعطونه عن طيب نفس، ولا تجودون بما يؤخذ منكم قهراً.

(٨) أي أنتم بين الملوك كالقنا بين سائر القَصَب، والقنا يفضلها جميعاً.

فـــلا تَنَلْـــكَ الليـــالي إنَّ أيـــديها إذا ضربْنَ كسرنَ النبعَ بـــالغَرَبِ[١]

وإنْ سَرَرْنَ بمحبـــوبٍ فَجَعْـــنَ بـــهِ وقد أتيَنْكَ في الحـــالينِ بالعَجَـــبِ[٢]

وَمَنْ تفكّـــر فـــي الـــدنيا ومهجتـــهِ أقامه الفكرُ بين العجزِ والتعـــبِ[٣]

إن المدّة التي قضاها أبو الطيب في بغداد، وما واجهه فيها من الإساءة والإحسان لم تُنسِهِ تلك المغامرة التي أقدم عليها باجتياز تلك الصحارى الموحشة للوصول إلى الكوفة، كما لم تُنسِهِ فاتكاً الروميَّ الذي اختطفه الموت على وجه السرعة محطِّماً ما عقده عليه من آمال. لذلك أنشأ- بعد وصوله إلى الكوفة[٤]- قصيدةً يذكر فيها مَسيرَهُ من مصر، ويرثي فاتكاً، والفراغَ الذي تركه بموته، ثم يعرّض بالمهلَّبي وحاشية السوء التي تُحيط به، ويعبِّر عن شعوره بالمرارة لاضطراره إلى الرجوع إلى الكوفة، وقد تجدَّد اقتناعه بأن المجد للسيف وحده وليس للقلم. فقال:

حتَّامَ نحنُ نُساري النجمَ في الظُّلَـــمِ وما سُراهُ علـــى خُـــفٍّ ولا قَـــدَمِ[٥]

ولا يُحَـــسُّ بأجفـــانٍ يُحَـــسُّ بهـــا فقْدَ الرقادِ غريبٌ بات لـــم يَـــنَمِ[٦]

---

(١) النبع: شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال تتخذ منه القسي. والغرب: نبت ضعيف. يقول: لا أصابتك الليالي بسوء، فإنها تغلب القوي بالضعيف.

(٢) يقول: إن سرّتك الأيام بوجود من تحبه، فجعتك بفقده إذا استردته، وهذا من العجب إذ يكون الشيء الواحد سبباً للمسرة والمساءة.

(٣) المهجة: الروح. يقول الشاعر: من فكر في الدنيا وأنه مفارقها أتعبه هذا الفكر. لما يجد في ذلك من الأسف على روحه، والعجز عن الفرار من المحتوم.

(٤) أنشأ هذه القصيدة يوم الثلاثاء لتسعٍ خلون من شعبان سنة ٣٥٢ هـ كما جاء في مقدمتها.

(٥) حتَّام: حتى متى. أي إلى متى نسري مع النجوم في ظلام الليل، وليست تسري هي على خف ولا قدم كالناس أو الإبل فلا يصيبها الكلال كما يصيبنا.

(٦) يُحس: فاعلها النجم، وفاعل يحس الثانية غريب. يقول: إن النجوم لا يؤثر فيها عدم النوم كما يؤثر في رجل بعيد عن أهله يسري ساهراً.

تُسِّودُ الشمسُ مِنَّا بيضَ أوجُهنا ... ولا تُسوِّدُ بيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ[١]

لا أُبغِضُ العيسَ لكني وَقَيْتُ بها ... قلبي من الحزنِ أو جسمي من السَّقَمِ[٢]

طَرَدْتُ من مصرَ أيْدِيها بأَرجلِها ... حتى مَرَقْنَ بنا من جَوْشَ والعَلَمِ[٣]

تَبْري لهنَّ نَعامُ الدوِّ مُسْرَجَةً ... تُعارِضُ الجُدُلَ المرخاةَ بالُّلجُمِ[٤]

في غِلْمةٍ أخطروا أرواحَهُم ورَضُوا ... بما لَقِينَ رِضَا الأيسار بالزَّلَمَ[٥]

تبدو لنا كلَّما ألْقَوا عمائهم ... عمائمٌ خُلِقت سُوداً بلا لُثُمِ[٦]

بيضُ العوارضِ طعَّانون مَنْ لحقوا ... من الفوراسِ شلاَّلون للنَّعَمِ[٧]

قد بلَّغوا بقناهم فوق طاقته ... وليس يبلغُ ما فيهم من الهِمَمِ[٨]

فـي الجاهلية إلاَّ أنَّ أَنفسَهُمْ ... من طيبهِنَّ به في الأشهرِ الحرُمِ[٩]

---

(١) العذار: جانب اللحية. واللمم: جمع لمة وهو الشعر المجاوز شحمة الأذن والذي يلم بالمنكب. يقول: إن الشمس تسوّد وجوهنا البيض ولكنها لا تسود شعورنا البيض.

(٢) العيس: الإبل. يقول إنني لا أكره العيس، وليس إتعابي إياها في السفر بغضاً لها مني، ولكني أسافر عليها لأتقي الحزن والسقم.

(٣) مرقن: خرجن. جوش والعلم: مكانان. يقول: حثثتها على السير حتى كأن أرجلها طاردة لأيديها.

(٤) تبري: تفعل مثل فعلها، والمراد تباريها في السير. ونعام الدّو: الخيل. والدو: الفلاة. والجُدُل: جمع جديل: وهو الحبل في عنق البعير أي إن الخيل تباري الإبل في السير.

(٥) غِلْمة: جمع غلام. أخطروا أرواحهم: خاطروا بها. الأيسار: جمع يَسَر وهم الذين يتقامرون ويجتمعون على الميسر. والزلم: السهم من سهام الميسر. يقول: سرت من مصر في غلمة حملوا أرواحهم على الخطر لبعد المسافة، وصعوبة الطريق، ورضوا بما يستقبلهم من فوز أو تهلكة كالمقامرين.

(٦) لثم: جمع لثام وهو ما يُلقي على الوجه من طرف العمامة. يقول: إن هؤلاء الغلمة كلما ألقوا عمائمهم التي على رؤوسهم ظهر لهم من شعورهم عمائم سود أي إنهم فتيان مرد.

(٧) العوارض: جمع عارض: صفحة الخد. شلاَّلون: طرّادون. النعم: الماشية. يقول: إنهم فتيةٌ مُرْد قَتَّالون للفوارس طرّادون للنعم.

(٨) يقول: قد استفرغوا وُسْعَ الرماح طعناً، ولم تبلغ الرماح غاية هممهم.

(٩) الضمير في به: للقنا. يقول: إنهم في قتال دائم كأهل الجاهلية إلاّ أن أنفسهم طابت بالقتل وسكنت إليه، فكأنهم في الأشهر الحرم أمناً وسكوناً، لأن القتال يترك فيها.

ثم ينتقل إلى رثاء فاتك فيقول:

لا فاتكٌ آخرٌ فـي مـصر نَقْـصِدُهُ	ولا لَهُ خَلَـفٌ فـي النـاسِ كُلِّهِـمِ
مَنْ لا تُشابِهُهُ الأحيـاءُ فـي شِـيَمٍ	أمسى تُشابِهُهُ الأمواتُ فـي الـرِّمَمِ
عَدِمتُـه وكـأني سِـرتُ أطلبُـهُ	فما تَزيدُنيَ الـدنيا علـى العَـدَمِ[١]
ما زلتُ أُضحِكُ إبْلي كُلَّمـا نظـرت	إلى مَنْ اختضبتْ أخفافُهـا بِـدَمِ[٢]
أُسـيرُها بـين أصـنامٍ أُشـاهِدُها	ولا أُشاهِدُ فيهـا عِفَّـةَ الـصَّنَمِ[٣]
حتى رَجَعتُ وأقلامـي قوائـلُ لـي	المجدُ للسيفِ ليس المجدُ لِلْقَلَـمِ[٤]
من اقتضى بسوى الهنديّ حاجَتَـهُ	أجاب كلَّ سؤالٍ عـن هَـلٍ بِلَـمِ[٥]

ثم يُنهي قصيدته بالنصح والشكوى فيقول:

هَوِّن على بَصَرٍ ما شـقَّ منظـرُهُ	فإنَّمـا يَقَظـاتُ العـينِ كـالحُلُمِ[٦]
ولا تَـشَكَّ إلـى خلْـقٍ فتُـشْمِتَهُ	شكوى الجريحِ إلى الغِربانِ والـرَّخَمِ[٧]
وكُنْ علـى حَـذَرٍ للنـاسِ تـسترُهُ	ولا يُغُرَّكَ مـنهم ثغـرُ مُبتَـسِمِ[٨]

---

(١) يقول: لكثرة أسفاري وتردّدي في الدنيا كأني أطلب له نظيراً. ولكني لا أحصل إلاّ على العدم. لأنه لا نظير له.

(٢) يقول: ما زلتُ أجشم إبلي السفر إلى من لا يستحق القصد إليه، حتى أضحكتها استخفافاً بمن قصدت. وفي هذا تعريض بأهل بغداد.

(٣) أُسيرها: أُسيّرها. والأصنام: هم من يعظّمون ويطاعون من الحكام.

(٤) حتى عدت إلى وطني وقد علمت أن المجد إنما يدرك بالسيف لا بالقلم.

(٥) يقول: من يطلب حاجته بغير السيف أجاب السائل عن قوله: هل أدركت حاجتك؟ بقوله: لم أدرك حاجتي.

(٦) ما شقّ منظره: ما صعبت رؤيته. أي هوّن على نفسك ما صعبت رؤيته من المكاره، وهبك تراه في الحلم لأن ما تراه في اليقظة شبيه بما تراه في المنام لأنهما سرعان ما يزولان.

(٧) يقول: لا تشكُ إلى أحد ما ينـزل بك من ضُرّ فتشمته بشكواك، وتكون كالجريح الذي يشكو ألمه إلى الطير التي ترقب موته لتأكله.

(٨) يقول: احذر الناس، واستر حذرك منهم ولا تغتر بابتسامهم إليك، فإنهم يُضمرون ما لا يبدون لك من الغدر والخداع.

غاضَ الوفاءُ فما تلقاهُ في عِدَةٍ ... وأعْوَزَ الصدقُ في الإخبار والقَسَمِ[(١)]

سبحان خالقِ نفسي كيف لَذَّتُها ... فيما النفوسُ تراهُ غايةَ الألمِ[(٢)]

الدهرُ يَعْجَبُ من حَمْلي نوائبَهُ ... وصَبْرِ جسمي على أَحداثه الحُطُمِ[(٣)]

وقتٌ يضيعُ وعمرٌ ليت مُدَّتَهُ ... في غير أُمَّتِهِ من سائرِ الأُممِ[(٤)]

أتى الزمانَ بنوه في شبيبتهِ ... فسرَّهم وأَتيناهُ على الهَرَمِ

إن ما يُستشفُّ من هذه القصيدة خلا ذكرياته عن رحلته عبر الصحراء ورثاء فاتك، هو استياؤه مما لقيه في بغداد من المهلبي وحاشيته وهو ما عبرّ عنه بالقول:

توهَّمَ القومُ أنَّ العجزَ قرَّبَنَا ... وفي التقرُّب ما يدعو إلى التُّهَمِ

فلا زيارةَ إلاَّ أنْ تزورَهُمُ ... أيْدٍ نشأْنَ مع المصقولةِ الخُذُمِ[(٥)]

من كلّ قاضيةٍ بالموتِ شَفْرتُهُ ... ما بين مُنْتَقَمٍ منه ومُنتقِمِ

إنه يحاول في نهاية القصيدة أن يهوِّن على نفسه ما لَقِيه من مكاره، وعلى المرء ألاَّ يشكو ما ينزل بساحته من ضُرّ إلى أحد فَيُشمتَه بشكواه، وأن يكونَ حذراً في مخالطة الناس فلا يغترّ بابتسامهم لأنَّهم يُضمِرون في قلوبهم ما لا يُظهرون.

ثم يتعجب من أن الله جعل لذَّتَه في اقتحام المهالك، وهو ما يؤلم النفوس، ويدعو إلى اجتنابها، والدهر يعجب من قدرته على احتمال أرزائه

---

(١) غاض الوفاء: قلّ ونقص. والعدة: الوعد. وأعوز الشيء: عَزَّ، فلا يكاد يوجد.

(٢) يتعجب من أن الله سبحانه جعل لذّته في جوب المفاوز والمهالك وهو غاية ألم النفوس.

(٣) الحطُم: التي تحطم من ألـمَّتْ به.

(٤) يقول: يضيع الوقت بصحبة أهل هذا الدهر، وليت مدة عمري كانت في أمة أخرى من الأمم السالفة التي تقدر الرجال حق قدرهم.

(٥) الخُذم: جمع خذوم أي القاطع. يعني السيوف.

ومصائبه. ومما يزيد من أساه وحزنه أنه أضاع عمره سُدىً في مخالطة أهل زمانه لأنهم سفْلَةٌ أنذال؛ لذا فهو يتمنى أن تكون مدةُ عمره في أمة من الأمم السالفة التي تُقَدِّر الرجلَ حقَّ قدره، ويأسف لضياع وقته في معاشرة أهل دهره؛ فالسابقون جاؤوا في شباب الدهر وجدَّته فسرَّهم وسعِدوا به، أما هو فقد جاءه بعد أن هَرِم فلم يجد فيه ما يسرُّه ويُسعده. لقد تخلَّلت إقامة أبي الطيب في الكوفة فتراتُ ركودٍ نسبيٍّ، يُرجَّح أنه انصرف خلالها إلى شرح ديوانه للمعنيِّين به ولاسيَّما ابن جِنيّ الذي صحبه في عودته من بغداد إلى الكوفة لهذا الغرض.

وبعد أَشْهرٍ من وصول أبي الطيب إلى مسقط رأسه ازداد نشاطُ القرامطة بين أعراب بني كلب المقيمين في بادية الكوفة، وكان من أتباعهم المدعو ضبَّة بن يزيد العتبيّ، الذي كان يقيم في حصن يقع في طرف الصحراء إلى الجنوب الغربي من الكوفة. وضبَّة هذا بدوي جاءت به أُمُّه سِفَاحاً، وكان يغدر بكل من نزل به، وأكل معه وشرب. ولما كان المتنبي ذات يوم في نزهة مع أصحابٍ له من أشراف الكوفة لقيه بالقرب من هذا الحصن، ففرّ ضبة إلى ملجئِه، وانهال على القوم بالشتائم المقذعة وسمّى أبا الطيب وخصَّه بالشتم. وأراد القوم أن يُجيبوه بمثل ألفاظه، فسألوا أبا الطيب هجاءه بما يناسب بذاءته فنظم فيه قصيدةً جاءت غاية في الإقذاع إلى الحدّ الذي جعله يُنكر إنشادَها إذا ما ذُكِّر بها. أو سُئل عنها وهي التي يقول فيها:

ما أنصف القومُ ضَبَّه وأُمُّه الطُّرْطُبَّهْ[1]

وما عليك من العارِ أنَّ أُمَّك قَحْبَهْ

وما يَشُقُّ على الكلبِ أن يكونَ ابنَ كَلْبَهْ

ما ضرَّها مَنْ أتاها وإنَّما ضرّ صُلْبَهْ

---

(١) الطُرطُبه: القصيرة الضخمة.

يـــا قـــاتلاً كـــلَّ ضـــيفٍ غَنـــاهُ ضَـــيْحٌ وعُلْبَـــهْ[1]
وخَـــوْفَ كـــلِّ رفيـــقٍ أباتَـــك الليـــلُ جَنْبَـــهْ[2]
كـــذا خُلِقْـــتَ ومـــن ذا الـــذي يُغالـــبُ ربَّـــه[3]
ومَـــنْ يُبـــالي بـــذمٍّ إذا تعـــوَّد كَـــسْبَهْ

لم يكن لهذه القصيدة البذيئة أثر يذكر في الحدّ من نشاط القرامطة الجارف في تلك الحقبة، بل على العكس فقد ازداد نشاطُهم في الأَشْهر التالية، وهاجموا الكوفة نفسها كما سيأتي. وفي تلك الأثناء أرسل سيف الدولة إلى أبي الطيب هديةً ومالاً، وأماناً بخطِّه. وكتاباً يستدعيه، فأجابه أبو الطيب في ذي الحجة سنة ٣٥٣هـ بالقصيدة التالية، وأنفذها إليه في مَيَّافارقين:

فَهِمـــتُ الكتـــابَ أَبـــرَّ الكُتُـــبْ فَـــسَمْعاً لأَمـــرِ أميـــرِ العَـــرَبْ
وطوعـــاً لـــه وابتهاجـــاً بـــه وإن قَـــصَّر الفعـــلُ عَمَّـــا وَجَـــبْ
وما عـــاقني غيـــرُ خـــوفِ الوشـــا ةِ وإنَّ الوشـــاياتِ طُـــرْقُ الكَـــذِبْ
وقـــد كـــان ينـــصرُهم ســـمعُهُ وينـــصُرني قلبُـــه والحَـــسَبْ
ومـــا لاقنـــي بَلَـــدٌ بعـــدكم ولا اعْتَضْتُ من ربِّ نُعمايَ رَبْ[4]
ومـــن ركـــب الثـــورَ بعـــد الجـــوا دِ أنكـــر أظلافَـــهُ والغَبَـــب[5]
ومـــا قِـــسْتُ كُـــلَّ ملـــوكِ الـــبلا دِ فَدَعْ ذِكْرَ بعضٍ بمن في حلَـبْ[6]

---

(١) غناه: غناؤه. أي يكفيه ضَيْح وعلبة. والضيح: اللبن الممزوج بالماء. والعلبة: قدح من جلد يشرب فيه اللبن أي يقتل ضيفه ليتخلّص من قراه.

(٢) وخوف: يا خوف، أي هو يغدر بمن يبيت معه.

(٣) أي هو مجبول عن الغدر كذلك خلقه الله.

(٤) لاقني: أمسكني.

(٥) الغبب للبقر: ما تدلى تحت حنكها. جعل الجواد مثلاً لسيف الدولة، والثور لمن لقي بعده من الملوك. ولا تخاطب الملوك بمثل هذا.

(٦) أي لم أقِس كل الملوك به فضلاً أن أقيس به بعضهم.

ثم يُشير في آخر القصيدة إلى انفراده بجهاد الروم و مناجزتهم، على الرغم مما ألمَّ به من مرض فيقول:

أرى المسلمينَ مــع المــشركيــن إمَّــا لِعَجْــزٍ وإمَّــا رَهَــبْ[١]

وأنتَ مــع الله فـــي جانــبٍ قليلُ الرقادِ كثيــرُ التعــبْ[٢]

كأنـــك وَحْـــدَكَ وحَّدتـــهُ ودان البريَّـــةُ بـــابنٍ وأبْ[٣]

فليت ســيوفَكَ فـــي حاســدٍ إذا ما ظهرتَ عليهم كَئِــبْ[٤]

وليت شَــكاتَكَ فـــي جِــسمه وليتَكَ تَجْزي بِبُغْضٍ وَحُبْ[٥]

فلو كنت تَجْزي به نلتُ مِنْــكَ أضــعفَ خــطٍّ بـــأقوى سَــبَبْ[٦]

لم يستطع أبو الطيب إخفاء ما يعوقه عن العودة إلى كنف سيف الدولة، على الرغم ممّا يكنُّه له من المحبّة والإجلال، فالوشاة والمفسدون الذين كانوا السببَ في إخراجهِ من حلب، مازالوا قادرين على القيام بالدور نفسه؛ لذلك بدا في جوابه لسيف الدولة شيء من التردّد والحذر في قبول دعوته.

وربّما أسهم في تأجيل الاستجابة لدعوة سيف الدولة ما استجدَّ من أمر القرامطة. ففي أواخر سنة ٣٥٣هــ هاجم جماعة منهم الكوفة فشارك أبو الطيب في صدّ هذا الهجوم وأبلى فيه بلاءً حسناً.

---

(١) يقول: أرى المسلمين قد هادنوا المشركين واجتمعوا معهم، وتركوا قتالهم، وذلك إما عجزاً عنهم، أو خوفاً منهم.

(٢) وأنت مع الله تجاهد الروم دون المهادنين والموادعين لهم.

(٣) كأنك وحدك الموحّد لله، وسائر الناس يدينون بدين النصارى الذين يقولون بالابن والأب.

(٤) ظهرت عليهم: ظفرت بهم. كئب: كآبة. يقول: ليت الحاسد الذي يكتئب لظفرك بالروم يقتل بسيوفك.

(٥)(٦) أراد بالشكاة: ما يشكوه سيف الدولة من مرض. يقول: ليت المرض الذي تشكوه في جسم الحاسد، وليتك تجزي من أبغضك ببغضه، ومن أحبك بحبه كي أنال نصيباً من حبك. لأن حبي إياك أكثر من حب غيري. وأنا أقل الناس حظاً منه مع أنني أشد الناس حباً لك.

جاء في شرح المعرّي:

ونجم خارجيٌّ من بني كلاب بظهر الكوفة، وذُكر له أن خَلْقاً من أهل الكوفة قد أجابوه، وحلفوا له. فسارت إليها بنو كلاب معه ليأخذها. ورُفعت الرايات، وخرج أبو الطيب على الصوت من ناحية قَطَوان[١]؛ فلقيتْهُ قطعةٌ من الخيل في الظهر فقاتلها ساعةً؛ فانكشفت وقد جَرَح فيها، وقتل منها. وسار في الظهر حتى دخل إلى جَمْع السلطان والرعيّة من درب البراجم. ووقعت المراسلة سائر اليوم، وعادوا من غدٍ فاقتتلوا إلى آخر النهار فلم يصنع الخارجي شيئاً. ورجع وقد اختلفت فيه بنو كلاب، وتبَّرأ بعضُها منه. وعاد بعد أربعة أيام، فالتقوا في الظهر، فوقعت بالسلطان والعامة جراح. وقُتِل من بني كلاب، وطُعِن فرس لأبي الطيب تحت غلامٍ له في لَبَّتهِ؛ فمات لوقته، فحمله أبو الحسن محمد بن عمر العلوي على فرس. وجَرَح غلامٌ له فرسين، وقَتَل رجلاً. وعادوا من غدٍ فالتقى الناس عند دار أسلم وبينهم حائط، فقُتل من بني كلاب بالنُشَّاب عِدَّةٌ؛ فانصرفوا ولم يَقِفوا لقتال.

ووردت الأخبار إلى بغداد؛ فسار أبو الفوارس دلَّيْرُ بنُ لَشْكَرَوَزّ في جماعة مــن القُوَّاد، فورد الكوفة بعد رحيل بني كلاب، فأنفذ إلـــى أبي الطيب ســـاعةَ نزل ثياباً نفيسةً مـــن ديباج رومي، وخَزّ وَدَبِيقيّ؛ فقال يمدحه، وأنشده إياها في الميدان وهما على فرسيهما. وكان تحت دِلّير فرس أصفر وعليه حِلْية ثقيلة، فقاده إليه، وذلك كله في ذي الحجة سنة ٣٥٣ [٢]".

كدعواكِ كُلٌّ يـــدَّعي صِـحَّةَ العقــلِ ... ومَنْ ذا الذي يدري بما فيه مــن جهــلِ[٣]

---

(١) قَطَوان: موضع بالكوفة.

(٢) انظر ذكرى أبي الطيب ص ١٦٦-١٦٧.

(٣) يخاطب العاذلة فيقول: كلّ أحد يدّعي لنفسه صحة العقل كما تدّعين أنت، وأنك أصح عقلاً مني، ولكن لا يعلم أحدٌ جهل نفسه وإلاّ فهو ليس بجاهل.

لَهِنَّكِ أولَى لائمٍ بملامةٍ وأحوجُ مِمَّن تعذُلين إلى العَذْلِ[١]

تقولين ما في الناسِ مِثْلَكَ عاشقٌ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْببتُه تجدي مثلي[٢]

مُحِبٌّ كَنَى بالبيضِ عن مُرهفاتِه وبالحُسنِ في أجسامهنَّ عن الصَّقْلِ[٣]

وبالسُّمرِ عن سُمرِ القنا غيرَ أنني جَنَاها أحبائي وأطرافُها رُسْلي[٤]

عَدِمْتُ فؤاداً لم تَبِتْ فيه فَضْلَةٌ لغير الثنايا الغُرّ والحَدَقِ النُّجْلِ[٥]

ذريني أَنَلْ ما لا يُنالُ من العُلا فصعبُ العُلا في الصعبِ والسَّهْلُ في السَّهْلِ[٦]

تُريدين لُقيانَ المعالي رخيصةً ولا بُدَّ دون الشَّهدِ من إِبَرِ النَّحْلِ

ثم ينتقل إلى مدح دِلَّير:

فإن تكُ من بعد القتالِ أتَيْتَنا فقد هَزَمَ الأَعداءَ ذكرُك من قبلِ

وما زِلتُ أطوي القلبَ قبلَ اجتماعنا على حاجةٍ بينَ السنابكِ والسُّبْلِ[٧]

---

(١) لهنَّك: قيل أصلها للّه أنك، أو لأنك. والمراد: أن من تلومه على حبه أولى باللوم منه وأحوج إلى العذل، لأن من أحبّه لا يلام على حبه.

(٢) يقول: للعاذلة: إن وجدتِ مثلاً لمحبوبتي في الحسن وجدت مثلاً لي في العشق.

(٣) يقول: أنا عاشق من طراز مختلف، فإن ذكرت البيض أردت بها السيوف لا النساء، وإذا ذكرت حسن النساء كنيت به عن صقل السيوف.

(٤) وكما كنيت بالسمر عن الرماح، وجَنَاها: ما أجتنيه من المعالي. يريد: أني أخطب المعالي بالرماح وهي رسلي إليها.

(٥) يقول: لا كان لي قلب لا فضلة فيه لغير الحسان، ولا ينـزع إلى الرفعة والمجد.

(٦) يقول: دعيني أنل من المعالي ما يصعب نيْله، لأن أعلاها لا يُدرك إلاّ بركوب المشاق الصعبة، أما السهل منها فيسهل الوصول إليه.

(٧) السنابك: أطراف الحوافر. السبل: الطرق. يقول: كنت أنوي زيارتك قبل اجتماعنا هذا، ولكن هذه الرغبة لا تنال إلا باجتياز المسافة التي تفصلني عنك.

شفى كـلَّ شـاكٍ سـيفُه ونَوالُـه **من الداء حتى الثاكلاتِ من الثُّكْلِ**[(١)]

عفيفٌ تروقُ الشمسَ صورةُ وجهِه **ولو نزلت شوقاً لحاد إلى الظِـلِّ**[(٢)]

شجاعٌ كأنَّ الحـربَ عاشـقةٌ لـه **إذا زارها فَدَّتْهُ بالخيـلِ والرَّجْـلِ**[(٣)]

وريَّانُ لا تَصْدَى إلى الخمرِ نفسُهُ **وعطشانُ لا تَرْوى يداه من البذلِ**[(٤)]

فتمليـكُ دِلَّيـرٍ وتعظـيمُ قـدرِهِ **شـهيدٌ بوحدانيـة اللهِ والعَـدْلِ**[(٥)]

ومـا دام دلَّيـرٌ يهـزُّ حُـسامَهُ **فلا نابَ في الدنيا لِلَيْـثٍ ولا شِـبْلِ**

فلا قَطَعَ الرحمنُ أصـلاً أتـى بـه **فإني رأيتُ الطيِّبَ الطيِّبَ الأصـلِ**[(٦)]

لم يطل مقام أبي الطيب في الكوفة بعد هذه الحادثة فقد شرع في إعداد العدّة للقيام برحلته الأخيرة إلى بلاد فارس، إثر تلقّيه رسالة من ابن العميد وزير السلطان ركن الدولة البويهي يستدعيه إليه في أَرَّجَان وهي قريبة جداً من العراق، وكان الوزير يخرج إليها كل عام من الرّي (طهران اليوم) لجمع الضرائب.

---

(١) أي أزال شكوى الموتور والمرزوء بسيفه وعطائه، وشفى الثاكلات من حزنهن حين ثأر لهن، وأنساهن الثكل بجوده.

(٢) تروق: تعجب. يقول: إن الشمس تستحسن صورة وجهه، فلو نزلت شوقاً إليه لمال عنها عفةً منه أي إنه يعف عن كل أنثى حتى عن الشمس.

(٣) أي إذا باشر الحرب استبقته، وأتت على غيره من الفرسان فكأنها جعلتهم فداءً له.

(٤) أي إنه لا يشرب الخمر، فكأنه مرتوٍ منها، ولا يتوقف عن البذل، فكأنه متعطش إليه لا يروى منه.

(٥) يقول: إن توليته، وعظم قدره شهادة على عدل الله ووحدانيته ورأفته بعباده لأنه ولى عليهم من هو مثال للعفة والإحسان.

(٦) يقول: لا قطع الله أصلاً أنجب لنا مثله، وإنني أرى طيب الفرع عائد إلى طيب الأصل.

رحلته إلى فارس

إن تَطَّلُعَ الملوك والرؤساء إلى مدائح أبي الطيب هو ما دفع الوزير ابن العميد إلى استزارته، فراسله من أرَّجان للقدوم إليه، وابن العميد هذا من نوابغ الكتَّاب المترسِّلين في زمانه. وكان مُلِّماً بالعلوم الرياضية، والفلسفة، والآداب بالإضافة إلى قرض الشعر. كما كان أحد حماة الأدب والفنون في تلك البقاع، وقد عُرف بسخائه على الشعراء، وتقديره لمواهبهم، ومن روّاد حلقته الأدبية الشاعران: أبو الحسن أحمد بن محمد المعروف بالبديهي، وأبو محمد الحسين بن محمد بن هندو، والقاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن خلاَّد وسواهم.

غادر أبو الطيب الكوفة في المحرَّم سنة ٣٥٤هـ متوجّهاً إلى بغداد، ومعه ولده مُحسَّد، وبعض عبيده، وكاتبه أبو بكر الشعراني، وابن جِنِّي،وعلي البصري[١]. ثم فصل من مدينة السلام يوم الخميس في الحادي عشر من شهر صفر ٣٥٤هـ وسار متوجهاً إلى الأهواز عبر **المدائن**. والمدائن مدينة صغيرة جاهلية، أَزَلِيَّة، كِسْرويَّة، آثارها عظيمة، ومعالمها قائمة، وقد نُقِل عامةُ أبنيتها إلى بغداد وهي من بغداد على مرحلة. وكانت مسكنَ الأكاسرة، وبها إيوان كسرى المشهور ذكره.... وهو إيوان معقود، عظيم جسيم من آجُرّ و جصّ. وليس للأَكاسرة أَثَرٌ ولا بَنِيَّةٌ كهو. ويُنعت هذا الإقليم بأرض بابل. وكانت مدينة النماردة، والفراعنة، وقرار ملكهم، وحَوْمة نعمهم. وهي الآن قرية صغيرة، وهي أَقدم أبنية العراق عهداً. استحدثها ملوك الكنعانيين، وسكنوها ومن كان بعدهم. وكانت دار مقامهم، و بها آثار أبنية تُخبر أنها كانت في قِدَم الأيام مصراً عظيماً.

ومن المدائن توجه المتنبي وصحبه إلى **دير العاقول** الذي يبعد عن بغداد خمسة عشر فرسخاً على شاطىء دجلة، وهو بلد عامر فيه أسواق. ومنه إلى

---

(١) انظر بلاشير ص ٤١٢ وأضاف بلاشير أن المتنبي غادر الكوفة عبر بطائح السواد دون المرور ببغداد. ولكن ابن جني ذكر في شرح ديوان المتنبي أنهم انطلقوا من بغداد، فأخذنا بقوله.

جَرْجَرايا. وهي بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد. ومن جرجرايا توجَّه الركب إلى جَبُّل وهي بُليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي، ومنها إلى فم الصِّلح، وهو نهر كبير فوق واسط عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران (ياقوت) ثم سار أبو الطيب وصحبه عبر بطائح السواد إلى واسط.

والبطائح جمع بطيحة. يُقال: «تبطَّح السيل إذا اتَّسع في الأرض، وبذلك سُمِّيت بطائح واسط؛ لأنَّ المياه تبطَّحت فيها، أي سالت واتَّسعت في الأرض، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وفيها مواضع عالية لم يصل الماء إليها؛ فبنوا فيها قرىً، وسكنها قومٌ وزرعوها الأَرُزَّ. وتغلَّب عليها في أول أيام بني بويه أقوامٌ من أهلها، وتحصَّنوا بالمياه والسفن. وجارت تلك الأرض عن طاعة السلطان، وصارت تلك المياه لهم كالمعاقل الحصينة» (ياقوت)

أما **واسط فهي** مدينة على جانبي دجلة تشقُّها بنصفين. والنصفان متقابلان بينهما جسرُ سُفُنٍ يَعْبر عليه من أراد من أحد الجانبين إلى الآخر. وفي كل جانب مسجدٌ جامع، وهي مدينة محدثة في الإسلام، استحدثها الحجاجُ بن يوسف، وبها حَضَرُ الحجاز. وهي مدينة تُحيط بحدّها الغربي البادية بعد مزارع يسيرة. وهي خصبة كثيرة الشجر والنخل والزرع، وأصحّ هواءً من البصرة، وليس لها بطائح. ولها أرض واسعة، ونواحٍ فسيحة، وعمارة متَّصلة (ابن حوقل ٢١٤) ومن واسط وصلوا إلى الأهواز عبر باذبين وهي قرية كبيرة كالبلدة، تحت واسط على ضفة دجلة.

أما **الأهواز** فكان اسمها في أيام الفرس خُوزِسْتان. وهي جمع هَوْز وأصله حَوْز فلما كثر استعمال الفرس لهذه اللفظة غيَّرتها حتى أذهبت أصلها جملةً، لأنه ليس في كلام الفرس حاء مهملة وإذا تكلموا بكلمة فيها حاء قلبوها هاء، فقالوا في حسن هسن، ثم تلقَّفتها منهم العرب فقُلِبت بحكم الكثرة في الاستعمال. وعلى هذا يكون الأهواز اسماً عربياً سُمي به في الإسلام. والأهواز "هي الكورة العظيمة، والناحية الجسيمة التي يُنسَبُ إليها سائرالمدن والكُوَر مثل عسكر مُكْرَم، وتُسْتَر، وجُنْدي سابور، والسوس، ورام هرمز، والسُّرَّق. وكل ما ذكرته من كورة فهو اسم المدينة غير السُّرَّق فإن مدينته الدورق، وهي المعروفة بدورق الفرس،

وإيْذج، ونهر تِيْرى، وحومة الزُّط، والجايزان وهما واحد، وحومة الثَّيِّنان، وسوق سنبيل، ومَناذر الكبرى، ومناذر الصغرى، وجبَّى، والطيب، وكليوان، فهذه مدن ولكل مدينة كورة..... وخوزستان أجمعها في مستواة من الأرض سهلة، ذات مياه جارية، وأكبر أنهارها نهر تُسْتَر وهو النهر الذي بنى عليه سابور الملك الشاذروان[1] بباب تُسْتَر حتى ارتفع ماؤه إلى المدينة.

وليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلاَّ شيء يسير يُتاخم نواحي تُسْتَر وجندي سابور، وناحية إيذج، وأصبهان. وباقي خوزستان كأرض العراق، فأما هواؤها وتربتها وصحّة أهلها، فإن مياهها طيبة عذبة جارية.... وليس بخوزستان موضع يجمد فيه الماء، ولا يقع فيه الثلج ولا يخلو من النخيل، والعِلَلُ بها كثيرة، وخاصةً لمن انتابها، وطرأ عليها، وثمارهم وزروعهم، فالغالب منها في غَلاَّتهم النخل. ولهم عامَّة الحبوب كالحنطة والشعير والفول. ويكثر عندهم الأَرُزّ، حتى إِنَّهم لَيطحنونه ويخبزونه ويأكلونه، وهو لهم قوت، وكذلك رساتيق[2] العراق. وليس من بلد ليس به قصبُ سكَّر في جميع هذه الكُور الكبار التي تقدَّم ذكرها.

وأما لسانُهم فإن عامتهم يتكلَّمون بالفارسية والعربية، غير أنَّ لهم لساناً آخر خُوزيًّا ليس بعبراني ولا سرياني، ولا فارسي، وزِيُّهم زِيُّ أهل العراق في الملابس من القُمُص والطيالسة، والعمائم، وفي أضعافهم[3] من يلبس الأُزُر، والميازر.

وأهل الأَهواز معروفون بالبُخْل والحُمْق، وسقوط النفس. ومن أقام بها سنة نقص عقلُه! وقد سكنها قومٌ من الأشراف فانقلبوا إلى طباع أهلها. وهي كثيرة الحُمَّى. ووجوه أَهْلها مُصْفَرَّةٌ مُغْبَرَّةٌ، والغالب على خِلَقِهم النحافةُ وخِفَّةُ اللِّحى، ووفور الشعر أقل ممَّا في غيرهم من المدن.

---

(١) الشاذروان: السَّدّ.

(٢) الرساتيق: ج رستاق: موضع فيه مُزْدَرَع، وقرى.

(٣) أضعاف الشيء: وسطه، وأثناؤه والمراد هنا: ومنهم من يلبس الأُزُر...

ومن الخاصيَّات عندهم ما تقدَّم ذكرُهُ من الشَّاذِرْوان الذي بناه سابور هو من أعجب البناء وأحكمه. وطولُه نحو الميل قد رُصَّ بالحجارة، ورُصِفَ كلُّه حتى تراجع الماء فيه وارتفع إلى باب تُسْتَر.... ويُتَّخذ بِتُسْتَر الديباجُ الذي يُحمل إلى جميع الأفاق، وكانت تُعْمَلُ بها كُسْوَةُ الكعبة للبيت الحرام. ويُعمل بالسوس الخُزوز الثقيلة، ومنها تُحمل إلى الأفاق.

أما مدينة **الأهواز** والعامة تُسمِّيها سوقَ الأَهواز، واسمها هُرْمُزْشَهْر. وتخترقها مياه مختلفة منها الوادي الأعظم، وهو ماء تُسْتَر يمرُّ على جانبها، ومنها يأخذ وادٍ عظيم يدخلها، وعلى هذا الوادي قنطرة عظيمة عليها مسجد واسع، وعليه أَرْحاء عجيبة ونواعير بديعة، وماؤه في وقت المدود أحمر يصبُّ إلى الباسِيَان[1]، والبحر. ويخترقها وادي الـمَسْرَقان وهو من ماء تُسْتَر أيضاً، ويخترق عسكر مُكْرَم. ولون مائه في جميع أوقات نُقْصان المياه أَبيض، ويزداد في أيام المدود بياضاً. وسُكَّرها أجود سُكَّر الأَهواز.

ومن مدينة الأهواز توجَّه الركب إلى **أَرَّجان** عَبْرَ أَزَم وهي منزل بين سوق الأهواز ورامهرمز. **ورامهرمز** من المدن المشهورة بنواحي خورستان والعامة يسمَّونها: رامز اختصاراً. وهي المدينة الوحيدة بخوزستان التي تجمعُ النخيلَ والجوزَ والأُتْرُنْج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خورستان. وقد ذكرها الشعراء، فقال ورد بن الورد الجَعْدي:

أَمُغْتَرباً أَصبحتُ في رامَهُرمُزٍ ... أَلا كلُّ كَعْبيٍّ هناكَ غريبُ

إذا راح ركبٌ مُصعِدون فَقَلْبُهُ ... مع الـمُصْعِدين الرائحين جَنيبُ

وإنَّ القَليبَ الفَرْدَ من أَيمن الحمى ... إليَّ وإن لم آتِه لَحبيبُ

ولا خيرَ في الدنيا إذا لم تَزُرْ بها ... حبيباً ولم يَطْربْ إليكَ حبيبُ

---

(١) الباسيان: قال الاصطخري: باسيان مدينة وسطة في الكبر، عامرة، يشق النهر فيها فتصير نصفين (عن ياقوت)

في ضيافة ابن العميد:

ثم توجَّه منها عَبْرَ الزُّطّ، ومخاضة وادي الملح، ودهليزان إلى أَرَّجان. وهي مدينة في غاية الطيبة والنـــزاهة، وكثرة المياه والخصب من الزرع والنخل والكروم والزيتون والزيت، والجوز؛ والأُتْرُجّ. وبها فواكه الصَّرود والجُروم[1]. ولكن أَبا الطيب «لما أَشرف عليها وجدها ضَيِّقةَ البقعة والدور والمساكن، فضرب بيده على صدره، وقال: تركتُ ملوكَ الأرض يتعبَّدون بي، وقصدتُ رَبَّ هذه المدَرَة[2]! فما يكون منه؟ ثم وقف بظاهر المدينة، وأرسل غلاماً على راحلته إلى ابن العميد. فدخل عليه، وقال: مولاي أبو الطيب خارجَ البلد. وكان وقت القيلولة، وهو مُضْجِعٌ في دَسْتِه[3]، فثار من مضجعه، واستَثْبتَه، ثم أَمر حاجبَهُ باستقباله. فركب واستركب مَنْ لقيه في الطريق. ففصل عن البلد بجمعٍ كثير، فتلقَّوه، وقَضَوا حقَّه، وأَدخلوه البلدَ. فدخل على أبي الفضل (ابن العميد) فقام له من الدست قياماً مُستوياً، وطُرِح له كرسيٌّ عليه وسادةُ ديباج، وقال أبو الفضل: كنتُ مشتاقاً إليك يا أبا الطيِّب.

ثم أفاض المتنبِّي في حديث سفره، وأَنَّ غلاماً له احتمل سيفاً وشذَّ عنه. وأخرج من كُمِّه عَقِب هذه المفاوضة دَرْجاً[4] فيه قصيدته:

بادٍ هواكَ صـــبرتَ أَمْ لـــم تَـــصْبْرا وبُكاكَ إن لم يَجْرِ دمعُك أَو جـــرى

فَوَحَى[5] أبو الفضل إلى حاجبه بقِرْطاس فيه مئتا دينار، وسيف غشاؤه فِضَّة، وقال: هذا عِوَضٌ عن السيف المأخوذ، وأَفْرَد له داراً نزلها. فلمَّا

---

(١) الصرود: جمع صَرْد: شدة البرد والمرتفع من الجبال. والجروم: جمع جَرْم: وهي الأرض الشديدة الحر.

(٢) المدَرَة: القرية المبنية بالطين واللبن، وربُّها: صاحبها.

(٣) الدست: صدر المجلس. ودست الوزارة: منصبها.

(٤) الدرج: الورق الذي يُكتب فيه (تسمية بالمصدر).

(٥) وحى: أشار.

استراح من تعب السفر كان يغشى أبا الفضل كلَّ يوم، ويقول: ما أَزورُكَ إكباباً[١] إِلاَّ لشهوةِ النظر إليك، ويؤاكله[٢]».

ومما يَلْفِتُ النظر في أَرَّجان «قنطرةٌ كبيرة طولُها أكثر من ثلاث مئة ذراع بالحجارة، على وادي أَرَّجان (مختصر كتاب البلدان ١٩٩) ومن عجائبها» كهفٌ في جبل ينبع منه ماء شبيه بالعَرَق من حجارة، فيكون منه هذا الموميا الأَبيض الجيّد[٣]، وعلى هذا الكهف بابٌ من حديد، وحَفَظَةٌ، ويُغلَقُ ويُخْتَم بخاتم السلطان إلى يوم من السنة، يُفتح فيه، ويجتمع القاضي وشيوخُ البلد حتى يُفتح بحضرتهم، ويدخل إليه رجل ثقة عُريان، فيجمع ما قد اجتمع من الموميا، ويجعلُه في قارورة، فيصير ذلك مقدار مئة مثقال أو دونها، ثم يخرج ويختم الباب بعد قَفْله إلى قابل، ويوجّه بما اجتمع منه إلى السلطان. وخاصيَّتُه لكلِّ صَدْعٍ أو كسر في العظم يُسقى الإنسان الذي قد انكسر شيءٌ من عِظامه مثلَ العَدَسَة، فينــزل أوّل ما يشربه إلى الكسر؛ فيجبره ويُصلحه لوقته» (ياقوت)

مكث أبو الطيّب في أَرَّجان نحوَ شهرين، لقيَ خلالهما حفاوةً بالغة من قِبَل مُضيفه، فأغدق عليه عطاياه، إذْ منحه خلالَ هذه الــمُدَّة القصيرة نحو خمسين ألف دينار، وهدايا أُخرى. وكان يدخل عليه كلَّ يوم، ويشارك في ما يدور في حلقته الأدبية من مناقشات، وما يُنشَدُ من أشعار. «وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوانَ اللغة الذي جمعه، ويتعجَّب من حفظه وغزارة علمه[٤]».

---

(١) أكبّ على الشيء: أقبل عليه، وشغل به.

(٢) هذه رواية علي بن حمزة البصري رفيق المتنبي في رحلته أوردها عبد الوهاب عزام في كتابه ذكرى أبي الطيب ص ١٧٨ ــ ١٧٩ عن الخزانة ج١.

(٣) المومياء: من الأدوية، وما حُنّط من الأجسام على طريقة قدماء المصريين (فارسية).

(٤) ذكرى أبي الطيب ص ١٧٩.

لقد تألَّق أَبو الطيب في بلاط ابن العميد، وأَخْمل مَنْ في هذا البلاط من الشعراء والأُدباء. ومدحه بثلاث قصائد، أَنْشده الأولى في اليوم الأول من وصوله أَرَّجان كما أَسلفنا، حيث قال:

بادٍ هواكَ صبرتَ أم لـم تَـصْبِرا ... وبُكاكَ إن لم يَجْرِ دمعُكَ أَو جـرى

كم غرَّ صبرُكَ وابْتِـسامُك صـاحباً ... لَمَّا رآك وفي الحَشا مـا لا يُـرى

أَمَـر الفـؤادُ لـسانَهُ وجُفونَـهُ ... فَكَتَمْتَـه وكفـى بجِـسْمِكَ مُخْبِـرا

تَعِسَ المهارِي غيرَ مَهْـريٍّ غـدا ... بمصورٍّ لبس الحريـرَ مُـصوَّرا(١)

إلى أن يقول:

أعطى الزمانُ فما قَبِلـتُ عَطـاءَه ... وأَراد لـي فـأَردتُ أن أتخيَّـرا(٢)

أَرَجَـانَ أَيَّتُهـا الجيـادُ فإنَّـهُ ... عزمي الذي يَذَرُ الوشيجَ مُكَـسَّرا(٣)

لو كنتُ أفعلُ مـا اشـتهيتِ فَعالَـهُ ... ما شقَّ كَوكَبُكِ العجـاجَ الأكـدرا(٤)

أُمِّي أبـا الفـضلِ الـمُبِرَّ أَلِيَّتـي ... لأُيمِمَـنَّ أَجَـلَّ بَحْـرٍ جَـوْهرا(٥)

---

(١) تعس: كبا وعثر. المهاري: جمع مَهْري وهو البعير المنسوب إلى مهرة بن حيدان أبي قبيلة عرفت بحسن القومة على الإبل. يدعو على الإبل كلها بالتعس ما عدا ركوبة الحبيب الذي لبراعة حسنه كأنه صوّر تصويراً.

(٢) أي أراد عطاء الممدوح دون عَطاء الزمان.

(٣) أرجانَ: أي اقصدي أيتها الجيادُ أرجان، فلا شيء يصدُّك عنها، لأن عزمي يحطم الرماح بقوّته. والوشيح: الشجر الذي تتخذ منه الرماح.

(٤) الفَعال: الفعل. كوكب الخيل: جماعتها. العجاج: الغبار. الأكدر: الكدر. يقول لخيله: لو فعلت ما تريدين من الراحة ما ركضتُك في الغبار المظلم وما تجشمْتُ الأسفار.

(٥) أُمّي: اقصدي. الألّيّة: اليمين. الـمُبِرّ: الذي يصدق قسمي إذا أقسمت، وهو أَجلّ البحار جوهراً.

صُغْتُ السِّوارَ لأيِّ كفٍّ بَشَّرت بابن العميد وأيِّ عبدٍ كَبَّرا[١]

إن لم تُغِثْني خيلُه وسلاحُه فمتى أَقودُ إلى الأَعادي عسكرا[٢]

بأبي وأمي ناطقٌ في لفظه ثَمَنٌ تُباع به القُلوبُ وتُشْترى[٣]

ثم يصف بلاغة ابن العميد فيقول:

يا مَنْ إذا وردَ البلادَ كتابُه قَبْلَ الجيوشِ ثنى الجيوشَ تَحيُّرا[٤]

قَطَفَ الرجالُ القولَ وقتَ نباتِه وقطفتَ أنتَ القولَ لما نَوَّرا[٥]

وإذا سَكَتَّ فإنَّ أبلغَ خاطبٍ قَلَمٌ لك اتَّخذ الأَصابعَ منبرا[٦]

فدعاك حُسَّدُكَ الرئيسَ وأَمْسَكوا ودعاك خالقُك الرئيسَ الأَكبرا

أَرأَيتَ هِمَّةَ ناقتي في ناقةٍ نَقَلَتْ يَداً سُرُحا وخُفاً مُجمَرا[٧]

تركت دُخانَ الرِّمثِ في أَوطانها طلباً لقومٍ يُوقِدون العنبرا[٨]

---

(١) يقول: إن الكف التي أشارت إلى ابن العميد، وبشرتني به لها عندي السوار أَحليها به، وكذلك للعبد الذي كبَّر عندما وقع بصره على بلد الممدوح.

(٢) يطلب من الممدوح أن يمده بالخيل والسلاح ليستطيع محاربة أعدائه.

(٣) بأبي وأمي: أي أفديه بهما. يصفه بالبلاغة فهو يملك القلوب بحلاوة لفظه، فيصير لفظه ثمناً للقلوب؛ فيتصرف فيها كما يريد.

(٤) يقول: إنه لبلاغة كلامه، وشدّة وعيده يجعل جيوش الأعداء في حيرة من أمرها، فيُردّها خائفة مذعورة.

(٥) يقول إن كلام الناس كالثمرة التي تقطف قبل نضجها، أما كلامك فهو كالثمرة الناضجة، وقد بلغ الغاية في الحسن والكمال.

(٦) وإذا سكتَّ ناب عنك قلمك البليغ.

(٧) السُّرُح: السهلة السير. والـمُجْمَر: الشديد الصلب. يذكر علو همّة ناقته حين قصدت ابن العميد، وأنها استأثرت بذلك دون غيرها من النياق.

(٨) الرِّمْث: نبت يوقد به يشبه الغضا، وهو من مراعي الإبل. والمراد: أن ناقته تركت الأعراب ووقودهم، وأتت قوماً وقودهم العنبر.

وتَكرَّمــت رُكَبَاتهــا عــن مَبْــركٍ تَقَعانِ فيه وليس مِــسْكاً أَذْفــرا[١]

فأتَتْـــكَ داميـــةَ الأَظَـــلِّ كأنَّمـــا حُذِيت قوائمُها العَقيــقَ الأَحمــرا[٢]

مَنْ مُبلــغُ الأَعــرابِ أَنّــي بعــدها شاهدتُ رِسْـطاليسَ والإسـكندرا[٣]

وســمعتُ بَطْليمــوسَ دارسَ كُتْبِــهِ مُتملِّكـــاً مُتبـــدِّياً مُتحـــضِّرا[٤]

ورأيـــتُ كـــلَّ الفاضـــلين كأنَّمـــا ردَّ الإلـــهُ نفوسَـــهم والأَعـــصُرا

يــا ليــتَ باكيــةً شــجاني دمعُهــا نظرت إليكَ كما نظــرتُ فتَعْــذِرا[٥]

وذكر الخطيبُ التبريزي في شرحه: أن المتنبي لما قصد مصر، ومدح كافوراً، مدح الوزيرَ أَبا جعفر ابن الفرات وزير كافور بقصيدته الرائية التي أولها: بادٍ هواكَ صَبَرت أم لم تصبرا، وجعلها موسومةً باسمه، فكانت إحدى قوافيها: جعفرا، وكان قد قال فيها:

صُغْتُ الــسِّوارَ لأَيّ كــفٍّ بــشَّرت بـــاب الفـــراتِ وأَيّ عبـــدٍ كبَّـــرا

فلمَّا لم يُرضِهِ صرَفَها عنه، ولم يُنشِدْه إياها. فلمَّا توجَّه إلى عضد الدولة قصد أَرَّجان وبها أبو الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة والد عضد

---

(١) الأذفر: الذكي الرائحة. يقول تكرمت ناقتي عن أن تبرك إلاّ على المسك الأذفر. بحضرة الممدوح.

(٢) الأظل: باطن خف البعير. يقول: إن ناقته دميت أخفافُها لطول السير، وحزونة الطريق حتى كأنها انتعلت العقيق الأحمر.

(٣) يقول: إنه بعد أن فارق الأعراب مَثَل في حضرة عالم هو في علمه وحكمته مثل أرسطوطاليس، وفي سعة ملكه كالإسكندر.

(٤) بطليموس: هو العالم الفلكي صاحب كتاب المجسطي، والشاعر يشبّه ابن العميد به في علمه وحكمته. وهو يجمع بين جلالة الملك وفصاحة البدو، وظرافة الحضر.

(٥) يقول: ليت الباكية التي بكت على فراقي، وأحزنني بكاؤها رأتك كما رأيتك لتعذرني في فراقها وركوب الأخطار في سفري إليك.

الدولة، والكاتب الأديب الكبير المعروف، فحوَّل القصيدةَ إليه، وحذف منها لفظَ «جعفراً» وجعل ابنَ العميد مكان ابن الفرات[1].

ولعل خير ما قيل في ردّ هذه التهمة هو «أن المتنبي كان أَمْهرَ وأَشدَّ احتياطاً من أن يصنع هذا بابن العميد، وإنما يُصنع هذا بالجُّهال وأشباه الجُّهال، لا برجلٍ اعترف له الشرق الإسلامي بالتفوُّق في العلم والأدب، والفن والنقد[2]» كما أنَّ أبا الطيب لم يكن «عَيِيًّا بالشعر؛ فيحوِّل قصيدةً من مدح ابن الفرات إلى مدح ابن العميد، ويتكلَّف حذفَ أبياتٍ، وإثباتَ أبياتٍ، وتغيير أُخرى لتلائم ممدوحه الثاني[3]» ومع ذلك فإن هذه الرائيَّة لم تَنَلْ إعجابَ الوزير، ولم تُرضِ حاجته من شعر المتنبي؛ فأرسل بعضَ نُدمائه إلى المتنبي ليقولَ له: «كان يبلغني شعرُك بالشام والمغرب، وما سمعتُه دونَه» فلم يَحِرْ جواباً إلى أن حضرهُ النيروز، وأنشده مهنِّئاً ومعتذراً[4] عن تقصيره في قصيدةٍ ثانية، أَنشده إياها في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣٥٤هـ حيث قال يمدحه، ويهنِّئه بعيد النيروز، ويصف سيفاً قلَّده إياه، وفرساً حمله عليه، وجائزةً وصله بها:

جـاء نيروزُنا وأَنـت مُـرادُهْ ... وَوَرَتْ بالـذي أَرادَ زنـادُه[5]

---

(١) انظر تعليق شارح ديوان المتنبي عبد الرحمن البرقوقي ص ٢٦٤ ج ٢ وهذا الرأي أيده بلاشير في كتابه أبو الطيب المتنبي ص ٤١٦.

(٢) انظر مع المتنبي ص ٣٦٤.

(٣) ذكرى أبي الطيب ص ١٧٧.

(٤) المرجع السابق ص ١٨١ عن صاحب الإيضاح.

(٥) النيروز: من أعياد الفرس. والزناد: جمع زند، وهو الحجر يُقتدح به. ورى الزند: إذا أخرج ناراً. يقول: جاء هذا اليوم، وأنت مراده ومقصوده بمجيئه تيمُّناً بطلعتك، وقد تحقق مراده حين رآك.

إلى أن يقول معتذراً عن قصيدته الرائية:

هل لِعُذْري عند الـهُمام أَبي الفَضَـ ـلِ قَبولٌ سـوادُ عينـي مِـدادُه[١]

أنـا مـن شـدَّة الحياءِ عليـلٌ مَكْرُمـاتِ المُعلِّـهِ عُـوَّادُه[٢]

ما كفاني تقـصيرُ مـا قلـتُ فيـه عن عُلاهُ حتـى ثنـاهُ انتقـادُه[٣]

إنَّنـي أَصْـيَدُ البُـزاةِ ولكـ ـنَّ أَجلَّ النجـومِ لا أَصـطادُه[٤]

رُبَّ مـا لا يُعبِّـر اللفـظُ عنـه والذي يـضمرُ الفـؤادُ اعتقـادُه[٥]

ما تعوَّدْتُ أن أرى كـأبي الفـضـ ـلِ وهذا الـذي أَتـاهُ اعتيـادُه[٦]

إنَّ فـي المـوج للغريـق لعـذراً واضـحاً أن يفوتَـهُ تَعْـدادُه[٧]

للندى الغَلْبُ إنـه فـاض والـشعـ ـرُ عمادي وابنُ العميدِ عِمـادُه[٨]

ففي هذه القصيدة اعترافٌ صريح بما أَخذه عليه ابن العميد، وبالمهابة التي استشعرها أبو الطيب حين مدح أديباً بليغاً، وناقداً حصيفاً لم يتعوَّد

---

(١) يعتذر عما فرط في قصيدته الرائية مما يؤاخذ به.

(٢) العواد: جمع عائد وهو زائر المريض. يقول: أنا لشدة حيائي كالعليل، وهدايا الذي أعلّني تعودني كلّ يوم.

(٣) يقول: إن تقصير شعري ونقده هما سبب شدّة حيائي.

(٤) يقول: إنني بين الشعراء كالبازي الأَصيد في البزاة، ولكن البازي مهما كان بارعاً في الصيد ليس في مكنته أن يبلغ النجوم فيصيدها.

(٥) يقول: رب أمر يعتقده القلب يعجز اللسان عن التعبير عنه باللفظ لبلوغه مبلغاً لا يحيط به الوصف. وهذا اعتذار عن قصوره في المدح.

(٦) يقول: لم أتعوّد مدح مثله وهو البصير بالشعر ونقده.

(٧) يقول: إن فكري غرق في فضائلك، فليس بوسعي استيفاء وصفها.

(٨) يقول: إن الغلَبة لجوده لأن عماده الممدوح وعمادي الشعر وهو ناقده؛ فلا سبيل إلى مغالبته.

رؤيةَ مثله. وهو ما أَلجأه إلى التكلُّف والإغراب إرضاءً للمدوح؛ فجاء شعره دون المطلوب.

أما القصيدة الثالثة فقد نظمها بعد ثلاثة أَسابيع من القصيدة السابقة يودِّع فيها مُضيفَهُ بعد أن عزم على مُفارقته، والتوجُّهِ إلى شيراز للقاء عضد الدولة. إذ يقول:

نسيتُ وما أَنسى عتاباً على الصَّدِّ ... ولا خَفَراً زادت به حُمْرَةُ الخَدِّ[١]

ولا ليلةً قَصَّرتُها بِقَصُورةٍ ... أَطالت يدي في جيدها صُحبةَ العِقْدِ[٢]

ومَنْ لي بيومٍ مثلِ يومٍ كرهتُهُ ... قَرُبتُ به عند الوَداعِ من البُعْدِ[٣]

وأَنْ لايَخُصَّ الفَقْدُ شيئاً فإنني ... فقدتُ فلم أَفقِد دموعي ولا وجدي[٤]

تَمَنٍّ يَلَذُّ المستهامُ بمثلِه ... وإن كان لا يُغني فتيلاً ولا يُجدي[٥]

وغيظٌ على الأيامِ كالنارِ في الحَشا ... ولكنَّه غيظُ الأَسيرِ على القِدِّ[٦]

ثم يصف تَنقُّلَهُ في البلدان، وغلمانه الذين صحبوه في أسفاره:

---

(١) الخَفَر: الحياء. يقول: إن أَنْسَ لا أنسى ما جرى بيني وبين الحبيب من العتاب والصدود، ولا الذي انتابه عند ذلك من الحياء الذي ازدادت به حمرة خدّه.

(٢) القَصُورة: المحبوسة في خدرها. أي لا أنسى تلك الليلة القصيرة لطيب مجالستي لهذه المخدّرة ومعانقتي إياها حتى أطالت يدي صحبة جيدها.

(٣) يقول: مَنْ لي بيوم آخر مثل يوم الوداع، لأن المودّع يحظى فيه بالنظر إلى أحبته والتسليم عليهم.

(٤) يتمنّى أن يكون الفقدُ عامًّا شاملاً حتى يفقد البكاء والوجد معاً.

(٥) يقول: إن ما ذكرته هو تمنٍّ لا حقيقة له، ولكن المستهام يلتذ بالتمنّي، وإن كان ذلك لا ينفعه.

(٦) القِدّ: سَيْر يُشَدّ به الأسير. يقول: إن غيظه على الأيام شديد ولكن الأيام لا تبالي بغيظي، ولا تنزل على مرادي.

فإمَّـــا تَرَيِنـــــي لا أُقـــيمُ ببلـــدةٍ فآفةُ غِمدي في دُلُوقي وفي حَدِّي[(١)]

تُبدِّلُ أَيـامي وَعَيْـشي ومنـــزلي نَجائبُ لا يُفْكِرْنَ في النحسِ والسَّعْدِ[(٢)]

وأَوجُـــهُ فِتيـــانٍ حيـــاءً تلثَّمـــوا عليهنَّ لا خوفاً من الحرِّ و البردِ[(٣)]

وليس حياءُ الوجهِ في الذئب شيمةً ولكنَّهُ من شيمةِ الأَسَـدِ الـوَرْدِ[(٤)]

إذا لــم تُجِــزهم دارَ قــومٍ مَـودَّةٌ أَجاز القنا والخوفُ خيرٌ من الودِّ[(٥)]

وينتقل إلى المدح فيقول:

يَحيدون عن هزْلِ الملوكِ إلى الذي توفَّر من بين الملوكِ على الجِـدِّ[(٦)]

ومن يَصْحَبِ اسمَ ابنِ العميدِ مُحمَّدٍ يَسِرْ بين أَنيابِ الأساوِد والأُسْـدِ[(٧)]

فتىً فاتتِ العدوى من الناسِ عَيْنُـهُ فما أَرمدتْ أجفانَهُ كَثْـرةُ الرُّمْـدِ[(٨)]

وخالفهم خَلْقـاً وخُلْقـاً وموضِـعاً فقد جَلَّ أن يُعْدَى بشيءٍ وأَن يُعْدِي

فإن يكنِ المَهديُّ مَـنْ بـان هَديُـهُ فهذا وإلاَّ فالهُدى ذا فما المهـدي؟

---

(١) الدلوق: سرعة خروج السيف من الغمد. يقول: إن رأيتني لا أقيم ببلدة، فإن ذلك عائد لمضائي وبعد همتي كالسيف الحاد إذا طال إغماده أكل غمده.

(٢) النجائب: النوق الكريمة. يقول: إن نجائبه يمضين به ولا يلتفتن إلى نحس أو سعد.

(٣) أراد بالفتيان: غلمانه الذين تلثموا حياءً، وهم لا يبالون بالحر والبرد.

(٤) يقول: إن الحياء من شيم الأسود لا من شيم الذئاب.

(٥) يقول: إنهم من الشجاعة بحيث إذا مروا بدار قوم يجوزونها برماحهم ولم يخافوا أهل تلك الناحية. والخوف خير من الودّ.

(٦) يقول: إن هؤلاء الفتيان يجتنبون من يهزل من الملوك، ويأتون من توفَّر على الجد وترك اللهو يعني ابن العميد.

(٧) الأساود: الأفاعي. أي من يجعل اسم ابن العميد صاحباً له في سفره يمكنه السير بين أنياب الحيَّات والأسود.

(٨) يقول: إن عينه فاتت العدوى فلم يعدها رمد غيرها.

أَلحــزَمَ ذي لُــبٍّ وأكــرمَ ذي يــدٍ		وأشجعَ ذي قلبٍ وأرحــمَ ذي كِبْــدِ
وأَحــسنَ مُعــتَمٍّ جُلوســاً ورِكْبــةً		على المنبر العالي أَوِ الفرسِ النَّهْــدِ[١]
تفــضَّلَتِ الأيــامُ بــالجمع بيننــا		فلمَّا حَمِدنا لم تُــدِمْنا علــى الحمْــدِ

ثم يذكر أَهله وانتظارهم رجوعه:

وقد كنتُ أَدركتُ المُنى غيرَ أَننــي		يُعيِّرني أَهلــي بإدراكهــا وَحْــدي
فجُدْ لي بقلــبٍ إن رحلــتُ فــإنني		مُخلِّفُ قلبي عند مَنْ فَضْلُهُ عِنْــدي
ولو فارقت نفــسي إليــكَ حياتَهــا		لَقُلْتُ أَصابت غيرَ مذمومــةِ العَهْــدِ

وفي الديوان قطعتان، الأولى خمسة أبيات قالها حين وَرَدَ عليه كتابٌ من أبي الفتح ابن أبي الفضل ابن العميد يُثْني عليه، ويتشوَّق إليه إذ قال:

بكُتْــــبِ الأنــــامِ كتــــابٌ وَرَدْ		فَــدَتْ يَــدَ كاتبــهِ كــلُّ يَــدْ
يُعبِّــــر عمَّــــا لــــه عنــــدنا		ويذكرُ من شوقهِ مــا نجــد...الــخ

والقطعة الثانية قالها في وصف مجمرة محشوَّة بالنرجس والآس رآها في مجلس ابن العميد فقال مرتجلاً:

أَحَــبُّ امــرىءٍ حَبَّــتِ الأنْفُــسُ		وأطيــبُ مــا شــمَّه مَعْطِــسُ[٢]
ونَــشْرٌ مــن النَــدِّ لكنَّمــا		مَجــامِرُهُ الأسُ والنَّــرجِسُ
ولــسنا نــرى لَهبــاً هاجَــهُ		فهــل هاجَــهُ عــزُّكَ الأَقْعَــسُ[٣]
وإن الفِئــامَ التــي حَولَــه		لَتَحــسُدُ أَرجلَهــا الأَرؤُسُ[٤]

---

(١) معتم: من لبس العمامة. رِكْبة: هيئة الركوب.

(٢) المعطس: الأنف.

(٣) الأَقعس: الثابت، أو العالي.

(٤) الفئام: الجماعات من الناس. أي إن هؤلاء القيام بين يديك تحسد أرؤسهم أرجلهم لأنها وقفت في خدمتك.

في بلاط عضد الدولة

عندما عزم أبو الطيب على أَن يودِّعَ «أبا الفضل ابن العميد، ورد كتابُ عضدِ الدولة يستدعيه؛ فعرَّفه ابنُ العميد، فقال: مالي وللديلم؟ فقال أبو الفضل: عضدُ الدولة أَفْضلُ منِّي ويصلُك بأَضعاف ما وصلتُك به فأَجاب: إنِّي مُلَقًّى[١] من هؤلاء الملوك، أَقصِدُ الواحدَ بعدَ الواحد، وأُملِّكهم شيئاً يبقى ببقاء النَّيِّرين، ويُعطونَني عَرَضاً فانياً، ولي ضَجَراتٌ واختياراتٌ، فيعوقونَني عن مُرادي؛ فأَحتاج إلى مفارقتهم على أَقْبح الوجوه!» فكاتَبَ ابنُ العميد عَضُدَ الدولة بهذا الحديث، فورد الجوابُ بأَنَّ أَبا الطيّب «مُملَّكٌ مُرادَهُ في المقام والظعن» فأدرك أبو الطيب خُطورةَ موقفه؛ إذْ ليس من الحكمة إغضابُ ملكٍ كعضد الدولة لا يقلّ كرماً وحفاوةً بالشعر والشعراء عن ابن العميد الذي كانَ عازماً بدوره على مغادرة أَرَّجان. ونظراً إلى ما لمسه من تردّد أبي الطيب في الذهاب إلى شيزار، عرض عليه التوجُّهَ إلى الريّ استجابة لرغبة ولده أبي الفتح، ولكن أَبا الطيب حسم الأمر أخيراً، وقرر التوجُّهَ إلى عضد الدولة معتذراً من مُضيفه بلباقة. فإن شيراز التي لا تقل أهميةً عن الريّ أقربُ إلى الكوفة التي ينوي العودة إليها. ولم يغرب عن بال أبي الطيب أن السلطان أبا شجاع عَضُدَ الدولة ابن السلطان ركن الدولة، كان ندّاً لأبيه ملك شمالي فارس، وعمّه معز الدولة سلطان العراق. وقد تميَّز عضد الدولة بالجرأة والحزم، والاهتمام بشؤون العمران، فكان رجلَ دولةٍ بحق. يضاف إلى ذلك تنوُّعُ ثقافته وشمولُها؛ إذْ كان ذا معرفة ممتازة بفقه اللغة، والنحو، والأدب، وعلم الكلام، والطب، والعلوم الرياضيّة، ونظم الشعر. ولم يكن أقلَّ سخاءً على العلم والأدب من سيف الدولة ابن حمدان. فكانت شيراز في عهده مركزاً ثقافياً مرموقاً، وإن لم يرقَ إلى مستوى حلب، ولكنه كان أكثر تألُّقاً من الفُسطاط؛ لذلك كان بلاطُهُ بشيراز. مركزَ جذْبٍ للكثير من العلماء. والأدباء من

---

(١) المُلَقَّى: المُمْتَحَن لا يزال يلقاه مكروه. يُقال: «الشّجاع مُوقًّى، والجبان مُلَقًّى».

أمثال العالم الفلكي الصوفي أبي الحسين عبد الرحمن بن عمر (المولود في الريّ والمتوفَّى سنة ٣٧٦هـ) والطبيب أبي الحسن علي المجوسي صاحب كتاب «الملكي في الطب» وأبي علي الفارسي الذي عرفه المتنبي في حلب، وابن جني صاحبه، وأبي الحسين علي بن عيسى الرَّبَعِيّ (المولود في بغداد سنة ٣٣٠هـ والمتوفىّ فيها سنة ٤٢٠هـ) وعبد العزيز بن يوسف الكاتب المترسّل (رئيس ديوان عضد الدولة بشيراز) والقاضي أبي بكر هبة الله الحسين الشيرازي الملقّب بابن العلاَّف (المولود في شيراز والمتوفى فيها سنة ٣٧٠هـ) الذي كان فقيها، ونحويًّا، وشاعراً ذا موهبة أصيلة في النظم. وسواهم.

كذلك فإن بني بُويه عموماً عُرِفوا باهتمامهم بالآداب العربية أكثر من اهتمامهم بآداب الفرس، لأن الأدب العربي كان أكثر رَواجاً، وأَوْسَعَ انتشاراً من سواه في المناطق التي حكموها، وبسطوا نفوذهم عليها. فلا غرابةَ إذَنْ أن يكون عَضُدُ الدولة معجباً بالمتنبي، ويتمنّى قدومَهُ عليه.

ويُروى: «أنه كان جالساً في البستان الزاهر في يوم زينته، وأكابر حواشيه وقوف، فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف: ما يُعْوِزُ مجلسَ مولانا سوى أحد الطائييَّن؛ فقال عضدُ الدولة: لو حضر المتنبي لناب عنهما».

وفي أواخر شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٤هـ غادر المتنبي أَرجَّان ومعه ولده مُحسَّد، وأَصحابه متوجهاً إلى شيراز، ثم توغَّل الركبُ في بلاد فارس مارّاً بِشِعْب بَوَّان الموصوف بالحسن والنـزاهة، وكثرة الشجر، وتدفُّق المياه، وهو موضع من أحسن ما يُعرف، فيه شجر الجوز والزيتون، وجميع الفواكه النابتة في الصخر. وكُتِبَ على شجرة بشِعْب بَوَّان[(١)]:

إذا أَشرفَ المحزونُ من رأسِ تَلْعةٍ ... على شِعْبِ بَوَّانَ استراحَ من الكَرْبِ

وأَلهــاه بطــنٌ كــالحريرة مَــسُّهُ ... ومُطَّرِدٌ يجري من البــاردِ العــذبِ

---

(١) رويت عن المبرّد.

وطيبُ ثمارٍ فـــي ريـــاضٍ أَريـــضةٍ		على قُربِ أَغصانٍ جَناها على قُرْبِ[١]

فباللهِ يـــا ريـــحَ الجَنـــوبِ تَحمَّلـــي		إلى أَهلِ بغدادٍ ســـلامَ فتـــىً صَـــبِّ

وشِعْبُ بَوَّان وادٍ عميق، والأشجار والعيون التي فيه إنما هي من جَلْهتيه[٢]، وأَسفل الوادي مضايق تجتمع فيها تلك المياه وتجري، وليس فيه أرض وطيئة البتَّة بحيث تُبنى فيه مدينة، ولا قرية كبيرة. وممّن سُحروا بِشِعْب بَوَّان أحمد بن الضحاك الفلكي، فكتب إلى صديق له يصفه: «بسم الله الرحمن الرحيم. كتبت إليك من شِعْب بَوَّان، وله عندي يدٌ بيضاءُ مذكورةٌ، ومِنَّةٌ غرَّاءُ مشهورة؛ بما أَولانيه من منظرٍ أَعدَى[٣] على الأحزان، وأَقال من صروف الزمان، وسرَّح طَرْفي في جداولَ تطَّردُ بماءٍ مَعِين، منسكبٍ أَرقّ من دموع العشَّاق، مَرَّرتْها لوعةُ الفراق. وأَبرد من ثغور الأَحباب عند الالتئام والاكتئاب، كأنها - حين جرى آذيُّها[٤] يترقرق، وتدافع تيَّارُها يتدفّق، وارْتَجَّ حَبابُها يتكسَّر، في خلال زهرٍ ورياضٍ ترنو بحدق تولَّد قصبَ لُجينٍ في صفائح عِقْيان، وسموط دُرٍّ بين زَبَرْجدٍ ومَرْجان - أَثَرٌ على حكمةِ صانعه شهيد، وعَلَمٌ على لطف خالقه دليل. إلى ظِلٍّ سَجْسج أَحوى[٥]، وخَضِلٍ أَلمى، قد غَنَّت عليه أَغصانٌ فَيْنَانة، وقُضُبٌ غيدانة، تشوَّرت[٦] لها القدودُ المهفهفةُ خَجَلاً، وتقيَّلَتْها[٧] الخصورُ المرهفة تشبُّهاً. يستقيدُها النسيمُ فَتَنْقاد، ويعدل بها؛ فتنعدل. فمن مُتورِّدٍ يروقُ منظرُهُ، ومرتَجٍّ يتهدَّلُ مُثْمِرُهُ، مشتركةٌ فيه حُمرةُ نُضْجِ الثمار، ينفحه نسيمُ النُّوار. وقد أَقمتُ به يوماً، وأنا لخيالِك مُسامرٌ،

---

(١) الأرض الأَريضة: الزكيَّة، أو المُعْجِبَة للعين.

(٢) الجَلْهة: إحدى حافتي الوادي.

(٣) أعدى على الأحزان: أكثر قدرة على تجاوز الأحزان.

(٤) الآذيّ: الموج الشديد.

(٥) سجسج: لا حرّ فيه ولا برد. أحوى: خالطت سواده خضرة.

(٦) شورّ فلاناً، وشوَّر به: أخجله، وفعل ما يُخجله.

(٧) تقيَّلتها الخصور المرهفة: نزعت إليها في الشَّبه.

ولشوقك مُنادم، وشربتُ لك تذكاراً، وإذا تفضّل الله بإتمام السلامة إلى أن أُوافيَ شيراز، كتبتُ إليك من خَبَرِي بما تقف عليه إن شاء الله تعالى». (عن ياقوت ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه مع خلاف بسيط في النص)

«ولم ينجُ المتنبي من سحر شِعْب بَوَّان، فتأمَّلَ مذهولاً ظلالَه الوارفة، ومياهه المتدفِّقة، واستنشق عبيرَ جِوائه ذاتِ اللَّطافة اللامتناهية، ودُهش لمرأى نباتات الشِّعب شبه الاستوائية التي اختبأت فيها الوحوشُ الضَّارية، وقد أذكرته تلك المناظِرُ أمكنةً أُخرى تُضاهيها جمالاً كغوطة دمشق، وبقية الأمصار العربية التي عرفها[(١)]» ثم وصفه شعراً سنأتي على ذِكْرِه لاحقاً. وتَابَع الركبُ سيرَه حتى وصل إلى النُّوبَنْدَجان التي تبعد عن أَرَّجَان ستَّةً وعشرين فرسخاً، وبينها وبين شيراز قريبٌ من ذلك، والنُّوبَنْدَجان من أكبر مدن خوزستان، تَحفُّ بها الحدائقُ، وأشجارُ النخيل الباسقة. وبعد أن قطع الركبُ ثلاثَ مراحلَ، تمكَّن من بلوغ مدينة شيراز، مدينة الورد، بعد مروره بوادٍ على جانبيه مُدرَّج جبليّ حيث استقبله على مشارف المدينة رسولُ عضد الدولة على رأس حاشية ملكية، ثم توجَّهوا جميعاً إلى عاصمة الملك البويهيّ. وفي الطريق إليها استنشده رسولُ عَضُدِ الدولة أَبو عمر الصبَّاغ أخو أبي بكر محمد الأَبهري صاحب كتاب «حدائق الآداب» مقصورته التي فارق مصر بها:

أَلاَكــلُّ ماشــيةِ الخيزَلَــىَ ... فِدى كــلِّ ماشــيةِ الهيــذبى

ثم دخل البلدَ، فأُنزِل داراً مفروشةً، ورجع أبو عمر الصبَّاغ إلى عضد الدولة، فأَخبره بما جرى، وأَنْشَده أَبياتاً من قصيدته وهي:

فلمَّا أَنَخْنــا رَكَزْنــا الرمــاحَ ... بـــينَ مكارِمنـــا والعُــــلا

وبِتْنــا نُقبِّـــلُ أَسْـــيافَنا ... ونمسحُها من دمــاءِ العــدى

لِتعلمَ مصرُ ومَــنْ بــالعِراق ... ومَنْ بالعواصِمِ أَنِّــي الفتــى

وأَني وَفَيْــتُ وأَنّــي أَبَيْــتُ ... وأَني عَتَوْتُ على مَــنْ عتــا

---

(١) انظر بلاشير ص ٤١٩.

فقال عضدُ الدولة: هُوَذا يتهدَّدُنا المتنبِّي!

وكان وصولُه في شهر جُمادى الأولى سنة ٣٥٤هـ ولما استراح أبو الطيب ونفض عنه غبارَ السفر ركب إلى عضد الدولة في قصره بالضاحية الجنوبية من المدينة، وهو قصر باذخ، تحفُّ به الحدائقُ الغنَّاء. فلما توسَّط المجلسَ انتهى إلى قرب السرير مُصادمةً، فقبَّل الأَرضَ، واستوى قائماً، وقال: «شكرتُ مَطيَّةً حَمَلَتْني إليك، وأَمَلاً وقف بي عليك». ثم سأَله عضدُ الدولة عن مسيره من مصر، وعن عليٍّ بن حمدان، فذكره وانصرف[1]».

«وحكى عبدُ العزيز بن يوسف الجرجاني، وكان كاتبَ الإنشاء عند عضد الدولة، عظيمَ المنـزلة منه. قال: لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلسَ عضد الدولة، وانصرف عنه، أتبعه بعضَ جُلَسائه، وقال له: سَلْه: كيف شاهد مجلسَنَا؟ وأين الأمراءُ الذين لَقِيُهُم منَّا؟ قال: فامتثلتُ أَمْرَهُ، وجاريتُ المتنبي في هذا الميدان، وأطلتُ معه عنانَ القول، فكان جوابُه عن جميع ما سمعه منِّي أن قال: ما خَدَمَتْ عيناي قلبي كاليوم. ولقد اختصر اللفظَ وأَطال المعنى، وأجاد فيه. وكان ذلك من أوكد الأسباب التي حظيَ بها عند عضد الدولة.

وكان أبو علي الفارسي حيْنذاك بشيراز، وكانَ مَمَرُّ المتنبي إلى دار عضد الدولة على دار أبي علي الفارسي، وكان إذا مرَّ به أبو الطيب يستثقله على قُبح زيّه، وما يأخذُ به نَفْسَهُ من الكبرياء، وكان لابن جنّي هوىً في أبي الطيب، كثير الإعجاب بشعره، لا يُبالي بأَحد يذمُّه أو يحطُّ منه. وكان يسوؤه إطنابُ أبي عليٍّ في ذمِّه. واتفق أن قال أبو علي يوماً: اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحثُ فيه، فبدأ ابنُ جنّي، وأنشد:

حُلْتِ دونَ المزارِ فاليومَ لو زُرْ ... تِ لَحالَ النحولُ دونَ العناقِ

فاستحسنه أبو علي، واستعاده. وقال: لمن هذا البيت؟ فإنه غريبُ المعنى! فقال ابنُ جِنِّي: للذي يقول:

أَزورُهم وسوادُ الليلِ يشفعُ لي ... وأَنثني وبياضُ الصبحِ يُغري بي

---

(١) انظر ذكرى أبي الطيب ص ١٨٥ عن شرح المعري بتصرف.

فقال: والله هذا حسنٌ، بديعٌ جداً، فَلِمَنْ هما؟ قال: للَّذي يقولَ:

أمضى إرادتَـــهُ فـسوف لـــه قَـدٌ   واستقربَ الأَقصى فَـثَمَّ لـــه هنـــا

فَكَثُر إعجابُ أبي عليّ، واستغرب معناه. وقال لمن هذا؟ فقال ابن جني: للّذي يقول:

ووضْعُ الندى في مَوْضِعِ السيف بالعُلا   مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى

فقال: وهذا حسن والله، وقد أطلتَ يا أبا الفتح؛ فأخبرنا من القائلُ؟ قال: هو الذي لا يزال الشيخ يَسْتَثْقِلُه، ويستقبحُ زيَّه وفعْلَهُ. وما علينا من القشور إذا استقام اللُّبُّ؟ قال أبو علي: أَظَنُّكَ تعني المتنبي؟ قلت: نعم.

قال: والله لقد حبَّبَتَهُ إليَّ. ونهض ودخل على عضد الدولة، فأطال في الثناء على أبي الطيب. ولما اجتاز به استنـــزله، واستنشده، وكتب عنه أبياتاً من الشعر"(١).

نظم أبو الطيب في شيراز ستَّ قصائد، وأُرجوزةً طرديَّة. وقطعةً شعرية من عدة أبيات. وأَوَّلُ هذه القصائد التي أَنشدها عَضُدَ الدولة بعد بضعة أيام من وصوله القصيدةُ الهائية التي افتتحها بالنسيب فقال:

أَوْهِ بديلٌ من قَــوْلَتي واهـــا   لمن نأَتْ والبديلُ ذكراهـــا(٢)

أَوْهِ لِمـــنْ لا أَرى محاســـنَها   وأَصْلُ واهاً وأَوهِ مرآهـــا(٣)

شاميَّةٌ طالمـــا خَلَــوْتُ بهـــا   تُبصِرُ في ناظِري مُحيَّاهـــا(٤)

فقبَّلَـــتْ نـــاظري تُغـــالِطُني   وإنَّمـــا قبَّلَـــتْ بـــه فاهـــا(٥)

---

(١) الصبح المنبي ص ١٦١-١٦٢.

(٢) أَوْهِ: كلمة تعجب، وواها: كلمة تعجب واستطابة. يقول: كنت أَتعجب من وصالها، وأستطيب قربها، فصرت الآن أتوجع لفراقها، فصار التأوّه بديلاً من التعجب والاستطابة.

(٣) يقول: إنني أتوجع لأني لا أرى محاسنها، ولو لم أَرَهَا لم أستطب قربها، ولم أتوجع لفراقها.

(٤) المحيا: الوجه. والناظر: العين. قال الواحدي: أنه أراد حبها إياه فهي تنظر إلى وجهه، وتدنو منه لحبه حتى ترى وجهها في ناظره. ولعل المراد أنها ترى أثر انبهاره بجمالها في عينيه.

(٥) أي أوهمتني أنها قبَّلت عيني، وإنما قبلت فاها الذي رأته في ناظري.

ثم يُعرب عن تعلُّقه بالشام حيث قضى شبابه هناك:

أُحِـــبُّ حِمْـــصاً إلـــى خُناصـــرةٍ وكـــلُّ نفـــسٍ تُحِـــبُّ مَحْياهـــا[(١)]

حيث التقـى خـدُّها وتفـاحَ لُبْـــ ـــنانَ وثغـري علـى حُمَيَّاهـا[(٢)]

وصِـــفْتُ فيهـــا مَـــصيفَ باديـــةٍ شَـــتَوْتُ بالصَّحْـــصَحانِ مَـــشْتاها[(٣)]

إنْ أَعْـــشَبَتْ روضـــةٌ رَعَيناهـــا أو ذُكِـــرتْ حِلَّـــةٌ غَزَوْناهـــا[(٤)]

أو عَرَضَـــتْ عانـــةٌ مُقَزَّعـــةٌ صِـدنا بـــأُخرى خيلنـــا أُولاهـــا[(٥)]

وينتهي بمدح عضد الدولة في القسم الثالث من القصيدة:

وقـــد رأيـــتُ الملـــوكَ قاطبـــةً وسِـــرْتُ حتـــى رأيـــتُ مَوْلاهـــا

وَمَـــنْ مَنَايـــاهم براحتـــه يأْمُرُهـــا فـــيهم ويَنْهاهـــا[(٦)]

هـــو النفـــيس الـــذي مواهبُـــه أَنْفَـــسُ أموالِـــه وأَســـناها[(٧)]

دان لـــه شـــرقُها ومغربُهـــا ونفـــسُهُ تـــستقِلُّ دنياهـــا[(٨)]

---

(١) محياها: موطن حياتها. يقول: أحب حمصاً وما يليها إلى خناصرة لأنها موضع نشأتي. وكل نفس تحن إلى موطن حياتها.

(٢) الحُمَيَّا: سَوْرة الخمر. يقول: أحب هذين الموضعين حيث اجتمعت لي هذه الطيبات خدّ الحبيب، وثغري، وتفاح لبنان، وشرب المدام.

(٣) صفت: أقمت في الصيف. الصَّحْصَحان: الأرض المستوية الواسعة. يقول: اصطفت بها اصطياف أهل البادية، وشتوت بالصحصحان كشتاء أهل البادية.

(٤) الحلَّة: منـزل القوم، وجماعة البيوت.

(٥) العانة: القطيع من حُمُر الوحش. مقزَّعة: خفيفة، مفرَّقة.

(٦) يقول: هو يُحيي من يشاء من الملوك، ويُميت من شاء.

(٧) أي إنه يهب أفضل أمواله.

(٨) دان له: خضع وأطاع. يقول: أطاعه أهل الشرق والغرب، ودانوا له. ونفسه تستقل جميع الدنيا. قال الواحدي: وكذا كان يقول عضد الدولة: سيفان في غمد محال. يعني أن الدنيا يكفي فيها ملك واحد، وكان يقصد أن يستولي على جميع الدنيا! وهو ما يذكرنا بجنون هتلر.

تجمعَّت في فؤادهِ هِمَمٌ   مِلءُ فؤادِ الزمان إحداها
لو كفر العالَمونَ نعمتَه   لما عدت نَفْسُه سجاياها[(١)]
كالشمسِ لا تبتغي بما صنعت   منفعةً عندهم ولا جاها

وعلى الرغم من الحفاوة التي قُوبل بها أَبو الطيب عند قدومه على عضد الدولة، فإنه لم يستطع أَنْ يكتم هواه الشامي، وحنينه إلى تلك الربوع التي شهدت أيامَ فتوَّته وشبابه، لينتقل بعدها إلى مدح مُضيفه، مُشيداً بكرمه، وشجاعته، وقوَّة سلطانه، وتفوقه على نُظرائه من الملوك.

وما إن استقرّ به المقام في شيراز حتى ابتدر مضيفَهُ بقصيدةٍ ثانية يمدحُهُ وولديه أبا الفوارس، وأبا دُلَف، ويذكر مروره وافتتانَهُ بشِعْب بَوَّان، فقال:

مغاني الشِعْبِ طيباً في المغاني   بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ[(٢)]
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها   غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ
ملاعبُ جِنَّةٍ لو سار فيها   سليمانٌ لسار بتُرْجُمانِ[(٣)]
طَبَتْ فرسانَنا والخيلَ حتى   خشيتُ وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ[(٤)]
غَدَوْنا تنفضُ الأغصانُ فيها   على أَعرافها مِثلَ الجُمانِ[(٥)]

---

(١) عدت: جاوزت. يقول: لو قوبل إنعامه بالجحود لم يترك الإحسان إلى الناس لما جُبل عليه من السجايا الكريمة.

(٢) المغاني: جمع مغنى، وهو المنزل أقام به أهله، ثم ظعنوا عنه. والشعب: المنفرج بين جبلين. يقول: منازل هذا المكان في المنازل كالربيع من الأزمنة. يعني أنه أفضل الأمكنة.

(٣) الجِنَّة: الجن. وسليمان: هو سليمان الحكيم.

(٤) طبت: دعت، واستهوت. يقول: إن هذه المغاني استمالت قلوبنا وقلوب خيلنا بخصبها وطيبها حتى خشينا على خيلنا من الحران.

(٥) الأعراف: جمع عُرف وهو شعر عنق الفرس. الجمان: حب من فضة يشبه اللآلئ.

فلما وصل إلى قوله:

فسرتُ وقد حَجَبْنَ الشمسَ عنّي — وجِئْنَ من الضياءِ بما كفاني[1]

وألقى الشرقُ منها في ثيابي — دنانيراً تَفِرُّ من البَنانِ[2]

فقال عضد الدولة: والله لأُقِرَّنَّها، وفعل (أي لأَجعلها في يدك):

لها ثمرٌ تُشيرُ إليكَ منه — بأَشْربةٍ وقفْن بِلا أواني[3]

وأمواهٌ تصِلُّ بها حَصاها — صليلَ الحَلْي في أيدي الغواني[4]

وتذكِّره مغاني الشِّعْب غوطةَ دمشق ومَنْ فيها فيقول:

ولو كانت دمشقُ ثنى عِناني — لَبيقُ الثُّرْدِ صِينيُّ الجِفانِ[5]

يَلَنْجوجيُّ ما رُفِعت لضيفٍ — به النيرانُ نَدِّيُّ الدخانِ[6]

تَحِلُّ به على قلبٍ شجاعٍ — وترحلُ منه عن قلبِ جبانِ[7]

منازلُ لم يزل منها خَيالٌ — يُشيّعُني إلى النّوبَنْدَجانِ[8]

---

(١) الضمير في حجبن الشمس، عائد للأغصان.

(٢) الشرق: ضوء الشمس، والمشرق. أي يبدو ضوء الشمس على ثيابنا كالدنانير، ولكن يستحيل الإمساك بها لأنها سرعان ما تفر من اليد.

(٣) يقول: إن ثمار هذه الأغصان كأنها أشربة قائمة بنفسها، وليس لها أوعية تمسكها لرقَّة قشرها.

(٤) تصلّ: تصوّت. والحلي: ما تلبسه النساء من الذهب والفضة والجوهر. أمواه: جمع ماء.

(٥) ثنى عنانه: ردّه عن عزمه. اللبيق: الحاذق الرفيق. الثرد: جمع ثريد وهو الخبز يفت ويُبل بالمرق. والجفنة: القصعة. وصيني الجفان: جفانه صينية الصنع. يقول: لو كانت هذه المغاني في دمشق لاستضافني رجل ذو مروءة يُحسن إلى الضيفان، ويقدم إليهم أفضل الطعام.

(٦) اليلنجوج: عود يُتبخَّر به. يقول: إن هذا الرجل يوقد النيران للأضياف بالعود اليلنوجي، ودخانه طيب تشم منه رائحة الند.

(٧) أي تنزل على رجل شجاع جريء على الإطعام، وترحل منه عن قلب خائف فراقك.

(٨) يقول: إن خيال منازل دمشق يتبعه إلى النوبندجان.

إذا غنّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها … أَجابتُه أغانيُّ القِيانِ[(١)]
ومَنْ بالشِّعْبِ أَحْوجُ من حَمامٍ … إذا غَنَّى وناح إلى البيانِ[(٢)]

وينتقل إلى مدح أبي شجاع عضد الدولة:

فقلتُ إذا رأيتُ أبا شجاعٍ … سَلَوتُ عن العبادِ وذا المكانِ
فإن الناسَ والدنيا طريقٌ … إلى مَنْ ما لَهُ في الناسِ ثانِ
بعَضْدِ الدولةِ امتنعت وعزَّت … وليس لغيرِ ذي عَضُدٍ يدانِ[(٣)]
ولا قبضٌ على البِيضِ المواضي … ولا حَظٌّ من السُّمْرِ اللِّدانِ[(٤)]
ولا تُحصَى فضائلُه بظنٍّ … ولا الإخبارِ عنهُ ولا العِيانِ
أُروضُ الناسِ من تُرْبٍ وخوفٍ … وأَرضُ أبي شجاعٍ من أمانِ[(٥)]
حمى أطرافَ فارسَ شَمَّرِيٌّ … يَحُضُّ على التَّباقي بالتفاني[(٦)]

ثم يمدحَ ولَديه، فيقول:

ولم أرَ قَبْلَهُ شِبْلَي هِزَبْرٍ … كشبلَيه ولا مُهْرَي رِهانِ
أشدَّ تنازُعاً لكريمِ أصلٍ … وأَشبَهَ منظراً بأبٍ هِجانِ[(٧)]
وأكثرَ في مجالسه استماعاً … فلانٌ دقَّ رُمحاً في فلانِ

---

(١) يقول: إنه لطيب دمشق اجتمعت فيها أصوات الحمام والقيان يجاوب بعضها بعضاً.
(٢) أي إن أهل الشعب أحوج إلى البيان من حمامه في غنائه ونوحه، لأنهم أعاجم لا بيان لهم ولا فصاحة.
(٣) أي إن الدولة امتنعت بعضدها، ولا يد لمن لا عضد له.
(٤) البيض: السيوف. السمر: الرماح. اللّدان: اللينة. أي من لم يكن له يدان لم يقبض على السيوف، ولم يطعن بالرماح لأنه عاجز عن ذلك.
(٥) أُرُوض: جمع أرض. وأراد بالناس: الملوك، والمراد: أن أحداً لا يعيث في نواحي مملكته هيبة له، وخوفاً منه.
(٦) شمَّري: جادّ في الأمور. التباقي: البقاء. التفاني: الفناء.
(٧) الهجان: الخالص الكريم.

وأَوّلُ رأْيـــــةٍ رَأَيـــــا المعـــــالي   فقـــد عَلِقـــا بهـــا قبـــل الأوانِ[1]
وكنتَ الـــشمسَ تَبْهَـــرُ كـــلَّ عـــينٍ   فكيف وقـــد بـــدت معهـــا اثنتـــانِ

ويختم قصيدته بقوله: إن الشاعر والسلطان متمِّمٌ كلٌّ منهما للآخر:

فقـــد أَصـــبحتُ منـــه فـــي فِرِنْـــدٍ   وأصبحَ منكَ في عَـضْبٍ يَمـانِ[2]
ولولا كـــونُكُم فـــي النـــاس كـــانوا   هُـــــراءً كـــــالكلام بِـــــلا مَعـــــاني

أما القصيدة الثالثة، فقد مدحه بها، وذكر وقعةَ وهْشُوذان بن محمد الكردي بالطِّرم[3]، وكان والدُهُ ركنُ الدولة أَنفذ إليه جيشاً من الريِّ، فهزمه وأَخذ بلده إذ قال:

أَثْلِـــثْ فإنَّـــا أَيُّهـــا الطَّلَـــلُ   نبكـــي وتُـــرزِمُ تَحْتَنـــا الإِبِـــلُ[4]
أَوْلاَ فـــلا عَتْـــبٌ علـــى طَلَـــلٍ   إنَّ الطُّلـــولَ لمثلهـــا فُعُـــلُ[5]
لـــو كنـــت تنطِـــقُ قلـــتَ معتـــذِراً   بي غيرُ مـــا بـــكَ أَيُّهـــا الرجُـــلُ[6]
الحُـــسْنُ يرحـــلُ كُلَّمـــا رحلـــوا   معهـــم وينـــــزلُ حيثمـــا نَزَلُـــوا

إلى أن يقول:

لـــــو أنَّ فَنَّاخُـــــسْرَ صَـــــبَّحكُم   وبَرِزْتِ وحـدَكِ عاقَـهُ الغَـزَلُ[7]

---

(١) أي أول شيء رأياه هو المعالي، فقد عشقاها قبل أوان العشق.

(٢) فرند السيف: جوهره ووشيه. والعضب: السيف القاطع. أي إن شعره زينة للمدوح كالفرند للسيف، لأنه نوّه بمناقبه ومحامده.

(٣) الطّرم: قلعة بأرض فارس على حدود كرمان (ياقوت).

(٤) أثلث: كن ثالثاً. الإرزام: حنين الإبل. يقول: أيها الطلل كن ثالثاً في البكاء على فقد الأحبّة، فنحن نبكي والإبل تحنّ معنا.

(٥) يقول: إن لم تبك معنا فلا عتب عليك فإن الطلول ليس من عادتها البكاء.

(٦) أي لو كنت ذا نطق لاعتذرت إليّ بأنك لا تعاني ما أعانيه.

(٧) فَنَّاخُسْرُ: هو عضد الدولة. أي لو أن عضد الدولة أتاكم صباحاً للغارة وبرزتِ له لمال إليك وعاقه ذلك عن الحرب لمكانك من الحسن.

وتفرَّقـــت عـــنكم كتائبُـــه	إن المِـــلاحَ خـــوادِعٌ قُتُـــلُ[١]
مـــا كُنـــتِ فاعلـــةً وضـــيفُكُمُ	مَلِـكُ الملـوكِ وشـأنُك البَخَـلُ[٢]
مَلِـكٌ إذا مـا الـرمحُ أدركـه	طَنَـــبٌ ذكرنـــاهُ فيعتـــدِلُ[٣]
إنْ لم يكـن مَـنْ قَبْلَـهُ عَجَـزوا	عمَّا يَسُوسُ بـه فقـد غَفَلُـوا[٤]
حتـى أتـى الـدنيا ابـنُ بَجـدْتِها	فـشكا إليـه الـسهلُ والجبَـلُ[٥]
فهـو النهايـةُ إن جـرى مَثَـلٌ	أو قيل يـومَ وغـىً مَـنِ البَطَـلُ
أرَضِـيْتَ وَهْـشوذانُ مـا حكمـتْ	أم تـستزيدُ لأمّـكَ الهبَـلُ[٦]
لـولا الجهالـةُ مـا دَلَفْـتَ إلـى	قـومٍ غَرِقْـتَ وإنَّمـا تَفَلُـوا[٧]
لا يَـشْهَرُونَ علـى مُخَـالِفهم	سـيفاً يقـومُ مقامَـهُ العَـذَلُ[٨]
فـأبو علـيٍّ مَـنْ بـه قَهَـروا	وأبو شـجاعٍ مَـنْ بـه كَمَلُـوا[٩]

لقد بدأ الشاعر قصيدته بالنسيب، ثم تخلَّص إلى مدح عضد الدولة فأَحسن التخلُّص، وامتدح شجاعته، فهو من قومٍ لا يُغلَبون، ولا يضعون السيفَ حيث يُغْني عنه الكلام. فَهُمْ بركن الدولة قهروا الملوكَ وسادوهم، وبعضد الدولة اكتمل مُلْكُهم واتَّسع سلطانُهم.

---

(١) يقول: ولتفرقت كتائبه لولوعه بكم وانشغاله بكم عن الحرب.

(٢) البَخَل: البُخْل.

(٣) الطَّنَب: الاعوجاج في الرمح.

(٤) يقول: إن من كان قبله من الملوك لم يحسنوا سياسة الملك، فإن لم يكن ذلك عجزاً منهم فهو غفلة منهم إذ لم يهتدوا إلى سيرته.

(٥) ابن بجدتها: العالم بها وبدخيلتها. يقول: لما ملك الدنيا عضد الدولة وهو عالم بها وبضبط أمورها شكا إليه السهل والجبل ما لحقهما من الخلل.

(٦) الهبل: الثكل، والفقد. ما حكمت: أي ما حكمت به سيوف ركن الدولة.

(٧) دلف إلى الشيء: دنا منه. يقول: لولا جهلك لما قصدت قوماً تنهزم عنهم بأدنى حرب منهم، فهم لكثرتهم لو بزقوا عليك لأغرقوك.

(٨) العَذَل: اللوم.

(٩) أبو علي: ركن الدولة، وأبو شجاع: عضد الدولة.

ويبدو أن أبا الطيب لم يكتفِ بالقصيدة السابقة التي تصف انْتصار جيش ركن الدولة على وَهْشُوذان، فعاد إلى مدح عضد الدولة أبي شجاع في قصيدةٍ تالية يذكر فيها هزيمة ذلك المتمرّد على سلطة بني بويه، فقال:

أزائـــرٌ يـــا خيـــالُ أم عائـــدْ … أم عنـــد مـــولاكَ أننـــي راقِـــدْ(١)

ليس كمـا ظَـنَّ غَـشْيَةٌ عرضـت … فجئتَنـــي فـــي خِلالهـــا قاصِـدْ(٢)

ثم يتخلَّص من النسيب إلى المدح فيقول:

مـا بـالُ هـذي النجـومِ حـائرةً … كأنهـــا العُمْـــيُ مـــا لهـــا قائـــدْ

أو عُـصبةٌ مـن ملـوكِ ناحيـةٍ … أَبـــو شـــجاعٍ علـــيهِمُ واجِـــدْ(٣)

فهـــمُ يُرجُّـــونَ عَفْـــوَ مُقْتَـــدِرٍ … مُبـــارَكِ الوَجْـــهِ جائـــدٍ ماجِـــدْ

أَبْلَـــجَ لَـــو عـــاذتِ الحَمَـــامُ بِـــهِ … مـــا خَـــشِيَتْ راميـــاً ولا صـــائدْ

يـــا عَـــضُداً رَبُّـــهُ بِـــه العاضِـــدْ … وســـارياً يَبْعـــثُ القطـــا الهاجِـــدْ(٤)

ومُمطِـــرَ المـــوتِ والحيـــاةِ معـــاً … وأنـــتَ لا بـــارقٌ ولا راعِـــدْ

يُقـــارِعُ الـــدهرَ مَـــنْ يقـــارِعُكم … علـــى مكـــانِ المَـــسُودِ والـــسائد

ليت ثنـائي الـذي أصـوغُ فِـدَى … مَـــنْ صِـــيغ فيـــه فإنّـــه خالِـــدْ

لَوَيْتُـــهُ دُمْلُجـــاً علـــى عَـــضُدٍ … لدولـــةٍ رُكْنُهـــا لـــه والِـــدْ(٥)

---

(١) يخاطب خيال المحبوب فيقول: أجئتني زائراً أم عائداً لأني مريض من الحب، أم ظن صاحبك أنني مستسلم إلى النوم!.

(٢) غشية: همدة. أي جئتني إثر همدةٍ أدركتني من الألم، ولم أكن نائماً.

(٣) واجد: غضبان.

(٤) العاضد: المعين. الهاجد: النائم.

(٥) الدملج: ما يلبس من الحلي في العضد.

أما القصيدة الخامسة فهي البائية التي رثى بها عمَّةَ عضد الدولة، وزوجَ سلطانٍ بغداد مُعِزِّ الدولة وقد توفيت ببغداد، فقال:

آخِــرُ مــا المَلْــكُ مُعــزًّى بــه ... هــذا الــذي أثَّــر فــي قلبــهِ[١]

لا جَزَعــاً بــل أَنَفــاً شــابَهُ ... أن يَقْدِرَ الــدهرُ علــى غــصْبِهِ[٢]

لــو دَرَتِ الــدنيا بمــا عنــده ... لاسْــتَحْيَتِ الأيــامُ مــن عَتْبِــه[٣]

لعلَّهــا تَحْــسَبُ أنّ الــذي ... ليس لديــهِ لــيس مــن حِزْبِــهِ[٤]

ثم ينتقل إلى تعزية عضد الدولة فيقول:

نحــنُ بنــو المــوتى فمــا بالُنــا ... نعــافُ مــا لا بُــدَّ مــن شُــربِهِ[٥]

تبخــلُ أيــدينا بأرواحنــا ... على زمــانٍ هــيَ مــن كَــسْبِهِ[٦]

فهــذه الأرواحُ مــن جَــوِّهِ ... وهــذه الأجــسامُ مــن تُرْبِــه[٧]

لــو فكّــر العاشــقُ فــي مُنْتهــى ... حُــسْنِ الــذي يَــسْبيهِ لــم يَــسْبِهِ

لم يُرَ قَرْنُ الــشمسِ فــي شَــرْقِهِ ... فَــشَكَّتِ الأَنفُــسُ فــي غَرْبِــه[٨]

يموتُ راعي الــضأنِ فــي جهلــهِ ... مِيتَــةَ جــالِينُوسَ فــي طِبِّــهِ

---

(١) يقول: جعل الله هذا الحادث آخر ما يُعزّى به الملك فلا يُصاب بشيء بعده.

(٢) لم يجزع الملك لهذا الحادث بل أخذته الحميَّة والأنفة حيث استطاع الدهر استباحة حريمه، واغتصاب من يعز عليه.

(٣) يقول: لو درت الدنيا ما يحوزه من الفضل لأخذها الحياء من عتبه عليها، ولكفَّت عن أذاها.

(٤) يقول: لعل الدنيا ظنت أن عمته لم تكن من أسرته فسطت عليها.

(٥) يقول: نحن أبناء الموتى لأن آباءنا كلهم ماتوا فلا بدّ لنا من أن نرد الموت كما وردوه. فما بالنا نكره ما لا بدّ منه.

(٦) يقول: إننا نضنّ بأرواحنا على الزمان وهي من كسب الزمان لا من كسبنا.

(٧) إن الإنسان مركَّب من روح وجسد، فالروح من الهواء، والجسد من التراب.

(٨) قرن الشمس: أول ما يبدو منها. أي إن كل حادث لا بد أن ينتهي إلى الزوال، كالشمس من رآها طالعة لم يشك في غروبها.

وربَّمـــا زاد علـــى عُمْـــرِهِ وزاد في الأمـنِ علـى سِـرْبِه[1]
وغايــةُ المُفْــرطِ فــي سِـلْمِهِ كغايــةِ المُفْــرطِ فــي حَرْبِــهِ
فــلا قــضى حاجتــه طالــبٌ فــؤادُه يخفِــقُ مــن رُعْبِــهِ

ويبدأ بالإشادة بصفات المرثية:

اســتغفرُ اللهَ لــشخصٍ مــضى كــان نَــداهُ مُنتهــى ذَنْبِــهِ
يُريــدُ مــن حُــبِّ العُــلا عَيــشَهُ ولا يريــدُ العــيشَ مــن حُبِّــهِ[2]
يحــــسَبُهُ دافنُــــه وحــــدَهُ ومجدُه في القبـرِ مـن صَـحْبِهِ[3]

ويُشيد بعضد الدولة وأبنائه، فيقول:

أخــتُ أبــي خيــرِ أميــرٍ دعــا فقــال جــيشٌ للقنــا لَبِّــهِ[4]
يــا عَـضُدَ الدولــة مَـنْ رُكْنُهــا أَبُــوه والقلــبُ أَبُــو لُبِّــهِ[5]
ومَــنْ بنــوه زَيْــنُ آبائــه كأَنَّهــا النَّــورُ علــى قُــضْبِهِ
فخــراً لــدهر أنــت مــن أهلِــه ومُنْجِــبٍ أصــبحتَ مــن عَقْبِــهِ
ما كــان عنــدي أنَّ بــدرَ الــدُّجى يوحِــشُه المفقــودُ مــن شُــهْبِه

وفي شهر رجب سنة ٣٥٤هـ خرج عضد الدولة من شيراز «يتصيَّد، ومعه آلة صيد. وكان يسير قُدَّام الجيش يَمْنةً ويَسْرةً، فلا يرى صيداً إلاَّ صاده حتى وصل إلى دَشْت الأَرْزُن وهو موضع حسن على

---

(١) السرب: النفس.

(٢) أي كان يحبّ العيش لكسب المعالي لا لحب العيش.

(٣) إن الذي يدفنه يظن أنه يدفنه وحده، وقد دفن معه المجد والعفاف والبر، وسائر فضائله التي لا تفارقه.

(٤) أي هي أخت ركن الدولة أبي عضد الدولة خير أمير دعا إلى نفسه فلباه الجيش بسلاحه.

(٥) يريد أن عضد الدولة أفضل من أبيه ركن الدولة. فجعل ركن الدولة القلب، وعضد الدولة اللّب واللّب: العقل، والعقل أشرف من القلب.

عشرة فراسخ من شيراز، تحفُّ به الجبال، وفيه غاب، ومياه، ومروج. فكانت الوحوش تُصاد، وإذا اعتصمت بالجبال أَخذت الرجالُ عليها المضايق، فإذا أثخنها النُشَّاب هربت من رؤوس الجبال إلى الدشت؛ فتسقط بين يديه. فأقام بذلك المكان أياماً على عين ماء حَسَنَة، ومعه أبو الطيب، فوصف الحال[(١)]» وكان عضد الدولة يمتطي فيلاً يصحبُه الحائشون وكلابُ الصيد؛ فنظم المتنبي قصيدةً طردية لعلَّها من أجود ما قيل في هذا الفن. إذ يبدأ بالفخر بنفسه، والإشادة بالممدوح الذي ما إن فرغ من حرب الكرد حتى سار لصيد الوحوش المعتصمة بالجبال فلا يسلم من سطوته ذو مَنَعة، إذ يقول:

مـــا أجْـــدرَ الأَيـــامَ والليـــالي	**بـــأن تقـــولَ مـــا لَـــهُ ومـــالي**[(٢)]
لا أَنْ يكـــونَ هكـــذا مقـــالي	**فتـــىً بنيـــرانِ الحـــروبِ صـــالِ**[(٣)]
منهـــا شـــرابي وبهـــا اغتـــسالي	**لا تخطُـــرُ الفحـــشاءُ لـــي ببـــالِ**
لـــو جـــذب الـــزرَّادُ مـــن أذيـــالي	**مخيّـــراً لـــي صَـــنعتَيْ سِـــرْبالِ**[(٤)]
ما سُـمْتُه سَـرْدَ سـوى سِـروالِ	**وكيـــف لا وإنمـــا إدلالـــي**[(٥)]
بفـــارس المجـــروحِ والـــشَّمالِ	**أبـــي شـــجاعٍ قاتـــلِ الأبطـــال**[(٦)]

---

(١) مقدمة القصيدة بشرح البرقوقي.

(٢) يقول: يجدر بالأيام والليالي أن تتظلّم مني؛ لأني جشمتُها من همتي ما ليس بوسعها.

(٣) لا أن يكون هكذا مقالي لها بأن أتظلَّم منها، وهي جديرة بأن تتظلم منّي لأني فتى يقاسي شدائد الحروب، ويصطلي بنارها.

(٤)(٥)(٦) جذب: شدّ. الزرّاد: صانع الزرد وهي الدروع. وجذب الزراد ذيله: دعاه. السربال: القميص. ويستعار للدرع. سمته: كلّفته. والمجروح والشمال: فرَسان كانا لعضد الدولة. يقول: لو خيرني صانع الدروع بين الدرع والثوب لاخترت الثوبَ دون الدرع لأن سيفي درعي؛ وهو بحاجة إلى ستر عورته. والإدلال: الفخر والتيه. أي هو فخور لأنه في حمى أبي شجاع قاتل الأبطال.

ساقي كـؤوسِ المـوتِ والجريـالِ لَمَّا أصار القُفْصَ أمسِ الخـالي[١]

وقَتَّـل الكُـرْدَ عـن القتـالِ حتّـى اتَّقـت بـالفَرِّ والإجفـالِ[٢]

فهالـكٌ وطـائعٌ وجـالي واقتـنص الفرسـانَ بـالعوالي[٣]

والعُتُـقِ المحدَثـةِ الـصِّقالِ سار لصيد الوحشِ فـي الجبـالِ[٤]

وفـي رِقـاقِ الأرضِ والرمـالِ على دمـاءِ الإنـسِ والأوصـالِ[٥]

ثم يصف دَشْتَ الأَرْزُن وما فيه من الوحوش فيقول:

إنّ النفـوسَ عَـدَدُ الآجـالِ سَقْياً لِدَشْتِ الأَرزُن الطُّـوالِ[٦]

بين المروج الفـيح والأغيـالِ مُجـاورِ الخِنْزِيـرِ للرئبـالِ[٧]

داني الخنانيصِ مـن الأشـبالِ مُشْترفِ الدُّبِّ علـى الغـزالِ[٨]

مُجتمـعِ الأضـدادِ والأَشـكالِ

كـأنّ فَنَّاخُـسرَ ذا الأَفْـضالِ خاف عليهـا عَـوزَ الكمـالِ[٩]

فجاءهـا بالفيـلِ والفَيَّـالِ

---

(١) الجريال: صبغ أحمر تشبه به الخمر. يقول: إنه يسقي أعداءه كؤوس الموت ويسقي أولياءه كؤوس الخمر. القُفص: جيل من الناس أفناهم عضد الدولة فصيّرهم كأمس الدابر.

(٢) قتَّل الكرد: ذلَّلهم. يقول: ذلَّل الكرد وحملهم على الفرار من بطشه.

(٣) فهم بين هالك ونازح وطائع، وصريع بالرماح.

(٤) العُتُق: السيوف القديمة الصنعة.

(٥) الرقاق من الأرض: اللينة. الإنس: الناس. الأوصال: المفاصل. يقول: سار للصيد وهو يطأ الدماء أينما ذهب لكثرة ما قتل.

(٦) دشت الأرزن: موضع بشيراز. والدشت: الصحراء. الأرزن: شجر صلب تتخذ منه العصي. يقول: إن النفوس معدّة للآجال ثم يدعو بالسقيا لذلك المكان.

(٧) الفيح: الواسعة. ج أفيح. الأغيال: ج غيل وهو الأجمة. يقول: إن هذا الدشت محاط بالمروج وفيه كل نوع من الصيد والحيوان.

(٨) الداني: القريب. الخنانيص: ج خنوص: ولد الخنزير. مشترف: مشرف.

(٩) فَنّاخُسْرُ: عضد الدولة. يريد أن هذا الملك خاف ألاّ تكون هذه الحيوانات كاملة، فجاءها بما لم يكن فيها وهو الفيل.

فَقِيــدتِ الأَيِّــلُ فـــي الحبـــالِ طوعَ وُهُوقِ الخيلِ والرجـــالِ[١]

تـــسيرُ ســـيرَ الــنَّعَمِ الأرســـالِ مُعْتمَّـــةً بِيَـــبَسِ الأَجْـــذالِ[٢]

وُلِـــدْنَ تحـــت أثقـــل الأحمـــالِ قـــد مَنَعَـــتْهُنَّ مـــن التَّفَـــالي[٣]

ثم يصف قطعان الوحوش التي غنمها الصيَّادون، والأَوعال التي تُشبه لحاها السود لِحى قُضاة السوء، وأخيراً تصبح هذه الوحوش أَسرى الأمير، لا محيدَ لها عن الاستسلام لسطوته.

وعلى الرغم من أنَّ أبا الطيّب قد استعار إطار القدماء كأبي نُواس وابن المعتــز، «لكنه تجاوز ما كان مألوفاً عند القدماء من فن الطرد، واندفع مع الصائد والــمَصِيد كأنه الريح أَو النسيم الذي كان يضطرب في تلك المروج، فيشهد ما كان يجري فيها من طرادٍ وصراع، ثم يحتمله خيالُه العنيف القوي إلى أبعد من مروج فارس، وإذا هو يعود إلى نجد ويرى وَحْشَها خائفة تلتمسُ الأمان[٤]». حيث يقول:

فوحشُ نجـدٍ منـــه فـــي بَلْبـــالِ يَخَفْنَ في سلمى وفـــي قِيـــالِ[٥]

نـــــوافرَ الـــضِّبابِ والأَورالِ والخاضِباتِ الرُّبْـدِ والرِئـــالِ[٦]

والظبـــي والخنـــساءِ والـــذَّيَّالِ يسمعن مـــن أخبـــاره الأَزوالِ[٧]

ما يَبعثُ الخُـــرْسَ علـــى الـــسؤالِ

---

(١) الأَيِّل: وعل الجبال. الوهوق: جمع وهق وهو الحبل. الخيل: الفرسان.

(٢) النعم: الإبل. الأرسال: ج رسل: القطيع من الإبل. معتمَّة: من العمامة. الأجذال: ج جذل وهو أصل الشجرة.

(٣) أثقل الأحمال: القرون. أي إن هذه القرون تمنعها من أن تفلّي رؤوسها لا عوجاجها.

(٤) انظر مع المتنبي ص ٣٦٨.

(٥) البلبال: الهم والحزن. وسلمى: أحد جبلي طيّء. وقيال: جبل بالبادية.

(٦) الضباب: جمع ضبّ وهو دويبة تأكلها العرب. والأورال: جمع ورل دابة تشبه الضب ولكنها أعظم منه. الخاضبات الربد: النعام لأن في ألوانها ربدة أي غبرة، فإذ أكلت الربيع احمرّت سوقها. والرئال: جمع رأل: فرخ النعام.

(٧) الخنساء: بقر الوحش. والذيال: الثور الوحشي. الأزوال: جمع زول الظريف من كل شيء.

لقد امتــزجت «نفسُ الشاعر بالطبيعة الماديَّة امتــزاجاً مُدهشاً كاد يُنسيه نَفْسَه على قِلَّة ما ينسى نفسه، وكاد يصرفه عن عضد الدولة، لولا أنه يقول الأرجوزة لعضد الدولة[1]».

وفي يوم عيد الورد قال يمدح عضد الدولة وقد نثر عليهم الورد وهم قيام بين يديه حتى غرقوا فيه. فأنشده القطعة التالية، فأعطاه فرساً وخلعة وبدرة[2]:

قد صدقَ الوردُ فــي الــذي زعمــا ... أنَّــك صــيَّرت نَثْــرَهُ دِيَمَــا[3]

كأنمــا مــائجُ الهــواءِ بــه ... بحرٌ حــوى مثــلَ مائــه عَنَمــا[4]

نــاثِرُهُ نــاثرُ الــسيوفِ دمــاً ... وكــلُّ قــولٍ يقولُــه حِكَمــا[5]

والخيلُ قــد فَــصَّلَ الــضّياعَ بهــا ... والــنِّعَمَ الــسابغاتِ والنِّقَمــا[6]

فَلْيُرِنــا الــوردُ إنْ شــكا يَــدَهُ ... أَحْسَنَ منه مِــنْ جــودِهِ سَــلِما[7]

وَقُلْ له لــستَ خيــرَ مــا نثــرت ... وإنَّمــا عــوَّذَتْ بــكَ الكَرَمــا[8]

خوفاً من العــين أن يُــصابَ بهــا ... أصابَ عَينــاً بهــا يُــصابُ عَمَــى

---

(١) انظر مع المتنبي ص ٣٦٨.

(٢) قال الواحدي في التعقيب على هذه الأبيات: "وهذه الأبيات في نثر الورد غير مليحة، وليس المتنبي من أهل الأوصاف. وقال العكبري شارح ديوانه: إنما المتنبي ممّن يُحسن الأوصاف في كل فن، وإنما هذا الذي يأتي له في البديهة والارتجال، أو في وقت يكون على شراب أو غيره فلا يُعتدُّ به. ولو كان أبو الفتح ابن جني عمل صواباً لكان أسقطه من شعره. (الديوان بشرح البرقوقي. ج٤ ص ٢٩٨).

(٣) ديم: جمع ديمة وهي المطر الدائم في سكون. أي يقول الورد: لقد صيّرني الأمير مطراً لكثرة ما نثر عليهم.

(٤) العنم: شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.

(٥) يقول: إن ناثر هذا الورد هو الذي ينثر السيوف الملطخة بالدم في أعدائه.

(٦) فصل الضياع: نظمها. فهو ينثر النعم على أوليائه، والنقم على أعدائه.

(٧) أي إن يده تنثر ما هو أحسن من الورد يريد الدنانير والدراهم. فلا شيء سلم من وجوده، لا الورد ولا سواه.

(٨) عوّذه: رقاه رقية تدفع عنه السوء. يقول للورد: لست أفضل ما تجود به يد هذا الملك وإنما نثرك وقاية لكرمه من العين.

أقام أبو الطيب في كنف عضد الدولة بشيراز نحو ثلاثة أشهر قوبل خلالها بالمزيد من التكريم والحفاوة البالغة وقُرئ عليه ديوانُهُ، ثم عزم بعدها على مغادرة شيراز، والعودة إلى الكوفة حيث يُقيم أهلُهُ. فمن قائل إنه لم يكن مرتاحاً لوجوده في بلاط عضد الدولة المتواضع بالقياس إلى بلاط سيف الدولة بحلب الذي كان يشغل باله على الدوام. كذلك ضيقه بالعيش بين هؤلاء الأَعاجم الذين لا تجمعه بهم عادات ولا لسان من الأسباب التي دعته إلى إدارة الظهر لتلك البلاد، وممَّا يؤكِّد ذلك حنينُهُ الدائمُ في بعض قصائده إلى الشام والعراق.

فعضد الدولة الذي كان إدارياً حازماً، ونصيراً للأدب، لم تواتِه الظروفُ لإبراز مواهبه الحربية، وهنا يكمن ينبوع الإلهام الشعري عند المتنبي الذي أوجب عليه أن يعوّض هذا النقص في ممدوحه باللجوء إلى أساليب المهنة الشعرية[(١)]. يُضاف إلى ذلك شوقه إلى أهله الذين خلّفهم وراءه في العراق.

ويطالعنا رأي آخر يقول: إن المتنبي لم يكن في نفسه الذهابُ إلى الكوفة، أو إلى حلب، وإنما فصل من شيراز وفي نفسه الذهابُ إلى بغداد، والاتصالُ بمُعزّ الدولة، والانتصارُ على خصومه[(٢)].

وليس بين أيدينا ما يؤيِّد هذا الرأي أو ذاك، بَيْدَ أن الشاعر عبَّر بوضوح عن رغبته في الرجوع إلى عضد الدولة في قصيدته الأخيرة، قصيدة الوداع التي أنشدها في أوائل شهر شعبان سنة ٣٥٤هـ إذ قال:

فدىً لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عن مَداكا ... فلا مَلِكٌ إذن إلاَّ فَداكا[(٣)]

ولو قلنا فِدىً لكَ مَنْ يُساوي ... دعونا بالبقاء لمن قَلاكا[(٤)]

---

(١) انظر بلاشير ص ٤٢٥.

(٢) مع المتنبي ص ٣٧٢.

(٣) يقول: يفديك كل من لا يبلغ غايتك من الملوك وعليه فجميع الملوك تفديك.

(٤) قلاك: أبغضك. يقول: ولو قلنا يفديك من يساويك لكان ذلك دعاء بالبقاء لأعدائك لأنهم كلهم دونك.

وآمنَّــــا فـــداءَك كـــلَّ نفـــسٍ وإن كانـــت لِمَمْلَكـــةٍ مِلاكـــا[١]

ومـــن يَظَّـــنُّ نثـــرَ الحَـــبِّ جـــوداً وينصِبُ تحت ما نَثَـــر الـــشِّبّاكا[٢]

فلـــو كانـــت قلـــوبُهم صـــديقاً لقـــد كانـــت خلائقُهـــم عِـــداكا[٣]

ويشكر الأمير على صنيعه فيقول:

أَرُوْحُ وقد ختمـــتَ علـــى فـــؤادي بحبِّـــكَ أن يَحِـــلَّ بـــه ســـواكا[٤]

وقـــد حَمَّلْتَنـــي شُـــكراً طـــويلاً ثقـــيلاً لا أُطيـــقُ بـــه حَراكـــا

أُحـــاذِرُ أَنْ يَـــشُقَّ علـــى المطايـــا فـــلا تمـــشي بنـــا إلاَّ سِـــواكا[٥]

ويُظهر رغبته في العودة إليه قائلاً:

لعـــلَّ اللهَ يجعلُـــه رحـــيلاً يُعينُ على الإقامـــةِ فـــي ذَراكـــا[٦]

ولو أني استطعتُ خفـــضتُ طَرْفـــي فلـــم أُبـــصِرْ بـــه حتـــى أراكـــا

وكيفَ الصبرُ عنـــك وقـــد كفـــاني نـــداكَ المـــستفيضُ ومـــا كَفاكـــا

ثم يأسف لفراقه:

أرى أســـفي ومـــا ســـرنا شـــديداً فكيفَ إذا غـــدا الـــسيرُ ابْتراكـــا[٧]

وهذا الـــشوقُ قبـــلَ البـــينِ ســـيفٌ فهـا أنا ما ضُـــرِبتُ وقـــد أحاكـــا[٨]

---

(١) مِلاك الشيء: قوامه. أي أمنا أن تفديك نفوس الخلائق أجمعين وملوكهم المترفين، وإن كان من بينهم من هو ملاك مملكته، فهو بالنسبة إليك كالعوام الذين لا نفع فيهم.

(٢) يَظّن: يفتعل من الظنّ أصلها يَظْتَنُّ (يفتعل) يريد أن بعض الملوك يجودون طمعاً في جرّ المنافع كمن نثر حبّاً تحت الشبكة ليأخذ صيداً إن مثل هؤلاء فداء لك.

(٣) يقول: إن هؤلاء الملوك إن والتك قلوبُهم، فقد عادتك أخلاقهم. لأنها مضادة لأخلاقك.

(٤) يريد أروح عنك وقد ختمت على قلبي بحبّك دون سواك.

(٥) السواك: بطء السير من عجف أو إعياء.

(٦) في ذراك: في كنفك.

(٧) الابتراك: سرعة السير.

(٨) أحاك: أثّر. يقول: إذا كان حال الشوق قبل الفراق على هذا النحو فكيف يكون بعد الفراق؟

إذا التوديعُ أعرض قال قلبي عليك الصمتَ لا صاحبتَ فاكا[١]
ولولا أنَّ أكثرَ ما تمنَّى معاودةٌ لقلتُ ولا مُناكا[٢]
قد استَشْفيتَ من داءٍ بداءٍ وأَقْتَلُ ما أَعلَّك ما شفاكا[٣]

ويذكر أهله معتذراً بشوقهم إليه وحزنهم لغيابه:

وكم دونَ الثَّويَّةِ من حزينٍ يقول له قدومي ذا بذاكا[٤]
ومِنْ عَذْبِ الرُّضابِ إذا أَنخنا يُقبِّلُ رَحْلَ تُروْكَ والوِراكا[٥]
يُحرّمُ أن يَمَسَّ الطيبَ بعدي وقد عَبِقَ العبيرُ به وَصَاكا[٦]
ويمنعُ ثَغْرَهُ من كلِّ صَبٍّ ويمنحُهُ البَشَامةَ والأَراكا[٧]
يُحدّث مقلتيه النومُ عنّي فليتَ النومَ حدَّث عن نَداكا[٨]

---

(١) أعرض: بدا وظهر. عليك: اسم فعل بمعنى الزم. يقول إذا حضر الوداع قال لي قلبي: الزم الصمت بعد مفارقته ولا تمدح غيره.

(٢) يقول: لولا أن أكثر ما تمنّاه قلبي أن أعود إليك لقلت له: لا بلغت أنت أيضاً مناك في الارتحال حتى لا أفارقه، ولكنه يتمنى الارتحال للعود إلى الممدوح.

(٣) يقول: قد طلبت الشفاء من داء الشوق إلى الأهل والوطن بداء الفراق للممدوح، وما شفاك من داء الشوق هو أقتل مما أعلَّك.

(٤) الثويّة: مكان بالكوفة. يقول كم دون هذا المكان من إنسان حزين لفراقي إذا قدمت عليه سُرّ بقدومي؛ فيقول له القدوم هذا السرور بذلك الغم الذي كنت لقيته بالبعد.

(٥) تَرْوَك: اسم ناقة حمله عليها عضد الدولة. الوراك: النمرقة في مقدمة الرحل. يقول: كم هناك من شخص عذب الرضاب يُشتهى تقبيل فيه يقوم بتقبيل رحل ناقتي ووراكها لأنها أدنتني منه.

(٦) صاك به الطيب: لصق.

(٧) البشام والأراك: نوعان من الشجر يُستاك بفروعها.

(٨) يقول: إذا نام هذا الشخص المولع بقدومي رأى خيالي في النوم، فليت نومه حدثه عن إحسانك إليّ حتى يعذرني في الإقامة عندك.

ويتوقّع شراً في طريقه فيقول:

فَزُلْ يا بُعْدُ عن أيدي ركابٍ لها وَقْعُ الأَسنَّةِ في حَشاكا[1]

وأيَّا شئتِ يا طُرُقي فكوني أذاةً أو نَجاةً أو هَلاكا[2]

فلو سِرْنا وفي تشرينَ خَمْسٌ رأَوني قبل أن يَرَوُا السِّماكا[3]

يُشرِّدُ يُمنُ فَنَّاخُسْرَ عنّي قنا الأعداءِ والطعنَ الدِراكا[4]

وأَلْبَسُ من رِضاهُ في طريقي سلاحاً يَذْعَرُ الأبطالَ شاكا[5]

ويؤكد نيته في الرجوعِ إليه:

ومَنْ أَعْتاضُ عنكَ إذا افترقْنا وكلُّ الناسِ زُورٌ ما خَلاكا

وما أنا غيرُ سَهْمٍ في هواءٍ يعودُ ولم يَجِدْ فيه امتساكا

حَييٌّ من إلهي أن يراني وقد فارقتُ دارك واصطفاكا

لقد أعرب أبو الطيب في هذه القصيدة عمَّا يساوره من خوف في طريق العودة - وإن لم يكن يقصد ذلك - وكأنه يَحْذَرُ عدوًّا يتربَّص به، وقد روى العكبري أن عضد الدولة قال: تطيَّرتُ عليه من ترك النجاة بين الأذاة والهلاك[6].

---

(١) تنحّ أيها البعد عن أيدي ركابي فإنها تقطعك كما تقطع الأسنة الأحشاء.

(٢) يقول: كوني كيف شئتِ أيتها الطرق فإني لا أبالي وإن كان الهلاك في سلوكك.

(٣) يقول لو سرنا وقد مضت خمس ليالٍ من تشرين الأول لبلغت الكوفة قبل طلوع السماك، وقد كان يطلع في الثالث عشر من تشرين الأول.

(٤) يقول: إن سعد عضد الدولة يطرد عني رماح الأعداء وطعنها المتتابع.

(٥) سلاح شاك: حادّ. يقول: رضا عضد الدولة عني أمضى سلاح يخافه الأعداء.

(٦) إشارة إلى البيت السابق:

وأيَّا شئتِ يا طُرُقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا

ومعنى هذا أن سامع القصيدة شعر أن فيها ما يُتَطَيَّر منه. وقد قال من قبل في قصيدة يصف الأمن في بلاد عضد الدولة:

أَرُوْضُ الناسَ من تُـرب وخـوفٍ ... وأَرضُ أبـي شـجاع فـي أمـانِ

تُذِمُّ علـى اللـصوص لِكُـلِّ تَجْـرٍ ... وتَـضْمَنُ للـصوارمِ كـلَّ جـانِ

وفي هذا إعرابٌ عن إشفاق أبي الطيب من الطريق، وتوقُّعِهِ شرًّا فيها، وأنه عرف أن الطريق خارج مملكة عضد الدولة مخوفة، وهذا ما يُعرب عنه كلامُه. وأحسبه عرف في العراق، وفي طريقه إلى أَرَّجان فشيراز أن السُّبُلَ آمنةٌ في أرض عضد الدولة، مخوفة في بلاد العراق حيث سلطان معز الدولة البويهي. ولا أدري أَتوقَّعَ مع هذا شرًّا من عدوٍّ يقصده بسوء أم لا[١].

ولِمَ لا تُساوره الخشية والإشفاق، وهو يحمل معه من الأموال الطائلة والهبات النفيسة[٢] ما يُطمِعُ فيه اللُّصوصَ وقُطَّاعَ الطرقِ! وهو ما وقع له فعلاً وهو في الطريق إلى بغداد.

---

(١) ذكرى أبي الطيب ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) روى صاحب الإيضاح أنه لما أنشده القصيدة الأولى: "حمل إليه عضد الدولة من أنواع الطيب في الأردية والأمنان من بين الكافور والعنبر والمسك والعود. وقاد فرسه الملقب بالمجروح، وكان اشتُري له بخمسين ألف شاة، وبدرةً دراهمها عدلية، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل، وعمامة قومّت بخمس مئة دينار، ونصلاً هندياً مرصع النجاد والجفن بالذهب. (ذكرى أبي الطيب ١٨٧) وروى صاحب: اليتيمة: أنه وصله بأكثر من مئتي ألف درهم. وأنه لما استأذنه في المسير أمر أن يخلع عليه الخلع الخاصة، ويقاد إليه الحُملان الخاص، وتعاد صلته بالمال الكثير.

عودتُهُ إلى العراق، ومقتله

خرج أبو الطيب من شيراز لثمانٍ خَلَوْنَ من شعبان قاصداً بغداد، فالكوفة. فسار بركبه وأحماله وغلمانه حتى بلغ الأهواز التي تبعد عن شيراز نحْوَ خمسين فرسخاً، فحلَّ ضيفاً على أبي الحسن السوسي والي المدينة الذي استقبله بحفاوة، وفيها لقي القاضي المحسَّن بن علي التنوخي، ثم تابع سيره حتى بلغ مدينة واسط، فمكث فيها بضعةَ أيامٍ في ضيافة أبي نصر محمد الجَبُّلي[(١)] «وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية، وله فضلٌ، وأدبٌ جزل، وحرمة وجاه».

وكان مسير أبي الطيب من واسط في يوم السبت لثلاثَ عَشْرَةَ ليلةً بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاث مئة". وكان مضيفُه أبو نصر الجَبُّلي قد حذّره من الأخطار التي تترصَّدُهُ في الطريق "فإن عيون أعدائه ترمقه" لذلك نصحه أبو نصر بالاحتراز، وأشار عليه بأن يكون معه جماعة يتولَّون حراسته، لاسيما أن زعيم بني أسد فاتك ابن أبي جهل الأسدي خال ضبة الذي هجاه المتنبي منذ سنة خلت يترقَّبُ قدومه، وهو عازم على الانتقام لشرف أخته، وابنها، والاستيلاء على ما يحمله الشاعر من ذخائر وأموال. يقول أبو نصر "وأَمَّا شرحُ الخبر: فإن فاتكاً صديقٌ لي، وهو (كما سُمّي) فاتك لسفكه الدماء، وإقدامه على الأهوال في مواقف القتال، فلما سمع الشعرَ الذي هُجي به ضبَّة اشتدَّ غضبُه، ورجع على ضبَّة باللوم، وقال له: كان يجب ألاَّ تجعل لشاعرٍ عليك سبيلاً، وأضمر غيرَ ما أظهر. واتّصل به انصراف المتنبي من بلاد فارس، وتوجُّهُهُ إلى العراق، وعلم أن اجتيازه بِجَبُّل (و) دير العاقول، فلم يكن ينـــزل عن فرسه، ومعه جماعة من بني عمّه رأيُهم في المتنبي مثلُ رأيه من طلبه واستعلام خبره من كلّ صادرٍ ووارد. وكان فاتك خائفاً أن يفوته، وكان كثيراً ما ينـــزل عندي. فقلتُ له يوماً، وقد جاءني وهو يُسائل قوماً مجتازين عن المتنبي: قد أَكْثَرتَ المسألةَ عن هذا الرجل، فأيَّ شيءٍ تُريدُ منه إذا لقيتَهُ؟ فقال: ما أريدُ إلاَّ الجميلَ، وعذْلَهُ على هجاء ضبَّة. فقلتُ له: هذا لا يليق بأخلاقك؛ فتضاحك، ثم قال: يا أبا نصر! والله لئن اكتحلتْ عيني به، أو جمعتني وإياه بقعة لأَسفِكنَّ دمه، ولأَمْحقنَّ

---

(١) ذكر صاحب كتاب ذكرى أبي الطيب أنّ أبا نصر هذا كان مقيماً في جَبُّل.

حياته، إلاَّ أن يُحالَ بيني وبينه. قلتُ له: كفَّ - عافاك الله - عن هذا القول، وارجع إلى الله، وأزِلْ هذا الرأيَ عن قلبك؛ فإن الرجلَ شهيرُ الاسم، بعيدُ الصيت، ولا يَحْسُنُ منك قَتْلُهُ على شعرٍ قاله، وقد هجتِ الشعراءُ الملوكَ في الجاهلية، والخلفاءَ في الإسلام، فما سمعنا بشاعرٍ قُتل بهجائه، وقد قال الشاعر:

هجوتُ زهيـراً ثـم إنـي مدحتُـهُ ... وما زالتِ الأشرافُ تُهجى وتُمـدَحُ

ولم يبلغ من جُرمه ما يوجبُ قتله. فقال: يفعل الله ما يشاء، وانصرف. ولم يَمْضِ لهذا القول غيرُ ثلاثةِ أيام حتى وافاني المتنبي، ومعه بغالٌ مُوقَرةٌ بكل شيءٍ من الذهب، والطِّيب، والتجمُّلات النفيسة، والكتب الثمينة، والآلات. لأَنَّه كان إذا سافر لم يخلِّف في منــزله درهماً، ولا شيئاً يساويه. وكان أكثر إشفاقه على دفاتره؛ لأنه كان قد انتخبها، وأحكمها قراءةً وتصحيحاً.

قال أبو نصر: فتلقَّيْتُه، وأنزلتُه داري، وسألتُه عن أخباره، وعمَّن لَقِيَ؛ فعرَّفني من ذلك ما سُرِرْتُ به له. وأقبل يصف ابنَ العميد، وفضلَهُ وأَدَبَهُ، وعلْمَه، وكرمَ عَضُد الدولة، ورغبتَهُ في الأدب، وميلَهُ إلى أهله. فلّما أمسينا، قلتُ له: يا أبا الطيّب: على أيّ شيءٍ أنت مُجْمِعٌ؟ قال: على أَنْ أتَّخذَ الليلَ مركباً؛ فإنَّ السيرَ فيه يَخِفُّ عليّ. قلت: هذا هو الصواب؛ رجاء أن يُخفيه الليلُ، ولا يُصبح إلاَّ وقد قطع بلداً بعيداً. وقلت له: والرأيُ أن يكونَ معك من رَجَّالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضعَ المخيفةَ جماعةٌ يمشون بين يديك إلى بغداد. فقطَّب وَجْهَهُ وقال: لمَ قلتَ هذا القول؟ فقلت: لتَستأْنسَ بهم؛ فقال: أما والجُرازُ في عنقي، فما بي حاجةٌ إلى مؤنسٍ غيرِه. قلت: الأمرُ كما تقول، والرأيُ في الذي أَشرتُ به عليك. فقال: تَلْويحُكُ يُنْبي عن تعريض، وتعريضُك يُنبي عن تصريح؛ فعرِّفْني الأمرَ، وبيِّن لي الخطبَ. قلت: إن هذا الجاهلَ فاتكاً الأَسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام، وهو غيرُ راضٍ عنك؛ لأنك هجوتَ ابنَ أخته ضَبَّةَ، وقد تكلَّم بأشياءَ تُوجبُ الاحترازَ والتيقُّظَ، ومعه أيضاً نَحْوُ العشرين من بني عَمّه، قولُهم مثلُ قوله. فقال غلامُ أبي الطيب، وكان عاقلاً: الصوابُ ما رآه أبو نصر، خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد؛ فاغتاظ أبو الطيِّب من غلامه غيظاً شديداً، وشتمه شتماً قبيحاً، وقال: والله لا أرضى بأن يتحدَّث الناسُ بأني سرتُ في خِفارة أحدٍ غيرِ سيفي. قال أبو نصر: فقلت: يا هذا! أنا أوجِّه قوماً من قبلي في حاجةٍ يسيرون بمسيرك، وهم في خفارتك. فقال: والله لا فعلتَ شيئاً من هذا. ثم قال:

يا أبا نصر؛ أبِخُرْءِ الطير تُخشيني؟ ومن عبيد العصا تخاف عليّ؟ والله لو أن مخْصرتي هذه ملقاةٌ على شاطئ الفرات، وبنو أسد مُعْطشُون بِخِمْس[1]، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيَّات، ما جسر لهم خُفٌّ ولا ظِلْفٌ أن يردَهُ. معاذَ الله أن أَشغلَ فكري بهم لحظةَ عين. فقلت: قل: إن شاء الله، فقال: هي كلمةٌ مقولةٌ لا تدفعُ مَقْضيًّا، ولا تستجلبُ آتياً. ثم ركب، فكان آخرَ العهدِ به.

ولمَّا صحَّ عندي خبرُ قتله؛ وجَّهتُ مَنْ دفنه، ودفن ابنه وغلمانه. وذهبت دماؤهم هدراً. هذا هو الصحيحُ من خبره[2].

وقيل: سببُ قتله أنه لما ورد على عضد الدولة، ومدحه. وصله بثلاثة آلاف دينار، وثلاثة أفراس مُسْرَجة مُحلاَّة، ثم دسَّ له مَنْ يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: إن سيف الدولة كان يُعطي طَبْعاً، وعضُد الدولة تَطَبُّعاً؛ فغضب عضد الدولة، فلما انْصرف جهَّز إليه قوماً من بني ضبَّة فقتلوه بعد أن قاتل قتالاً شديداً، ثم انهزم، فقال له غلامُه: أين قولك:

الخيلُ والليــلُ والبيــداءُ تعرفنـــي   والحربُ والضربُ والقرطاسُ والقلمُ؟

فقال: قتلتني قتلك الله! ثم قاتل حتى قُتِل. وقيل: إن الخُفراءَ جاؤوه، وطلبوا منه خمسين درهماً، فمنعه الشُّحُّ والكِبرُ، فتقدّموه، ووقع به ما وقع.

إن ما يُسْتخلص من الروايات المتعلّقة بمقتل المتنبي هو أنه عقب انطلاقه من واسط إلى بغداد في السابع عشر من رمضان سنة ٣٥٤هـ - وهو اليوم الذي كتب عنه روايته علي بن حمزة البصري القصيدتين الأخيرتين من شعره - مَرَّ الركبُ بمحاذاة النعمانية التي تقع على الشاطئ الغربي لدجلة، وهي في منتصف الطريق بين واسط وبغداد، ثم واصل سيره، فمر بجَرْجَرايا التي تبعد عن دير العاقول نحو أربعة فراسخ إلى الجنوب الشرقي، ثم تقدَّم حتى جاوز الصافية على الشاطئ الشرقي لدجلة، وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخاً، عندئذٍ

(١) الخميس: أن ترد الإبل في اليوم الخامس من ورودها السابق.

(٢) انتهى كلامُ أبي نصر الجبّلي، والكلام الذي يليه لصاحب الصبح المنبي. انظر ص ١٧٣-١٧٤ من الكتاب المذكور.

برز له جماعةٌ من الأَعراب بين الصافية ودير العاقول، يقودهم فاتكُ بنُ أبي جهل خال ضبَّة، فقاوم المتنبي وولده وغلمانه، وقَتَل منهم جماعةً، وجَرَحَ جماعةً، وأثخن فيهم، ثم كَلَّ أبو الطيب وولدُه وغلمانُه، وكان أَعداؤه أكثرَ عدداً، فظفِروا به وقتلوه وولده وغلمانه وأخذوا جميع ما كان معه.

والذي قتله فاتكُ بنُ فراس بن بدَّاد خال ضبّة. ويُروى أنه لَمَّا قَرُب منه فاتك كان معه عبدٌ يقال له: سراج، فقال له يا سراج! أَخْرِج إليَّ الدرعَ، فأخرجها، ولبسها وتهيَّأ للقتال، ثم قال:

أَفرِغِ الدرعَ يا سراجُ وأَبصِرْ ... ما ترى اليومَ هاهنا من قتالِ
فلئن رُحْتُ في المَكَرِّ صريعاً ... فانْعَ للعالمين كُلَّ الرجالِ[1]

ثم قال فاتك: قُبْحاً لهذه اللحيةِ يا سَبَّاب... أَلَسْتَ الذي تقول:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والطعنُ والضربُ والقِرطاسُ والقلمُ

فقال: أنا عند ذاك يا ابن اللَّخناء العفلاء[2]. ثم قاتل، وبطح نفساً أو نفسين، فخانته قوائمُ فرسه، فغاصت إحداها في ثُقْبةٍ كانت في الأَرض، فتمكَّن منه الفرسان، وأحاطوا به، وقتلوه، واقتسموا مالَهُ ورَحْلَه، وأَخذوا ابنه المحسَّد، وأرادوا أن يَسْتَبْقُوه، فقال أَحدهم: لا تفعلوا واقتلوه؛ فقتلوه[3].

وجاء في الخزانة عن الإيضاح: أن فاتكاً كان معه سبعون فارساً، وأنهم قتلوا كلّ من كان مع أبي الطيب، وأن فاتكاً حمل عليه، وطعنه في يساره، ونكَّسه عن فرسه، وأنَّ ابْنَهُ أفلت، إلاَّ أَنَّه رجع يطلب دفاترَ أبيه، فقنَّع خلفه الفرسَ أحدُهُم، وحَزَّ رأْسَهُ[4]".

"وهكذا مات في سن الخمسين بِيَدِ الأَعراب النهَّابين شاعرٌ احتفل به عظماءُ عصره، وتقاسم فاتك وأصحابه "خيولَهُ المختارة، ومطاياه

---

(١) المكر بفتح الميم: موضع الحرب.

(٢) اللخناء: المنتنة... والعفل: شيء مدوّر يخرج من رحم المرأة كالبيضة.

(٣) انظر: ذكرى أبي الطيب ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٥ عن الخزانة. وقنّع خلفه الفرسَ: علاهُ بها.

الـمُوقَرة بالعَيْن والوَرِق[١]، وفاخر الكُسَا[٢]، وطرائف التحف، وغرائب الألطاف[٣]".

وانتهب هؤلاء الأعراب الأشقياء مكتبته ودفاتره التي "انتخبها وأَحكَمَها قراءةَ وتصحيحاً" غير عارفين قيمتها، وتناقل الناسُ أخبار موته، فكثرت حولها الأقاويل والشائعات. ولما كان أبو نصر يتتبَّع أخبار الركب بقلق سرعان ما بلغه خبرُ الفاجعة؛ فوجَّه من دفن أبا الطيب وابنه وغلمانه في المكان الذي قُتلوا فيه، كما أسلفنا.

وبذلك تكون قد انتهت رحلةُ أبي الطيب في التاريخ والجغرافية والشعر، بين الصافية ودير العاقول، وتوقَّف ركبُهُ عن السير إلى الأبد، بعد أن ترك حاديه دَوِيًّا يملأُ الخافقين.

وكتب أحدهم على شاهدة القبر هذين البيتين:

مَشَيْناها خُطاً كُتِبتْ علينا ... ومَنْ كُتِبتْ عليه خُطاً مشاها

ومن كانت مَنيَّتُهُ بأرضٍ ... فليس يموتُ في أرضٍ سواها

رثاء أبي الطيِّب

ولما قُتِل أبو الطيب رثاه عددٌ من الشعراء، وبَكَوا لمصرعه، وفي مقدمة هؤلاء مُريدُه ابنُ جني الذي قال:

غاضَ القريضُ وأَذْوَتْ نُضْرةُ الأَدَبِ ... وصوَّحت بَعْدَ ريٍّ دوحةُ الكتُبِ

سُلِبتَ ثوبَ بهاءٍ كنتَ تَلْبَسُهُ ... كما تُخطَّفُ بالخَطِّيَّةِ السَّلَبِ

مازِلْتَ تَصْحَبُ في الجُلَّى إذا نزلت ... قلباً جميعاً وعزماً غيرَ مُنْشَعِبِ

وقد حَلَبْتَ لَعَمْري الدهرَ أَشْطُرَهُ ... تمطو بهمَّةِ لاوانٍ ولا نَصِبِ[٤]

---

(١) العين: ما ضرب نقداً من الدنانير. والورق: الفضة.

(٢) الكسا: جمع كسوة. وهي الثوب يُستتر به ويتحلّى.

(٣) انظر بلاشير ص ٤٤٨.

(٤) حلب الدهر أشطره: خبر الدهر، ومارس الأيام. تمطو: المطو: المد في السير.

مَنْ للهواجلِ يُحيي مَيْتَ أَرْسُمها بكلِّ جائلةِ التصديرِ والحقبِ[1]
قَبَّاءَ خَوْصاءَ محمودٍ عُلالَتُها تنبو عريكتُها بالحِلْسِ والقَتَبِ[2]
أم مَنْ لسرحانها تُقْرِيه فَضْلَتُهُ وقد تَضَوَّر بين البأسِ والسَّغَبِ[3]
أم مَنْ لِبيضِ الظُّبا تَوْكافُهُنَّ دَمٌ أَمْ مَنْ لِسُمْرِ القنا والزَّغْفِ واليَلَبِ[4]
أم للمعارِكِ يُذكي جَمْرَ جاحِمِها حتى يُعرّيَها عن ساطعِ اللَّهَبِ
أم للمحافلِ إذ تبدو لتَعْمُرَها بالنظمِ والنثرِ والأَمثالِ والخُطَبِ
أم للمناهلِ والظلماءُ عاكفةٌ يواصِلُ الكرَّتين الورْدِ والقَرَبِ
أم للملوكِ تُحلّيها وتُلْبِسُها حتى تَمايَسَ في أَبرادها القُشُبِ
باتت وسادِيَ أَطرابٌ تُؤرّقُني لمَّا غدوتَ لَقًى في قبضةِ النُّوَبِ[5]
عُمِّرْتَ خِدْنَ المساعي غيرَ مُضْطَهَدٍ ومتَّ كالنصلِ لمَ يْدنَسْ ولن يُعَبِ
فاذهبْ عليك سلامُ المجدِ ما قَلِقَتْ خُوصُ الركائبِ بالأَكوارِ والشُّعَبِ[6]

ورثاه أيضاً ثابتُ بنُ هارون الرَّقِّي النصراني بقصيدة يَسْتَثِير فيها عَضُدَ الدولة على فاتكٍ الأَسديّ وهي:

الدهرُ أَخْبَثُ والليالي أَنْكَدُ من أَنْ تعيشَ لأَهلها يا أَحْمَدُ
قَصَدَتْك لمّا أنْ رأتْكَ نفيسَها بُخْلاً بمثلِكَ والنفائسُ تُقْصَدُ
ذُقْتَ الكريهةَ بَغْتةً وفقدْتَها وكريهُ فَقْدِكَ في الورى لا يُفْقَدُ

---

(١) الهواجل: الصحاري. الهَجل: المفازة الواسعة. التصدير: من صَدّر البعير إذا شدّه بحبل حزامه إلى كِرْكِرَته (صدره). الحقب: الحزام يلي حقو البعير (أي خصْره) وجال النطاق فهو جائل: تحرك واضطرب.
(٢) الأَقب: الضامر الخصر، الذي هزله السفر. خوصاء: غائرة العينين. الحلس: كساء تجلّل به الدابة يوضع تحت البرذعة. القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير. العلالة: بقية السير.
(٣) السرحان: الذئب. تقريه: تطعمه. الفضلة: بقية الشيء.
(٤) بيض الظبا: أطراف السيوف. التوكاف: من وكف بمعنى سال، وقطر قليلاً قليلاً. الزغف: الدروع. اليلب: ج يَلَبة: الترس.
(٥) اللقى: الشيء الملقى في الطريق، ونحوه. الأطراب: ج طرب والمراد به الحزن.
(٦) الأكوار: الرحال. ج كور. الشّعب: ج شعبة وهي المزادة.

قل لي إن اسْطَعْتَ الخطابَ فـإنني ... صبٌّ الفؤادِ إلـى خطابِـكَ مُكْمَـدُ
أَتركْـتَ بَعْـدَكَ شـاعراً واللهِ لا ... لم يبقَ بعدكَ في الزمـانِ مُقَـصِّدُ
أمَّـا العلـومُ فإنّهـا يـا ربَّهـا ... تبكـي عليـكَ بـأدمُعٍ لا تَجْمُـدُ
يـا أَيُّهـا الملِـكُ المؤيَّـدُ دعـوةً ... مِمَّـن حَـشاهُ بالأَسـى تتوقَّـدُ
هذي بنو أَسَـدٍ بـضيفك أَوْقعـت ... وحوَتْ عطـاءَكَ إذْ حَـواهُ الفرقـدُ
وله عليـك بقـصدهِ يـا ذا العُـلا ... حـقُّ التحـرُمِ والـذِّمامُ الأَوكـدُ
فارْعَ الذمامَ وكُـنْ لـضيفِكَ طالبـاً ... إنَّ الـذِّمامَ علـى الكـريم مُؤَيَّـدُ

ورثاه الشاعر أبو الحسن محمد بن عبيد الله النَّصيبي، مستثيراً عضد الدولة على الثأر من قتَلَته فقال:

قَرَّتْ عيونُ الأَعادي يومَ مـصرعِهِ ... وطالما سَخِنَتْ فيـه مـن الحَـسَدِ
أبا شجاعٍ فتـى الهيجـا وفارسُـها ... ومُشْتري الشُّكرِ بالإِنفاقِ والصَّفَدِ(١)
هذي بنـو أَسـدٍ جـاءت بمؤيِـدَةٍ ... صَمَّاءَ نائحـةٍ هَـدَّت ذُرا أُحُـدِ(٢)
سطت على المتنبي مـن فوارسـها ... سبعونَ جاءتْهُ في موجٍ من الـزَّرَدِ
حتى أَتت وهو في أَمْنٍ وفي دَعَـةٍ ... يسيرُ في سِتَّةٍ إنْ تُحْصَ لـم تَـزِدِ
كَرَّت عليه سِـراعاً غيـرَ وانيـةٍ ... فغَادرتْهُ قـرينَ التُّـربِ والثَّـأَدِ(٣)
من بعدما أَعْمَلَـتْ فـيهم أَسِـنَّتَها ... طَعْناً يُفرِّقُ بين الـروحِ والجـسَدِ
فاطلب بثأر فتـىً مازلـتَ تعـضُدُه ... للهِ دَرُّكَ من كهـفٍ ومـن عَـضُدِ
أَذْكِ العيونَ علـيهم أَيَّـةً سـلكوا ... وضيِّقِ الأَرضَ والأَقطارَ بالرَّصَدِ(٤)
شَـرِّدْهُمُ بجيـوشٍ لا قِـوامَ لهـا ... تأتي على سَبَدِ الأَقـوامِ واللَّبَـدِ(٥)

---

(١) الصفد: التقييد بالعطاء.

(٢) المؤيدة: الداهية الشديدة، والأمر العظيم. صَمَّاء: شديدة.

(٣) الثأد: الثرى، والقُرّ.

(٤) أذكِ العيون: أرسل الجواسيس، وطليعة الجيش. والرصد: ج راصد وهو الرقيب.

(٥) السبد: وبر الإبل. واللبد: الصوف. والمراد: تأتي على كل شيء.

المصادر والمراجع

١- أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي د. ر. بلاشير. ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٧٥

٢ - أساس البلاغة الزمخشري - دار الفكر للطباعة - بيروت - لبنان - ٢٠٠٦

٣ - ديوان المتنبي شرح البرقوقي من ١ - ٤ دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - لا تاريخ

٤- ذكرى أبي الطيب د. عبد الوهاب عزام دار المعارف بمصر - ط٢ - ١٩٥٦

٥- سيف الدولة وعصر الحمدانيين سامي الكيالي - دار المعارف بمصر - ١٩٥٩

٦- الصبح المنبي عن حيثيَّة المتنبي يوسف البديعي - تحقيق مصطفى السقَّا وآخرون ط٣ دار المعارف بمصر ١٩٩٤

٧- صورة الأرض. ابن حوقل - مكتبة الحياة - بيروت لبنان - ١٩٧٩

٨ - القاموس المحيط ١ - ٤ الفيروزآباوي - دار مكتبة التربية - بيروت - لبنان لا تاريخ

٩ - الكامل في التاريخ ابن الآثير ج ٨ ط دار صادر - بيروت - لبنان ١٩٧٩

١٠- كتاب الأعلاق النفيسة، ويليه كتاب البلدان لليعقوبي ابن رسته - دار صادر - بيروت - لبنان - نسخة مصورة عن طبعة بريل ١٩٨٢ بتحقيق المستشرق دي غويه

١١- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار محمد بن عبد المنعم الحميري - مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت - لبنان ط٢ ١٩٨٠

١٢- مختصر كتاب البلدان ابن الفقيه - دار صادر بيروت لبنان - نسخة مصورة عن طبعة بريل ١٨٨٥. بتحقيق المستشرق دي غويه

١٣- مسالك الممالك الإصطخري - دار صادر - بيروت - لبنان نسخة مصورة عن طبعة بريل بتحقيق المستشرق دي غويه

١٤- المسالك والممالك ويليه كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ابن خرداذبة - دار صادر بيروت لبنان ـــ نسخة مصورة عن طبعة بريل ١٨٨٩. بتحقيق المستشرق دي غويه

١٥- مع المتنبي طه حسين - ط ١٠ - دار المعارف بمصر/لا تاريخ

١٦- معجم البلدان ١- ٥ ياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان ١٩٧٩

١٧- المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى وآخرون المكتبة الإسلامية - استانبول - تركيا

١٨- يتيمة الدهر ج١ الثعالبي - الحسين التجارية - القاهرة - لا تاريخ

محتوى الكتاب

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



يصعب الفصلُ بين رحلة المتنبي وسيرته الذاتية، فرحلتُه سيرة وسيرتُه رحلة. فهو جوّابُ آفاق، أمضى عمره متنقّلاً من بلد إلى آخر، فاتّخذ من ظهور المطايا مُقاماً، ومن رحالها، أرضاً.

ومن نافل القول أن نُشيرَ إلى أن أبا الطيب آثر أن يدوّنَ رحلةَ عمره شعراً ضمّنه ما كانَ يعتمل في نفسه من هموم ومشاغل، وما عاينه من مشاهدَ وأحداث، ولكنه لم يَسْتَوف ما يمكن أن تَلْحظَهُ عينُ الرّحالَة من أحوال البلدان وخصائصها، وما يتّصفُ به ناسُها من أخلاق ومآثر، وعادات إلى غير ذلك من الانطباعات التي تستأثر عادةً باهتمام الرحالين، وتثير فضولهم، لذلك خطر لمؤلف هذا الكتاب أن يترسّمَ المسالكَ والطرقَ التي حسب أن المتنبيّ سلكها في تطوافه، وأن يستعيد صور الأمكنة التي ألمّ بها، أو أقام فيها، معتمداً في تحديدها ووصفها على ما ورد في كتب المسالك والممالك وفي كتب البلدان العائدة إلى زمن الشاعر، ثم شفع ذلك بنماذج من قصائده المتصلة بتلك الأماكن، وبالأشخاص الموجهة إليهم في محاولة للجمع بين التاريخ والجغرافية والشعر، واستحضار الدواعي التي ألهمت أبا الطيب آياته الخالدة.



www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ٢٨٠ ل.س أو ما يعادلها